

إعداد

نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف

أ. د. مصطفى مسلم

جامعة الشارقة

المجلد السابع

فصلت - الواقعة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م



كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة



الإصدار رقم 

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +)، فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae

الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae

اللجنة التنفيذية للمشروع

أ.د مصطفى مسلم	رئيسًا
أ.د. عيادة الكبيسي	عضوًا
أ.د. أحمد البدوي	عضوًا
أ.د. عبد الله الخطيب	عضوًا
د. محمد عصام القضاة	عضوًا
د. قاسم أسعد	عضوًا
د. عواد الخلف	عضوًا


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies
تفسير

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ. د. مصطفى مسلم محمد

أ. د. عيادة أيوب الكبيسي

أ. د. أحمد محمد الشرقاوي

أ. د. ناصر سليمان العمر

أ. د. أحمد عباس البدوي

أ. د. محمد أحمد عيد الكردي

أ. د. مساعد مسلم آل جعفر

أ. د. شحادة احميدي العمري

أ. د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب

د. أبو بكر علي الصديق

د. أحمد شحروري

د. أحمد محمد نور إبراهيم

د. أحمد محمد مفلح القضاة

د. جمال أبو حسان

د. طه ياسين ناصر الخطيب

د. عبد الحق عبد الدائم القاضي

د. عبد الرحيم الزقة

د. عبد الله محمد سلقيني

د. عدنان عبد الرزاق الحموي

د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان

د. عطية محمد عطية

د. عفاف عبد الغفور حميد

د. محمد السيد محمد يوسف

د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي

د. محمد عبد الرحمن الشايع

د. محمد عصام القضاة

د. محمد عيادة الكبيسي

د. نايل ممدوح أبو زيد

د. نشأت محمود الكوجك

د. هارون نوح علي سليمان

د. يوسف الشامسي




بسم الله الرحمن الرحيم

سورة فصلت

بيـن يـدي السـورة

اسمها.. عدد آياتها.. محورها

أسماء السورةووقت نزولها:

سورة فصلت مكية بلا خلاف وتسمى سجدة المؤمن أو حم السجدة لأنه ليس في الحواميم سجدة سواها، وتسمى سجدة المؤمن لأنها السورة التي فيها السجدة بعد سورة المؤمن وكذلك تسمى سورة المصابيح لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ ..﴾ وتسمى كذلك سورة الأقوات لقوله تعالى فيها: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا ..﴾ جميع هذه الأسماء ذكرها الطاهر بن عاشور[1]. وقد نسبت هذه التسميات إلى كتب الحديث. والاسم الذي اشتهرت به هو (سورة فصلت).

فضل السورة:

رويت فيها أحاديث أهمها ما روى أهل السنن عن جابر بن عبد الله قال: (اجتمع قريش يوماً فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة، فقالوا إئته يا أبا الوليد فأتاه فقال: يا محمد أنت خير أم عبد الله، أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع كلامك. أما والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا وفضحتنا في العرب.

حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً وأن في قريش كاهناً، والله ما ننظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا على بعض بالسيوف، يا رجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى

---

(١) التحرير والتنوير مجلد ١١، ٢٤/ ٢٢٧.

تكون أغنى قريش رجلاً، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً فقال رسول الله ﷺ: فرغت. قال نعم، فقال رسول الله ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته).. حتى بلغ (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود).. فقال عتبة حسبك حسبك ما عندك غير هذا؟

وعند هذا الحد روايات أوضحها أنه وضع يده على فم رسول الله ﷺ وناشده الرحم ألا يكمل ورجع إلى قريش فقال: يا قوم أطيعوني في هذا اليوم واعصوني بعده فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أذني كلاماً مثله قط، وما دريت ما أرد عليه، وما هو بالسحر ولا بالكهانة ولا بالشعر، قال: ناشدته الرحم ألا يكمل لأنكم تعلمون محمداً ما وعد بشيء إلا نفذه.

وفي روايات أخرى: إن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا.. الخ.

وقال عتبة إضافة إلى ما سبق يا قريش: خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به. قالوا سحرك محمد قال هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[1]. وهذا الخبر يوحي بأن الرسول ﷺ اختار هذه السورة للمحاجة مع عتبة الذي هو أبلغ قريش وأفصحها فاختياره ﷺ هذه السورة لمكانتها وقوة حجتها.

وفي الجانب الآخر يشير هذا الخبر إلى العروض التي عرضتها قريش على الرسول ﷺ، ليست إقناعاً له وحسب وإنما ترى قريش أنه أهلاً لكل ما عرضته عليه وخاصة الملك والسيادة فإن حياته السابقة التي قضاها بينهم تدل على تبوئه هذه المكانة وأهليته لما عرضت عليه قريش

(١) فتح الجواد الكريم في اختصار وتحقيق تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج٤/ ٩٩-١٠٠. وفتح القدير، الشوكاني ج٤ – ص ٦٥٨.



كما أنه من أوسطهم نسباً، فهو سيد من ساداتهم.

وفي هذه الحادثة دليل على إعجاز القرآن الكريم وتحديه لبلاغتهم وبلغائهم، إذ إن عتبة بن ربيعة هو أفصح قريش وأبلغها أو من أبلغها.

وكما بينا فإنه قال عن القرآن الكريم أنه لم يسمع مثله قط وأنه لم يستطع أن يرد عليه بكلمة واحدة.

فظهر في هذه القصة إعجاز القرآن وتحديه لهم واعترافهم أن الرسول ﷺ أصدق رجل فيهم إذ أن عتبةقال: وضعت يدي على فمه وسألته الرحم ألا يكمل لأنكم تعلمون محمداً إذا تحدث حديثاً لا يكذب وإذا وعد ينفذ وعده فخفت عليكم من العذاب.

وهناك روايات تقول إنه قال: إني سمعت كلاماً ما هو بالسحر ولا هو بالشعر ولا بالكهانة وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله معذق وأعلاه مثمر وإنه يعلو ولا يعلى عليه وإنه يحطم ماكان تحته.

وموضوع السورة ومحورها هو:

«القرآن الكريم».

أثره في حياة البشرية في تصورها ومدركاتها وفي خط سيرها وفيها تفصيل القرآن الكريم المحكم وفق الأغراض والأهداف ووفق الطباع والعقول ووفق البيئات والعصور ووفق الحالات النفسية وحاجاتها المتنوعة ووفق هذه الاعتبارات سمة واضحة في القرآن الكريم الذي هو موضوع ومحور هذه السورة وموقف المعاندين منه، والسورة تشير إلى أن القرآن الكريم هو دستور الحياة الإنسانية الكريمة وهو معجزة الرسول ﷺ.

وقد جاءت هذه السورة بعد سورة المؤمن التي تدور حول الحجج التي أوردها القرآن الكريم على أحقية الرسالة وجدوى إرسال محمد ﷺ ووجوب تطبيق الإسلام وفي هذه السورة وصف للمنهج الذي يريده الله للإنسانية بعدما أفحمهم في وجوب اتباع الرسول ﷺ.

عدد آيات السورة

آيات هذه السورة في مصاحف الشام وعند قرائهم (٥٢) اثنتان وخمسون آية وفي مصحف الحجاز وعند قرائها (٥٣) ثلاث وخمسون آية وفي مصحف الكوفة وعند قرائها (٥٤) أربع وخمسون آية. وقد بينا سبب اختلاف القراء في العدد حيث يجعل بعضهم البسملة آية والحروف لوحدها آية ويدمجون بعض الآيات وغيرهم غير ذلك.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها

والتناسب مع اسم السورة ومحورها واضح جلي فمحورها القرآن الكريم الذي فُصلت آياته وأحكامه وحكمه ومواضيعه.

علاقة السورة بسورة المؤمن التي سبقتها

في سورة (غافر)أو (المؤمن) بين الله عز وجل الصراع العقلي والعلمي بين المؤمنين والمشركين وانتهى الجدل كما مرينا إلى بيان موقع المشركين في النار وكيف يؤمنون حيث لاينفع الإيمان جاءت سورة فصلت تبين طبيعة المنهج الذي يسير عليه فريق المؤمنين وكيف أن الله أنزل لهم قرآناً يهديهم إلى الطريق الموصل إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة.

ففي سورة فصلت التي بين أيدينا يبين الله سبحانه وتعالى صفات القرآن الكريم وموقف المؤمنين منه وموقف المشركين منه وانهزامهم أمام حقائقه كما سنرى إن شاء الله.

مقدمة في القرآن الكريم وموقف المشركين الإنهزامي
وصفة الرسول ﷺ وواجبه

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾﴾

مقدمة السورة

لم يكن الرسول ﷺ إلا مبلغاً عن ربه والذي أنزل له مافيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وعلى ذلك فان المشركين كفروا بكل الدلائل الواضحة في السنن الكونية وفي نشاط أجزاء الكون كل حسب وظيفته التي خلقه الله لها. فما على المؤمن إلا الانسجام مع حركة الكون.

التفسير الاجمالي

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾.. تكرر الحديث عن الحروف في أوائل السور وقد خص الله جل جلاله هذه السورة بوصف القرآن الكريم أنه تنزيل من الرحمن الرحيم فهي إشارة أولاً على أنه من الله عز وجل وليس من أحد ولم يكن مستنسخاً من صحف أخرى ولم يمله أحد على الرسول ﷺ.

وثانياً أنه من الرحمن الرحيم فإن الله أنزله رحمة للعالمين فيريد إسعادهم ويريد إنقاذهم من التخبط والضياع والتردد، يرحمهم من التيه الذي هم فيه قبل نزول القرآن الكريم، وقد بين أثره في الإنسانية جميعاً، فعمر الإنسانية ينقسم إلى قسمين واضحي المعالم، بيني الفروق قسم قبل نزول القرآن الكريم وقسم بعد نزوله، حتى الأديان التي سبقته صاغت عقائدها بعد نزول القرآن الكريم خلافاً لما كانت عليه قبل نزول القرآن الكريم.

قال بعض المفسرين: (حم) اسم السورة وهو مبتدأ وتنزيل خبره وقال آخرون إن تنزيل خبر لمبتدأ محذوف وكتاب بدل منه أو صفة التنزيل. وكونه كتاب إشارة للرسول ﷺ بوجوب كتابته حيث أن الله أوحى ألفاظه وأمر الرسول ﷺ بكتابته ولذا فقد اتخذ الرسول ﷺ كتاباً للوحي لأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب.

﴿ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾.. أي فسرت وبينت ووضحت أهدافها ومعانيها وموضوعاتها فهو بيان لحلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته أو بين وعده ووعيده وثوابه وعقابه.

وقرأت فصلت بالتخفيف أي فرقت الحق عن الباطل وميزت الصالحين عن الأشرار وأوضحت طرق الخير والفلاح والنجاة عن طرق الشر والهلاك.

وقال بعضهم أن معنى ﴿ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ فرقت في النزول فلم ينزل مرة واحدة، وإنما نزل وسينزل نجوماً مفرقاً في الوقت والمكان والأحوال، ولا مانع من إرادة جميع المعاني. ولما كانت السورة مكية بإجماع أهل السنن(١)، فهي إشارة إلى أن الباقي سينزل هكذا.

وهنا أحب الإشارة إلى أن الحكمة من نزوله منجماً إضافة إلى ما ذكره علماء القرآن الكريم ليكون صالحاً للتطبيق منذ نزوله إلى قيام الساعة لأن نزوله خلال ثلاث وعشرين سنة استغرق جميع الأحوال التي يمكن أن يمر بها الإنسان والظروف التي تواجهه فيكون حالّاً لمشاكل الإنسان وفق جميع المتغيرات التي تكتنف حياته في جميع عصوره لأن المجتمع الذي نزل به القرآن الكريم تغير جميع هذه التغيرات التي يمكن أن يمر بها المجتمع الإنساني في جميع العصور عقائدياً واجتماعياً واقتصادياً وسياسياًو فكرياً.

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾.. حال من فصلت أي فصلت آياته حال كونه قرآناً عربياً وكونه عربياً أي واضح الدلالة على ما يريد وهو بلغة القوم الذين نزل فيهم ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، ليحملوه إلى الناس جميعاً فكانوا واسطة التبليغ

(١) فتح القدير ج ٤- ص٦٥٨.

عن الله سبحانه وتعالى فهم الذين نشروه وأوضحوا مراده للناس. وهذا تشريف للعرب إذ أنهم الذين يحملون رسالة الله إلى العالم ولذا علم الناس أن جريمة العربي في شركه أكبر من جريمة غيره لأنهم الذين يعرفون حقيقة القرآن الكريم وما يحمله من معان وما يتحمله من أهداف لينقذ الإنسانية مما هي فيه.

﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.. تأكيد على أن الذين نزل فيهم القرآن الكريم يعلمونه ويعرفونه حق المعرفة.

وقد فهمه العرب الذين آمنوا به كما فهمه العرب الذين كفروا ولذا فإن الذين آمنوا به دافعوا عن إيمانهم حتى الشهادة وفرحوا بالتضحية بنفوسهم من أجل نشره، كما دافع المشركون عن شركهم حتى الموت لأنهم علموا أن هذا القرآن سيقلب مجتمعهم وقيمهم واعتباراتهم رأسا على عقب فإن القيم الجديدة التي نادى بها القرآن الكريم قضت على المقاييس التي كانت سائدة قبل نزوله. فإن التفاخر والشرف أصبح بمن يقدم الخير للإنسانية وليس الشرف لفلان لأنه ابن فلان أو ينتمي إلى القبيلة الفلانية. أو يحوز المال أو يملك القوة البدنية أو قوة الأنصار.

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾.. صفتان للقرآن الكريم، فهو يخبر المؤمنين بما يسرهم ويعلمهم بما أعد الله لهم من خير ونعيم لإيمانهم وعملهم بما يقتضيه الإيمان، ويحذر الكافرين بسوء العاقبة ويخبرهم أن مصير من كفر به وجحده إلى النار وبئس القرار، ورغم هذه الحجج وهذه الأدلة وهذا الإنذار ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾.. فصدوا عنه وتولوا، ورغم ما وهبهم الله من أدوات المعرفة، بالسمع والبصر والقلب ولكنهم لم يستعملوها بما خلقها الله له، فعطلوها عما ينفعهم فعبر القرآن الكريم بنفي هذه الأدوات أو نفي واجباتها ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.. لأن أدوات سمعهم لم تهدهم إلى ما يسعدهم فكأنها لم تكن موجودة أصلاً ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾.. فقد أكدوا على انهزاميتهم ومغالطتهم فقالوا إن قلوبهم عليها أغطية وهي مغلفة بغلاف لا تخترقها حججك ولا بيناتك ولا نريد أن نفتح عقولنا لما تدعونا إليه، وآذاننا لا تسمع منك شيئاً لأنها ثقيلة لأن الوقر ثقل يؤدي إلى

الصمم وبيننا وبينك حاجزاً سميكاً لا تخترقه أنت ولا نحن وقوله (من بيننا) دليل على أن المانع من قبلنا ومن قبلك أي إن الحاجز يستغرق المسافة التي بيننا فإن هناك شيء عندك يدفعنا على الامتناع وهناك شيء في نفوسنا يمنعنا من الإيمان بك. وهذا موقف انهزامي مغالط لأن الذي يعتقد أنه على حق يود لو يبين حقه لكل الناس ويستمع إلى ردودهم لأنه يعتقد أن حقه أقوى من حججهم فقولهم هذا يشير إلى أنهم يخافون من الاقتناع بصحة ما جاء به.

وقد روي أن سعد بن معاذ حينما سمع بوجود مصعب بن عمير ﵁ في المدينة ذهب إليه وتوعده فقال له مصعب ﵁ أو تستمع فإن رأيت صواباً فأنت وذاك، وإن رأيت خطأً فنفذ ما تتوعد به فجلس إليه فأخذ يقرأ هذه السورة فقال سعد: والله إنه لحق وأسلم ﵁.

فكان أهل مكة يحاربون الرسول ﷺ ويمنعون كل أحد أن يستمع إليه لأنهم يعلمون أن ما جاء به الرسول ﷺ لا يرده عاقل ولا يعانده إلا مكابر مغالط.

﴿ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾.. أي فاعمل على دينك ونعمل لديننا وأعمل لإلهك ونحن نعمل لآلهتنا، وقال بعض المفسرين: فاعمل على هلاكنا ونحن نعمل على إهلاكك.

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾.. فهو إذن رسول مأمور بتبليغ ما أرسل به إلى من أرسل إليهم، فقال لهم أنه ليس ملكاً ولا هو خارج عن طبيعة البشر، هو واحد منكم أمره الله أن يتواضع لهم فهو مثلكم لا يختلف عنكم بخلق ولا بأصل ولكن الله عز وجل اصطفاه من بينكم لحمل هذه الرسالة وهي أن الله إله واحد ليس له مساعد وليس بينكم وبينه واسطة وهذه الأحجار ليس لها فعل في الكون ولا في نفسها فلا تملك من أمرها شيء، فالفاعل في الكون الوحيد هو الله سبحانه فهو الذي خلقه ويديره ويرعاه ﴿ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴾.. وقد وضع لكم منهجاً كاملاً للتصور الصحيح والعقيدة السليمة وبين لكم النظام الذي خلق الكون بموجبه وكيف تسير أجزاؤه على هذه السنن وأنتم جزء من الكون فلا تخالفوا سنن الله وأخلصوا العمل لله وسيروا وفق ما يريد واستغفروه واطلبوا عفوه من تقصيركم فإنه يقبل التوبة عن عباده.

﴿ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ والويل نوع من العذاب روي أنه واد في جهنم وقيل غير ذلك والمهم أنه العذاب للذين لا يعتقدون بوحدانية الله سبحانه ورعايته للكون ومن صفاتهم أنهم ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾ فلا يزكون أي يطهرون أنفسهم من الشرك وعقولهم من الضلال وقالوا أن المراد به الزكاة الحقيقية مع أن الآية مكية والزكاة فرضت في المدينة المنورة.

حيث أن الزكاة تطلق على مطلق الإنفاق في طرق الخير لأنها تطهر النفس من الشح. وكان أهل مكة ينفقون على حجاج بيت الله في الجاهلية فامتنعوا عن تقديم المساعدات والخدمات لاتباع الرسول ﷺ أي المسلمين.

فإن أريد تطهير النفس من أدران الشرك أو الانفاق في سبل الخير فالمشركون بعيدون عن فعل الخير أياً كان مورده، وقد فرضت الزكاة باعتبارها ركناً من أركان الإسلام ويقول العلماء أنها قنطرة الإسلام فمن اجتازها نجا ومن منعها هلك.

هؤلاء المشركون هم الذين يمنعون الزكاة ولا يسلكون أي طرق للخير والنجاة لأنهم لا يعتقدون باليوم الآخر ويرون أن الحياة تنتهي بالموت ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا ﴾.

وغالباً ما يعقب القرآن الكريم على صفات المشركين ومصيرهم ويذكر الفريق المقابل وهم المؤمنون الذين آمنوا بالله إلهاً واحداً وبمحمد رسولاً ﷺ وأن كل ما جاء به هو الحق وعملوا بمقتضاه فإن الأعمال الصالحة هي ما أمر الله به فعملوا الصالحات هؤلاء لهم أجرهم دائم غير منقطع ولا يمن أحد به عليهم ولا يشكرون به إلا الله الواحد الأحد، خالق كل شيء ومليكه. وهذا الخير غير منقوص ولا مقطوع. وهو غير محسوب، محصور، ومن حيث هو من جهة الله تعالى فهو تشريف لا مَنّ فيه ولا أذى، لأن أعطيات البشر هي التي يمن فيها. وقيل أن هذه الآية نزلت في المرضى والزمنى الذين أقعدهم المرض عن إتمام أعمالهم الخيرية فإن الله لا ينقص أجرهم بناءً على ذلك.

وكثيراً ما نقول أن الآية إذا أمكن إجراءها على جميع المعاني التي تحتملها فالأولى حملها على الجميع. وهذه بعض صفات القرآن الكريم التي تدور حولها السور.

علاقة المقطع بالمحور

ذكرت هذه الآيات بعض صفات القرآن الكريم ثم ذكرت موقف المشركين من هذا القرآن وكيف أنهم هربوا من مجرد سماعه وهذا موقف انهزامي يدل على قوة القرآن الكريم وعدم استطاعتهم الرد عليه أو تكذيبه فما عليهم إلا أن يعرضوا عنه وينهزموا امامه.

الهداية في الآيات:

* أن القرآن الكريم أنزله الله رحمة للعالمين لأنه في هذه السورة التي موضوعها القرآن الكريم وهو محورها الرئيس يقول الله تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾.. فقد قرن تنزيله بإسميه الرحمن الرحيم والتي تستغرق جميع أبعاد الرحمة وجميع المرحومين.

* وليعلم المؤمن الداعية أن المشركين يعارضوه لأنه مسلم لا غير، فلا يمنعهم من اتباعه الأصل ولا العرق ولا القومية وإنما هو الإيمان.

* وأن الله شرف العرب بأن جعل الكتاب الذي حوى جميع كتب الله في اللغة العربية وجعل حملته للناس هم العرب. وأنه لا يقبل من العربي أي دين غير الإسلام لأنه العارف الأول لما فيه من الدلائل والتشريعات.

* وأن الدعوة لا تسير سيراً حقيقياً ثابتاً إلا بإنفاق أهلها عليها أكثر مما ينفقون على حاجاتهم الشخصية حتى الضرورية منها لأن الله قرن الكفر بترك الزكاة وعدم الإنفاق. وأن المؤمنين على خير كثير ما داموا مطمئنين بالله موقفين أنفسهم للدعوة إلى شريعته ورفع رايته وإعلاء كلمته. ولا يبذلون أموالهم وأوقاتهم ونشاطهم على أثمن من الدعوة.

الاحتجاج بالسنن الكونية على صدق الدعوة وانسجامها مع حركة الكون

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة ذكر صفات القرآن الكريم وبين أنه يتكلم بلغتهم وأنهم يفهمونه حق الفهم ولكنهم اعرضوا عنه.

وفي هذه الآيات يبين الله عز وجل أن فيما جاء في القرآن الكريم كيف بدأ الله خلق الكون وكيف عين وظيفة كل جزء من أجزائه، وأن جميع مافي الكون يخضع للسنن التي وضعها الله له.

التفسير الاجمالي

بعد أن بين لهم أن منهجه واضح وأنه قرآن يتلى يفهمونه وهو خالد يتلى على مسامعهم في كل حين فإن كان عندكم اعتراض عليه أو على نص من نصوصه أو قضية من قضاياه أو موضوع من مواضيعه فاذكروه. أما أن تجعلوا بينكم وبينه حجاب حتى لا تسمعوه فإنها انهزامية وعدم ثقة بما تعتقدون ولما كان شأنكم كذلك فإن المناسب هنا التقريع والتوبيخ، وإن كان لا يخلوا من حجة وبرهان ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) ﴾.

فأي جرم وأي ظلم أنكم تكفرون وتجحدون من لا تخفى على عاقل عظمته هو الذي خلق هذا الكون الذي لا تستطيعون مخالفة أي سنة من سننه التي بني عليها هذا الكون ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ

بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. لأنه ليس له ما يدفع به هذا الاحتجاج.

إذن هل هناك أجهل ممن ينكر هذه الحقائق الثابتة الشاخصة، هو الذي خلق الأرض ووضع لها قانوناً تسير عليه ووظيفة تؤديها، خلقها في يومين، ما مقدار هذين اليومين؟ الله أعلم لكنها ليست أيامنا لأن أيامنا وجدت بعد الأرض والشمس والسماء واليوم في حسابنا هو دوران الأرض حول نفسها، ربما يكون مساوياً له وربما يكون أقل أو أكثر والذي نعتقده أن الله سبحانه جلت قدرته قادر أن يخلقها في لحظة في قوله كن ولكن الله كما يقول المفسرون أراد أن يعلم الناس الأناة أو قائل يقول أن الله جعل لكل جنس من المخلوقات وقتاً مستقلاً فمادة الأرض في يومين وما تنتجه لحياة الإنسان في يومين.

فهل يرى عاقل أن فاعل ذلك كله له أنداداً أي أشباهاً أو نظراء؟ والذي يترجح أن الأنداد النظراء في الاختصاص والصلاحيات وهو (رب العالمين) فلم يخلق هذه الأشياء ويتركها وإنما يرعاها، فالرب سبحانه السيد المالك الخالق القيوم بما خلق، ومع أنه عز وجل جعل لها نواميس تسير عليها ولكنه يرعاها ويقوم بشأنها ولم يكن كل شيء وفق النواميس التي نعرفها فكثيراً ما يخرق الله النواميس الكونية لعلة يراها.

وفي الحديث الصحيح (إن من أكبر الكبائر أن تجعل لله نداً وهو خلقك)[1] ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا ﴾.. فقد خلق الأرض وجعل فيها مثبتات فإن الجبال تظهر فوق الأرض ومثلها تحت سطح الأرض لتقابل البحار والمنخفضات فلا تميد بساكنيها، فالله عز وجل جعل الجبال أوتاداً ثابتة في الأرض ومثبتة لها ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾.. فجعل في الأرض ما يكفي الإنسان ويعيش عيشة هنيئة ومن عظمة الله في خلق الأرض أن ما عليها من أسباب العيش من الثمار والنباتات، والتي هي سبب حياة الإنسان ومواد غذائه تنمو وتتجدد في كل حين فإن البركة معناها النماء، ولذا فإن النظريات الملحدة التي تقول أن

(١) البخاري (٤/ ١٦٢٦) رقم (٤٢٠٧)، ومسلم (١/ ٩٠) رقم (٨٦)، من حديث ابن مسعود ﷺ.



الأرض بتنامي سكانها وازديادهم ربما يأتي وقت لا تكفي ساكنيها في قوتهم وهذه الآية تدل على كذب وخطأ هذه النظرية والواقع يكذبها كذلك فإن الزراعيين يعلمون أن الأرض تزرع في كل موسم وبعد الحصاد تجدد نشاطها واستعدادها للإنبات ثانية.

فالله سبحانه قد بارك فيها وقرر ما يلزم لعيش من فيها وجعل ما يقتاتون عليه كافياً لهم وقد ذكرنا أن المدة هي أربعة أيام كاملة فخلقها وخلق ما فيها وما عسى أن يكون فيها في أربعة أيام كاملة مستوية. فالوقت قال الله عز وجل أنه أربعة أيام، هل هي من أيام الله الذي يقول عنها ويوم عند ربك كألف سنة مما تعدون أم أراد أنها تساوي أيام الدنيا بعد خلق الأرض فهذا مالا نستطيع الجزم فيه، فالله تعالى أعلم.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ ثم قصد إلى السماء وهي دخان فخلقها سبعاً شداداً وسقفاً مرفوعاً ثم جعل لها وللأرض قانوناً وسنة وناموساً فقال لها وللأرض أتيا طوعاً أو كرهاً هي من قبيل ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ [الأحزاب: ٧١].. فإن الله عرض عليهم التكليف هل يسيرون وفق إرادتهم فيحاسبون عن تقصيرهم أم يسيرون وفق القانون الذي وضعه الله لهم، وليس لهم خيار في مخالفته فرضيت جميع مخلوقات الله أن تسير وفق النواميس ولا تريد الحرية في الاختيار سوى الإنسان اختار التكليف وأن تكون له مساحة من الحرية في بعض التصرفات فلم يؤد حقها. فالأرض والسماء وما فيهن قالتا أتينا طائعين منقادين للقوانين الكونية التي وضعها الله لنا.

فأمر أمراً قاطعاً وحكم بأن تكون سبع سماوات بناءً شديداً متماسكاً وجعل لكل سماء وظيفتها ونوع الخلق الذي فيها ووظيفتهم فتم حكم الله فيها ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾.. وجعل وظيفة وصفة السماء التي تلي الأرض فيها الكواكب التي واجبها أن تزين وتجمل جو الأرض ومحيطهُ، وتحفظ الملأ الأعلى من تصرفات الشياطين الذين يحاولون استراق السمع وإخبار أنصارهم من شياطين الإنس بما يدور في الملأ الأعلى من أخبار فيزيدون عليها ويشوشون على أوليائهم، فجعل هذه النجوم رجوماً للشياطين التي تحاول

استراق السمع لتؤذي أولياء الله. فالقضاء والأحكام وفيه إشارة إلى بديع صنع الله سبحانه وتعالى وخلقه لهن وصنعهن صنعاً محكماً.

﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ فهو صنع الله المحكم الذي لا يطال ولا يقدر قدره لأنه عليم بكل ما يراد لهذا الكون وما يجري فيه.

وهكذا يكون القرآن الكريم قد شرح طبيعة الكون وصفته ووظيفة كل جزء فيه وما يجب أن يكون موقف الإنسان منه، كذلك بين تدرج أجزاء الكون في التكوين والأنواع التي هي أقرب إلى بعضها في الوظيفة والهدف وما تقدمه مما يريد الله منها ببقية الأجزاء ومنها الإنسان.

والناموس الذي يسير الله به أجزاء الكون وكيف يرعاه ويحفظه من التصادم والاضطراب، إذ أوحى في كل سماء أمرها.

وفي أصل تكوين الأرض والسماء فقال تعالى: (وهي دخان) يقول العلماء إن الكون كان مملوءاً غازاً فتكاثف هذا الغاز (السديم) فكون الكواكب والنجوم، وقد تكلم القرآن الكريم عما وصل إليه العلم بعد أربعة عشر قرناً وأننا نشهد القرآن على صدق العلم ولا نشهد العلم على صدق القرآن لأن القرآن لا شك في صدقه.

علاقة الآيات بمحور السورة

والذي يقتضي أن نقوله هو: أن وقت نزول القرآن كانت الناس تعبد الشمس والقمر والنجوم لأنهم يجهلون حقيقتها فيخشونها، فقال لهم الرسول ﷺ بوحي من الله تعالى، أنها كانت دخان فبناها بناءً شديداً وكانت متحدة فأبرزها كل في مداره وبناموسه فتبارك الله أحسن الخالقين. وهوما يشير اليه القرآن الكريم في مواطن كثيرة.

الهداية في الآيات:

* إن الله خلق الكون في مراحل أو في أزمان متفاوتة مرتبة ويرى العلماء أنها لتعليم الأناة للمسلمين. ويرى آخرون أن الله خص كل نوع من الخلق بزمن وهذا ما أراه.



* إن الأرض هي ضمن المجموعة التي تعلوها السماء فإن الله خلق السماء المحيطة بكل شيء ثم خلق الأرض ثم ميز طبقات السماء أو عددها وجعل لكل سماء اختصاص في الساكنين والفاعلين، فكون الأرض في شكلها الحالي قبل تقدير طبقات السماء أو قبل جعلها سبع سماوات فبعد أن جعلها سبع سماوات خلق أجزاء الأرض ووظيفة كل جزء.

* ومن الهداية بيان ضحالة من يجعل لله نداً أو شبهاً أو مساوياً له في الفاعلية والاختصاص مع أن كل ما جعله المشركون نداً أو فاعلاً معه هو وفعله، مخلوقات الله.

إعراض المشركين عن سماع الدعوة في القرآن الكريم ومسيرة الدعوة متمثلة بالأمم السابقة

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ
﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى
خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ
لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ
فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

علاقة المقطع بما سبقه

ذكر في الآيات السابقة كيف خلق الله الكون وعين وظائفه وهذا يوجب الإيمان المطلق بوحدانية الله وقدرته وتفرده بالكون فهو الفاعل الحقيقي فيه، بعدها ذكر الأمم السابقة وماحل بها في الحياة الدنيا يبين عز وجل أن هذا العذاب والمصير في الدنيا لم يكن نهاية ما يستحقون على كفرهم وإنما ينتظرهم الحشر في النار لأنهم أعداء الله عاندوا رسله وآذوا دعاته.

التفسير الاجمالي

﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣ ﴾ وبعد أن ساق القرآن الكريم هذه الأدلة على وحدانية الله وقدرته ولفت نظرهم إلى السنن التي لا يستطيعون مخالفتها ولا تغييرها وبين لهم قدرة الله تعالى في خلق هذه الأشياء العظيمة (الأرض وما فيها والسماء ووظيفتها)، لم يبق من الإعراض والصدود عن الإيمان إلا المغالطة والعناد.

إذ لم تكن لهم حجة في الصدود عن الإيمان، بقي أسلوب آخر وهو التهديد والوعيد ويعلمون أن محمداً ﷺ لا يتوعد إلا نفذ توعده ولا يكذب فيما يبلغ عن ربه، وليقينهم بذلك حينما قال: ﴿ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾.. وضع عتبة بن ربيعة يده على فم الرسول ﷺ وناشده الرحم ألا ينفذ تهديده وقال لقومه (تعلمون أن محمداً لا يكذب ولا يخلف).

وقالوا إن الإنذار يراد به التخويف والصاعقة العذاب وهي معروفة لدى العرب نار يصحبها صوت شديد تحرق ما تقع عليه، ولا قدرة لهم على ردها، ولا مانع من أن يراد بها الحقيقة والذي جعل المفسرين يقولون أنه مطلق العذاب لأنهما لم يعذبا بعذاب واحد فإن عذاب عاد غير عذاب ثمود.

ولذا قالوا بأن الصاعقة مطلق العذاب، وأن قريشاً لم تصبها الصاعقة ولا العذاب لأنهم أسلموا بعد ذلك فلم يعذبوا كافة كما عذبت الأمم الأخرى.

ثم تأتي علة الإنذار والتهديد: ﴿ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ ﴾.. إذ منعهم التكبر من الإيمان كما تكبرت طغاة قريش، فإن عاداً أعجبتهم أجسامهم وقوتهم فقالوا ﴿ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ ﴾.. ونسوا أنهم مخلوقين وأن الذي خلقهم اشد منهم قوة.

وهكذا يدفع التكبر أصحابه للإعراض والصد حتى عما ينفعهم ولا يريدون أن يقتنعوا بالحق فلا يسمعوه ولا يعرضوه على المنطق ولا يحاولون مناقشته مناقشة علمية.

وقوله عز من قائل: ﴿ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾.. مع أن التكبر لا يكون بحق

أبداً، أشار تعالى إلى أن تكبرهم لا مبرر له لأن قوة الأجسام ليست مدعاة للكبر إلا للجهلة، لأن العاقل يعلم أن الإنسان مهما عظمت قوته فسوف يؤول إلى ضعف ثم إلى موت ولكن نقص عقولهم دعاهم للتكبر.

فأجابهم الله عز وجل ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ فإنهم يعلمون أن الله خلقهم ولكنهم جل اعتراضهم على الرسول فإنهم يرون أن فيهم من هو أقوى منه أو أغنى منه أو ما إلى ذلك من القيم التي يعتقدون أنها سبباً للسيادة والقيادة. ولذا قالوا: ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾.

تكاد الأمم تتشابه في سبب إعراض مشركيها عن الإيمان فإنهم لا يرون الرسول ممن تحق له القيادة أو الاختيار من قبل الله جل جلاله، فقد قالت قريش ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].. وقالت اليهود ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ [البقرة:٢٤٧].. وهنا يقول قوم عاد وثمود لو شاء ربنا لأنزل ملائكة، وهذه تشير أيضاً إلى أن الله عز وجل موجود في تصور جميع بني الإنسان ولكن الذي يختلف هي صورته وصفات من يرسل، ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فجميع بني الإنسان يعتقدون بوجود الله ويعتقدون بأنه خالقهم.

ولذا فإن رد هذه الحجة سهل إذ أن الله سبحانه يرسل إلى البشر بشراً وإلى الملائكة ملكاً، إذ كيف يفهمونه أو يفهم منهم إن لم يكن منهم.. ؟

فقولهم ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ معناه أننا لا نقر بصحة إرسالكم من الله ولذا فإنا نكفر بما جئتم به مما تدعون أنه رسالة من الله تعالى.

إذن.. فإن الله تعالى الذي خلقهم هو أشد قوة لأن الذي يوجدهم قادر على أن يعدمهم أي يعيدهم إلى ما كانوا عليه. ولكنهم تنكروا لجميع الدلائل والحجج إن كانت في المنطق الإنساني أو إن كانت بالسنن الكونية التي يشاهدونها.

ثم يبين الله لمشركي مكة ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾.. فهذه نتيجة

الإصرار على الكفر والجحود وعدم الرضوخ وعدم الاقتناع بالحجج والبراهين التي تدل على صحة المنهج ووجوب إتباعه ولا يمكن أن تصلح الإنسانية إلا بالمنهج المتلائم والمتوائم مع حركة الكون، فجزاء المعاندين ريحاً باردة جداً تحرقهم كما تحرقهم النار وقال المفسرون ﴿ صَرۡصَرٗا ﴾ هو استبدال لصرر وهو البرد الشديد فهذه الريح القوية جداً والتي تسمى الآن الأعاصير تقتلعهم من جذورهم، فهو جزاءً وفاقاً لقولهم من أشد منا قوة؟ وتحمل هذه الريح البرد الشديد وكانت شؤماً عليهم وعلى حياتهم وبلدهم الذي تحصنوا به واعتمدوا على قوتهم فيه.

فجاءت هذه الريح بالذل والهوان والعذاب ففي الدنيا ذاقوا عذاباً يصاحبه ذل وهذا أيضاً موافق لتكبرهم وجبروتهم واستهزائهم بالرسل وما جاءوا به وسخريتهم بالطريق والمنهج الذي أنزله الله سبحانه لهم مع الرسل ليحفظ كرامتهم ويحقق سعادتكم.

ثم لم تكن هذه النهاية وإنما هي بداية تسلسل ما يستحقونه من عذاب لأن عذاب الآخرة أخزى وأشد وأنكى، ولا يستطيعون نصر أنفسهم ولا أحد ينقذهم من هذا الواقع المرير.

ثم تعرج الآيات على قوم صالح الذين تكبروا أيضاً وطغوا ورفضوا المنهج الذي أعده الله لهم وأرسل به صالحاً ومعه دليل لا ينفيه عاقل ولا يجحده حكيم حليم. فإن الله تعالى جعل مع صالح ناقة يشربون منها جميعاً وتكفيهم ولكنهم أصابهم الغرور إذ أن مراكز نفوذهم تركزت في ﴿ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾ [النمل: ٣٨].. هذه العصابة تحكمت في قوم صالح فأرتهم الصواب خطأ والخطأ صواباً، وبين لهم الله على يد صالح المنهج السليم والطريق الحق ففضلوا الضلال والتيه والتخبط على منهج الله المستقيم الواضح، فكان جزاءهم الذل والهوان. وجاءتهم الصاعقة، الصوت القوي الذي أعماهم وأصم آذانهم وأهلكهم وأهانهم وكذلك ينتظرهم عذاباً في الآخرة، أشد وأعتى ونجد في هذه الآيات ذكر الله قوم صالح وقوم هود (عاد وثمود) في صدر الآيات ثم فصل في آخر المقطع ما الذي أصاب قوم صالح وما الذي أصاب قوم هود.

وقد ذكر الله تعالى في صدر المقطع أنه أرسل لهم الرسل وبينوا لهم جميع ما يحتاج الإنسان

للهداية والإقناع فجاءتهم بالأخبار عن الأمم السابقة ورسمت لهم الصور التي أدت إلى نهايتهم ونهاية ضلالهم فلم ينفعهم هذا البيان ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾.. ففي جميع الاتجاهات ومختلف الأساليب.

وكل هذا البيان هو صورة ذهنية لكفار مكة لتجنب غضب الله وعقابه ليتعظوا ويعلموا أن الله أنعم عليهم إذ لم يسلط عليهم عذابه وعقابه بكفرهم وعنادهم ورفضهم حتى الاستماع لقول الحق، فإن الله سبحانه وتعالى صبّ عذابه على هذه الأمم ولم يعملوا إلا كما عمل كفار مكة، لكن حلم رسول الله ﷺ وتحمله أذاهم ورفضه إهلاكهم حتى في أشد حالاتهم أذى، وفي أقسى ما لاقى منهم، وما قصته بالطائف بغائبة عن ذهن مسلم إذ أنه حينما عرض عليه ملك الجبال بأمر من الله أن يطبق عليهم الأخشبين تركهم وقال لعل من أصلابهم من يعبد الله. صلى الله عليك يا خير خلق الله ما أحلمك وما أحكمك. ثم تكتمل الصورة ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ حيث أن الله جلت قدرته حينما يعاقب الأمم يخرج من بينهم الدعاة وينجيهم لأنهم أطاعوا الله ورسوله وعملوا بمقتضى المنهج الذي أرسله الله إليهم مع رسوله واتقوا عذابه وأنابوا إليه.

علاقة الآيات بالمحور

وهكذا يستمر القرآن الكريم في عرض الصور التي تعرض تجارب الأمم ومنهج الدعاة في مواجهة انحرافاتهم الاجتماعية والعقائدية ومصير المؤمنين الذين تحملوا الدعوة مع الرسل ومصير الجاحدين الذين لا يقبلون هداية ولا يذعنون إلا للقوة.

الهداية في الآيات:

* أن المشركين يحتجون بأي حجة على شركهم وتمسكهم بكفرهم وحقيقتهم أنهم لو حقق الله شرطهم للإيمان فلا يؤمنون أبداً، لأن الإيمان تستقبله نفوس مطمئنة وعقول فاحصة ذكية تهتدي إلى الحق فإن الإسرائيليين طلبوا رسولاً يقدم قرباناً تأكله النار ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ

جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٨١]. فأجابهم الله أنه حقق لهم ذلك ولم يهتدوا، والنصارى أرادوا مائدة من السماء فجاءتهم وبمجرد ما رأوا المائدة عادوا إلى الكفر والآن جميع النصارى يعلمون بخبر المائدة وهم الآن أضل من الأنعام وأحقر.

* إنه ليس أخف عقلاً من الذي يجابه رسل الله بقوته إذ أنه مهما كان قوياً فإنه يعلم أنه وجد من عدم ويعود إلى عدم، فهل تنقذه قوته من ذلك.

* إن الذين يصرون على الكفر مهما وضح لهم الطريق لا يرونه أو لا يرون صلاحه ولا هدايته، وقد بين الله لهم طريق الحق على يد الرسل فأحبوا العمى على الهدى.

مصير المشركين وأن الله

أحصى أعمالهم التي أوصلتهم لهذا المصير

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

علاقة آيات المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة ذكر الله عز وجل كيف عاقب الأمم السابقة التي كذبت الرسل وبين سبحانه أن أولئك كانوا أشد قوة من قريش فأهلكهم بذنوبهم ونجى المؤمنين من العذاب في الدنيا وفي الآخرة.

وفي هذه الآيات بين عز وجل أن مصير أعداء الله هو النار التي سيصلون إليها بعد حسابهم في يوم يحشر الناس جميعاً للحساب وأن سلوكهم المخالف لما أمر الله مسجل عند الله تعالى وأن الشاهد عليه هو أعضاؤهم التي كانوا يستخدمونها في المعصية.

التفسير الإجمالي

ومن التسلسل الطبيعي أن بعد الإنذار والتهديد بعذاب في الدنيا أن يتكلم القرآن الكريم عن مصير هؤلاء في الآخرة فإن من صفات العرب أنهم لا يخشون الموت ونجد في أدبهم الجاهلي الحث على الموت الكريم فلا يكون المرء منهزماً ولا مفرطاً بحقوقه ولا مستكيناً لعدوه وكما قال شاعرهم:

فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيل البقاء بمستطاع
وما ثوب البقاء بثوب عز ... فيطوى عن أخ الخنع اليراع

وقال آخر:

ليس الكريم على القنا بمحرم

ولذا فإن الحديث عما بعد الموت هو المجدي وهو الرادع الحقيقي وأشد ما تكلم عنه القرآن الكريم في العذاب الأخروي هو عذاب الذل والهوان والخزي والعار وهذه ما يأنفها العربي ويبذل نفسه في اتقائها.

فحذره الله سبحانه، من هذا المصير فيكون كريماً في الدنيا والآخرة ما دام منضبطاً بشرع الله معتقداً بتوحيده وفاعليته في الكون فبعد أن قال ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ قال: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ فهم أعداء الله خالفوا شريعته وكذبوا رسله وناصبوا أولياءه العداء فما جزاؤهم إلا أن يساق أولهم على آخرهم ويجمعون ويساقون إلى جهنم التي كذبوا الخبر بوجودها وبأنها مصير أعداء الله.

ويوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها سيقال لصاحبها عليك شهود من نفسك فتشهد

عليه أعضاؤه بما سخرها له من الأعمال فالسمع يشهد بما سمع من الكلام غير اللائق ما يخالف به شرع الله والبصر يشهد بما رأى من فواحش والجلود ما باشرت من المآثم.

وفي الأثر: أن عبد الله بن مسعود قال: كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء نفر أو ثلاثة وصفهم فقالوا هل يسمعنا الله فأجاب بعضهم بنعم، وآخر بلا. فأخبر الرسول ﷺ قبل فنزلت هذه الآية وقال آخرون أنه استشهد بهذه الآية. وقيل أن الجلود هي الفروج فقالوا لها ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.. فإذا كان الله قد خلقكم من عدم وعين وظيفة كل عضو من أعضاءكم بقدرته فما الذي يقتضيه أن يغير وظائفها يوم القيامة؟ فماذا تفيد المخاصمة إذن إذا كان الإنسان على نفسه بصير، وكانت أعضاؤه هي الشهود فهل يستطيع أن يعمل عملاً بدون أعضاء؟ هذه شهوده يوم القيامة فليتق الإنسان ربه وأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فالله خلق الإنسان من عدم ثم يؤدي به إلى عدم ثم يعيده ثانية للحساب والجزاء فيحصد ما زرعه في الدنيا.

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ فقد كنتم تستخفون عن الناس في فعلكم الشين، ولم تحسبوا حساب من بيده جزاؤكم وهو خلقكم ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم كل شيء عنكم فإنكم تستترون عمن لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً وظننتم أن الله لا يعلم ما تفعلون، وظنكم هذا أوقعكم في العذاب وأدى بكم إلى النار فهذا الظن سبب هلاككم وقد جاء في الحديث: لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن بعض الفلاسفة يعتقدون أن الله لا يعلم الجزئيات وإنما يعلم الكليات فلا يعلم كل أفعال العباد وهذا الاعتقاد يخالف قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [لقمان: ١٦].

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وأي خسارة أشد وأيها

أقبح من أن يخسر الإنسان حياته ويترك نفسه على هواها ويعطل عقله فلا يرى إلا شهواته معتقداً أن الله لا ينظر إليه وظاناً أن الله لا يؤاخذه على كل شيء.. !! كيف يكون ذلك وهو رب العالمين.

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.. فالصبر هنا ليس له جدوى وليس له عاقبة خيراً فالصبر في الدنيا على المكاره في سبيل الدعوة في سبيل الله عاقبته النصر والظفر وحسن الجزاء في الآخرة.

علاقة المقطع بالمحور

تكلمت الآيات عن مصير المشركين في الآخرة فصبرهم على النار وما الذي يفعلونه إن لم يصبروا ولو طلبوا العفو أو الرضى فما هم من المعتبين. فلا رضا ولا عتاب ولا ندم فاليوم حساب ولا عمل.

فلم يترك القرآن الكريم حقيقة إلا أشار اليها ولا عمل ينجي الإنسان إلا بينه ولا صورة صادقة لمصير الانسان إلا جلاها.

الهداية في الآيات:

* ما أغبى من يعتقد أنه يستطيع أن يخفي عمله على الله؟ لأن الله هو الذي خلق قلبه ووضعه في صدره وهو الذي خلق عقله ويعلم ماذا يحوي وماذا يغفل وما هي قابليتها لكل عمل ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤].
* كما أن الله سبحانه وتعالى هو الذي عين وظائف الأعضاء فهذا يرى وهذا يسمع وهذا يشم إلى غير ذلك، وليس في اللسان كعضلة شيء يدل على أنه يتكلم ولا في الحنجرة كتركيب بها خاصية الصوت وتقطيعه إلى حروف ولكن الله أعطاها هذه الخاصية فهو يوم القيامة يعطي هذه الخاصية لأعضاء أخرى.
* ولذا جاء الحديث الصحيح: (اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الايمان باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم (٥٠).

إصرار المشركين على عدم سماع الدعوة

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾

علاقة المقطع بالآيات قبله

في الايات السابقة ذكر الله صورة من صور يوم القيامة وكيف يساق أعداء الله إلى النار وجعل الله أعضاءهم هي التي تشهد عليهم وفي هذه الآيات بين الله جلت قدرته أن فعلهم القبيح له أنصار وهؤلاء الانصار يشجعونهم على ارتكاب المعاصي لأنهم يفعلونها أصلاً فهؤلاء قرن الله بعضهم ببعض حتى يزين كل فريق لقرنائه الفعل القبيح

وصموا آذانهم عن الموعظة وعن القرآن الكريم الذي رسم لهم طريق السعادة وفتحوا قلوبهم وعقولهم لقرناء السوء.

﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ هؤلاء أعداء الله فقد خلى الله بينهم وبين قرناء السوء من الشياطين فقد أتاح لهم أصحاب يقترنون بهم يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول فيزينون بعضهم لبعض ما هم عليه من العقائد الفاسدة وما وجدوا عليه آباءهم من الشرك.

وقال بعض المفسرين أن قيض معناه يسر فالله يسر لهم هؤلاء القرناء والحقيقة أن الذي يسر لهم هؤلاء القرناء هو إصرارهم على الكفر وصدهم عن سبيل الحق فقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥) ﴾ [النساء: ١١٥]، هؤلاء الأصحاب من شياطين الإنس والجن

يزينون لهم ما وجدوا عليه آباءهم من الشرك وما سيؤول إليه أمرهم في الآخرة من إنكار للحساب والحياة بعد الموت وبناء على ذلك وجب عليهم العذاب والعقاب ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾ [غافر: ٦].. ولم يكونوا وحدهم الذين وجب لهم العقاب فإن قبلهم أمم من الجن والأنس كفروا بربهم وعصوا أمره وشاقوا الرسل فأوردهم سوء العذاب وقد خسروا دنياهم وآخرتهم، فإن دنياهم كانت بتصريف سادتهم وكبرائهم كما ستأتي في بقية الآيات.

ويعود الحديث في المحور وهو القرآن الكريم حيث أنه سبب إيمان المؤمنين وكفر الكافرين فإن فيه من القوة والتأثير في النفوس بما لا يستطيع الطغاة صرفه عن أنفسهم ولا عن غيرهم فلم يقولوا ردوا على هذا القرآن ولم يقولوا حاججوا هذا الخطاب بمنطق أقوى منه وإنما الذي يستطيعونه هم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.. وقد جاء في الصحيح حينما أجار أبو البختري أبا بكر الصديق فأخذ يقرأ القرآن أخذ يؤثر في الناس فيؤمنون لقراءته فشكوه لأبي البختري وقالوا إنك أجرته على حياته ولم تجره أن يقرأ القرآن {فإننا نخاف أن يفتن أبناءنا ونساءنا}.. والحقيقة أنه يهدي سادتهم وعقلاءهم لقوته الذاتية وتأثيره في النفوس.

وقال الذين كفروا فكان دليل كفرهم قولهم لا تسمعوا لهذا القرآن ونقلت التقارير بأسانيدهم أن أبا جهل والمشركين كانوا إذا قرئ القرآن يملؤون المكان ضجيجاً وصياحاً وصفيراً يحمون أنفسهم من القرآن ويحمون أتباعهم منه واللغو هو الكلام الذي لا فائدة فيه ولا معنى له فكانوا يوصي بعضهم بعضاً أن لا يسمعوا للقرآن الكريم حتى أن أحد وجهاء العرب قيل له لا تسمع لمحمد فإنه يتكلم كلاماً يسحرك فيه فقال لهم والله ما أنا بالذي يتهم عقله سأسمع إليه فإن قال صواباً صوبته وإن قال خطأً رددته عليه فلما سمع للقرآن الكريم أسلم.

وقد قلنا إن محور السورة هو القرآن الكريم بصفاته وبموقف المشركين منه دائرة في

سامعيه وهذه فقرة من فقرات المحور أنه يحمل قوة ذاتية لا يستطيع العاقل ردها ولم يستخدم المشركون أي طريق عقلي أو منطقي.

ففي أول السورة تحداهم بالسماع له وبين أنه مما تعرفون كلامه لأنه عربي في لغته واضح في بنائه وهدفه فإن كان لكم ما تردونه أو تعيبونه فيه فتقدموا، وقد مرت بنا قصة الوليد وهنا يبين انهزامهم وهروبهم حتى من سماعه.

فكان جزاؤهم المناسب ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.. ومن الطبيعي أن تسمع للمدعي فإما أن توافقه وإما أن ترده بما لديك من حجة وإن غابت عنك الطريقتان فتسمح له أن يسمع غيرك والظلم منتهى الظلم أن لا تسمع ولا تسمح لأحد أن يسمع ولذا فإن لهم عذاباً شديداً.

وقوله لنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً المقصود أن نوصل العذاب إلى أدق مشاعرهم حتى يعلموا حقيقته، وهذا هو الجزاء المناسب جزاؤهم بأسوأ أعمالهم فإنه ليس أسوأ من هذا الظلم وهذا الجحود والوقوف بوجه الدعوة التي أراد الله إنقاذ الإنسان بها فالمشركون لا يؤمنون بهذا الخير ولا يدعوه يعم الناس، فكان جزاؤهم هو ما يناسب أعداء الله ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ﴾.. فقد وقفوا سداً منيعاً ضد الدعوة كي لا تصل إلى الآخرين، فتشويشهم على الناس في سماع القرآن ومنع وصوله إلى العقلاء فهذا إظهار للعداوة لله وأوليائه وجزاؤهم المناسب هو الخلود في النار لكفرهم بكل هذه الدلائل، وهذه النصوص وجحودهم ونكرانهم لما فيها من حقائق ثابتة وأدلة دامغة واضحة.

ثم يصور القرآن الكريم حالة الندم والحنق على دعاة الشر من قبل متبعيهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ فهما هؤلاء القرناء هؤلاء دعاة الضلال والظلم والكفر والجحود يريد أتباعهم أن ينتقموا منهم بما زينوا لهم الشر والسوء والضلال. وقد جاء الخطاب بالمثنى باعتبار الجنسين (الانس والجن) لا باعتبار الأفراد.

ولو أن دعوة هؤلاء لم تجد صدى في نفوس هؤلاء الأتباع لما ساروا وراء سادتهم فإن هناك أمثلة حية من الأتباع والرقيق الذين خالفوا سادتهم وتحملوا أشد العذاب كبلال ﷺ وآل ياسر رضي الله عنهم فقد قال الحكماء (استفادة القابل من المبدأ تتوقف على المناسبة بينهما)، وورد عن الغزالي رحمه الله أنه قال: ما اجتمع اثنان إلا لعلة فيهما.

وقد عبر الطاهر بن عاشور رحمه الله تعبيراً جميلاً حيث قال: (فالتقييض بمعنى التقدير عبارة جامعة لمختلف المؤثرات والتجمعات التي توجب التآلف والتحاب بين الجماعات ولمختلف الطبائع المكونة في نفوس الناس فيقتضي بعضها جاذبية الشياطين إليها وحدوث الخواطر السيئة فيها وللإحاطة بهذا المقصود أؤثر التعبير بـ « قيضنا» دون غيره نحو بعثنا وأرسلنا)[1].

علاقة المقطع بالمحور

يكاد يكون المقطع كله للمحور فإن الحديث عن القرآن الكريم وموقف المشركين الإنهزامي منه وتخبطهم في رد حقائقه وتأثيره في النفوس.

الهداية في الآيات:

* إن الله جعل لكل إنسان سائق وشهيد ملائكة يكتبون عليه أعماله ويحصوها وإن الإنسان يختار قرناء أصدقاء وأخلاء يكونون وفق توجهه وهواه فإن كانوا صالحين فسيعينونه على الطاعة وإن كانوا غير ذلك فيزينون له الطريق الذي يختاره لنفسه فالمشرك يكون قرناؤه من نفس الفصيلة فيزينون له طريق المعصية فزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل.
* والقضية الأخرى أن كفار مكة وعتاتها لا يستحون من عدم سماعهم القرآن لئلا يهديهم إلى الطريق المستقيم فدافعوا عن ضلالهم وهم يعلمون أنه ضلال وقد منعهم من الهدى تكبرهم وعنادهم وعصبيتهم مع أن الرسول ﷺ تبرأ من التعصب العرقي وحتى القومي، فيكون جزاؤهم الأوفى هو العذاب والنار التي أعدها الله لمن عصاه.

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٤ / ص٢٧٥.

قرناء المؤمنين (الملائكة) يعينونهم على تبليغ الدعوة

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه

ذكر الله جل وعلا في الآيات السابقة ندم المشركين على اتباعهم دعاة الباطل وبين حقدهم على قرنائهم الذين أوردوهم النار.

وفي هذه الآيات بين الله عز وجل أن للمؤمنين قرناء ولكن شتان بين قرناء المؤمنين وقرناء المشركين فقرناء المؤمنين ملائكة صالحون يهدوهم إلى مايرضي الله ويعينوهم على الطاعة وفعل الخير فهم أولياؤهم وناصروهم يحبونهم ويرجون لهم كل خير فهم رفاقهم في الدنيا وفي الاخرة يبشرونهم بمصيرهم السعيد.

التفسير الإجمالي

هذا المصير الذي ناله المؤمنون بإيمانهم وأعمالهم الصالحة التي أعانهم الله بملائكته على تحصيلها ووفقهم للسير في طاعته ورحمته لا بد أن يتعرض لهم الشيطان حتى يصرفهم عن طريقهم السوي ومصيرهم السعيد وعلى ذلك أعد الله لهم سلاحاً يتخلصون به من الشيطان فإن راودتك نفسك على معصية فاعلم أنها من عدوك من الشيطان فالجا إلى الله واستجر به فإنه يجيرك بتوفيقه وبملائكته.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.. للمشركين قرناء وللمؤمنين قرناء وقد عرفنا في المقطع قبل هذا قرناء المشركين شياطين الإنس والجن يقولون لهم لا تسمعوا الحق ولا تتبعوا ما ينفعكم ويسعدكم في الدنيا والآخرة ونتيجة هذا الاقتران أنهم كانوا خاسرين وأن كل واحد منهم يطلب من الله أن يجعل قرينه في أسفل الجحيم.

وهذا المقطع يتكلم عن قرناء المسلمين المؤمنين، يتجلى وصف المؤمنين ومرتبتهم في هذه الآيات أنهم قالوا ربنا الله ولا رب لنا سواه وهو إلهنا ولا نبتغي غيره ولا نشرك به ربنا الله خالقنا ورازقنا ومولانا جل أن يحتاج لسواه حتى يدير شؤون خلقه.

الذين يحفون من حول العرش هم أقران المؤمنين يقولون ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٨]، هذه هي العلاقة بين المسلمين وقرناؤهم.

الذين قالوا ربنا الله أفصحوا عن معرفتهم الحقيقة العظمى عرفوا الحق للاهتداء به والانصياع لأوامره والسير على المنهج الذي أعده للمسلمين وللناس جميعاً ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾.. شغلت الناس وخاصة المسلمين هذه الآية فما هي الاستقامة التي يقتضيها قولنا (ربنا الله)؟

قال أبو بكر الصديق ﷺ: أي لم يلتفتوا إلى إله غيره.

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: استقاموا لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعالب.

وقال عثمان بن عفان ﷺ: أخلصوا العمل.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجه: أدوا الفرائض.

وفي الحديث أن الرسول ﷺ قال: (شيبتني هود)[1] مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾.

(١) أخرجه الطبراني (١٧/ ٢٨٦) رقم (٧٩٠). قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٣٧): رجاله رجال الصحيح.

وفي تصور الرسول ﷺ للاستقامة المطلوبة منه وآراء الخلفاء قادة الإسلام في الاستقامة تستطيع أن تحدد نوع الاستقامة المطلوبة.

ففي أقوالهم يتجلى تجريد الالوهية وعدم ميل القلب إلى سوى الله أو اعتقاد فاعل في الكون سواه وأن يكون القلب خالياً من أي درن أو شائبة في توجهه إلى الله سبحانه وتعالى. وأن يؤدي ما عليه من الفرائض التي أوجبها الله تعالى أو ألزمها الإنسان ليكون مسلماً.

ومن طريف ما كتب في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾.. ما كتبه الطاهر بن عاشور رحمه الله قال: ((أصلي الكمال الإسلامي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾.. فقوله: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ مشيراً إلى الكمال النفساني وهو معرفة الحق للاهتداء به ومعرفة الخير لأجل العمل به فالكمال علم يقيني وعمل صالح فمعرفة الله بالإلهية هي أساس العلم اليقيني.

وأشار قوله ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ إلى أساس الأعمال الصالحة وهو الاستقامة على الحق أي أن يكون وسطاً غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط. قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾.. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا﴾.. على أن كمال الاعتقاد راجع إلى الاستقامة فالاعتقاد الحق أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه والتمثيل بل يمشي على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل ويستمر كذلك فاصلاً بين الجبري والقدري وبين الرجاء والقنوط وفي الأعمال بين الغلو والتفريط))[1]. وجاء في تفسير الرازي (أنها نزلت في أبي بكر الصديق قال ابن عباس لأن أبا بكر ﷺ وقع في أنواع شديدة من البلاء والمحنة ولم يتغير عن دينه فهو الذي قال ربي الله وبقي مستقيماً)[2].

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٤- ص ٢٨١.

(٢) التفسير الكبير ج٢٧ -ص ١٠٥.

(والاستقامة الاعتدال يقال: استقام له الأمر وقوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ أي في التوجه إليه دون الآلهة وقام الشيء واستقام: اعتدل واستوى)[1].

فبعد أن بين الله سبحانه ما وجب للمشركين بفعلهم، بين عز وجل للمؤمنين باستقامتهم فقال تتنزل عليهم الملائكة وتحفظهم من الوقوع في الخطأ وتعينهم على الثبات ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد:١١].. ولا يفارقونهم أبداً ويوم القيامة يظهرون لهم ويبشرونهم ويشهدون لهم ويستغفرون لهم، وبهذا ترى الفرق بين الفريقين فقرناء المشركين يسوقونهم إلى جهنم، ويوم القيامة يرجون الله أن يضعوهم تحت أقدامهم فيكونوا من الأسفلين.

فالملائكة أولياء المؤمنين يقولون لهم لا تخافوا مما أنتم مفضين إليه، فإنها جنة ورحمة ولا تحزنوا على ما فاتكم أو ما خلفتموه من أهل وولد فسوف نرعاهم لكم ويحفظكم الله في ذريتكم وإذا كان أبو بكر الصديق ﷺ، نموذجاً لمن تصدق عليه هذه الآية فإنه نعم النموذج.

فإنه ﷺ كان من أهل الثراء حينما بعث الرسول ﷺ فأنفق جميع أمواله في سبيل الله، وعندما بايعه المسلمون خليفة لرسول الله ﷺ شوهد في السوق يتاجر فاستقبله الصحابة رضي الله عنهم فقالوا ماذا تفعل وأنت خليفة رسول الله؟ قال انشغلت بشؤونكم فجاع عيالي فأعادوه وفرضوا له عطاء يكفيه وعياله كواحد من المسلمين وحينما حضرته الوفاة جمع أولاده البالغين عبد الله وعبد الرحمن ومحمد. فقال لهم: لقد أخذت من أموال المسلمين الذي فرضه لي أصحابي ومنهم علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وعثمان وأبو عبيدة وكانوا حاضرين فأمر أولاده أن يحضروا المال الذي أخذه عطاء من أموال المسلمين فجمعه وأعاده إلى بيت المال قائلاً لا أقابل ربي وفي ذمتي شيءٌ من أموال المسلمين مع أنه عطاء يشبه الراتب وقد فرضه له الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) لسان العرب ج١٢- ص٢ مادة قوم.



فلما مات ﷺ خلفه الله في أهله فكلهم أخيار من قادة المسلمين من الفرسان، وبناته فقيهات يحتلون الصدارة بين نساء المسلمين فإذا كان الخوف غماً يملأ النفس مما يتوقع من مكروه في المستقبل فلم يكن أسعد من أبي بكر ﷺ بعد رسول الله ﷺ بمصيره وإن كان الحزن غماً في النفس مما فاته من مكروه وقع له في الماضي فإن أبا بكر تحمل كل ما تحمل في سبيل الدعوة وهو أسعد الناس فيه وقد نقل له التاريخ هذه الأيام المشرقة في حياة الإنسانية.

والملائكة تقول للمسلم الذي أدى واجباته كما يريد الله وكما أمره أبشر فإنك تتبوأ داراً كما وعدك مولاك جنة عرضها السماوات والأرض لك فيه كل ما تحب وأكثر مما تتوقع ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.. ويتجلى الفرق بين القرين والولي في هذه الآية حيث أن الولي الناصر والمعين والذي يحب ما يحب مولاه ويكره ما يحزنه فحينما يلتقون يوم القيامة لقاء المودة والمحبة فيخبروهم أنهم كانوا مناصرين لهم في فعل الخير كافين عنهم ما يغضب الله وما يسوءهم، ولكم في هذه الدار ما تشتهي أنفسكم وما تحبون وما تطلبون فاليوم تجزون ما كنتم تعملون من خير ومما يرضي الله وما تحملتم في سبيل الدعوة إلى الله، فإن المسلم ما دام في سبيل الله مجاهداً لنصرة دينه فإنه يشعر بسعادة لا يشعر بها إلا من عمل عمله فإن للجهاد في سبيل الله والمعاناة في نشر الدعوة الإسلامية لها لذة منقطعة النظير.

﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.. وصف لقوله ﴿ مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾.. والنزل قالوا: ما يقدم للضيف هنيئاً لكم ضيوف الرحمن ضيوف الغفور الرحيم فلن يحاسبكم على ما أخطأتم لأنه غفور رحيم وسوف تكونوا في رحمته لأنه رحيم.

والحق أن الذي يريد تفسير هذه الآيات يجد نفسه عاجزاً أن يجاري جمال اللفظ القرآني ووضوحه.

ينتقل القرآن الكريم إلى صفة أخرى من صفات الداعية، فالآيات الأولى تكلمت عن صفات الداعية التي يحصل عليها بالمجاهدة وضبط النفس على السير وفق مقتضيات الشريعة

ومسلتزمات العقيدة، أما الآيات التالية ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ لا يمكن أن يصل إنسان إلى أفضل ما تتكلم عنه هذه الآية.

فمن هو أشرف مقاماً وأعلى رتبة ممن أوقف نفسه لدعوة الله؟ لهداية الخلق على طريق نجاتهم لإصلاح ما أفسد المفسدون، إن الدعوة إلى سبيل الله تنجي الأمة من الهلاك، فقد جاء في الأثر: قالوا يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال نعم، لأن الصالح لنفسه فتهلك القرى ويبعث الناس على نياتهم أو أحوالهم ولكن لا يهلك الله القرى وأهلها دعاة فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود: ١١٧].. إذن الدعاة سبب نجاة الأمة من الهلاك والإصلاح بين الرعية فيما بينهم أفراداً والإصلاح بين الحاكم والمحكومين.

وفي التفسير أن الداعية يجب أن يكون متخلقاً بالأخلاق التي يدعو لها فلا يدعو للمعروف ولا يفعله، ويستنكر المنكر ويفعله. وغالباً ما يكون الناس أسرى المعاملة الحسنة وفي التاريخ أن جزر أندونيسيا أسلمت بفعل التجار المسلمين فقد ذهبوا إليها وأعجب الناس بحسن معاملتهم وعلموا أن هذه المعاملة ناتجة عن الالتزام بأوامر الإسلام ونواهيه.

وعن عائشة رضي الله عنها، أن هذه الآية نزلت في المؤذنين واعترض عليها أن الآية مكية والأذان فرض في المدينة وفي تقديري أن لا بأس بأن تكون الآية نزلت بالمؤذنين وإن كانت مكية فهي تدعو لذلك وكثير من الآيات المكية تصف أفعالاً لم تفرض إلا بالمدينة كتحريم الميتة ولحم الخنزير والفواحش والزنا وغيرها، فإن القرآن المكي قرآن دعوة ومن واجبات الداعية رسم صورة ذهنية قريبة من الواقع أو مما يمكن ان تكون واقعاً للمجتمع الذي تريد تكوينه الدعوة في المستقبل، فالمؤذن يقول حي على الصلاة حي على الفلاح فيدعو إلى الصلاة ويدعو إلى فعل الخير والعمل الصالح، ثم يشهد أن لا إله إلا الله ويشهد أن محمداً رسول الله وهذا قوله أنه من المسلمين.

ومن صفات النص القرآني أنه يشمل صوراً كثيرة ومن أوليات التفسير حمل النص على

جميع الصور التي يحتملها ما لم تكن مستحيلة الوقوع أو العمل.

ثم يعرج النص على صفة أخرى يجب أن يتحلى بها الداعية وهي احتمال الأذى من المدعوين فيقدر ما يتحمل من إيذائهم بقدر ما يدخل في نفوسهم وشواهد هذه الصفة لا تحصى ولا يغيب عن بالنا (قول هند بنت عتبة التي قتل أبوها وعمها في بدر قالت للرسول ﷺ: والله لم يكن أهل خباء أحب إليّ أن يذلوا كاهل خبائك واليوم لم يكن أهل خباء أحب إليّ أن يعزوا كأهل خبائك فقال لها رسول الله ﷺ: صدقت. ومثلها كثير)[١].

وذلك أن رسول الله ﷺ ناله من الأذى ما لم يتحمله غيره وعند تمكنه من الذين آذوه قال: إذهبوا فأنتم الطلقاء ولم يؤذي أحداً منهم حتى الذين أهدر دمهم حينما جاؤوه مبايعون قبل بيعتهم وأولهم (عكرمة بن أبي جهل)[٢].

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.. فيكون تعامل الداعية مع الناس هكذا وقد مثل أحد الدعاة الداعية بالطبيب والمدعو بالمريض فالطبيب يتحمل من المريض كل سيئاته وأفعاله لأن الطبيب يريد الخير لهذا المريض الذي لا يعرف أين يكمن الخير الذي يسعد به ويعيش به حياة سعيدة.

فأيهما أحسن السيئة بكل أنواعها أم الحسنة بكل صفاتها وأنواعها؟ فشأن الداعية الاتصاف بالأحسن فلا تصدر منه إلا الحسنة مهما كان المدعو سيئاً فإن الدعوة الإسلامية انتشرت بين الشعوب بهذه الطريقة.

فيعتبر الداعية المدعو كأنه من خاصته وحميم أي الذي يهم أمرك وطبعاً الذي يهم هو أمر المجتمع وما فيه من متناقضات ومساوئ يريد أن يخلصه منها بتخليص أفراده وجعلهم معه دعاة إن بأخلاقهم أو بعرضهم الدعوة على الآخرين.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٩٤.

(٢) البداية والنهاية (ابن كثير) (٤/ ١٠٣).



فتدفع السيئة بالحسنة والحسنة أقوى من السيئة فإذا أخلص الداعية لدعوته فسرعان ما تندفع السيئة وتمحى من المجتمع أو تختفي، فالحسنة هي الأحسن وهي الأقوى لأن الحسنة تؤيدها السنن الكونية وطبيعة الإنسان وفطرته وعقل الإنسان السوي فتجد الحسنة في نفس المدعو عوامل كثيرة تؤيدها وتستقبلها استقبالاً جيداً من حيث أن السيئة ليس لصاحبها حجة فيدافع عنها إلا الهوى والمغالطة والتكبر وعدم سماع الحق.

وهذه الأخلاق هبة من الله تعالى لأصفيائه هؤلاء الذين يحملون أنفسهم على تقبل الحق ولو كان مراً وترك الباطل ولو كان مشتهى، وقد ورد في الأثر أن الصحابة رضوان الله عليهم، حينما يفترقون من مجلسهم يقرؤون ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ فيوصي بعضهم بعضاً على الدعوة والصبر على ما ينالون من مكاره في سبيل نشرها وهذه الصفات نصيب الذين اصطفاهم الله لحمل دعوته الذين يتبوؤون مكاناً رفيعاً في المجتمع وبين الناس، ولهم الدرجات العليا عند الله.

ويؤكد القرآن الكريم هذه الصفات ويصفها بأجمل الصفات ويصف أهلها بأعلى المراتب.

ثم أن الله عز وجل يعلم الضعف من الإنسان فيوصي الدعاة بالثبات والصبر وتوقع الأذى وعدم الركون إلى الهوى، ويبين سبحانه وتعالى أن هذه الصفات يكرهها الشيطان لأنها تقلل أنصاره فيحاول بشتى الطرق صرف المسلم عنها فإذا شعر الداعية بفتور أو كسل أو تماهل في أداء هذه الواجبات فليعلم أنها من وساوس الشيطان والنزغ الوسوسة وهو فعل الشيطان، فهو دفع المسلم بقوة خفية إلى ترك الدعوة، فإذا شعر المسلم بشيء من هذا الشعور فليستعن بالله على مسبب هذا الشعور وهي وصية أن لا يفتر الداعية عن دعوته ولا يغفل عن نصر الله له وإعانة الملائكة الذين هم أولياؤه وأنصاره.

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ ويبقى



شياطين الإنس والجن يرصدون الداعية ويفتشون عن مواطن ضعفه وزوايا نفسه وما يحب وما يكره فيأتوه من حيث يحب حتى ليخيل له أنه يفعل الصواب، وأهم هذه الجوانب يكرّه له كل من يخالفه الرأي أو لديه منهج يختلف عن منهجه، فبدلاً من أن يندفع للتعاون معه وتغطية جميع الأساليب التي ينهض بها الإسلام يدفعه لمحاربته فيلهيه أولاً عن دعوته ويعطل آخر من الدعاة فينشغلون في أنفسهم ويتركون أولياء الشيطان يفعلون بالناس ما يحبون، فأمر الله الدعاة إن شعروا بشيء من هذا الشعور أن يركنوا إلى الله ويستعينوا به ويستعيذوا من الشياطين أياً كان جنسهم وأي أسلوب ينتهجهون، ويستجيرون بالله فهو القوي العزيز.

والله تعالى يسمع دعاءك ويعلم كيف ينصرك على الشياطين ويبعدهم عنك ويمكن أولياءك من المؤمنين ومن الملائكة.

علاقة الآيات بالمحور

إن الله في هذه الآيات بين قرناء المؤمنين وبين أن هؤلاء المؤمنين ألزموا أنفسهم بالسير في الطريق الصحيح الذي أراده الله لهم وهو عز وجل بين لهم طريق الاستقامة في القرآن الكريم فيه اهتدوا وهكذا قال الله لك استقم وأنزل لك كتابا فيه كل مايريده الإنسان كي يستقيم.

الهداية في الآيات:

* إذا حسن عمل المرء المسلم وأدى ما عليه من حقوق وواجبات وتحرى رضاء الله تعالى في عمله وانتصر لدعوة الحق فهو مستقيم، وهذا يكون له عون من الملائكة لأنها ترافقه في الدنيا وتجنبه كل ما يغضب الله وتعينه على فعل الخير وتناصره إذا دعا إلى الله وإلى شريعته وجاهد لإعلاء كلمة الله.

* وإن الملائكة تبشره أنها كانت له عوناً في الدنيا وتبشره بأنها سترعى أولاده وتعينهم على سلوك الطريق الذي يرضي الله، لأنها تقول له لا تخف من المستقبل فإنك في الجنة ولا تحزن على الماضي فإننا نرعى من هو محتاج لك من ذريتك أو من تعول.

* كما أن في الآيات ما يحث المسلم على فعل الخير إن كان مع الذين أحسنوا إليه أو الذين أساءوا إليه فإن أساء إليه أخوه المسلم فليحسن إليه ويستغفر له الله فإن الله يكافئه على ذلك خير الجزاء.

* وترشد المسلم ليكون مرتبطاً بالله تعالى ويستنجد به ويستعينه على محاربة الشيطان فإن أصابه فتور في أداء واجب شرعي فليعلم أنه من الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان.

الاحتجاج بالسنن الكونية

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة بين الله عز وجل مصير الذين جعلوا القرآن الكريم منهجاً لهم به استقاموا وبه نالوا سعادتهم في الدنيا والآخرة وبين أن المكانة العالية الرفيعة في هذه الحياة هي لدعاة الحق وبين الدليل على ذلك.

وبعد هذه الأدلة على صدق الرسل وعلى سعادة أولياء الله يعرض جل وعلا للمشركين المقارنة فأيهم أحسن الفريقين الذين آمنوا وهذا مصيرهم أم الذين كفروا وهذا عذابهم؟

التفسير الاجمالي

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾..

بعد أن ساق الأدلة العقلية ثم بين واجبات الداعية وما يجزيهم ربهم لقاء تحمل الدعوة إلى الله ومحاجة المشركين أخذ يبين الآيات والدلائل والسنن التي توحي للعاقل أنها مخلوقة لرب عظيم قادر، ومن عظيم قدرته في تسيير هذه الأجرام وبهذه الدقة ومكانة هذه الأجرام في حياة الإنسان، جعل بعض الناس يعبدها، فأشار القرآن الكريم إلى أنها مخلوقة وأنها لا تملك من أمرها شيئاً وأن الله هو الذي خلقها ويسرها ووضع لها سنة وقانوناً لا تستطيع أن تخالفه ولا أن تسير بسواه ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾.

وتشير الآية أن هناك من يعبد الشمس والقمر ففي قصة إبراهيم مع قومه تشير أنهم كانوا يعبدون النجوم وفي قصة ملكة سبأ أن قومها كانوا يسجدون للشمس.

وهناك دلائل تشير إلى أن بعض العرب كانوا يعبدون الشمس ولذا نجد بعضهم يسمى عبد شمس، فإذا كانت الشمس والقمر والنجوم تستحق العبادة لفائدتها للإنسان ولقيام حياة الإنسان عليها فخالقها أحق بالعبادة منها: ﴿ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

والآية تشير إلى أن الإنسان لم يتخلَّ عن معرفة الله ولا ينكر وجوده وإنما يتوسل ببعض مخلوقاته إليه ولذا قال: ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.. فالأولى أن تسجدوا لله وتعبدوه مباشرة من غير واسطة لأن هذه الوسائط مسيرة كالإنسان ومخلوقة ولا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً.

﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾.. وهنا يعود القرآن إلى البيان أن سبب الكفر هو التكبر في كل الأحوال فإن استكبروا عن طاعة الأنبياء أو عن التخلي عن معبودهم الذي ألفوه، فإن الملائكة

أو الذين عند الله ربما يكونون ملائكة أو شيئاً آخر من المخلوقات العاقلة فهؤلاء يعبدون الله وينزهونه عن الشريك الوسيط.

والعرب وسائر بني الإنسان يعلمون أن الملائكة أفضل من البشر وأقوى وأقدر فهؤلاء الذين ترونهم بمرتبة عالية في القدرة والمكانة يسبحون له بالليل والنهار وقال بعض المفسرين أن تسبيح الملائكة أصبح كالتنفس للإنسان فتنفسهم تسبيحٌ وقال تعالى: ﴿ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾، أي لا يملون ولا يضجرون.

فأنتم أولى بالعبادة والتسبيح وترك التكبر الذي لا يليق بكم وليس له مبرر ثم يعود القرآن الكريم على ذكر الدلائل الكونية على وحدانية الله تعالى، بتسيير الخلق فيقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾.. فآية أخرى ودليل آخر أنك ترى الأرض ذليلة كئيبة حزينة محزنة فإذا أنزل الله سبحانه عليها الماء دبت فيها الحياة واهتزت وارتفعت وانتفخت.

ويجدر بنا أن نشير أن إنزال الماء إلى الأرض معجزة عظيمة فإن السحاب وحركته وإيصال الماء إلى الصحارى والجبال مما تقف النفس الإنسانية أمامه مبهورة، وقد حاولت بعض الأمم صناعة سحاب ومطر فأنفقت أموالاً كثيرة جداً ولم تحصل على ماء أو مطر يسد جزء من ألف أو أكثر مما أنفقت فوقفت أمام قدرة الله عاجزة مقرة بأن الله تعالى هو وحده القادر.

ولو رأينا الثمار التي توجد في أعالي الجبال والنباتات التي يعتمد الإنسان عليها في حياته كالحنطة والتي يغذيها المطر في أقصى الصحارى لوجب علينا أن نسجد للذي أوصل لها الماء.

والأرض أحوالها قبل المطر وبعده تدعو للاعتبار والتدبر في هذه الحالة العجيبة، فقبل المطر تدعو للكآبة وترى خاشعة ذليلة وبعد المطر تجد فيها كل ما يدل على الحياة وتبعث البهجة في نفس الإنسان بحيويتها وما نبت فيها من الأحياء وأسباب الحياة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ﴾ فكما ترى الحياة في الأرض بعد المطر وتعلم أنه لم يستطع

أحد سوى الله سبحانه وتعالى، فكذلك إحياء الموتى وبعثهم يوم القيامة، وكما جاء في الأثر أن الإنسان ينبت كما ينبت النبات وبذرته عقب الذنب أو نهاية العمود الفقري، وقد علم الإنسان مؤخراً أن الهندسة الجينية وعوامل الوراثة جميعاً في عقب الذنب، كما جاء في حديث الرسول ﷺ، لو كان في الناس عقل لاستحوا، ولكن التكبر هو الذي يمنعهم لئلا يقال أنهم اتبعوا المسلمين في عقيدتهم لأن أحوال المسلمين لا تدعو إلى الاحترام في هذا الوقت ولو أن للمسلمين مكانة في المجتمع الإنساني لرأينا أول من يسلم هم العلماء في كل أمة.

بعد هذه البراهين الساطعة والحجج الدامغة لم يبق إلا أن يهددهم الله بمصيرهم، مصير المغالطين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ فالذين يميلون عن الحق ويكذبون كل الدلائل والبراهين على وحدانية الله وألوهيته مرصودون ومحاطون بعلم الله، فلا يخفى عليه خافية منهم فسوف يعاقبهم على هذا العناد فهم ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، فالذين آمنوا يقول أحدهم ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩] فرح فخور بما أدى إليه إيمانه أما الآخر فيقول ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٦]. فأيهما أفضل؟ الذي يأتي ربه تسلم عليه الملائكة ويحتفل به المؤمنون ويقال لهم سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين أم الذي يلقى في النار؟

ويعود القرآن الكريم إلى التهديد ﴿ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ وسوف يحاسبكم ويجزيكم بما عملتم، مشيراً إلى أنكم أيها الكفرة سيطالكم العقاب لأنكم لا تستطيعون أن تخفوا شيئاً من أعمالكم ولا من عقيدتكم ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٣-١٤].. فهو الذي خلق الصدور ويعلم ما تستوعب وما تخزن.

نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر أو عثمان بن عفان رضي الله عنهما

وروي أن قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ نزل في أبي جهل، وعثمان بن عفان ﷺ، وهي صورة جميلة من صور المقارنة، لأن أبا جهل سيجر في النار. وعثمان بن عفان حينما حوصر في الدار رأى ليلة قتله رسول الله ﷺ في المنام يقول له اختر أن

تقاتلهم وأنت على حق وهم على الباطل أو نفطر معاً هذه الليلة (وكان ﷺ صائماً) فاختار الالتحاق برسول الله ﷺ.

فهل هناك اطمئنان وأمن من المستقبل أكثر من هذا!!؟.

علاقة الآيات بالمحور

لا تفارق السورة محورها فإنه تعالى بعد أن تكلم عن السنن الكونية وأنه عزوجل خلق الكون وجعلها له نظاماً قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ ﴾ وهذه الآيات في القرآن الكريم الذي هو محور السورة.

من الهداية في الآيات:

* أنها تشير إلى الذين يسجدون للنجوم والشمس والقمر وهم في هذه الأزمان النصيرية (العلي اللهية) الذين يرون في علي روحاً إلهية يرون أن الشمس تبسمه ولذا فإنهم يسجدون للشمس وقديماً كان أهل بابل يعبدون النجوم ومن قريش من كان يعبد الشمس فوجد فيهم عبد شمس، وعلى كل حال تقول الآيات أن هذه مخلوقة لله فالأولى السجود للخالق وليس للمخلوق، وهو إرشاد بعدم الخضوع والتذلل لغير الله.
* وفي الآيات إشارة إلى أن الملائكة لا تفتر عن تسبيح الله تعالى ولا يملون.
* كذلك تشير الآية إلى أن جميع مخلوقات الله تسبحه وتنزهه عن الشريك في الذات وفي الصفات وفي الأفعال.
* وأن الله يحيي الموتى ويبعثهم والدليل أن الأرض في الجدب كل ما فيها يشير إلى الموت، فإذا سقاها الله الغيث، فترى كل ما فيها يدل على الحياة، فالذي أحياها بعد الموت قادر على أن يحيي الإنسان بعد موته.

صفات القرآن الكريم

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا
مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ
وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ٤٣ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ
يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن
رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ٤٥ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ
وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦ ﴾.

علاقة الآيات بما قبلها

انتهت الآيات في المقطع السابق بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾.

وهذه الآيات والدلائل كلها أوردها القرآن الكريم دليلاً على صحة توجهه وصواب دعواه جاء هذا الدستور العظيم الذي عجز البشر أن يعارضوه أو يجدوا فيه خللاً أو نقصاً أو خطأً، ألم يكن الأولى للعقلاء أن يتبعوه ويسيروا وفق ما جاء به.

وفي النهاية من عمل صالحا فلنفسه فينقذها من العذاب ومن أصر على الكفر أورد نفسه سوء المصير.

والبرهان الآخر هل يستطيع أحد أن يعلم متى تقوم الساعة أو يستطيع أن يعلم ساعة موته وسببه وإذا كان مستحيلاً ألم يكن الأولى أن يذعن للحق.

التفسير الاجمالي

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ ﴾.. لا يبعد النص عن المحور حتى يعود إليه ليذكرنا ولا يدعنا ننسى ما جعلته السورة موضوعها الرئيسي ومحور حديثها وهو القرآن الكريم.

فالحديث في أول السورة عن أن القرآن الكريم تنزيل من الرحمن الرحيم وأنه أنزل على قوم يعرفونه حق المعرفة، حتى لا يبقى لأحد منهم عذرٌ في جحوده وعدم الإيمان بحيثياته وبوصفه للعقيدة السليمة، فيقرر أن الجاحدين لا يحملهم على الكفر إلا التكبر والمغالطة ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ ﴾.

وفي وسط السورة يبين النص أنهم متيقنون من أن هذا القرآن حق، وأن منطقه لا يغلب وحججه لا ترد، ولا سبيل إلى محاربته إلا بمنع الناس عن سماعه ولو بأخس الطرق ﴿ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾.

وتعطيك السورة صورة من صور الانهزامية لا تليق بعاقل: من أول السورة إلى وسطها إلى نهايتها.

وفي هذا المقطع تبدأ بحقيقة مقررة وهي ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ ﴾ وحذف خبر أن وشرق به المفسرون وغربوا فمنهم من حذفه ومنهم من جعله في آخر الكلام، وتقدير المحذوف أيضاً أولوه تأويلات مختلفة.

وأجمل تعبير عن هذا الحذف قول سيد قطب أن اسمها بقي مجهولاً حتى يصح فيه كل وصف ويخطر في بالي أننا نستطيع أن نقول ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ ﴾ سخفاء أو سفهاء أو لا عقل لهم أو لا دراية لهم أو مغالطون أو مجانين لأنه لا يكفر به عاقل سوي.

ثم وصفه الله ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴾.. وقال الآلوسي: العز: حالة مانعة للإنسان عن أن يغلب[1]. فهو كريم على الله وهو منعدم النظير وهو ممتنع عن المعارض وهو ممتنع عن العيب أن يصيبه.

﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ ﴾.. فلم يأت قبله كتاب أو معلومة تخالفه أو تبطل ما فيه من حقائق أو علوم أو أخبار، فجميع الكتب التي

(١) روح المعاني في تفسير القران الكريم والسبع المثاني لأبي الثناء الآلوسي ج٥٢ – ص٦.



جاءت قبله تؤيده وتؤكد حقائقه وأخباره.

مما حمل اليهود أن يحرفوا التوراة لأنها تؤيده وتؤكد حقائقه حتى بعثة النبي محمد ﷺ مذكورة في التوراة وقال صادقوا اليهود للرسول ﷺ نجدك في التوراة باسمك وصفتك، ولما كانت التوراة محصورة عند علمائهم حرفوها وحذفوا اسم الرسول ﷺ وصفته لئلا يطلع عليها عامة اليهود فيسلموا.

وهذا يحملنا على القول أن جميع الكتب التي تسمى مقدسة والتي هي عند أصحاب الديانات من اليهود والنصارى، إذا وجد ما يخالف القرآن الكريم فإنه محرف أو محذوف منه ما يؤيد القرآن الكريم.

كما أن القرآن الكريم أشار إلى أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى حرفوا الكتب التي عندهم والتي ورثوها عن أنبيائهم كما يزعمون ولا أدل على تحريفها من تعددها واعتبار كل مذهب من مذاهبهم أنجيله هو الصحيح حتى قال بعضهم عن بعض أناجيل غيرهم أنها من تأليف جهال النصارى.

كما أنها تتغير في كل عقد من الزمان أو أكثر بقليل حتى أن الطبعات الأخيرة تختلف عن الطبعات التي قبلها، هذا تفسير الجزء الأول من الآية وهو ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾.

أما الجزء الثاني وهو ﴿ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾.. فهو تحد سافر للبشر أن يأتوا بما يشهد خطأه أو كذبه.

فإن جميع البحوث العلمية التي يقوم بها الغربيون والتي يريدون بها تكذيب القرآن الكريم تثبت صحة ما جاء في القرآن الكريم من الحقائق العلمية التي لم تكن معروفة قبل مائة عام وقد جاء بها القرآن الكريم منذ ألف وأربعمائة عام.

فسوف لن يأتي شيء يكذب القرآن أو يخطئه في علم أو خبر، فهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولو أن الغربيين وجدوا شيئاً يشهد بخطأ القرآن الكريم أو كذبه لطاروا به ولنشروه حتى لا تجد بيتاً من بيوت المسلمين إلا وفيه هذه الشهادة ولكنهم يئسوا من أن يجدوا طعناً في القرآن الكريم، فراحوا يستشهدون بواقع المسلمين على خطأ الإسلام وهذا الواقع ساهموا به بكل سفالة وهمجية وانحطاط وهم يَدَّعون التقدم والرقي.

فلن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وذلك لأنه تنزيل من حكيم حميد لأن الحكيم هو الذي يضع الأمور في نصابها وفيما تجب له، لأن الحكمة هي المعرفة الحقيقية.

والحميد كامل صفات الخير، أي المحمود المثنى عليه بحق الذي يستحق جميع الصفات الكريمة فيثنى عليه فيها.

فهي علة لكونه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فإن مُنّزله يعلم ما سبقه من العصور وما كان فيها وما سيأتي بعده إلى يوم القيامة وما سيحدث فيها.

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾.. ما الذي يقال ومن ذا يقول؟ إذا كان القائل هو مرسل الرسل فإنه سيحملك من الشريعة ما حمل الرسل قبلك ويأمرك بالدعوة إلى ما أمر به كوكبة الرسل منذ أن كان الرسل وما أمروا أن يقدموا للإنسانية من العقائد السليمة والشريعة الغراء التي تصلح للإنسان ويصلح بها.

فليس عليك أن تضجر أو تتبرم وهو حاشاه عليه الصلاة والسلام من أن يضجر فهي وصية للدعاة إلى دينه (لما بين تعالى أن الدعاء إلى الله وإلى دينه من أعظم القربات وأنه يحصل ذلك بذكر دلائل التوحيد والعدل والبعث).

ومما قيل للرسل ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾.. فهو عز وجل غفار لذنوب من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً وعاد إلى الطريق الصحيح والصراط المستقيم وهو أليم العقاب لمن أصر على كفره بعد أن شاهد كل هذه البراهين والأدلة وقد جاء في القرآن الكريم ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ

﴿ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].. فقد جاء في صحفهم وصفاً لأقسام الإنسان وهنا وصفاً لجزاء كل صنف بمعتقداتهم.

والوجه الآخر أن القائل هم الناس فإن الناس الذين أرسل لهم الرسل قالوا لرسلهم ما قالته قريش لك من كذاب ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٨٤].. أو ساحر أو مجنون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧].. وهكذا ديدن الشعوب مع الرسل وأممهم فإنهم يكذبون الرسل ويؤذونهم بالقول وغيره.

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ﴾.. قال بعض المفسرين أن هناك من قال ما جاء في القرآن أعجمي أو أن فيه أعجمي أصلاً لأن بعض الألفاظ كانت مما يستخدمه الأعاجم أو مما تشترك فيه اللغات غير العربية، والوجه الآخر أن هؤلاء يكذبونك ويكذبون القرآن على أي حال جاء لأن تكذيبهم لم يكن وفق منطق معين أو توجه عقلاني، وإنما هو مجرد عناد ومغالطة وتكبر، فلو كان أعجمياً أو بأي لغة لقالوا لولا فصلت آياته وبينت ووضحت، ﴿ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ في أغلب القراءات همزتين إحداهما استفهام إنكاري وبعض القراءات على همزة واحدة كأنه خبر فيكون محتوياً للاثنين العجمي والعربي فيكون في القراءة الأولى وهي الإنكار معناه كيف يكون أعجمياً يخاطب عرباً، أو كيف يكون غير فصيح لأن الأعجمي غير الفصيح عربياً كان أو غير عربي، فكيف يكون غير فصيح ويخاطب قريشاً التي هي أفصح العرب، أو كيف يكون ركيكاً فتضطرب معانيه ولا يفهم المراد منه فهماً دقيقاً وهذا ما أرجحه والله المستعان. فلو لم يكن في أعلى درجات الفصاحة والبلاغة لكان لهم فيه مقال كيف وأن أفصحهم وأبلغهم وهو عتبة بن ربيعة يشهد ببلاغته.

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾.. وحاصل الأمر أن القرآن الكريم هو الطريق المستقيم والمنهج القويم فهو للذين آمنوا المنهج الذي يسيرون عليه فينقذهم من جميع الأمراض

الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تصيب النظم الأرضية الوضعية والتي هي ماثلة أمامنا في العالم سابقاً وحالياً.

والذين لا يؤمنون ولا يصدقوه يصيبهم بجميع الأمراض في آذانهم ثقل وفي قلوبهم مرض وفي نفوسهم ضلال وهو عليهم عمىً فإنهم يتخبطون فلا يعرفون كيف يصرفون أمورهم كلما طبقوا نظاماً مما تمليه عليهم شهواتهم وأهوائهم يجدون غيره أحسن ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ ﴾ [البقرة: ٢٠].. وهكذا يورثهم تركهم للقرآن جميع الأمراض. ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾.. فهؤلاء لا يسمعون داعياً ولا يحبون مصلحاً فالحق في واد وهم في واد، فلا هم على حق ولا هم قريبون منه ولا يحبون أن ينصلحوا أو يسيروا وفق ما أراد الله.

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَـٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ ﴾.. فلم تكن الكتب السابقة بمنأى عن الطعن والاختلاف فقد أنزل الله التوراة على موسى ﷺ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، حتى بني إسرائيل الذين أنقذهم من ظلم فرعون لم ينسجموا جميعاً مع التوراة فسرعان ما عبدوا العجل وقبلها قالوا لموسى اجعل لنا آلهة كما لهم إله، ونسوا ما جاءهم في التوراة التي أنقذهم موسى من ظلم فرعون الذي مكثوا معه دهراً.

﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾.. وقد جعل الله حساب الناس يوم القيامة وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ ﴾.. ولولا كلمة الله التي أجل بها عقابهم إلى يوم يبعثون، لحكم بينهم بين المختلفين الذين اختلفوا في موقفهم من كتاب موسى واختلفوا في القرآن الكريم وجميع الأنبياء فإن الله جعل يوم الفصل هو يوم القيامة، حينما يحشر الناس جميعاً وتدعى كل أمة بإمامها وهذه حكمة الله وحلمه فإن في الوقت فسحة للتوبة والرجوع إلى الحق الأبلج.

وخير ما يصدق في هذه الحالة ما حصل لقريش حينما قالوا للرسول ﷺ: في آذاننا وقر وبيننا وبينك حجاب ولا نفقه كثيراً مما تقول ولم يلبثوا كثيراً حتى جاء سبعون منهم أسلموا

على يد الرسول ﷺ، وقالوا كنا نكذب فإننا سمعنا القرآن الكريم واهتدينا بهديه.

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ والنتيجة الحتمية في نهاية المطاف، كل يجازى بعمله فإن الله لا يزيد في ملكه طاعة المطيعين ولا ينقص من ملكه عصيان العصاة.

ولذا فإنه سبحانه وتعالى، كما جاء في الحديث القدسي (إنما هي أعمالكم أجزيكم بها). فمن عمل صالحاً وأطاع الله ورسوله وسمع كلام الله فحكم به عقله وأدار الأمور في نفسه فتبين له صدق الصادقين وكذب المعاندين فإنه سيجزى خيراً، ومن أدار ظهره للحق وأساء موقفه وعمله من القرآن الكريم وما جاء به من خير فلا يلومن إلا نفسه، لأن الله تعالى لا يظلم الناس لأنهم عنده سواء الطائع والعاصي.

علاقة المقطع بالمحور

المقطع جميعه تكلم عن القرآن الكريم ويتحدى الله الناس أن يأتوا بمثله أو يجدوا فيه ما يخالف الحقائق العلمية أو تثبيت التاريخ الماضي أو المستقبل أنه خالف حقيقة ثابتة، ثم يبين أنه لم يكن أول كتاب يكفر به الناس مع نصوع حقائقه وإنما هذا شأنهم في الكتاب الذي أنزل إلى موسى وغيره من الرسل.

الهدايات في الآيات:

* إن القرآن الكريم يتحدى الناس أن يأتوا بشيء يكذبه أو أن يذكر قبله كتاب ناقض حقيقة من حقائقه فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلم يأت قبله كتاب يناقضه ويثبت خطأه كما لن يأت كتاب يناقضه أو حقيقة علمية تكذب ما فيه وهذا دليل إعجازه.
* إن الله تحدى الناس أن يأتوا بمثله وتحداهم أن ينقصوا منه حرفاً أو يزيدوا عليه حرفاً أو كلمة.

* إن الناس يكذبون الرسل وما جاؤوا به من الهداية فليس القرآن ولا الرسول ﷺ أول من كذبه قومه فقد كذب الناس جميع الرسل ولكن الله انتصر لدعوته ونصر رسله.
* إن الله يمهل الناس فيحاسبهم يوم القيامة أو يهلك الظلمة في الدنيا.

علم الله الذي لا يستطيعه غيره

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

علاقة المقطع بما سبقه

تكلمت الآيات السابقة عن القرآن الكريم وحقيقته وهنا يبين الله عز وجل علة كون القرآن لايكتنفه الخطأ أو النقص وهي أن منزله هو الله عز وجل الذي يرد إليه علم الساعة فلا يعلمها سواه فإذا كان من عند من أحاط بكل شيء فحتماً سيكون القرآن متحدياً للنقص والخلل.

التفسير الاجمالي

فإذا علموا مصيرهم وهم مشفقون من العذاب فما فائدة طلبهم الخير في كل وقت، والخير كل الخير في طاعة الله.

لابد للإنسان من يوم ينتصف المحسن من المسيء والمظلوم من الظالم ولولا ذلك اليوم لاختل نظام الكون ولشعر الإنسان أنه مظلوم بأصل خلقه، إذ كيف تتساوى نهاية المجرم والمحسن وكيف تنصلح الأخلاق ويتعامل الناس إذن لابد من يوم تجتمع فيه الخلائق ويتقاضى الناس سيئهم ومحسنهم فيأخذ كل جزاءه.

ذلك اليوم يوم القيامة وهنا عبر عنه القرآن الكريم علم الساعة. ساعة الحساب ساعة الجمع، متى هذا اليوم وهذه الساعة؟ هذه التي اختص الله جل وعلا بها، فلا يعلمها سواه.

وهناك أحاديث كثيرة أهمها ما رواه البخاري ومسلم من حديث جبريل إذ سأل الرسول ﷺ متى الساعة قال: ما المسؤول بأعلم من السائل، (أي لاجبريل وهو سيد الملائكة ولا الرسول ﷺ وهو سيد البشر يعلم وقت قيام الساعة)[1].

والتعبير القرآني دقيق وجميل فاختص الله بعلم الساعة، إليه يرد علم الساعة فلا يعلمها ولن يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم قال: ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾.. فهذه الأشياء لا يعلمها إلا الله جل وعلا، ولم يقل لن يعلمها غيره فعلمه أحاط بها إحاطة كاملة تفصيلية ولكن من الممكن أن يعلمها غيره والتعبير يحتمل ذلك إذ أنه ذكر أنها تقع في علم الله كسائر المخلوقات وتصرفاتها ولكن من الممكن أن يعلمها أو بعضها غيره.

أما الساعة أو يوم القيامة فلا يعلمها سواه إن كان وقت موت الإنسان أو يوم حشر الناس جميعاً ومحاسبتهم فهذه لا يعلمها غير الله، فمهما استخدم من آلات ومهما اتبع من أساليب أو آلات هل يستطيع أحد أن يخبر عن يوم القيامة؟ ولا ساعة موت الإنسان ولا وقته ولا مكانه ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤].. فهذا ما لم يتوصل له الإنسان ولن يتوصل.

وقد قال إن الغيبيات المذكورة يعلمها الله، فالثمرات حينما تكون في أوعيتها والأنثى حينما تكون حاملاً يعلمها الله عز وجل وأنثى الإنسان والحيوان على حد سواء في علم الله وحينما تضع الأنثى حملها يعلمها الله سبحانه.

ثم يستأنف القرآن الكريم الحديث عن موقف المشركين يوم القيامة فيسألهم الله سبحانه

---

(١) البخاري (١/ ٢٧) رقم (٥٠)، ومسلم (١/ ٤٠) رقم (١٠).



أين ما أشركتموني معه أو أشركتموه معي في النفع والضر والعبادة والألوهية، هذه المخلوقات التي جعلتموها أنداداً لله تبرأت من عُبّادها أو تبرأتم منها (أذناك) ما لها سواك رباً وإلهاً ولكن هذا الإيمان لا فائدة منه فالله مدح المسلمين ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ [البقرة: ٣]، لأن الإيمان يوم القيامة أصبح إيمان مشاهدة وليس غيباً ﴿ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴾ أي أعلمناك أو أسمعناك أو اسمح لنا نقول ونعتقد أن لا يوجد إنسان، في هذا الوقت إلا يؤمن بوحدانيتك وفاعليتك بالكون.

فأنكروا شهادتهم بهذه الآلهة وكذلك تبرأت الآلهة منهم إذ جاء في الأثر أن الأصنام والأوثان تقول للإنسان ما طلبنا عبادتك لنا فهي تتبرأ منه أيضا وضل عنهم أي غاب عنهم ما كانوا يشركونه مع الله بالتوجه أو العبادة أو الفاعلية فأولاً يشهدون أنهم لا يشركون بالله فلم يروا فعلاً من غيره ذلك اليوم ففي هذا اليوم الملك الوحيد والحاكم المطلق والقاضي هو الله.

فشهدوا أنهم لا يعبدون سوى الله، ولا يشركون به فما منا من شهيد يشهد أنا نعبد سوى الله. فحتماً يسألهم الله أين ما كنتم تشركون يقولون ضلوا عنا ﴿ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ ﴾ من قبل من دون الله فقد غابوا وتلاشوا، وقد علمت الخلائق المكلفة أنه ليس غير الله يحكم بين العباد في هذا الموقف وحينما ينادي سادتهم في الدنيا ﴿ أَيۡنَ شُرَكَآءِي ﴾ ويقولون ليس لك شريك ولا ند من قبل وعلموا أنهم محاسبون على فعلهم وليس لهم مخرج من هذا الموقف العظيم وظنوا هنا معناها علموا فقد تيقنوا أن ليس لهم مخرج من هذا الموقف ولا فرار من هذا العذاب ﴿ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣].. فمالهم من محيص أي مهرب من المأزق.

علاقة المقطع بالمحور

ذكر الله هذه الحقائق جميعها في القرآن الكريم الذي قال الله عنه ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾ فتكون هذه الحقائق مادته وعلته ايضاً.

الهداية في الآيات:

* إن الله سبحانه انفرد بعلم الساعة أي يوم القيامة فلا يعلمه غيره حتى الملائكة كما جاء في الحديث أن جبريل سأل الرسول ﷺ عن الساعة فقال له: ليس المسؤول بأعلم من السائل. أي لا جبريل ولا الرسول ﷺ يعلمون موعدها، حتى موعد موت الإنسان لا يعرفه ولا سببه أحد حتى الإنسان نفسه.

* إن الله أحاط علمه بكل خلقه ما يخفون وما يعلنون فهو واقع في محيط علمه.

* إن المشركين يتبرؤون يوم القيامة من معبوداتهم فينكرونها كما أن المعبودات ينكرون أنهم طلبوا منهم أن يعبدونهم.

تردد الإنسان نفسياً من الأحداث حوله

﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

علاقة المقطع بما سبقه

في الآيات السابقة قال تعالى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾

وفي هذا المقطع يقول الله عز وجل ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ فينبئهم بما ضل عنهم

وهذه نتيجة حتمية لما لا يمكن أن يفر الانسان منه ولا يستطيع أن يخلصه منه أحد من الذين أشركهم مع الله مما أعد الله جزاءً وفاقاً.

التفسير الاجمالي

وهكذا الإنسان إن أنعم الله عليه قال هذا من جهدي وسعيي كما قال قارون ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ وإذا أصابه سوء أو أذى فيلح في طلب رفع الضر عنه.

ألم يبلغك أن الله أنزل قرآنا فكذبه فإذا علمت أنه من الله أو كنت بين التصديق والكفر فأي الطريقين أسلم ألم يكن اتباعك القرآن مع شكك به خير لك من العناد فإنه سوف ينالك وعيد الله لك ولا يضرك لو اتبعت القرآن فسوف تعلم حقاً أنه من الله ويزول شكك ولم تكن قد خسرت شيئاً باتباعك له.

﴿ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ ﴾ وفي هذه الآيات يعالج القرآن الكريم الحالة النفسية للإنسان بعد أن يصفها وصفاً دقيقاً، فلا يمل الإنسان من طلب الخير، فسر قسم من العلماء الخير بالمال وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على أن الخير يراد به المال في كثير من الآيات. ولكن هذا لا يطرد فقد ورد الخير في آيات من القرآن الكريم يراد به كل ما يجلب نفعاً للإنسان في الدين أو في الدنيا، فقد قال تعالى: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ [البقرة: ١٨٤].. فلا يراد هنا المال بأي حال من الأحوال.

فالإنسان لا يمل من طلب المال أو الصحة أو كل ما يجلب له نفعاً. ولكنه إن مسه الشر أي أنواع الشر، نقص في المال أو الجاه أو الصحة فينقطع أمله في النجاة أو عود الخير له ويظهر ذلك في تصرفاته وعلى وجهه فالقنوط أعلى أنواع اليأس لأن اليأس من أعمال القلب فإذا ظهر أثره على الوجه فإنه قنوط.

فهو يقنط لأي سوء أصابه لأن ارتباطه بالله ضعيف جداً وكما مر بالآيات السابقة أن ظنهم بالله أرداهم فالمؤمن إن أصابه خير شكر وإن أصابه ضر صبر وبكليهما ينتظر الأجر من الله فهو سعيد في الحالتين.

﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾.. وهذا هو شأن الإنسان

فإن قارون حينما أتاه الله الثروة الكبيرة قال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ [القصص: ٧٨]، وكذا صاحب الجنتين قال: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴾ [الكهف: ٣٦]، والإنسان غير المؤمن أو ضعيف الإيمان ينسى فضل الله عليه بالنعمة فإذا أصابه ضر تذكر الله جل وعلا عكس المؤمن ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾[آل عمران:١٩١]، ولهذا حينما يؤتيه الله خيراً برحمته يقول هذا ما استحقه بمكانتي وبعملي أو بمركزي الاجتماعي ولا يشكر الله الذي أسدى إليه النعمة ولا يعلم أن هذا الخير اختبار له أيشكر أم يكفر؟ ﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ ﴾ [الفجر: ١٥]، ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾، فهو يكفر بالحساب بعد الموت ويقول لو قلتم أن هناك حشر وحساب وحياة أخرى فإني سوف أحظى بنفس المنزلة التي كنت عليها في الدنيا لأنه ﴿ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي ﴾، فإذا كانت هذه من استحقاقاته وليس بفضل من الله فإنها في الآخرة كذلك فيجيبه الله تعالى: ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴾.. فيخبره الله أن أعمالك هذه في الدنيا وكفرك ومحاربتك الدعوة تستحق عليها هذا العذاب الشديد فإن الغلظة هي الشدة في جميع الأمور.

ولا تستحق الحسنى ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ۝٥١ ﴾ يتكرر الموقف بصور مختلفة، لأن الحالة تتكرر كثيراً، فهو لا يسأم من طلب الخير وهو يتضجر إن أصابه ضر وعندما يؤتيه الله تعالى خيراً فإنه يقول أن هذا ما استحقه، ولذا يأتي النص القرآني يكذبه، فيقول الله له إذا كان هذا ما تستحقه بعملك أو بعلمك أو بمقامك عند الله فلم أذهبه الله عنك؟ أو لم ذهب عنك!!؟ والبطر والتكبر لا يفارق الإنسان غير المؤمن أو ضعيف الإيمان، فإذا أصابته نعمة تكبر ونأى بجانبه فهو يعرض ويتكبر ويتبختر بمشيته وإذا ذهبت عنه نعمة الله يعود إلى الله متضرعاً ناسياً كفره لنعمة الله عليه، تكبره على خلق الله ادعاؤه العظمة والنباهة والحذق. نماذج كثيرة يبرزها القرآن الكريم عن هذه الحقائق.

نعوذ بالله من البطر والأشر والتكبر والجحود وكفران النعمة.

نزلت هذه الآيات في كفار قريش كالوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.

علاقة الآيات بالمحور

لقد نبأ الله الإنسان بكل ما عمل ولقد ذكر له في القرآن الكريم كل ما سوف يناله في أي صورة من الصور كان عمله أو عقيدته ولكنه أعمى عيونه وأصم آذانه عن كل الحق.

الهداية في الآيات:

* إن الإنسان لا يمل من طلب الخير إن كان مالاً أو كل ما يجلب له نفعاً وإذا مسه الشر فسرعان ما ييأس ويظهر على وجهه وفي تصرفه اليأس والقنوط.
* إذا خول الله الإنسان نعمة فسرعان ما يدعيها ويعتبرها من مستحقاته ومما يجب له.
* يعتبر كل نعمة أصابته أنه حصلها بعلمه وبعمله وبها يستحق.

تحقيق أن القرآن من الله جل وعلا

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾.

علاقة الآيات بما سبقها

كأن هذه الآيات لها علاقة بجميع السورة لأنه في هذه الآيات يدعو إلى التفكر ثم يبين أن جميع ما في الكون يدل على أن القران الكريم من الله فبعد أن ذكر صفاته وما احتواه من إشارة إلى السنن الكونية وغيرها.

يقول ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ وبهذه الآيات سيعلمون أن القرآن حق وأن منزله هو الله عز وجل لأنه لايستطعيه مخلوق.

التفسير الاجمالي

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.. القرآن منزل من الله تعالى، فاعرضوه على عقولكم وناقشوه مناقشة من يفتش عن الحقيقة حتى لو كان مصدرها عدوه، فإذا ثبت أنه من عند غير الله فأنتم على موقفكم ولكن إن ثبت أنه من عند الله فستكون خسارتكم عظيمة وخيبتكم ثقيلة ولا يمكن التراجع.

ولذا فإن الله قال لا يوجد ضال أكثر ضلالاً من المغالطين، الذين هم في شقاق ونزاع ورفض لكل سبل الخير والمنطق السوي والعقل. هل بعد هذا الضلال من ضلال.

فموقف المشركين المغالطين من القرآن الكريم أولاً قالوا قلوبنا في أكنة وثانياً قالوا بيننا وبينك حجاب وثالثاً قالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغو فيه فاتبعوا جميع السبل غير العاقلة والتي تدل على جهلهم ومغالطتهم وعدم قبولهم الحق.

فهذا يدل على قوة القرآن الذاتية ودخوله النفس الإنسانية من أزهى جوانبها وثالثاً يرسم الحياة الإنسانية الكريمة التي لا يسع أحد رفضها ولا يستطيع أحد أن ينقضها أو يأتي بخير منها.

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.. إن هذا القرآن كالخارطة للكون في جميع جزئياته ولذا فإننا نرى في كل جيل ما يكتشف أن هناك حقيقة في القرآن الكريم لم يدركها الناس في وقت سابق.

والاكتشافات العلمية في جميع آفاق الكون وفي جميع مناحيه وأبعاده والسنن التي بني عليها تدل على صدق القرآن ومن وقت قريب اكتشفوا أن البحار تحتفظ بخاصياتها حتى في مواطن التقائها ولا تختلط ببعضها. فقال لهم المسلمون إن القرآن الكريم قال لنا ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن: ١٩-٢٠].. وقال تعالى: ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٣]..

وقبلها علموا أن المعادن تتكون في الجو هي وأسباب الحياة الإنسانية كالمياه العذبة وغيرها فقال لهم المسلمون أخبرنا الله في القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾.

وفي كل وقت يكتشف الإنسان أن في نفسه في جسمه في تركيبه أشياء تظهر تباعاً ذكرها القرآن الكريم ولكن الناس عنها غافلون أو أن كل جيل يفسرها بما توصل إليه من علوم فالنفس الإنسانية فيها أغوار وزوايا لا يعلمها إلا الله.

فالآية فيها دليل إعجاز يقول للإنسان أتحداك أن تقول أنك علمت كل ما في القرآن الكريم من العلوم، فكل جيل من العلماء يكتشفون في جسم الإنسان وفي نفسه أشياء لم يطلع عليها أسلافهم ويقول أتحداك أن تدرك حقيقة نفسك التي بين جنبيك.

ولذا فإن الله تعالى قال سنريهم كل مايدل على أن القرآن حق وأنه من عند الله أن في الطبيعة التي حولنا أو في النفس الإنسانية التي بين جنبينا.

ويعود السياق يذكر ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾.. متى تعودون إلى الله وتتبعون كتابه وتنتهجون نهجه؟

الدولة الإسلامية التي سبقت الغزو الغربي الذي فرق المسلمين على دول صغيرة تعمل برأيه وتأتمر بأمره هذه الدولة كان وجودها يدل على أن الإسلام هو الأقوى وأن القرآن هو النهج الحق الذي تسعد الإنسانية باتباعه ولا تسعد بغيره.

ولذا فإن القرآن الكريم يصرخ بالمسلمين صباح مساء أن لا تتبعوا مناهج غير الله ولا تسيروا بمناهج أعدائكم ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾، و﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٣].

وينادي المسلمين أن هذا طريق الفلاح والنجاح والعزة والكرامة فتوحدوا فإن الله وحدكم بالقرآن فتوحدوا به وله حتى تحكموا العالم وتتصدروا الإنسانية كما وضعكم ربكم له من مكانة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتعدلون

ميزان القيم وتقيمون اعوجاج الإنسانية التي شقيت به؟

﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾..

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ هذا الابتعاد وهذا التخبط مبعثه شكهم في لقاء الله ومحاسبتهم عما انتهجوا، وعماهم فيه من الشقاء الذي جلبوه لأنفسهم.

إن الله يعلم متقلبكم ومثواكم ويعلم ما في نفوسكم ألم يكن يعلم ما تعملون؟ ألا إنه بكل شيء محيط ولكنكم غافلون ساهون لا تريدون النجاة.

علاقة المقطع بالمحور

لايمكن أن تفارق السورة محورها وموضوعها وكلما استطردت في الأدلة والشواهد نجدها شواهد قرآنية أو على مايعنيه القرآن الكريم، وفي هذه الآيات دعوة للإنسان على تدبر القرآن الكريم ستجد جميع ما في الكون يشهد أن القرآن الكريم منزل من الله عزوجل وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الهداية في الآيات:

* إن الله سيظهر للإنسان أن القرآن حق وأنه من عند الله فثبت بالدلائل في الحال والمستقبل أنه من عند الله، وقد ظهرت هذه الدلائل فإن علماء اليهود والنصارى في كل جيل يظهر منهم من يكتشف أن ما جاء به القرآن حق وأنه من عند الله.
* إن اكتشاف الإنسان لنفسه وعملياته الحيوية تشير إلى أن الذي أخبر به القرآن الكريم عن نفس الإنسان وعن أعماله الحيوية هو الصدق.
* إن تشريعات القرآن الكريم تثبت يوماً بعد يوم وفي كل جيل أن القرآن هو الصدق وهو الذي شرع للإنسان ما ينفعه من حيث أنه لم يستطع أن يشرع لنفسه ما يسعدها.

من ذلك انتشار المصارف الإسلامية في غير بلدان المسلمين فقد أثبتت أن تنظيم القرآن

الكريم للاقتصاد هو الذي ينفع الإنسان.

* حرم الله الربا والإنسانية يوماً بعد يوم تثبت أن الربا كارثة إنسانية ؟؟؟؟

وغير ذلك فإن الله تعالى أرانا في الطبيعة وفي أنفسنا أن القرآن منزل منه عز وجل وليس للإنسان دخل فيه.


تفسير
مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

سورة الشورى

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

سُميت «سورة الشورى» بهذا الاسم تنويها بمكانة الشورى في الإسلام، وتعليما للمؤمنين أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج الأمثل الأكمل منهج الشورى، لما له من أثر عظيم جليل في حياة الفرد والمجتمع.

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواهُ الإمام أحمد وغيره عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ) (1).

ج - مكية السورة:

سورة الشورى مكية ماعدا الآيات ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، فمدنية. وترتيبها في المصحف الشريف الثانية والأربعون (٤٢). نزلت بعد سورة فصلت. من الجزء «٢٥» الحزب «٤٩».

عدد آيات السورة. عدد آياتها ٥٣ (2).

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/ ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى ص: ٢٢٤.

(٢) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ١٨٦.

محور السورة:

هذه السورة الكريمة مكية، وموضوعها نفس موضوعات السور المكية التي تعالج أمور العقيدة: « الوحدانية، الرسالة، البعث والجزاء». والمحور الذي تدور عليه السورة هو: «الوحي والرسالة» وهو الهدف الأساس للسورة الكريمة.

المناسبات في السورة الكريمة:

١. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع سورة الشورى وخاتمتها واضحة جدا، ففي بداية السورة حديث عن القرآن الكريم في قول الله تعالى:﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾

وفي نهاية السورة حديث أيضا عن القرآن الكريم في قول الله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة الشورى وخاتمة السورة التي قبلها: (فصلت) ففي نهاية سورة فصلت حديث عن القرآن الكريم:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ وجاء الحديث عن القرآن الكريم في افتتاحية سورة الشورى في قول الله تعالى:﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾

٣. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

هناك ارتباط بين مضمون سورة (الشورى) والسورة التي قبلها (فصلت)، وذلك في مواضع عديدة منها ما يلي:

* **في السورتين حديث عن القرآن الكريم**؛ جاء ذلك في سورة فصلت في الآيات الكريمة الآتية:

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾

وجاء الحديث عن القرآن الكريم في سورة الشورى في الآيات التالية:

﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ﴾

* **في السورتين حديث عن دلائل وحدانية الله تعالى وقدرته:**

ففي سورة فصلت: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا

بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ
لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ
أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

وجاء الحديث عن دلائل وحدانية الله تعالى في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ
خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ وَمَآ
أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي
ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾
إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ
بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾ ﴾

* **في السورتين حديث عن جزاء المؤمنين، ومصير الكافرين:**

جاء ذلك في سورة فصلت في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ
فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ
وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

وجاء الحديث عن جزاء المؤمنين، ومصير الكافرين في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾.

تنزيل الوحي وبيان جلال الله تعالى وعظمته

﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

تبتدئ السورة الكريمة بتقرير مصدر الوحي، ومصدر الرسالة، فاللهُ ربُّ العالمين هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي اصطفى لرسالاته من شاء من عباده، ليخرجوا الإنسانية من ظلمات الشرك والضلال، إلى نور الهداية والإيمان.

وهذه الحروف المقطعة﴿ حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ ﴾ ذكرت للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها. (١)

---

(١) حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين. وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا. وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.=

ومثل ما أوحى إليك ربك يا محمد هذا القرآن، أوحى إلى الرسل من قبلك في الكتب المنزلة، وهذا كقوله جل شأنه: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء: ١٦٣].

والذي أوحى إليك وإلى إخوانك من المرسين هو اللهُ العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، له ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً، هو المتعالي فوق خلقه، المنفرد بالكبرياء والعظمة.

تكاد السماواتُ يتشققن من عظمة الله وجلاله، ومن شناعة ما يقوله المشركون من اتخاذ الله الولد. والملائكةُ الأبرار دائبون في تسبيح الله، ينزهونه عما لا يليق به ويطلبون المغفرة لذنوب من في الأرض من المؤمنين.[(١)]

والآية عمومٌ يراد به الخصوص، لأن الملائكة إنما يستغفرون للمؤمنين من أهل الأرض [(٢)] يقول صاحب الظلال: « الملائكة أهل طاعة مطلقة، فقد كانوا أولى الخلق بالطمأنينة. ولكنهم

= يراجع: تفسير ابن كثير ١ / ٣٩، ومفاتيح الغيب ١ / ١٢٧، والكشاف ١ / ١٣.

وممن اختار هذا الرأي الأخير وانتصر له، من المفسرين المعاصرين: صاحب الظلال، حيث يقول رحمه الله: « هذه الأحرف إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه – مع هذا – هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جوابا»، في ظلال القرآن ١ / ٣٨ بتصرف يسير.

ونود أن نشير إلى أن الكلام السابق إنما هو اجتهاد في بيان الحكمة من إيراد هذه الأحرف. أما القول في بيان معناها فهذا ما لا ينبغي ولا يجوز الكلام فيه، لأنه لا سبيل إلى معرفة حقيقة معناها على وجه اليقين، فهي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه؛ ذلك أنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه تكلم في هذه الحروف بشيء على الإطلاق، ولم يسأله أصحابه الكرام عن شيء منها. والأولى أن نقف حيث وقفوا، ويسعنا ما وسع الصحب الكرام، والتابعون لهم بإحسان.

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٢.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ١٧.

دائبون في تسبيح ربهم، لما يحسون من علوه وعظمته، ولما يخشون من التقصير في حمده وطاعته. ذلك بينما أهل الأرض المقصرون الضعاف ينكرون وينحرفون؛ فيشفق الملائكة من غضب الله ويروحون يستغفرون لأهل الأرض مما يقع في الأرض من معصية وتقصير.

ويجوز أن يكون المقصود هو استغفار الملائكة للذين آمنوا، كالذي جاء في سورة غافر: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧]. وفي هذه الحالة يبدو: كم يشفق الملائكة من أية معصية تقع في الأرض، حتى من الذين آمنوا، وكم يرتاعون لها، فيستغفرون ربهم وهم يسبحون بحمده استشعاراً لعلوه وعظمته؛ واستهوالاً لأية معصية تقع في ملكه؛ واستدرارا لمغفرته ورحمته؛ وطمعاً فيهما. »(١)

ألا فانتبهوا أيها القوم: إن الله هو الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم حيث لا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم. قال القرطبي: هيَّب وعظَّم جل وعلا في الابتداء، وألطف وبشَّر في الانتهاء.(٢)

والذين جعلوا له شركاء وأنداداً فإنه سبحانه رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم، لا يفوته منها شيءٌ، وهو محاسبُهم عليها وما أنت يا محمد بموكَّل على أعمالهم حتى تقسرهم على الإيمان، إنما أنت منذرٌ فحسب.(٣)

من هداية الآيات:

* وحدة الوحي بين سائر الأنبياء، إذ هي تدور على التوحيد والنبوة والبعث والجزاء والترغيب في الصالحات، والترهيب من الموبقات.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٤٠.

(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٥.

(٣) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٣٣.

* بيان عظمة الله تعالى وجلاله وكماله، حتى إن السموات تكاد يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمده تعالى ويستغفرون للمؤمنين.

* تسلية الرسول ﷺ والتخفيف عنه بأنه غير موكل بحفظ أعمال المشركين ومجازاتهم عليها. إنما هو الله تعالى، وما على الرسول إلا البلاغ المبين. (١)

مقاصد الوحي الإلهي

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

وكما أوحينا إلى الرسل قبلك أوحينا إليك يا محمد قرآناً عربياً معجزاً، بلسان العرب، لا لبس فيه ولا غموض، لتنذر بهذا القرآن أهل مكة ومن حولها من البلدان. (٢)

وأُمُّ القُرى أصلُ القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها، لأن فيها البيت ومقام إبراهيم، والعربُ تسمي أصل كل شيءٍ أمه، حتى يقال: هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان. (٣)

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٩٠ بتصرف يسير.

(٢) يراجع: التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨/ ٤٢٨.

(٣) مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٢٧ / ١٤٧.

وخص أهل أم القرى ومن حولها بالذكر في الإنذار، لأنهم أقرب الناس إليه ﷺ كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وليس معنى هذا التخصيص أن رسالته ﷺ كانت إليهم وحدهم، لأن هناك آيات أخرى كثيرة قد صرحت بأن رسالته ﷺ كانت إلى الناس كافة، ومن هذه الآيات: قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقوله عز وجل: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وتنذر الناس ذلك اليوم الرهيب، يوم اجتماع الخلائق للحساب في صعيدٍ واحد، وهذا اليوم لا شك في وقوعه، ولا محالة من حدوثه، فريقٌ من هذا الجمع في جنات النعيم، وهم المؤمنون، وفريق منهم في دركات الجحيم، وهم الكافرون، حيث ينقسمون بعد الحساب إلى أشقياء وسعداء،

ولو شاء الله لجعل الناس كلهم مهتدين، أهل دينٍ واحدٍ وملةٍ واحدة وهي الإسلام، ولكنَّه تعالى حكيمٌ لا يفعل إلاَّ ما فيه المصلحة، فمن علم منه اختيار الهدى يهديه فيدخله بذلك في جنته، ومن علم منه اختيار الضلال يضلُّه فيدخله بذلك السعير، ولهذا قال: والكافرون ليس لهم وليٌّ يتولاهم يوم القيامة، ولا نصيرٌ ينصرهم من عذاب الله. (١)

والآية تسليةٌ للرسول ﷺ عمَّا كان يقاسيه من كفر قومه، وتوقيفٌ على أنَّ ذلك راجعٌ إلى مشيئته جل وعلا، ولكنْ من سبقت له السعادة أدخله في رحمته، يعني دين الإسلام. (٢)

وينكر الله تعالى على المشركين اتخاذهم من دون الله آلهة، يستعينون بهم، ويطلبون نصرهم وشفاعتهم. كيف ذلك واللهُ وحده هو الوليُّ الحقُّ الناصرُ، لا وليَّ سواه هو تعالى القادر على إحياء الموتى، لا تلك الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، لا يعجزه شيء، فهو سبحانه الحقيق بأن

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٣٣.
(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ٧/ ٥٠٩.



يُتخذ ولياً دون من سواه.

وما اختلفتم فيه أيها المؤمنون من شيء من أمر الدنيا أو الدين، فالحكم فيه إلى الله جل وعلا، هو الحاكم فيه بكتابه أو بسنة نبيه ﷺ، الموصوف بهذه الصفات هو ربي وحده، وَلِيِّي ومالك أمري. (١) وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى -: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

والله أنزل حكمه القاطع في هذا القرآن الكريم؛ وقال قوله الفصل في أمر الدنيا والآخرة وأقام للناس المنهج الذي اختاره لهم في حياتهم الفردية والجماعية، وفي نظام حياتهم ومعاشهم وحكمهم وسياستهم، وأخلاقهم وسلوكهم. وبيّن لهم هذا كله بياناً شافيا. وجعل هذا القرآن دستوراً شاملاً لحياة البشر، أوسع من دساتير الحكم وأشمل. فإذا اختلفوا في أمر أو اتجاه فحكم الله فيه حاضر في هذا الوحي الذي أوحاه إلى رسوله ﷺ لتقوم الحياة على أساسه. (٢)

ثم بيَّن تعالى صفاته الجليلة القدسية، التي هي من آثار ومظاهر الربوبية فأخبر أنه سبحانه خالق السموات والأرض ومبدعهما على غير مثالٍ سابق، أوجد لكم بقدرته من جنسكم نساءً من الآدميات، وخلق لكم كذلك من الإبل والبقر والضأن والمعز أصنافاً، ذكوراً وإناثاً يكثّركم بسببه بالتوالد، ولولا أنه خلق الذكر والأنثى لما كان ثَمة تناسلٌ ولا توالدٌ، ليس له تعالى مثيلٌ ولا نظير، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو الواحد الأحد، الفردُ الصمد. (٣)

وفي قوله تعالى: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ قال القرطبي - رحمه الله -: الذي يُعتقد في هذا الباب أن الله - جلَّ اسمُه - في عظمته وكبريائه، وملكوته وحُسنى أسمائه، لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، ولا يُشبَّه به أحد، وما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي، إذْ صفاتُ القديم - عزَّ وجلَّ - بخلاف صفات المخلوق، وإذْ صفاتُهم لا تنفك عن

(١) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٤ بتصرف.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٤٥.
(٣) يراجع: التفسير الميسر، مجموعة من العلماء ٨ / ٤٣٢.

الأعراض والأغراض، وهو تعالى منزَّه عن ذلك.

وقد قال بعض المحققين: التوحيدُ إثباتُ ذاتٍ غير مشبهةٍ للذوات، ولا معطَّلة من الصفات، وزاد الواسطيُّ فقال: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم، ولا كفعله فعل، وهذا مذهب أهل الحق، أهل السنة والجماعة.(١)

وهو تعالى السميع لأقوال العباد، البصير بأفعالهم، بيده جل وعلا مفاتيح خزائنهما من المطر والنبات وسائر الحاجات، يوسِّعُ الرزق على من يشاء، ويضيّق على من يشاء، حسب الحكمة الإلهية.

من هداية الآيات:

* تقرير النبوة المحمدية بإثبات الوحي الإلهي.
* شرف مكة بتسميتها أم القرى أي أم المدن والحواضر.
* انقسام الناس يوم القيامة إلى سعيد وشقي.
* لم يشأ الله أن يجعل الناس أمة واحدة، وذلك لحكم عالية، ومقاصد سامية علمها إليه سبحانه.
* من طلب ولاية غير الله هلك، ومن والى الله دون من سواه كفاه الله ما أهمه.
* وجوب ردّ ما اختُلف فيه إلى الله تعالى ليحكم فيه، وهو الرد إلى الكتاب والسنة.
* وجوب التوكل على الله والإنابة إليه في كل الأمور.
* تنزيه الله تعالى عن مشابهته لخلقه، مع وجوب الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.
* وجوب الإيمان بأن الله تعالى هو الرزاق، بيده مفاتيح خزائن الأرزاق، فمن شاء وسع عليه، ومن شاء ضيق. وكل ذلك وفق حكمته البالغة.(٢)

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ٨.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٩٢ وما بعدها بتصرف.

وحدة الأديان في أصولها

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

تعود السورة الكريمة للحديث عن حقيقة الوحي والرسالة، فتقرر أن الدين واحدٌ أرسل الله تعالى به جميع المرسلين، وأن شرائع الأنبياء وإن اختلفت إلاَّ أن دينهم واحد، وهو الإسلام الذي بعث الله به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الرسل الكرام.

قال الصاوي: خصَّ هؤلاء بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء، واحداً بعد واحد، وشريعةً إثر شريعة، حتى ختمها الله بخير الملل، ملةِ أكرم الرسل نبينا محمد ﷺ، فتبيَّن أن شرعنا - معشر الأمة المحمدية - قد جمع جميع الشرائع المتقدمة في أصول الاعتقادات، وأصول الأحكام. (١)

والمراد بما شرعه - سبحانه - على ألسنة هؤلاء الرسل: أصول الأديان التي لا يختلف فيها دين عن دين، أو شريعة عن شريعة، كإخلاص العبادة لله - تعالى - والإيمان بكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر، والتحلي بمكارم الأخلاق كالصدق والعفاف.

أما ما يتعلق بفروع الشرائع، كتحليل بعض الطيبات لقوم على سبيل التيسير لهم وتحريمها على قوم على سبيل العقوبة لهم فهذا لا يدخل في الأصول الثابتة في جميع الأديان، وإنما يختلف باختلاف الظروف والأحوال. (٢)

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٣٢.

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٧٥٩.



ووصينا هؤلاء الرسل بأن أقيموا الدين الحق - دين الإسلام - الذي هو توحيدُ الله وطاعتهُ، والإيمان بكتبه ورسله، وبالبعث والجزاء.

قال القرطبي: المراد اجعلوا الدين قائماً مستمراً محفوظاً من غير خلافٍ فيه ولا اضطراب، في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي: التوحيد، والصلاة، والصيام والزكاة، والحج، وغيرها، فهذا كله مشروع ديناً واحداً وملة متحدة. (١)

عظُم وشقَّ على الكفار ما تدعوهم إليه من عبادة الله، وتوحيد الواحد القهار.

الله تعالى يصطفي ويختار للإيمان والتوحيد من يشاء من عباده، ويهدي إلى دينه الحق من يرجع إلى طاعته، فيوفقه له ويقربه إليه رحمةً وإكراماً. (٢)

وما تفرَّق أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم إلاّ من بعد ما قامت عليهم الحجج والبراهين من النبي المرسل إليهم، وكان تفرقهم هذا ظلماً وتعدياً، وحسداً وعناداً، ولولا أن الله قضى بتأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة لعجَّل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً باستئصالهم.

قال ابن كثير: أي لولا الكلمة السالفة من الله تعالى بإنظار العباد إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة سريعاً. وإن بقيَّة أهل الكتاب الذين عاصروا رسول الله ﷺ من بعد أسلافهم السابقين لفي شك من التوراة والإنجيل، موقع لهم في أشد الحيرة والريبة، لأنهم ليسوا على يقين من أمر دينهم وكتابهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا برهان. (٣)

من هداية الآيات:

* دين الله واحد وهو الإيمان والاستقامة على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.
* حرمة الاختلاف في دين الله المسبب تضييع الدين كلا أو بعضا.

---

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١١.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٥.

(٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٢٧٢.

* مرد التفرق في الدين إلى الحسد والبغي بين الناس. (١)

* أهل الكتاب ليسوا على شيىء يقيني من دينهم، بل هم في ظلمات الشك يترددون.

الأمر بالدعوة والاستقامة، وإبطال حجج المعاندين

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾

التفسير الإجمالي

فلأجل وحدة الدين، وعدم التفرق فيه، فادعهم إلى إقامة الدين، وثابر على تلك الدعوة كما أمرك الله، ولا تساير أهواء المشركين، وقل: آمنت بجميع الكتب التي أنزلها الله على رسله وأمرني الله بإقامة العدل بينكم، وقل لهم: الله خالقنا وخالقكم، لنا أعمالنا لا لكم، ولكم أعمالكم لا لنا، لا احتجاج بيننا وبينكم لوضوح الحق. الله يجمع بيننا للفصل بالعدل، وإليه - وحده - المرجع والمآل. (٢)

قال الرازي: يعني الإيمان بجميع الكتب السماوية، لأن أهل الكتاب المتفرقين في دينهم

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣ / ٤٩٥.

(٢) المنتخب ٢ / ٣٤٤.



آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض وأمرني ربي بأن أعدل بينكم في الحكم.[١]

الله خالقنا جميعاً ومتولي أمورنا فيجب أن نفرده بالعبادة، لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم، من خير أو شرٍّ، لا نستفيد من حسناتكم ولا نتضرر من سيئاتكم.[٢]

قال ابن كثير: هذا تبرؤٌ منهم، أي نحن برآء منكم، كقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ [يونس: ٤١]، لا جدال ولا مناظرة بيننا وبينكم، فإن الحقَّ قد ظهر وبَانَ، كالشمس في رابعة النهار، وأنتم تعاندون وتكابرون. الله يجمع بيننا يوم القيامة لفصل القضاء، وإليه المرجع والمآب، فيجازي كل أحدٍ بعمله من خير وشر.[٣]

قال الصاوي: والغرضُ أن الحقَّ قد ظهر، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، وبعد العناد لا حجة ولا جدل، والله يفصل بين الخلائق يوم المعاد، ويجازي كلاً بعمله.[٤]

وهذه الآية الكريمة من الآيات العظيمة، ولا نظير لها إلا آية الكرسي، فإنها عشرة أصول كل أصل منها مستقل برأسه.[٥]

والذين يخاصمون في دين الله لصدِّ الناس عن الإيمان من بعد ما استجاب الناسُ له ودخلوا في دينه حجتهم باطلة، لا ثبوت لها عند الله. قال ابن عباس: نزلت في طائفةٍ من بني إسرائيل همَّت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومحاجتهم بالباطل، وهؤلاء الجاحدون عليهم غضب عظيم في الدنيا، وعذابٌ شديد في الآخرة.[٦]

والله تعالى نزَّل القرآن وسائر الكتب الإلهية متلبساً بالصدق القاطع، والحقِّ الساطع، في

---

(١) مفاتيح الغيب ٢٧ / ١٥٨.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٣٦.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٧٣.

(٤) حاشية الصاوي ٤/ ٣٣.

(٥) نظم الدرر، للبقاعي ٧ / ٣٩٦.

(٦) البحر المحيط ٧/ ٥١٣.

أحكامه وتشريعاته وأخباره. ونزَّل الميزان أي العدل والإنصاف. وسمي العدلُ ميزاناً لأن الميزان يحصل بـه العدل والإنصاف، فهو من تسمية الشيء باسم السبب. [١]

« فالله أنزل الكتاب بالحق وأنزل العدل؛ وجعله حكما فيما يختلف فيه أصحاب العقائد السالفة، وفيما تختلف فيه آراء الناس وأهواؤهم؛ وأقام شرائعه على العدل في الحكم. العدل الدقيق كأنه الميزان توزن به القيم، وتوزن به الحقوق. وتوزن به الأعمال والتصرفات». [٢]

وما ينبئك أيها المخاطب لعلَّ وقت الساعة قريب ؟ فإن الواجب على العاقل أن يحذر منها، ويستعدَّ لها. قال أبو حيان: ووجه اتصال الآية بما سبق أن الساعة يوم الحساب فكأنه قيل: أمركم الله بالعدل والتسوية قبل أن يفاجئكم اليوم الذي يحاسبكم فيه ويزن أعمالكم. [٣]

يستعجل بالقيامة المشركون الذين لا يصدّقون بها، فيقولون على سبيل الاستهزاء: متى تكون ؟ والمؤمنون المصدّقون بها خائفون وجلون من قيامها، ويعلمون أنها كائنة وحاصلة لا محالة. والذين يجادلون في أمر القيامة في ضلال بعيد عن الحق، لإنكارهم عدل الله وحكمته. [٤]

والله تعالى بارٌّ رحيم بالخلق كثير الإحسان بهم، يفيض عليهم من الخيرات والبركات مع عصيانهم. قال مقاتل: لطيف بالبر والفاجر حيث لم يهلكهم جوعاً بمعاصيهم. يرزق من يشاء كما يشاء، وهـو الغالب علـى كل شيء، المنيع الذي لا يغلب. [٥]

---

(١) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٣٧.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٥٠.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٥١٣.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٣٧.

(٥) البحر المحيط، لأبي حيان ٧/ ٥١٤.

قال القرطبي: وفي تفضيل قوم بالمال حكمة، ليحتاج البعضُ إلى البعض، وهذا من لطفه بالعباد، وأيضاً ليمتحن الغنيَّ بالفقيرِ، والفقير بالغني كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠]. [١]

من هداية الآيات:

* وجوب الدعوة إلى الإسلام بين أمم العالم إذ لا نجاة للبشرية إلا بالإسلام.
* حرمة اتباع أهل الأهواء والسير معهم وموافقتهم في باطلهم.
* وجوب الاستقامة على الإسلام، عقائد وعبادات وأحكام قضائية وآداب وأخلاق.
* تعين ترك الحجاج والمخاصمة مع أهل الكتاب وأهل الأهواء.
* بيان بعض الحكمة في إنزال الكتاب والميزان، وهو أن يحكم الناس بالقسط.
* المستعجلون بالساعة هم الكافرون الجاحدون لها. [٢]

---

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ١٨.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٩٧- ٤٩٩.

حتمية الجزاء للمؤمنين والظالمين، وقبول التوبة

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما بيَّن سبحانه كونه لطيفاً بالعباد، كثير الإحسان إليهم، أشار إلى أن الإنسان ما دام في هذه الحياة فعليه أن يسعى في طلب الخيرات لأسباب السعادة فقال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ (١)

التفسير الإجمالي

يبين الله تعالى هنا سنته التي لا تتخلف في أن الأعمال بمقاصدها، وأن الجزاء مرتب على الأعمال. فمن كان يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها، نزدْ له في أجره وثوابه، بمضاعفة حسناته. ومن كان يريد بعمله متاع الدنيا ونعيمها فقط، نعطه بعض ما يطلبه من المتاع العاجل مِمَّا قُدر له، وليس له في الآخرة حظٌّ من الثواب والنعيم.

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٣٨.



قال الزمخشري: سمَّى ما يعمله العامل مما يبتغي به الفائدة حرثاً على سبيل المجاز، وفرَّق بينهما بأن من عمل للآخرة ضوعفت حسناته، ومن عمل للدنيا أُعطي شيئاً منها، لا ما يريده ويبتغيه. (١)

وقال ابن جزي: حرثُ الآخرة عبارة عن العمل لها، وكذلك حرث الدنيا، وهو مستعارٌ من حرث الأرض، لأن الحَرَّاث يعمل وينتظر المنفعة بما عمل. (٢)

ثم أخذ ينكر على الكفار عبادتهم لغير الله، مع أنه الخالق المتفضل على العباد فقال متسائلا على سبيل الاستفهام للتقرير والتوبيخ: ألهؤلاء الكفار شركاء من الشياطين أو آلهة من الأوثان، شرعوا لهم الشرك والعصيان الذي لم يأمر به الله ؟

فالآية الكريمة تنكر عليهم شركهم بأبلغ أسلوب، وتؤنبهم على جهالتهم حيث أشركوا بالله تعالى دون أن يكون عندهم دليل، أو ما يشبه الدليل على صحة ما وقعوا فيه من باطل.

« وإسنادُ الشرع إلى الأوثان وهي جمادات إسنادٌ مجازي، من إسناد الفعل إلى السبب وسمَّاه ديناً للمشاكلة والتهكم»(٣).

« وليس لأحد من خلق الله أن يشرع غير ما شرعه الله وأذن به كائناً من كان؛ فالله وحده هو الذي يشرع لعباده. بما أنه – سبحانه – هو مبدع هذا الكون كله، ومدبره بالنواميس الكلية الكبرى التي اختارها له. والحياة البشرية إن هي إلا ترس صغير في عجلة هذا الكون الكبير فينبغي أن يحكمها تشريع يتمشى مع تلك النواميس؛ ولا يتحقق هذا إلا حين يشرع لها المحيط بتلك النواميس. وكل من عدا الله قاصر عن تلك الإحاطة بلا جدال. فلا يؤتمن على التشريع لحياة البشر مع ذلك القصور». (٤)

(١) الكشاف ٤/ ١٧١.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ١٧١.
(٣) حاشية البيضاوي ٣/ ٢٧٥.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٥٥.

لو لا أنَّ الله حكم وقضى في سابق أزله أن الثواب والعقاب يكونان يوم القيامة لحكم بين الكفار والمؤمنين، بتعجيل العقوبة للظالم، وإثابة المؤمن.

وإن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان لهم عذابٌ موجع مؤلم. وتراهم يوم القيامة خائفين خوفاً شديداً من جزاء السيئات التي ارتكبوها في الدنيا، والجزاء عليها نازلٌ بهم يوم القيامة لا محالة، سواءً خافوا أو لم يخافوا. وأما المؤمنون الصالحون فهم في رياض الجنان يتمتعون في أطيب بقاعها، وفي أعلى منازلها، لهم في الجنات ما يشتهونه من أنواع اللذائذ والنعيم والثواب العظيم عند رب كريم.

فأين هذا من هذا، أين من هو في الذل والهوان، ممن هو في روضات الجنان؟ فيما يشاء من مآكل ومشارب وملاذ ؟ ولهذا قال تعالى:﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾أي ذلك النعيم والجزاء هو الفوز الأكبر الذي لا يوازيه شيء[1]. وهو الفضل الذي لا يوصف، ولا تهتدي العقول إلى حقيقة صفته، لأن الحقَّ جل وعلا إذا قال « كبير» فمن ذا الذي يقدر قدره. [2]

ذلك الإكرام والإنعام هو الذي يبشر الله به عباده المؤمنين المتقين، ليتعجلوا السرور ويزدادوا شوقاً إلى لقاء ربهم.

قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئاً من الأجر والمال، إلاَّ أن تحفظوا حقَّ القربى، ولا تؤذوني حتى أبلغ رسالة ربي. [3]

قال ابن كثير: أي لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح مالاً، وإنما أطلب أن تذروني حتى أبلغ رسالات ربي، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة، قال ابن عباس: يقول إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة، وتودُّوني في نفسي لقرابتي منكم. ومن يكتسب طاعةً من الطاعات

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٥.

(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٢٠.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٣٩.



نضاعف له ثوابها فالله سبحانه غفور للذنوب شاكر لإحسان المحسن، لا يضيع عنده عمل العامل، ولهذا يغفر الكثير من السيئات، ويكثّر القليل من الحسنات.

ثم ينتقل السياق إلى توبيخ المشركين على إصرارهم على كفرهم، بل أيقول كفار قريش إن محمداً اختلق الكذب على الله بنسبة القرآن إليه ؟. (١)

قال أبو حيان: وهذا استفهام إنكار وتوبيخ للمشركين على هذه المقالة، أي مثله لا يُنسب إلى الكذب على الله مع اعترافكم له قبل بالصدق والأمانة.

لو افتريت على الله الكذب كما يزعم هؤلاء المجرمون لختم على قلبك، فأنساك هذا القرآن، وسلبه من صدرك، ولكنك لم تفترعلى الله كذباً ولهذا أيّدك وسدَّدك، وهذه كقوله جل وعلا: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٦]. (٢)

والآيةُ استشهادٌ على بطلان ما قالوا ببيان أنه ﷺ لو افترى على الله تعالى لمنعه من ذلك قطعاً، بالختم على قلبه بحيث لا يخطر بباله معنى من معانيه، ولم ينطق بحرفٍ من حروفه ويمح الله الباطل فيزيله بالكلية، ويثبتُ اللهُ الحق ويوضّحه بكلامه المنزل، وقضائه المبرم إنه سبحانه عليم بما تنطوي عليه الصدور. (٣)

ثم يمتن الله تعالى على عباده فيبين أنه جل وعلا بفضله وكرمه يتقبل التوبة من عباده، إذا أقلعوا عن المعاصي، وأنابوا بصدقٍ وإخلاص نيّة، ويصفح عن الذنوب صغيرها وكبيرها لمن يشاء يعلم جميع ما تصنعون من خيرٍ أو شر. (٤)

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٥.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ٧/ ٥١٦.

(٣) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥/ ٤. وقد ورد معنى مغاير لهذا حاصله: إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، واتهامك بالافتراء على الله، ويزيل الله الشرك ويخذله، ويثبت الإسلام ويظهره. تفسير المنتخب ٢/ ٣٤٦.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٤٠.



ويستجيب سبحانه من الذين آمنوا دعاءهم، ويزيدهم من فضله وإحسانه، بأن يعطيهم من النعم والخيرات أكثر مما سألوا. وأما الكافرون بالله فلهم العذاب الموجع الأليم في دار الجحيم.[1]

من هداية الآيات:

* بيان لطف الله بعباده، فله سبحانه الحمد وله المنة والشكر.
* بيان وجوب إصلاح النيات، فإن مدار العمل قبولاً ورفضا بحسبها.
* حظر التشريع بجميع أنواعه عن غير الله ورسوله.
* تقرير حق القرابة ووجوب المودة فيها. واحترام قرابة الرسول ﷺ وتقديرها.
* تبرئة رسول الله ﷺ من الافتراء على الله عز وجل.
* مضاعفة الحسنات، وشكر الله للصالحات من أعمال عباده المؤمنين.
* وجوب التوبة ووعد الله تعالى بقبولها.
* وعد الله تعالى باستجابة دعاء المؤمنين العاملين للصالحات.[2]

(١) مفاتيح الغيب ٢٧/ ١٦٩.
(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٣/ ٤٩٩ - ٤/ ١.

مظاهر حكمة الله، وآياته الدالة على قدرته

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

سبب النزول:

أخرج الحاكم في سبب نزول قول الله تعالى:﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ عن علي ﷺ قال: نزلت هذه الآية في أصحاب الصُّفَّة: وذلك أنهم قالوا: لو أن لنا...، فتمنوا الدنيا والغنى.[1]

التفسير الإجمالي

ولو وسَّع الله الرزق على عباده لطغوا وبغَوْا وأفسدوا في الأرض بالمعاصي والآثام، لأن الغنى يوجب الطغيان. قال ابن كثير: أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً.[2]

وقد فعل ما فعل - سبحانه - من إنزال الرزق على عباده بقدر، لأنه - تعالى - خبير بخفايا أحوال عباده، وبطوايا نفوسهم، بصير بما يقولونه وبما يفعلونه.

قال صاحب الكشاف: أي أنه - تعالى - يعلم ما يؤول إليه حالهم، فيقدر لهم ما هو أصلح

(١) المستدرك ٢/ ٤٨٣. رقم الحديث ٣٦٦٣. وقال الحاكم: حديث صحيح.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٧٧.



لهم، وأقرب إلى جمع شملهم، فيفقر ويغني، ويمنع ويعطي، ويقبض ويبسط، كما توجبه الحكمة الربانية، ولو أغناهم جميعا لبغوا، ولو أفقرهم لهكلوا.

ولا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل، ومع البسط أكثر وأغلب، وكلاهما سبب ظاهر للإقدام على البغي والإحجام عنه، فلو عم البسط، لغلب البغي حتى ينقلب الأمر إلى عكس ما هو عليه الآن.

ولكنه تعالى يُنزّل أرزاق العباد بما تقتضيه الحكمة والمصلحة فهو سبحانه عالم بأحوالهم وما يصلحهم، فيعطي ويمنع، ويبسط ويقبض، حسبما تقتضيه الحكمة الربانية. [١]

« وهذا يصور نزارة ما في هذه الحياة الدنيا من أرزاق - مهما كثرت - بالقياس إلى ما في الآخرة من فيض غزير. فالله يعلم أن عباده، هؤلاء البشر، لا يطيقون الغنى إلا بقدر، وأنه لو بسط لهم في الرزق - من نوع ما يبسط في الآخرة - لبغوا وطغوا.

إنهم صغار لا يملكون التوازن. ضعاف لا يحتملون إلا إلى حد. والله بعباده خبير بصير. ومن ثم جعل رزقهم في هذه الأرض مقدراً محدوداً، بقدر ما يطيقون. واستبقى فيضه المبسوط لمن ينجحون في بلاء الأرض، ويجتازون امتحانها، ويصلون إلى الدار الباقية بسلام. ليتلقوا فيض الله المذخور لهم بلا حدود ولا قيود» [٢].

ثم يعدد الله تعالى نعمه على عباده فيبين أنه هو تعالى الذي ينزّل المطر، الذي يغيثهم من الجدب، من بعد ما يئسوا من نزوله ويبسط خيراته وبركاته على العباد وهو الوليّ الذي يتولى عباده، المحمود بكل لسان على ما أسدى من النعماء [٣].

« وهذه لمسة أخرى كذلك تذكرهم بجانب من فضل الله على عباده في الأرض. وقد

---

(١) الكشاف ٤/ ١٧١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٥٧.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٤٠.



غاب عنهم الغيث، وانقطع عنهم المطر، ووقفوا عاجزين عن سبب الحياة الأول.. الماء.. وأدركهم اليأس والقنوط. ثم ينزل الله الغيث، ويسعفهم بالمطر، وينشر رحمته، فتحيا الأرض ويخضر اليابس، وينبت البذر، ويترعرع النبات، ويلطف الجو، وتنطلق الحياة، ويدب النشاط، وتنفرج الأسارير، وتتفتح القلوب، وينبض الأمل، ويفيض الرجاء.. وما بين القنوط والرحمة إلا لحظات. تتفتح فيها أبواب الرحمة، فتتفتح أبواب السماء بالماء.. وهو الولي الحميد.. وهو النصير والكافل المحمود الذات والصفات» (١).

ومن دلائل قدرته، وعجائب حكمته، الدالة على وحدانيته، خلقُ السماوات والأرض بهذا الشكل البديع وما نشر وفرَّق في السموات والأرض من مخلوقات. قال ابن كثير: هذا يشمل الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم وأجناسهم وأنواعهم، وهو تعالى قادر على جمع الخلائق للحشر والحساب والجزاء، في أيِّ وقتٍ شاء. (٢)

« وآية السماوات والأرض لا تحتمل جدلا ولا ريبة. فهي قاطعة في دلالتها، تخاطب الفطرة بلغتها، وما يجادل فيها مجادل وهو جاد. إنها تشهد بأن الذي أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان، ولا غيره من خلق الله. ولا مفر من الاعتراف بمنشيء مدبر. فإن ضخامتها الهائلة وتناسقها الدقيق، ونظامها الدائب، ووحدة نواميسها الثابتة.. كل أولئك لا يمكن تفسيره عقلاً إلا على أساس أن هناك إلهاً أنشأها ودبرها. (٣)

وإنّ ما أصابكم أيها الناس من المصائب في النفس أو المال فإنما هي بسبب معاصيكم التي اكتسبتموها. قال الجلال: وعبَّر بالأيدي لأن أكثر الأفعال تُزاول بها. (٤)

وهو سبحانه يصفح عن كثير من الذنوب فلا يعاقبكم عليها، ولو آخذكم بكل ما كسبتم

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٥٧.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٥٨.

(٤) تفسير الجلالين ٤/ ٣٨.



لهلكتم. ولستم أيها المشركون فائتين من عذاب الله، ولا هاربين من قضائه، وإن هربتم من أقطارها كل مهرب، وليس لكم غير الله وليٌّ يتولى أموركم ويتعهد مصالحكم، ولا نصير يدفع عنكم عذابه وانتقامه.

ومن علاماته الدالة على قدرته الباهرة، وسلطانه العظيم، السفنُ الجارية في البحر كأنها الجبال من عظمها وضخامتها، لو شاء تعالى لأسكن الرياح وأوقفها، فتبقى السفن سواكن وثوابت على ظهر البحر لا تجري. إن في تسييرها لعبراً وعظات لكل مؤمن صابر في البأساء، شاكرٍ في الرخاء. (١)

وإنما ذكر السفن الجارية في البحر، لما فيها من عظيم دلائل القدرة، من جهة أن الماء جسم لطيف شفاف، يغوص فيه الثقيل، والسفن تحمل الأجسام الثقيلة الكثيفة، ومع ذلك جعل الله تعالى في الماء قوة يحملها بها ويمنعها من الغوص، ثم جعل الرياح سبباً لسيرها، فإذا أراد أن ترسو أسكن الريح فلا تبرح عن مكانها.

وإن يشأ سبحانه يجعل الرياح عواصف، فيغرق هذه السفن وأهلها بسبب ما اقترفوا من جرائم، والله تعالى يتجاوز عن كثير من الذنوب فينجيهم من الهلاك، وليعلم الكفار المجادلون في آيات الله بالباطل، أنه لا ملجأ لهم ولا مهرب من عذاب الله. ولا دافع لهم إن أراد الله إهلاكهم، فيخلصون له العبادة. (٢)

من هداية الآيات:

* بيان الحكمة في تقدير الأرزاق وإعطائها بمقادير محددة.
* من مظاهر ربوبية الله تعالى الموجبة لألوهيته على عباده إنزال الغيث بعد اليأس وخلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة.

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٤١.

(٢) يراجع: تفسير القرطبي ١٦/ ٣٣. البحر المحيط، لأبي حيان ٧/ ٥٢٠.

* بيان حقيقة علمية ثابتة وهي أن المخالفة للقوانين يترتب عليه ضرر يصيب المخالف.
* بيان أن ما من مصيبة تصيب المرء في نفسه أو ولده أو ماله إلا بذنب ارتكبه.
* بيان أن من الذنوب ما يعفو الله تعالى عنه ولا يؤاخذ به تكرما وإحساناً.
* مظاهر ربوبية الله وألوهيته على خلقه.
* فضل الصبر والشكر وفضيلة الصابرين الشاكرين.
* عند معاينة العذاب يعرف الإنسان ربه وينكر غيره.[(١)]

صفات المؤمنين المستقيمين

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾
وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ
سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما عُلم أن جميع النعم من الغيث وأثاره، ومن نشر الدواب براً وبحراً بمعرض من الزوال وهو عظيم التقلبات هائل الأحوال سبب عنه قوله محقراً لدنياهم وما فيها من الزهرة بسرعة الذبول والزوال، والأفول والارتحال، وبأنهم لا قدرة لهم على شيء منها، وليس لهم من أنفسهم إلا العجز، فلو عقلوا لعلموا، ولو علموا لعملوا عمل العبيد، وأطاعوا القوي الشديد[(٢)].

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٣ - ٥ بتصرف يسير.
(٢) نظم الدرر، للبقاعي ٧/ ٤٢٠.



التفسير الإجمالي

فما أوتيتم- أيها الناس- من شيء من المال أو البنين وغير ذلك فهو متاع لكم في الحياة الدنيا، سُرعان ما يزول، وما عند الله تعالى من نعيم الجنة المقيم خير وأبقى للذين آمنوا بالله ورسله، وعلى ربهم يتوكلون. (١)

وهؤلاء المؤمنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والقتل وعقوق الوالدين وَالْفَوَاحِشَ، قال ابن عباس: يعني الزنى، وإذا غضبوا على أحدٍ مِّمَن اعتدى عليهم عفوا وصفحوا.

قال الصاوي: من مكارم الأخلاق التجاوز والحلم عند حصول الغضب، ولكن يشترط أن يكون الحلم غير مخلٍ بالمروءة، ولا واجباً كما إذا انتهكت حرماتُ الله فالواجب حينئذٍ الغضب لا الحلم، وعليه قول الشافعي «من استُغضب ولم يغضب فهو حمار» وقال الشاعر: «وحلمُ الفتى في غير موضعه جهل» أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة. (٢)

والذين أجابوا ربهم إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعبادة، وأدوا الصلاة بشروطها وآدابها، وحافظوا عليها في أوقاتها، ويتشاورون في الأمور ولا يعجلون، ولا يُبرمون أمراً من مهمات الدنيا والدين إلا بعد المشورة، وينفقون مما أعطاهم الله بالإحسان إلى خلق الله وينتقمون ممن بغى عليهم، ولا يستسلمون لظلم المعتدي. (٣)

قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يُذلّوا أنفسهم فيجترئ عليهم الفساق. وقال أبو السعود: وهو وصفٌ لهم بالشجاعة بعد وصفهم بسائر الفضائل، وهذا لا ينافي وصفهم بالغفران، فإن كلاً في موضعه محمود. وجزاء العدوان أن ينتصر ممن ظلمه من غير أن يعتدي عليه بالزيادة. (٤)

---

(١) يراجع: التفسير الميسر ٨/ ٤٥٦.

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٤٠.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤٣.

(٤) إرشاد العقل السليم ٥ / ٣٦.

قال الإمام الرازي: لما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل دون زيادة. وإنما سمَّى ذلك سيئة، لأنها تسوء من تنزل به. فمن عفا عن الظالم، وأصلح بينه وبين عدوه، فإن الله يثيبه على ذلك الأجر الجزيل.(١) والله تعالى يبغض البادئين بالظلم، والمعتدين في الانتقام.

قال ابن كثير: شرع تعالى العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، فمن عفا فإن الله لا يضيع له ذلك، كما جاء في الحديث: (وما زاد اللهُ تعالى عبداً بعفوٍ إلا زاده عزاً) (٢).

ومن انتصر ممن ظلمه دون عدوان فليس عليهم عقوبة ولا مؤاخذة، لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار. إنما العقوبة والمؤاخذة على المعتدين، الذين يظلمون الناس بعدوانهم ويتكبرون في الأرض تجبراً وفساداً، بالمعاصي، والاعتداء على الناس في النفوس والأموال. أولئك الظالمون الباغون، لهم عذاب مؤلم موجع بسبب ظلمهم وبغيهم.

ولمن صبر على الأذى، وترك الانتصار لوجه الله تعالى، فإن ذلك الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وأكد عليها. قال الصاوي: كرَّر الصبر اهتماماً به وترغيباً فيه وللإشارة إلى أنه محمود العاقبة. (٣)

من هداية الآيات:

* متاع الحياة الدنيا ضئيل إذا قوبل بما أعد الله للمؤمنين المتقين.
* مشروعية القصاص ومعاقبة الظالم، والضرب على يديه.
* عدم مؤاخذة من ظُلم فأخذ بحقه بلا زيادة عنه، ما لم يكن حداً فإن الحدود يقيمها الإمام.

(١) مفاتيح الغيب ٢٧/ ١٧٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٨٢. والحديث رواه مسلم ٤/ ٢٠٠١ رقم ٢٥٨٨ عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) يراجع: حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٤١، صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤٤.

* لا سبيل إلى معاقبة من انتصر لنفسه بعد ظلمه.
* فضيلة العفو والصبر والتجاوز عن المسلم إذا أساء بقول أو عمل. (١)

مشهد يصور حال أهل النار

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

بعد هذا الحديث عن المؤمنين وعن صفاتهم الكريمة، وعما أعده سبحانه لهم من ثواب، جاء الحديث عن الظالمين وما أعد لهم من عقاب، وأمرهم سبحانه بالاستجابة لدعوة الحق من قبل أن يأتي يوم الحساب، الذي لا ينفعهم فيه شفيع أو نصير. (٢)

التفسير الإجمالي

ومن يضلله اللهُ فليس له ناصر ولا هادٍ يهديه إلى الحق، وترى الكافرين حين شاهدوا عذاب جهنم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لهول ما يشاهدون من العذاب ويقولون: هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا ؟

قال القرطبي: يطلبون أن يُردُّوا إلى الدنيا ليعملوا بطاعة الله عز وجل، فلا يُجابون. وتراهم أيها المخاطب يُعرضون على النار متضائلين صاغرين، مما يلحقهم من الذل والهوان، يسارقون

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤ / ٧ وما بعدها، بتصرف.

(٢) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٧٧٦.

النظر - بطرفٍ ذابلٍ ذليل - خوفاً منها وفزعاً، كما ينظر من قُدِّم ليقتل بالسيف، فإنه لا يقدر أن ينظر إليه بملء عينه. (١)

« والظالمون كانوا طغاة بغاة، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء. إنهم يرون العذاب، فيتهاوى كبرياؤهم. ويتساءلون في انكسار: هل إلى مرد من سبيل ؟ في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة، والانهيار مع التطلع إلى أي بارقة للخلاص ! وهم يعرضون على النار خاشعين لا من التقوى ولا من الحياء، ولكن من الذل والهوان ! وهم يعرضون منكسي الأبصار، لا يرفعون أعينهم من الذل والعار: ينظرون من طرف خفي.. وهي صورة شاخصة ذليلة» (٢).

يقول المؤمنون في الجنة لما عاينوا ما حلَّ بالكفار: إن الخسران في الحقيقة ما صار إليه هؤلاء فإنهم خسروا أنفسهم وأهليهم بخلودهم في نار جهنم. ألا إنهم في عذاب دائمٍ لا ينقطع.

وما كان لهم من أعوان ونصراء ينصرونهم من عذاب الله، كما كانوا يرجون ذلك في الدنيا ومن يضلله الله فليس له خلاص، وليس له من طريق يصل به إلى الحق في الدنيا، وإلى الجنة في الآخرة، لأنه قد سُدَّت عليه طريق النجاة. (٣)

من هداية الآيات:

* الهداية والضلال بيد الله، والعبد مؤاخذ بكسبه.
* بيان حال الكافرين يوم القيامة، وحين يُعرضون على النار لأخذ الحذر والعبرة، والعاقل من اتعظ بغيره.
* أكبر المصائب الحرمان من الجنة، وأعظم الخسران خسران النفس والأهل يوم القيامة.

---

(١) تفسير القرطبي ١٦ / ٤٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٦٨.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ١٨٢.

الأمر بالاستجابة لله والاستسلام لحكمته

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

بعد أن تتحدث السورة عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور، الذي هو أثر من آثار صنع الله الباهر وحكمته وقدرته، تدعو الناس إلى الاستجابة لدين الله والانقياد والاستسلام لحكمه، قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العصيب، الذي لا ينفع فيه مال ولا قريب.

فيا أيها الناس استجيبوا إلى ما دعاكم إليه ربكم من الإيمان والطاعة، من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب، الذي لا يقدر أحدٌ على ردِّه، لأنه ليس له دافع ولا مانع. وليس لكم مفر تلتجئون إليه، وليس لكم منكِرٌ يُنكِر ما ينزل بكم من العذاب. أو ليس لكم إنكار لما اقترفتموه، لأنه مدوَّن في صحائف أعمالكم وتشهد عليه جوارحكم.[1]

فإن أعرض المشركون عن الإيمان، ولم يقبلوا هداية الرحمن، فما أرسلناك يا محمد رقيباً على أعمالهم، ولا محاسباً لهم. ما عليك إلاَّ أن تبلغهم رسالة ربك وقد فعلت. والآية تسلية للرسول ﷺ وتأنيسٌ له، وإزالةٌ لهمِّه بهم.[2]

ثم أخبر تعالى أن طبيعة الإنسان – الذي لم يهذبه الإيمان – الكفران لنعم الله فإذا أكرم الله الإنسان بنعمةٍ من النعم من صحة وغنى وأمنٍ وغيرها بطر وتكبَّر. وإن أصابهَ جدبٌ ونقمة،

---

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥ / ٣٧.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ٧ / ٥٢٥.



وبلاءٌ وشدة، بسبب ما اقترفه من آثام فإنه مبالغٌ في الجحود والكفران، ينسى النعمة ويذكر البلية.

وهذه الحالة صورتها آيات عديدة في كتاب الله تعالى نذكر منها ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ ﴾ [هود: ٩-١٠].

- قوله تعالى: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١ ﴾ [فصلت: ٤٩ - ٥١].

قال الصاوي: والحكمةُ في تصدير النعمة بـ « إذا» والبلاء بـ «إنْ» هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول بخلاف البلاء، لأن رحمة الله تغلب غضبه. (١)

وقال الفخر الرازي: نِعَمُ اللهِ في الدنيا وإن كانت عظيمة إلا أنها بالنسبة إلى سعادة الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر، فلذلك سمَّاها ذوقاً، فبيَّن تعالى أن الإنسان إذا فاز بهذا القدر الحقير في الدنيا فإنه يفرح بها، ويعظم غروره بسببها، ويقع في العجب والكبر، ويظن أنه فاز بكل المُنى، وذلك لجهله بحال الدنيا وبحال الآخرة. (٢)

والمقصودُ من الآية الكريمة أن لا يغتر الإنسان بما ملكه من المال والجاه، وأن يعلم أن الكل ملك الله وحده، وبيده مقاليد التصرف في السماوات والأرض، يعطي ويمنع، لا رادَّ لقضائه ولا معقّب لحكمه، يخص من شاء من عباده بالإناث دون البنين ويخص من شاء بالذكور

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٤١.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧ / ١٧٩.



دون الإناث، ويجعلهم إن شاء من النوعين فيجمع للإنسان بين البنين والبنات، ويجعل بعض الرجال عقيماً فلا يولد له، وبعض النساء عقيماً فلا تلد.

ولصاحب الظلال كلمات رقيقة في هذا الموضع، يقول رحمه الله: « الذرية مظهر من مظاهر المنح والمنع والعطاء والحرمان؛ وهي قريبة من نفس الإنسان؛ والنفس شديدة الحساسية بها. فلمسها من هذا الجانب أقوى وأعمق. وقد سبق في السورة حديث عن الرزق بسطه وقبضه. فهذه تكملة في الرزق بالذرية، وهي رزق من عند الله كالمال.

والتقديم بأن لله ملك السماوات والأرض هو التقديم المناسب لكل جزئية بعد ذلك من توابع هذا الملك العام. وكذلك ذكر: يخلق ما يشاء.. فهي توكيد للإيحاء النفسي المطلوب في هذا الموضع. ورد الإنسان، المحب للخير، إلى الله الذي يخلق ما يشاء مما يسرّ وما يسوء ومن عطاء أو حرمان.

ثم يفصل حالات العطاء والحرمان: فهو يهب لمن يشاء إناثاً - وهم كانوا يكرهون الإناث ويهب لمن يشاء الذكور. ويهب لمن يشاء أزواجاً من هؤلاء وهؤلاء. ويحرم من يشاء فيجعله عقيماً - والعقم يكرهه كل الناس - وكل هذه الأحوال خاضعة لمشيئة الله. لا يتدخل فيها أحد سواه. وهو يقدرها وفق علمه وينفذها بقدرته: إنه عليم قدير »[1].

من هداية الآيات:

* وجوب الاستجابة لله تعالى في كل ما دعا العبد إليه، وذلك قبل أن يطلب الاستجابة ولا يمكن منها.
* على الدعاة إلى الله تعالى إبلاغ مطلوب الله تعالى من عباده، ولا يضرهم بعد ذلك شيء.
* بيان طبع الإنسان وحاله قبل أن يهذب بالإيمان واليقين والطاعات.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٦٩.

* لله تعالى مطلق التصرف في الملكوت كله، فلا يصح الاعتراض عليه في شيء، فهو يهب ويمنع لحكم عالية، لا تدركها عقول العباد.
* وجود عقم في الرجال وعقم في النساء، ولا بأس بالعلاج الجائز المشروع.(١)

الوحي وأقسامه

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

تختم السورة الكريمة بالحديث عن الوحي وعن القرآن، كما بدأت به في مطلع السورة ليتناسق الكلام في البدء والختام.

فذكر تعالى الوحي وأقسامه وأنواعه، وأن تكليم الله تعالى للبشر وقع على ثلاثة أوجه:

الأول: عن طريق الوحي، وهو الإعلام في خفاء وسرعة، عن طريق الإلقاء في القلب يقظة أو مناما، ويشمل الإلهام والرؤيا المنامية.

والثاني: عن طريق الإسماع من وراء حجاب، أي حاجز، بأن يسمع النبي كلاما دون أن يرى من يكلمه، كما حدث لموسى عليه السلام عندما كلمه ربه عز وجل، وهذا الطريق هو المقصود

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ١١ بتصرف يسير.

بقوله تعالى:﴿ أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾.

والثالث: عن طريق إرسال ملك، وظيفته أن يبلغ الرسول ما أمره الله بتبليغه له، وهو المقصود بقوله - تعالى -:﴿ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ ﴾.

وهذا الطريق الثالث قد وضحه الحديث الذي رواه الإمام البخاري « عن عائشة - رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام، سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس » وهو أشد علي - أي: أحيانا يأتيني مشابها صوته وقوع الحديد بعضه على بعض - فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكملني فأعي ما يقول. قالت عائشة: ولقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقا. (١)

وكما أوحينا إلى غيرك من الرسل أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن، وسمَّاه روحاً لأن فيه حياة النفوس من موت الجهل، وكان مالك بن دينار يقول: يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض.

ما كنت يا محمد تعرف قبل الوحي ما هو القرآن، ولا كنت تعرف شرائع الإيمان ومعالمه على وجه التفصيل ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً وضياءً نهدي به عبادنا المتقين. وإنك يا محمد لترشد إلى دين قيم مستقيم، هو الإسلام، هذا الدين الذي لا اعوجاج فيه، هو دينُ الله الذي له كل ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبيداً. ألا إلى الله وحده ترجع الأمور، فيفصل فيها بين خلقه بعدله وحكمته. (٢)

---

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه. ك: بدء الوحي ١/ ٤. حديث رقم ٢. ومعنى يتفصد: يسيل، من الفصد، وهو قطع العرق لإسالة الدم. شبه الجبين بالعرق المفصود مبالغة في كثرة عرقه ﷺ.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٤٧ بتصرف يسير.



من هداية الآيات:

* بيان جلال الله تعالى وعظمته فهو سبحانه ما كلم أحداً من خلقه إلا عن طريق الإلهام أو الملك أو من وراء حجاب.
* القرآن الكريم نور يستضاء به في الحياة، وروح تحيا به القلوب الميتة كما تحيا الأجسام بالأرواح.[(١)]
* الإسلام نهج واضح، وطريق مستقيم. وما سواه اعوجاج وتفرق.

وأخيراً.. فهذه سورة الشورى، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة الشورى

احتوت سورة الشورى على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:

* وحدة الرسالات بين سائر الأنبياء، إذ هي تدور على التوحيد والنبوة والبعث والجزاء.
* بيان عظمة الله تعالى وجلاله وكماله، حتى إن السموات تكاد يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمده تعالى ويستغفرون للمؤمنين.
* لم يشأ الله سبحانه أن يجعل الناس أمة واحدة، لحكم عالية علمها إليه سبحانه وتعالى.
* من طلب ولاية غير الله هلك ؟ ومن والى الله دون من سواه كفاه الله ما أهمه في دنياه وأخراه.

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ١٣ بتصرف.

* وجوب ردّ ما اختُلف فيه إلى الله تعالى ليحكم فيه وهو الرد إلى الكتاب والسنة
* وجوب التوكل على الله تعالى، والإنابة إليه في كل الأمور.
* تنزيه الله تعالى عن مشابهته لخلقه، مع وجوب الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.
* وجوب الإيمان بأن الله هو الرزاق، بيده مفاتح خزائن الأرزاق، فمن شاء وسع عليه، ومن شاء ضيق، وأنه يوسع لحكمه ويضيق لأخرى.
* وجوب الدعوة إلى الإسلام بين أمم العالم، إذ لا نجاة للبشرية إلا بالإسلام.
* حرمة اتباع أهل الأهواء والسير معهم، أو موافقتهم في باطلهم.
* وجوب الاستقامة على الإسلام، عقائد وعبادات وأحكام قضائية وآداب وأخلاق.
* تعين ترك الحجاج والمخاصمة مع أهل الكتاب وأهل الأهواء.
* حظر التشريع بجميع أنواعه عن غير الله ورسوله.
* بيان الحكمة في تقدير الأرزاق وإعطائها بمقادير محددة.
* متاع الحياة الدنيا ضئيل وحقير إذا قوبل بما أعد الله للمؤمنين المتقين.
* فضيلة الصبر والعفو والتجاوز عن المسلمين والإصلاح بينهم.
* وجوب الاستجابة لله تعالى في كل ما دعا العبد إليه.
* على الدعاة إلى الله تعالى إبلاغ دين الله تعالى للعالمين، ولا يضرهم بعد ذلك شيء.
* القرآن الكريم نور يستضاء به في الحياة، وروح تحيا به القلوب الميتة كما تحيا الأجسام بالأرواح.
* الإسلام نهج واضح، وطريق مستقيم وما سواه اعوجاج وتفرق.

سورة الزخرف

بين يدي السورة

أ - اسم السورة الكريمة وسبب التسمية:

سُميت سورة الزخرف بهذا الاسم، لما فيها من التمثيل الرائع لمتاع الدنيا الزائل وبريقها الخادع بالزخرف اللامع، الذي ينخدع به الكثيرون مع أنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة ولهذا يعطيها الله للأبرار والفجار ، وينالها الأخيار والأشرار ، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين.

ب - فضل السورة:

هذه السورة الكريمة من المثاني، ومما ورد في فضل المثاني: ما رواهُ الإمام أحمد وغيره، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ)(1).

ج - مكية السورة:

سورة الزخرف مكية، ماعدا الآية ٥٤ فمدنية. وترتيبها في المصحف الشريف الثالثة والأربعون (٤٣). نزلت بعد سورة الشورى. من الجزء «٢٥» الحزب « ٤٩، ٥٠».

عدد آيات السورة: عدد آياتها ٨٩. (2)

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ص ١٣٦ رقم ١٠١٢. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/ ١٠٧. وأخرجه البيهقي في السنن الصغير، ك: فضائل القرآن ب: تخصيص السبع الطوال بالذكر ١/ ٢٧٢، رقم: ٩٧٨. وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم: ١٤٨٠ وقال: حديث حسن. يراجع: الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم. د. إبراهيم علي عيسى، ص: ٢٢٤.

(٢) يراجع: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي. ١/ ١٨٦.

محور السورة:

سورة الزخرف مكية، وقد تناولت أسس العقيدة الإسلامية وأصول الإيمان: « الإيمان بالله وحده، وبالرسالة، وبالبعث والجزاء» كشأن سائر السور المكية.

المناسبات في السورة الكريمة

١. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

المناسبة بين مطلع السورة وخاتمتها واضحة جداً، ففي بداية السورة تقرير وبيان لحال المشركين العجيب من اعترافهم بربوبية الله تعالى، وتفرده بالإيجاد والخلق ثم هم به يشركون. ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾وجاء هذا المعنى في نهاية السورة الكريمة حيث قال جل شأنه:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

الصلة قوية وواضحة بين مطلع سورة الزخرف وخاتمة السورة التي قبلها (الشورى) ففي نهاية سورة الشورى حديث عن القرآن الكريم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢]. وفي مطلع سورة الزخرف حديث عن القرآن أيضاً ﴿ حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾.

٤. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

هناك ارتباط بين مضمون سورة (الزخرف) والسورة التي قبلها (الشورى)، وذلك في مواضع عديدة منها ما يلي:

* **في السورتين حديث عن القرآن الكريم**؛ جاء ذلك في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ

فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.

* وفي سورة الزخرف جاء الحديث عن القرآن الكريم في عدة مواضع: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

* في السورتين حديث عن جزاء المؤمنين، ومصير الكافرين؛ جاء ذلك في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾، وفي سورة الزخرف: ﴿ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

* في السورتين حديث عن دلائل قدرة الله تعالى ووحدانيته؛ جاء ذلك في سورة الشورى في الآيات الآتية: ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ

ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

* وفي سورة الزخرف: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

مكانة القرآن الكريم، وعاقبة المستهزئين بالمرسلين

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

افتتحت السورة الكريمة بالحديث عن إثبات مصدر الوحي، وصدق هذا القرآن، الذي أنزله الله على النبيّ الأمي بأفصح لسانٍ، وأنصع بيان، ليكون معجزة واضحة للنبي العربي.

و﴿ حمٓ ﴾ حرفان من الحروف المقطعة، ذكرت في أوائل بعض السور للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف

التي يتخاطبون بها. [١]

وقد أقسم المولى جل شأنه هنا بالقرآن الكريم، الواضح الجلي، المُظهر طريق الهدى من طريق الضلال، المبيِّن للبشرية ما تحتاج إليه من الأحكام والدلائل الشرعية

أقسم سبحانه على أنه جعل القرآن عربياً. وهذا القسم من البدائع البلاغية، لتناسب القسم والمُقْسم عليه، تنبيهاً على أنه لا شيء أعلى منه فيقسم به، وهذا يدل على شرف القرآن وعزته بأبلغ وجهٍ وأدقه.

وإِنه في اللوح المحفوظ عندنا رفيع الشأن عظيم القدر، ذو حكمةٍ بالغةٍ ومكانةٍ فائقة. [٢]

قال ابن كثير: بيَّن سبحانه شرف القرآن في الملأ الأعلى، ليشرّفه ويعظّمه أهل الأرض أي وإِن القرآن في اللوح المحفوظ عندنا ذو مكانةٍ عظيمة، وشرف وفضل. [٣]

---

(١) حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين. وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا. وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. يراجع: تفسير ابن كثير ١ / ٣٩، ومفاتيح الغيب ١ / ١٢٧، والكشاف ١ / ١٣.
ومما اختار هذا الرأي الأخير وانتصر له، من المفسرين المعاصرين: صاحب الظلال، حيث يقول رحمه الله: « هذه الأحرف إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه - مع هذا - هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدي جوابا !» في ظلال القرآن ١ / ٣٨ بتصرف يسير.
ونود أن نشير إلى أن الكلام السابق إنما هو اجتهاد في بيان الحكمة من إيراد هذه الأحرف. أما القول في بيان معناها فهذا ما لا ينبغي ولا يجوز الكلام فيه، لأنه لا سبيل إلى معرفة حقيقة معناها على وجه اليقين، فهي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه؛ ذلك أنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه تكلم في هذه الحروف بشيء على الإطلاق، ولم يسأله أصحابه الكرام عن شيء منها. والأولى أن نقف حيث وقفوا، ويسعنا ما وسع الصحب الكرام، والتابعون لهم بإحسان.

(٢) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٢٨٨.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٤ بتصرف يسير جدا.

ويا أيها الجاحدون المعرضون، أنترك تذكيركم إعراضاً عنكم، ونعتبركم كالبهائم فلا نعظكم بالقرآن لأجل أنكم مسرفون في التكذيب والعصيان ؟ لا، بل نذكّركم ونعظكم به إلى أن ترجعوا إلى طريق الحق.

قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفع حين ردَّه الأوائل لهلكوا، ولكنَّ الله برحمته كرَّره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة. (١)

قال ابن كثير: وقول قتادة لطيف المعنى جداً، وحاصله أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير، وإلى الذكر الحكيم، وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل يأمر به ليهتدي به من قدَّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته. (٢)

وما أكثر مَنْ أرسلنا مِنَ الأنبياء في الأمم الأولين، ولم يكن يأتيهم نبي إلا سخروا منه واستهزؤوا به.

قال الصاوي: وهذا تسلية له ﷺ. والمعنى: تسلَّ يا محمد ولا تحزن، فإنه وقع للرسل قبلك ما وقع لك، فأهلكنا قوماً كانوا أشد قوة من كفار مكة وأعتى منهم وأطغى. وسبق في القرآن أحاديثُ إهلاكهم، ليكونوا عظة وعبرة لمن بعدهم من المكذبين. (٣)

وقد جاء الحديث في القرآن الكريم عن إهلاك الأمم الغابرة التي كذبت رسلها وأعرضت عن هدي ربها في مواضع عديدة منها:

* ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٦].
* ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ

(١) مفاتيح الغيب ٢٧/ ١٩٥.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٥.
(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٤٤.

﴿١٢٨﴾ [طه: ١٢٨].

* ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الروم: ٩].

ومصارع الغابرين من القرون تنطق بسنة الله في المكذبين، وسنة الله ماضية لا تتخلف ولا تحابي. وهذه البشرية تخضع لقوانين ثابتة في نشوئها ودثورها، وضعفها وقوتها.

والقرآن الكريم ينبه إلى ثبات هذه القوانين، واطراد تلك السنن، ويتخذ من مصارع القرون، وآثار الماضين، الدارسة الخربة، أو الباقية بعد سكانها موحشة. يتخذ منها معارض للعبرة، وإيقاظ القلوب، وإثارة الحساسية، والخوف من بطش الله وأخذه للجبارين.

كما يتخذ منها معارض لثبات السنن والنواميس. ويرفع بهذا مدارك البشر ومقاييسهم فلا ينعزل شعب أو جيل في حدود الزمان والمكان؛ وينسى النظام الثابت في حياة البشر، المطرد على توالي القرون. وإن كان الكثيرون ينسون العبرة حتى يلاقوا نفس المصير ! (١)

قال الإمام فخر الدين الرازي: إن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، فقد ضربنا لهم مثَلَهم. (٢)

من هداية الآيات:

* بيان شرف القرآن الكريم وعلو مكانته على سائر الكتب السابقة.

* كون الناس مسرفين في الشرك والفساد لا يمنع وعظهم وإرشادهم.

* في إهلاك الأقوى دليل على أن إهلاك من هو دونه أحرى وأولى، لا سيما مع شدة كفره. (٣)

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨١٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧/ ١٩٥.

(٣) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ١٥ بتصرف يسير جدا.

إقرار المشركين بربوبية الله

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما كان التقدير: ولئن سألتهم عمن سمعوا بخبره ممن ذكرناهم من الأولين المهلكين ليعترفن بما سمعوا من خبرهم، عطف عليه هذا الكلام مبيناً لجهلهم بوقوعهم في التناقض مؤكداً له، لما في اعترافهم به من العجب المنافي لحالهم؛ فقال: ولئن سألتهم أيضاً عما هو أكبر من ذلك وأدل على القدرة، وجميع صفات الكمال فقلت لهم: ﴿ مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.[1]

التفسير الإجمالي

تتحدث الآيات الكريمة هنا عن دلائل قدرته تعالى ووحدانيته المنبثة في هذا الكون الفسيح، في السماء والأرض، والجبال والوهاد، والبحار والأنهار، والماء الهاطل من السماء والسفن التي تسير فوق سطح الماء، والأنعام التي سخرها الله للبشر ليأكلوا لحومها ويركبوا ظهورها.

ولئن سألتَ يا محمد هؤلاء المشركين من خلق السماواتِ والأرض بهذا الشكل البديع ليقولُنَّ خلقهنَّ اللهُ وحده، العزيزُ في ملكه، العليمُ بخلقه.

فهم أقروا بأن الله تعالى خلق السموات والأرض، واعترفوا بعزته سبحانه وعلمه، ومع

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٧/ ٤٤٣ بتصرف.

إقرارهم بذلك عبدوا غيره، وأنكروا قدرته على البعث لفرط جهلهم. [(١)]

ثم بيَّن تعالى لهم صفاته الجليلة، الدالة على كمال القدرة والحكمة فقال: بسط الأرض وجعلها كالفراش لكم، تستقرون عليها وتقومون وتنامون، وجعل لكم فيها طُرُقاً تسلكونها في أسفاركم، لكي تهتدوا إلى قدرة الخالق الحكيم، مبدع هذا النظام العجيب.

« وحقيقة جعل هذه الأرض مهداً للإنسان يدركها كل عقل في كل جيل بصورة من الصور. والذين تلقوا هذا القرآن أول مرة ربما أدركوها في رؤية هذه الأرض تحت أقدامهم ممهدة للسير، وأمامهم ممهدة للزرع، وفي عمومها ممهدة للحياة فيها والنماء.

ونحن اليوم ندرك هذه الحقيقة في مساحة أعرض وفي صورة أعمق، بقدر ما وصل إليه علمنا عن طبيعة هذه الأرض وتاريخها البعيد والقريب - لو صحت نظرياتنا في هذا وتقديراتنا - والذين يأتون بعدنا سيدركون من تلك الحقيقة ما لم ندرك نحن؛ وسيظل مدلول هذا النص يتسع ويعمق، ويتكشف عن آفاق وآماد كلما اتسعت المعرفة وتقدم العلم، وانكشفت المجاهيل لهذا الإنسان. [(٢)]

ونزَّل سبحانه الماء بقدرته من السماء بمقدارٍ ووزنٍ معلوم، بحسب الحاجة والكفاية، أي بمقدار ينفع ولا يضر فهو مقدر موزون لا يزيد فيُغرق؛ ولا يقل فتجف الأرض وتذبل الحياة؛ ونحن نرى هذه الموافقة العجيبة، ونعرف اليوم ضرورتها لإنشاء الحياة وإبقائها كما أرادها الله. [(٣)]

فأحيينا به أرضاً ميتةً مقفرةً من النبات، كذلك نخرجكم من قبوركم كما نُخرج النبات من الأرض الميتة.

وخلق سبحانه جميع الأصناف من الحيوان والنبات وغير ذلك. قال ابن عباس: «الأزواج

---

(١) تفسير الخازن ٥ / ٣٧٣ بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٧٩.

(٣) المرجع السابق، نفس الموضع. بتصرف يسير.



« الأصناف والأنواع كلها، كالحلو والحامض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى. وسخَّر لكم من السفن في البحر، والإبل في البر ما تركبونه في أسفاركم.

قال ابن كثير: أي ذلَّلها وسخَّرها ويسَّرها لكم، لتأكلوا لحومها وتركبوا ظهورها. [١]

لتستقروا على ظهر هذا المركوب، سفينةً كانت أو جملاً أو غيره، وتتذكروا نعمة ربكم الجليلة عليكم حين تستقرون فوقها، فتشكروه بقلوبكم، وتقولوا بألسنتكم عند ركوبكم: سبحان الله الذي ذلَّل ويسَّر لنا ركوب هذا المركوب، وما كنا قادرين ولا مطيقين لركوبه، لولا تسخيره تعالى لنا، وإنا إلى ربنا لراجعون، وصائرون إليه بعد الموت. [٢]

قال في حاشية البيضاوي: وليس المراد من ذكر النعمة تصورها وإخطارها في البال، بل المراد تذكر أنها نعمة حاصلةٌ بتدبير القادر العليم الحكيم، مستدعية لطاعته وشكره.

فإن من تفكر في أنَّ ما يركبه الإنسان من الفُلْك والأنعام، أكثر قوةً وأكبر جثة من راكبه، ومع ذلك كان مسخراً لراكبه يتمكن من تصريفه إلى أيّ جانب شاء، وتفكر أيضاً في خلق البحر والريح وفي كونهما مسخرين للإنسان مع ما فيهما من المهابة والأهوال، استغرق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه، وكمال قدرته وحكمته، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجباً من عظمة الله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾. [٣]

وفي الحديث الشريف « أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً للسفر حمد الله تعالى، وسبح وكبر ثلاثاً، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى. اللهم هون سفرنا هذا، واطو عنا بُعده. اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم إني أعوذ بك

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٥.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٥٢ بتصرف يسير جدا.

(٣) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/ ٢٩١.



من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد. وإذا رجع قالهن وزاد فيهم: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون » [١].

من هداية الآيات:

* تقرير التوحيد بذكر صفات الربوبية المقتضية للألوهية.
* تقرير عقيدة البعث والجزاء.
* معجزة القرآن في الإخبار بالزوجية، وقد قرر العلم الحديث نظام الزوجية في كل شيء حتى الذرة.
* مشروعية التسمية والذكر عند ركوب وسيلة الانتقال. [٢]

---

(١) الحديث رواه مسلم ٢/ ٩٧٨ برقم: ١٣٤٢. عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قوله وعثاء السفر: يعني تعبه وشدته ومشقته. وكآبة المنظر وسوء المنقلب الكآبة الحزن. والمنقلب المرجع. وذلك أن يعود من سفره حزيناً كئيباً، أو يصادف ما يحزنه في أهل أو مال. يراجع: تفسير الخازن ٥ / ٣٧٤.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ١٧ بتصرف.

ضلال المشركين في عبادتهم وتصورهم

﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ
وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ
كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ
هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ
مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ
مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ
أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ
﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا
مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر تعالى اعتراف المشركين بأن خالق السماوات والأرض هو رب العالمين، ذكر بعده ما يدل على سفههم وجهلهم في عبادة غير الله.

التفسير الإجمالي

تتعرض الآيات الكريمة هنا لما كان عليه المجتمع الجاهلي من ضلال في العقيدة والعبادة والتصور، فقد كانوا يكرهون البنات، ومع ذلك اختاروا لله البناتِ سفهاً وجهلاً، فزعموا أن الملائكة بنات الله، فجاءت هذه الآيات لتصحيح تلك الانحرافات والأباطيل، وردِّ النفوس إلى الفطرة، وإلى الحقائق الأولى القطعية.

وجعل المشركون لله - سبحانه - بعض خلقه ولداً ظنوه جزءاً منه، إن المفتري هذا القول لمبالغٌ في الكفر، عظيم الجحود وظاهر الكفران والطغيان؛ لأن نسبة الولد إليه تعالى من فرط الجهل به والتحقير لشأنه.

ثم تنكر الآيات الكريمة عليهم صنيعهم، وتتعجبُ من حالهم، أي هل اتخذ تعالى لنفسه البنات، وخصَّكم واختار لكم البنين ؟[1] قال ابن كثير: وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار.

ثم ذكر تعالى تمام الإنكار فقال: وإذا بُشِّر أحد المشركين بالأنثى التي جعلها مثلاً لله بنسبة البنات له، صار وجهه كأنه أسود من الكآبة والحزن، وصار ملآنا غيظاً وغماً من سوء ما بُشّر به. [2]

قال الإمام الرازي: والمقصودُ من الآية التنبيهُ على قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم، فإن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحدِّ كيف يجوز للعاقل إثباتُه لله تعالى ؟. [3]

أيجعلون للهِ من يُربَّى في الزينة، وينشأ ويكبر عليها، وهنَّ الإناث ؟ ومن هو في الجدال غيرُ مظهرٍ لحجته لضعف رأيه ؟ أوَمَنْ يكونُ هكذا يُنْسب إلى جناب الله العظيم ؟.

قال ابن جزي: والمقصد الرد على الذين قالوا الملائكةُ بنات الله، كأنه قال: أجعلتم للهِ من ينشأ في الحلية ؟ يعني يكبر وينبت في استعمالها، وذلك صفةُ النقص، ثم أتبعها بصفة نقص أُخرى فقال: ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ يعني أن الأنثى إذا خاصمت أو تكلمت لم تقدر أن تبيّن حجتها لنقص عقلها، وقلّما تجد امرأة إلا تفسد الكلام، وتخلط المعاني، فكيف يُنسب لله من يتصف بهذه النقائص ؟. [4]

واعتقد كفار العرب بأن الملائكة - الذين هم أكمل العباد وأكرمهم على الله - إناثٌ وحكموا عليهم بذلك. أحضروا وقت خلق الله لهم حتى عرفوا أنهم إناث ؟ وهذا تجهيلٌ وتهكّمٌ بهم.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧٧ بتصرف يسير.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٨٦.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٢٠١.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ٢٦.

سنأمر الملائكة بكتابة شهادتهم الكاذبة في ديوان أعمالهم، ويُسألون عنها يوم القيامة، وهو وعيدٌ شديدٌ مع التهديد.

وقد حكى الله تعالى عن كفار العرب ثلاثة أقوال شنيعة: الأول: أنهم نسبوا إلى الله الولد، الثاني: أنهم نسبوا إليه البناتِ دون البنين، الثالث: أنهم حكموا على الملائكة المكرمين بالأنوثة بلا دليل ولا برهان، فكذَّبهم القرآن الكريم في تلك الأقوال.

ثم زادوا ضلالاً وبهتاناً فزعموا أنَّ ذلك برضى الله. قالوا - على سبيل السخرية والاستهزاء -: لو شاء اللهُ ما عبدنا هؤلاء الملائكة ولا الأصنام، ولمَّا كانت عبادتنا واقعة بمشيئته فهو راضٍ بها. [1]

وهذا منهم كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطل، فكل شيء بإِرادة الله سبحانه، والمشيئةُ غير الرضى، ولا يصح الاحتجاج بالمشيئة، فإِنهم لو عبدوا الله بدل الأصنام لعلمنا أنَّ الله أراد منهم ذلك. [2]

وقد كذبهم الله فيما زعموا؛ فما لهم بذلك القول حجة ولا برهان. ما هم إلا يكذبون ويتقوَّلون على الله كذباً وزوراً.

هل أنزلنا على هؤلاء المشركين كتاباً من قبل القرآن، فهم بذلك الكتاب متمسكون يعملون بتوجيهاته ؟. [3]

قال الإِمام الرازي: والمعنى: هل وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزَّل قبل القرآن حتى يعوِّلوا عليه ويتمسكوا به ؟

إنهم لم يأتوا بحجةٍ عقلية أو نقلية على ما زعموا، بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة. [4]

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٥٣ بتصرف يسير.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٧٣.
(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٥٤.
(٤) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٢٠٦.



وكما تبع هؤلاء الكفار آباءهم بغير حجة ولا برهان، كذلك فعل من قبلهم من المكذبين، فما بعثنا قبلك رسولاً في أمةٍ من الأمم إلا قال المتنعمون فيها الذين أبطرتهم النعمة، وأعمتهم الشهواتُ والملاهي عن تحمل المشاق في طلب الحق: إنا وجدنا أسلافنا على ملةٍ ودين، وإِنا مقتدون بهم في طريقتهم.

والآية تسليةٌ لرسول الله ﷺ ودلالةٌ على أن التقليد في نحو هذا ضلالٌ قديم، وأسلافُهم لم يكن لهم سندٌ منظور يُعتَدُّ به. وإِنما خصَّص المترفين بالذكر للإِشعار بأن التنعم وحبَّ البطالة صرَفهم عن النظر إلى التقليد الأعمى. [(١)]

قال كل نبيٍّ لقومه - حين أنذرهم عذاب الله -: أتقتدون بآبائكم حتى ولو جئتكم بدينٍ أهدى وأرشد مما كانوا عليه ؟ قالوا إنا كافرون بكل ما أُرسلتم به من التوحيد والإِيمان والبعث والنشور. فانتقمنا من الأمم المكذبة بأنواع العذاب، فانظر كيف صار حالهم ومآلهم !!

« وهكذا يتجلى أن طبيعة المعرضين عن الهدى واحدة، وحجتهم كذلك مكرورة: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون أو مقتدون.. ثم تغلق قلوبهم على هذه المحاكاة، وتطمس عقولهم دون التدبر لأي جديد. ولو كان أهدى. ولو كان أجدى. ولو كان يصدع بالدليل. وثم لا يكون إلا التدمير والتنكيل لهذه الجبلة التي لا تريد أن تفتح عينيها لترى، أو تفتح قلبها لتحس، أو تفتح عقلها لتستبين..

وهذا هو مصير ذلك الصنف من الناس يعرضه عليهم لعلهم يتبينون عاقبة الطريق الذي يسلكون». [(٢)]

من هداية الآيات:

* وجوب إنكار المنكر ومحاولة تغييره في حدود ما يسمح به الشرع وتتسع له طاقة الإِنسان.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢ / ١٧٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٨٢.

* بيان حال المشركين العرب في الجاهلية من كراهيتهم البنات خوف العار وذلك لشدة جهلهم.
* بيان ضعف المرأة ونقصانها، ولذا تكمل بالزينة، وأن النقص فيها فطري في البدن والعقل معاً.
* من شهد شهادة باطلة سوف يسأل عنها يوم القيامة ويعاقب عليها.
* حرمة القول على الله بدون علم، فلا يحل أن يُنسب إلى الله تعالى شيء لم ينسبه تعالى لنفسه.
* حرمة التقليد والاتباع بغير علم.[1]

حكمة الله في اختيار رسله، وتقسيم رزقه

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ
﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ
وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ
رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ
وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ
﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ
وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ
لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما حكى القرآن الكريم عن المشركين تقليدهم الأعمى للآباء، ذكر هنا إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، الذي يفتخر به العرب وينتسبون إليه، وتبرأه من قومه، ومن عبادة الأوثان،

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ١٩ وما بعدها بتصرف.

وذلك للمقارنة بين الهدى والضلال، وبين منطق العقل السديد، ومنطق الهوى والتقليد. [(١)]

التفسير الإجمالي

تتحدث الآيات الكريمة هنا - بإيجاز - عن دعوة الخليل إبراهيم ، الذي يزعم المشركون أنهم من سلالته وعلى ملته، فكذبتهم في تلك الدعوى، وبينت الآيات أن إبراهيم أول من تبرأ من الأوثان.

واذكر يا محمد حين قال إبراهيم الخليل لأبيه وقومه المشركين: إنني بريءٌ من هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله. لكني أعبد الله الذي خلقني، لأنه سبحانه - الذي سيرشدني إلى الدين الحق.

وجعل الله - كلمة التوحيد - باقيةً في ذرية إبراهيم، فلا يزال فيهم من يوحِّد الله رجاء أن يرجع إلى الإيمان من أشرك منهم.

قال مجاهد: «وجعلها كلمة» يعني «لا إله إلا الله» لا يزال في ذريته من يقولها إلى يوم الدين. [(٢)]

بل متعتُ أهل مكة وآباءهم - وهم من عقب إبراهيم - بالإمداد في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات عن كلمة التوحيد، حتى جاءهم القرآن ورسولٌ ظاهر الرسالة، مؤيدٌ بالمعجزات الباهرة من عند الله. [(٣)]

وحين نزل القرآن يرشدهم إلى التوحيد ضموا إلى شركهم تسميته سحراً وتمويهاً - استهزاء به - وأصروا على كفرهم.

وقال المشركون استخفافاً بمحمد، واستعظاماً أن ينزل عليه القرآن: هلا نزل القرآن -

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٥٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٨.

(٣) المرجع السابق.



الذي يزعم أنه وحي الله - على رجل عظيم من مكة أو الطائف ؟. (١)

يقول صاحب الظلال - رحمه الله -: يحكي القرآن الكريم هنا تخليطهم في القيم والموازين وهم يعترضون على اختيار الله لمحمد ﷺ ليحمل إليهم الحق والنور: وقالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم !.. يقصدون بالقريتين مكة والطائف. ولقد كان رسول الله ﷺ من ذؤابة قريش، ثم من ذؤابة بني هاشم. وهم في العلية من العرب.

كما كان شخصه ﷺ معروفاً بسمو الخلق في بيئته قبل بعثته. ولكنه لم يكن زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، في بيئة تعتز بمثل هذه القيم القبلية. وهذا ما قصد إليه المعترضون بقولهم: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم !

والله أعلم حيث يجعل رسالته. ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل. ولعله - سبحانه - لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة سنداً من خارج طبيعتها، ولا قوة من خارج حقيقتها؛ فاختار رجلاً ميزته الكبرى الخلق، وهو من طبيعة هذه الدعوة. وسمته البارزة التجرد، وهو من حقيقة هذه الدعوة. ولم يختره زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، ولا صاحب جاه، ولا صاحب ثراء. كي لا تلتبس قيمة واحدة من قيم هذه الأرض بهذه الدعوة النازلة من السماء. ولكي لا تزدان هذه الدعوة بحلية من حلى هذه الأرض ليست من حقيقتها في شيء. ولكي لا يكون هناك مؤثر مصاحب لها خارج عن ذاتها المجردة. ولكي لا يدخلها طامع ولا يتنزه عنها متعفف.

ولكن القوم الذين غلب عليهم المتاع، والذين لم يدركوا طبيعة دعوة السماء، راحوا يعترضون ذلك الاعتراض. لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم!

فرد عليهم القرآن مستنكراً هذا الاعتراض على رحمة الله، التي يختار لها من عباده من يشاء؛ وعلى خلطهم بين قيم الأرض وقيم السماء؛ مبيناً لهم عن حقيقة القيم التي يعتزون بها،

---

(١) المنتخب ٢ / ٥٦.



ووزنها الصحيح في ميزان الله.(١)

أهم يمنحون النبوة ويخُصُّون بها من شاءوا من العباد، حتى يقترحوا أن تكون لفلان الغني، أو فلانٍ الكبير من الناس ؟ نحن بحكمتنا جعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً، وفاوتنا بينهم في الأموال والأرزاق، وإذا كان أمر المعيشة - وهو تافه حقير - لم نتركه لهم بل تولينا قسمته بأنفسنا، فكيف نترك أمر النبوة - وهو عظيم وخطير - لأهوائهم ومشتهياتهم !! (٢)

قال ابن جزي: كما قسمنا المعايش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية، وإذا كنا لم نهمل الحظوظ الحقيرة الفانية، فأولى وأحرى ألا نُهمل الحظوظ الشريفة الباقية. (٣)

قال الصاوي: إن القصد من جعل الناس متفاوتين في الرزق، لينتفع بعضهم ببعض، ولو كانوا سواءً في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحداً، فيفضي إلى خراب العالم وفساد نظامه. (٤)

وقال أبو حيان: وقوله تعالى:﴿ سُخْرِيًّا ﴾بضم السين من التسخير بمعنى الاستخدام، لا من السخرية بمعنى الهزء، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعضٍ، ويصلوا إلى منافعهم، ولو تولَّى كل واحدٍ جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك، وضاع وهلك. وفي قوله تعالى:﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا ﴾تزهيدٌ في الإكباب على طلب الدنيا، وعونٌ على التوكل على الله. (٥)

قال قتادة: تلقى ضعيف القوة، قليل الحيلة، عييَّ اللسان، وهو موسَّع عليه في الرزق. وتلقى شديد الحيلة، بسيط اللسان، وهو مقتَّر عليه في الرزق. (٦)

ليسخر بعضهم بعضاً.. ودولاب الحياة حين يدور يسخر بعض الناس لبعض حتماً. وليس

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٨٤.
(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٦.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ٢٨.
(٤) حاشية الصاوي ٤/ ٤٨.
(٥) البحر المحيط، لأبي حيان ٨ / ١٣.
(٦) المرجع السابق، نفس الموضع.

التسخير هو الاستعلاء.. استعلاء طبقة على طبقة، أو استعلاء فرد على فرد.. كلا ! إن هذا معنى قريب ساذج، لا يرتفع إلى مستوى القول الإلهي الخالد. كلا ! إن مدلول هذا القول أبقى من كل تغير أو تطور في أوضاع الجماعة البشرية؛ وأبعد مدى من ظرف يذهب وظرف يجيء..

إن كل البشر مسخر بعضهم لبعض. ودولاب الحياة يدور بالجميع، ويسخر بعضهم لبعض في كل وضع وفي كل ظرف. المقدر عليه في الرزق مسخر للمبسوط له في الرزق. والعكس كذلك صحيح. فهذا مسخر ليجمع المال، فيأكل منه ويرتزق ذاك. وكلاهما مسخر للآخر سواء بسواء.

والتفاوت في الرزق هو الذي يسخر هذا لذاك، ويسخر ذاك لهذا في دورة الحياة.. العامل مسخر للمهندس ومسخر لصاحب العمل. والمهندس مسخر للعامل ولصاحب العمل. وصاحب العمل مسخر للمهندس وللعامل على السواء.. وكلهم مسخرون للخلافة في الأرض بهذا التفاوت في المواهب والاستعدادات، والتفاوت في الأعمال والأرزاق [1].

وإنعامه تعالى عليك – أيها النبي – بالرسالة خيرٌ مما يجمع الناسُ من حطام الدنيا الفاني.

ثم بيَّن تعالى حقارة الدنيا ودناءة قدرها عند الله فقال: ولولا أن يرغب الناسُ في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الرزق، ويصيروا أمةً واحدة في الكفر، لخصصنا هذه الدنيا بالكفار وجعلنا لهم القصور الشاهقة المزخرفة بأنواع الزينة والنقوش، سقفها من الفضة الخالصة وجعلنا لهم مصاعدَ وسلالم من فضة عليها يرتقون ويصعدون. ولبيوتهم أبواباً من فضة وسرراً من فضة، زيادةً في الرفاهية والنعيم، على تلك الأسرَّة الفضية يتكئون ويجلسون. وجعلنا لهم زينةً من ستور ونمارق ونقوش. [2]

وما كل ذلك النعيم العاجل الذي نعطيه للكفار، إلاّ شيء يُتمتع به في الحياة الدنيا الزائلة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٨٧.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٧.



الحقيرة. والجنةُ وما فيها من أنواع الملاذ والنعم التي يقصر عنها البيان، هي خاصة بالمتقين، لا يشاركهم فيها أحد.

والآياتُ الكريمة سِيقتْ لبيان حقارة الدنيا وقلة شأنها، وأنها من الهوان بحيث لو لا الفتنة لخصَّ بها الكافرين، فجعل بيوت الكفرة ودرجها وسقوفها من ذهب وفضة، وأعطى الكافر كل ذلك النعيم في الدنيا لعدم حظه في الآخرة.

ولكنه تعالى رحيم بالعباد فلذلك أغنى بعض الكفار وأفقر بعضهم، وأغنى بعض المؤمنين وأفقر بعضهم. وفي الحديث: (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها جرعة ماء) [١].

قال الزمخشري: فإن قلت: فحين لم يوسّع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم، من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها، فهلاً وسَّع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام ؟ قلتُ التوسعةُ عليهم مفسدة أيضاً لما تؤدي إليها من دخول الناس في الإسلام لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين، فكانت الحكمة فيما دبَّر، حيث جعل الفريقين أغنياء وفقراء، وغلَّب الفقر على الغنى. [٢]

من هداية الآيات:

* من الكمال العقلي أن يتبع المرء الهدى ولو خالفه قومه وأهل بلاده.
* وجوب البراءة من الشرك والمشركين وهذا معنى لا إله إلا الله.
* فضيلة من يورث أولاده هدى وصلاحاً.
* لا يعترض على الله أحد في شرعه وتدبيره إلا كفر والعياذ بالله تعالى.

---

(١) الحديث رواه الترمذي وصححه، عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - ٤/ ٥٦٠ رقم ٢٣٢٠. وصححه الألباني.

(٢) الكشاف ٤/ ١٩٧.

* بيان الحكمة في الغنى والفقر، والصحة والمرض والذكاء والغباء.
* الميل إلى الدنيا وطلب متاعها فطري في الإنسان فلذا لو أعطيها الكافر بكفره لمال إليها كل الناس وطلبوها بالكفر.
* حقارة الدنيا وهوانها على الله. وفي صحيح مسلم: « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ». (١)

حال المعرض عن ذكر الله، وتسلية النبي ﷺ

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ
ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ
أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ
نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن
دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما بينت الآيات الكريمة السابقة زهادة الحياة الدنيا وهوانها على الله؛ وأن ما يعطاه الفجار منها لا يدل على كرامة لهم عند الله، وأن الآخرة عند ربك للمتقين، استطرد يبين مصير أولئك الذين قد ينالون تلك الأعراض، وهم عمي عن ذكر الله، منصرفون عن الطاعات التي تؤهلهم لرزق الآخرة المعد للمتقين. (٢)

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٢٣ وما بعدها. والحديث رواه مسلم ٤/ ٢٢٧٢ برقم ٢٩٥٦. عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥ / ٣١٨٩.

التفسير الإجمالي

ومن يعرض ويتغافل عن القرآن وعبادة الرحمن نهيئ ونيسّر له شيطاناً لا ينفك عن الوسوسة له والإغواء، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. فهو ملازم ومصاحب له لا يفارقه.

وإن الشياطين ليصدون هؤلاء الكفار الضالين عن طريق الهدى، ويحسب الكفار أنهم على نور وبصيرة وهدايةٍ من أمرهم.

حتى إذا جاء الكافر مع قرينه وقد ربطا بسلسلةٍ واحدة قال الكافر لقرينه: يا ليت بيني وبينك مثل بعد ما بين المشرق والمغرب، فبئس الصاحب أنت، لأنك كنت سبباً في شقائي بتزيينك الباطل لي. قال أبو سعيد الخدري: إذا بُعث الكافر زُوّج بقرينه من الشياطين، فلا يفارقه حتى يصير به إلى النار. [١]

يقول صاحب الظلال: قضت مشيئة الله في خلقة الإنسان أنه حين يغفل قلبه عن ذكر الله يجد الشيطان طريقه إليه، فيلزمه، ويصبح له قرين سوء يوسوس له، ويزين له السوء. وهذا الشرط وجوابه هنا في الآية يعبران عن هذه المشيئة الكلية الثابتة، التي تتحقق معها النتيجة بمجرد تحقق السبب، كما قضاه الله في علمه. [٢]

ولن ينفعكم - أيها الكافرون الجاحدون - اشتراككم في العذاب، ولن يخفف ذلك عنكم شيئاً بسبب ظلمكم، فإن لكل واحد نصيبه الأوفر منه. قال في التسهيل: المراد أنه لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب، ولا يجدون راحة التأسي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأى غيره قد أصابه مثل ما أصابه، لأن المصيبة إذا عمَّت هانت، فدفع تعالى ذلك التوهم بأن اشتراكهم في

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٥٨ بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٨٩.

العذاب، لا يخفِّف عنهم البلاء. (١)

فأنت يا محمد لا تقدر أن تسمع هؤلاء الكفار الذين هم كالصُّم والعُمي، ومن كان في ضلالٍ واضح ؟ ليس لك ذلك، فلا يَضِقْ صدرك إن كفروا.

والآية الكريمة تسلية للنبي ﷺ، فقد كان يجتهد في دعائهم إلى الإِيمان، ولا يزدادون إلاَّ تعامياً عن الحق وطغياناً وضلالاً. (٢)

وإن عجلنا وفاتك قبل الانتقام منهم، فإِنا سننتقم منهم بعد وفاتك، أو نرينَّك يا محمد العذاب الذي وعدناهم به في حياتك، فإِنا قادرون عليهم، فهم في قبضتنا لا يفوتوننا.

قال ابن عباس: قد أراه الله ذلك يوم بدر، وقال ابن كثير: المعنى لا بدَّ أن ننتقم منهم ونعاقبهم في حياتك أو بعد وفاتك، ولم يقبض الله تعالى رسوله حتى أقرَّ عينه من أعدائه، وحكَّمه في نواصيهم. (٣)

فتمسكْ يا محمد بالقرآن الذي أوحيناه إليك، فإِنك على الحق الواضح والطريق المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم.

وإِن هذا القرآن لشرفٌ عظيم لك ولقومك من قريش، إذ أُنزل بلغتهم وعلى رجلٍ منهم. وسوف تُسألون عن شكر هذه النعمة

قال ابن جزي: والذكرُ هنا بمعنى الشرف، وقومُ النبي ﷺ هم قريشٌ وسائر العرب، فإِنهم نالوا بالإِسلام شرف الدنيا والآخرة، ويكفيك أن فتحوا مشارق الدنيا ومغاربها، وصارت فيهم الخلافة والملك. (٤)

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤/ ٢٩.
(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٥٨.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٠.
(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ٢٩.

وهذا القرآن شرفٌ لكل من تبعه. وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وإن كنت يا محمد شاكاً في أمر الوحي فسلْ من سبقك من الرسل، هل هناك أحدٌ من الرسل دعا لعبادة غير الله ؟ وهذا على سبيل الفرض، والآية كقوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس: ٩٤].

قال أبو السعود: والمراد بالآية الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنه ليس ببدع ابتدعه حتى يُكذَّب ويُعادى. (١)

وقال أبو حيان: ويظهر أن الخطاب للسامع، والسؤال هنا مجاز عن النظر في أديان الأنبياء، هل جاءت عبادة الأوثان في ملةٍ من مللهم ؟ وهذا كما يسائل الشعراء الديار والأطلال، ومنه قولهم: سل الأرض من شقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك ؟ فإنها إن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً، وهذا كله من باب المجاز. (٢)

من هداية الآيات:

* بيان سنة الله تعالى فيمن يعرض عن ذكر الله فإنه يسبب له شيطانا يصاحبه ويزين له طريق الغواية.
* الاشتراك في العذاب يوم القيامة لا يخففه.
* بيان أن من أعماه الله وأصمه لا هادي له ولا مسمع له ولا مبصر.
* صدق وعد الله تعالى لرسوله فإنه ما توفاه حتى أقر عينه بنصره على أعدائه.

---

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥/ ٤٥.

(٢) البحر المحيط، لأبي حيان ٨/ ١٩.



* وجوب التمسك بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً.

* شرف هذه الأمة بالقرآن فإن أضاعته أضاعها الله وأذلها. (١)

العبرة من قصة موسى عليه السلام مع فرعون

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾
فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم
بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾
فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي
مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ
﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما طعنت قريش على الرسول ﷺ في أمر النبوة، بسبب أنه فقير عديم المال والجاه؛ ذكر تعالى قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون، ليشير إلى أن منطق العناد والطغيان واحد، فقد سبقهم فرعون إلى التجبر بماله وسلطانه، ورفض قبول دعوة الحق بحجة أنه أكثر مالا وجاها من موسى؛ فردت الآيات الكريمة هذه الشبهة السقيمة بالحجة والبرهان. (٢)

التفسير الإجمالي

يحكي الله تعالى هنا قصة نبيه موسى – عليه السلام – الذي أرسله إلى فرعون وقومه القبط، وأيده

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٢٦ وما بعدها بتصرف يسير.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٥٩.

بالمعجزات الباهرة الدالة على صدقه. فقال له موسى: إني رسول الله إليك، أرسلني لأدعوك وقومك إلى عبادة الله وحده. فلما جاءهم بتلك الآيات الباهرة الدالة على رسالته ضحكوا سخريةً واستهزاءً به.

قال القرطبي: إنما ضحكوا منها ليوهموا أتباعهم أن تلك الآيات سحرٌ، وأنهم قادرون عليها. [١]

وما نريهم آية من آيات العذاب، كالطوفان، والجراد والقُمَّل إلا وهي في غاية القوة والظهور، بحيث تكون أوضح من سابقتها.

قال الصاوي: والمعنى إلا وهي بالغة الغاية في الإِعجاز، بحيث يظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها. [٢]

ولقد عاقبناهم بأنواع العذاب الشديد، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر والتكذيب.

وقالوا لما عاينوا العذاب: يا أيها الساحرُ ادع لنا ربك ليكشف عنا هذا البلاء والعذاب بالعهد الذي أعطاك إياه من استجابة دعائك. ولنؤمِنن بك إن كشف عنا العذاب.

وقولهم: { يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ } ليس على سبيل الانتقاص، وإنما هو تعظيم في زعمهم، لأن السحر كان عِلم زمانهِم، ولم يكن مذموماً، فنادوه بذلك على سبيل التعظيم. قال ابن عباس: معناه يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيماً يوقرونه. [٣]

فلما رفعنا عنهم العذاب بدعوة موسى، إذا هم ينقضون العهد ويصرون على الكفر والعصيان.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٩٧.

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٤/ ٥١.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٦٠.



ونادى فرعون رؤساء القبط وعظماءهم، لما رأى الآيات الباهرة من موسى وخاف أن يؤمنوا قال مفتخراً متبجحاً: أليست بلادُ مصرَ الواسعة الشاسعة ملكاً لي ؟ وهذه الخُلجان والأنهار المتفرعة من نهر النيل تجري من تحت قصوري ؟[1] أفلا تبصرون عظمتي وسعة ملكي، وقلة موسى وذلته ؟

بل أنا خيرٌ من هذا الضعيف الحقير، الذي لا عزَّ له ولا جاه ولا سلطان - يعني بذلك موسى عليه السلام - ولا يكاد يفصح عن كلامه، ويوضّح مقصوده، فكيف يصلح للرسالة ؟

قال أبو السعود: قال فرعون ذلك افتراءً على نبي الله موسى، وتنقيصاً له عليه السلام في أعين الناس، باعتبار ما كان في لسانه من عُقدة، ولكنَّ الله أذهبها عنه بدعائه.

فهلاَّ ألقى الله إليه أسورةً من ذهب كرامةً له ودلالة على نبوَّته !! [2] قال مجاهد: كانوا إذا أرادوا أن يجعلوا رجلاً رئيساً عليهم سوّروه بسوارين، وطوقوه بطوق من ذهبٍ علامة لسيادته، أو جاءت معه الملائكةُ يكتنفونه، خدمةً له وشهادة بصدقة.

قال أبو حيان: لما وصف فرعون نفسه بالعزة والمُلك، ووازن بينه وبين موسى عليه السلام ووصفه بالضعف وقلة الأعوان، اعترض فقال: إن كان صادقاً فهلاَّ ملَّكه ربُه، وسوَّره، وجعل الملائكة أنصاره ! [3]

فاستخفَّ بعقول قومه واستجهلهم لخفة أحلامهم ، فأطاعوه فيما دعاهم إليه من الضلالة. وإنما أجابوه لفسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

فلما أغضبونا وغاظونا انتقمنا منهم بأشد أنواع العقاب؛ فأغرقنا فرعون وقومه في البحر أجمعين فلم نبق منهم أحداً.

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٤ / ٥١.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥ / ٤٦.

(٣) البحر المحيط، ٨ / ٢٢.



قال المفسرون: اغتر فرعون بالعظمة والسلطان والأنهار التي تجري من تحته، فأهلكه الله بجنس ما تكبر به هو وقومه، وذلك بالغرق بماء البحر، وفيه إشارة إلى أن من تعزَّز بشيء أهلكه الله به.

وجعلنا قوم فرعون قُدوةً لمن بعدهم من الكفار في استحقاق العذاب والدمار، ومثلاً يعتبرون به لئلا يصيبهم مثل ذلك. قال مجاهد: سلفاً لكفار قريش يتقدمونهم إلى النار، وعظة وعبرةً لمن يأتي بعدهم.[1]

من هداية الآيات:

* قد يؤاخذ الله الأفراد أو الجماعات بالذنب المرة بعد المرة لعلهم يتوبون إليه.
* حرمة خلف الوعد ونكث العهد، وأنهما من آيات النفاق وعلاماته.
* ذم الفخر والمباهة إذ هما من صفات المتكبرين والظالمين.
* الاحتقار للفقراء والازدراء بهم من صفات الجبارين الظلمة المتكبرين.
* الفسق يجعل صاحبه مطية لكل ظالم أداة يسخره كما يشاء.
* التحذير من غضب الله تعالى فإنه متى غضب انتقم فبطش.[2]

(١) تفسير القرطبي ١٦/ ١٠٢.
(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٢٨ وما بعدها بتصرف يسير.

العبرة من قصة عيسى ﷺ

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

سبب نزول قول الله سبحانه: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا ... ﴾

عن ابن عباس- رضي الله عنهما - « أن رسول الله ﷺ قال لقريش: إنه ليس أحد يعبد من دون الله وفيه خير، فقالوا: ألست تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً صالحاً، وقد عُبد من دون الله ؟ فأنزل الله: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا ... ﴾ الآية». [1]

التفسير الإجمالي

ولمَّا ذُكر عيسى بن مريم في القرآن وضُرب المثلُ بالآلهة التي عُبدت من دون الله إذا مشركوا قريش يضجون وترتفع أصواتُهم بالصياح.

قال المفسرون: لما قرأ رسول الله ﷺ:﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾قال ابن الزبعرى: أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟ فقال ﷺ: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم فقال: قد خصمتك وربِّ الكعبة ؟ أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود

(١) أخرجه الحافظ الهيثمي في: مجمع الزوائد ٧/ ٢٣١. رقم الحديث ١١٣٣١. ؟ وقال: رواه أحمد والطبراني بنحوه وفيه عاصم بن بهدلة وثقه أحمد وغيره. وهو سيء الحفظ وبقية رجاله رجال الصحيح.

يعبدون عزيراً ؟ وبنو فلان يعبدون الملائكة !! فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، فسكت عليه الصلاة والسلام انتظاراً للوحي، فظنوا أنه أُلزم الحجة فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم فأنزل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

و هذا الجدل الذي سلكوه باطل، وهم يعلمون ذلك لأنهم قوم عرب، ومن لغتهم أن (ما) لما لا يعقل فقوله: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون إنما أريد بذلك ما كانوا يعبدونه من الأحجار التي كانت صور أصنام، ولا يتناول ذلك الملائكة الذين زعموا أنهم يعبدونهم في هذه الصور، ولا المسيح، ولا عزيراً، ولا أحداً من الصالحين؛ لأن الآية لا تتناولهم، لا لفظاً ولا معنى، فهم يعلمون أن ما ضربوه بعيسى ابن مريم من المثل جدل باطل كما قال الله تعالى: ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ؟[1]

قال ابن جزي: أي ما ضربوا لك هذا المثال إلا على وجه الجدل، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب من يناظره، سواء غلبه بحق أو بباطل، فإن ابن الزبعرى وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى:﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ولكنهم أرادوا المغالطة، فوصفهم الله بأنهم قوم خَصِمون. [2]

ما عيسى إلا عبد كسائر عبيد الله، أنعمنا عليه بالنبوة وشرفناه بالرسالة، وليس هو إلهاً ولا ابن إله كما زعم النصارى. وجعلناه آيةً وعبرةً لبني إسرائيل، يستدلون بها على قدرة الله تعالى، حيث خُلق من أم بلا أب. [3]

ولو أردنا لجعلنا بدلاً منكم ملائكةً يسكنون في الأرض، يكونون خلفاً عنكم.

---

(١) صحيح السيرة النبوية للألباني ١ / ١٩٨.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ٣٢.

(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٦٢.



وإن خروج عيسى علامة على قرب الساعة، لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، فلا تشكُّوا في أمر الساعة، فإنها آتية لا محالة. وفي الحديث: (يوشك أن ينزل فيكم عيسى بن مريم حكماً مقسطاً.. الحديث) [١].

وقل لهم يا محمد: اتبعوا هُداي وشرعي، فإن هذا الذي أدعوكم إليه دينٌ قيّم وطريق مستقيم.

ولا تغتروا بوساوس الشيطان، واحذروا أن يصدكم عن اتباع الحق، فإنه لكم عدوٌ ظاهر العداوة، حيث أخرج أباكم من الجنة، ونزع عنه لباس النور. [٢]

ولما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات قال: قد جئتكم بما تقتضيه الحكمة الإلهية من الشرائع، وجئتكم لأبين لكم ما اختلفتم فيه من أمور الدين.

قال ابن جزي: وإنما قال:﴿ بَعۡضَ ٱلَّذِى تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ ﴾ دون الكل، لأن الأنبياء إنما يبيّنون أمور الدين لا أمور الدنيا. [٣]

فاتقوا اللهَ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأطيعوا أمري فيما أبلغه إليكم من التكاليف.

إن الله جل وعلا هو الربُ المعبود لا ربَّ سواه فأخلصوا له الطاعة والعبادة.

قال ابن كثير: أي أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده. هذا التوحيد والتعبد بالشرائع، طريق مستقيم موصلٌ إلى جنات النعيم. [٤]

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٦/ ١٠١ برقم ١١٣٢٩. ورواه الإمام أحمد بنحوه ٢/ ٣٩٤ برقم ١١٠. وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣ / ١٦٣.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي ٤ / ٣٢.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٥.



فاختلفت فرق النصارى في شأن عيسى وصاروا شيعاً وأحزاباً فيه. منهم من يُقرُّ بأنه عبدُ الله ورسولُه - وهو الحقُّ -، ومنهم من يدّعي أنه ولد الله، ومنهم من يقول إنه الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.[(١)]

فهلاكٌ ودمارٌ لهؤلاء الكفرة الظالمين من عذاب يومٍ مؤلم وهو يوم القيامة.

هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون إلا أن تبغتهم الساعة، وهم غافلون عنها مشتغلون بأمور الدنيا، وحينئذٍ يندمون حيث لا ينفعهم الندم.

من هداية الآيات:

* ذم الجدل لغير إحقاق حق وإبطال باطل.
* شرف عيسى وعلو مكانته وأن نزوله إلى الأرض علامة كبرى من علامات قرب الساعة.
* تقرير البعث والجزاء.
* حرمة اتباع الشيطان لأنه يُضل ولا يهدى.
* وعيد الله لليهود والنصارى الجاحدين بعذاب يوم أليم.[(٢)]

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٥.

(٢) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٣١ وما بعدها بتصرف يسير.

نِعَمُ الله على عباده المؤمنين يوم القيامة

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما قال سبحانه:﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ ذكر عقيبه بعض ما يتعلق بأحوال القيامة، فأولُها قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[١]

التفسير الإجمالي

يذكر الله تعالى هنا طرفا من أحوال القيامة، فيبين أن الأصدقاء والأحباب يوم القيامة يصبحون أعداء، إلاَّ من كانت صداقته ومحبته لله. قال ابن كثير: كلُّ خلةٍ وصداقة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، إلا ما كان لله عز وجل، فإنه دائم بدوامه.[٢]

ينادي الله المتقين - تكريماً لهم - يا عبادي، لا تخافوا اليوم عذاباً، ولا أنتم تحزنون، فقد أمنتم العذاب، وضمن الله لكم الثواب.

الذين صدَّقوا بآيات الله وأطاعوه، وكانوا له منقادين. يقال لهم يوم القيامة تشريفاً: ادخلوا الجنة أنتم مع أزواجكم، تُسرُّون فيها سروراً عظيماً، يظهر أثره على وجوهكم.[٣]

ويُطاف على أهل الجنة بأوانٍ من الذهب فيها الطعام، وأقداحٍ من ذهب فيها الشراب.

---

(١) تفسير الرازي ١٣ / ٤٨٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٥.

(٣) المنتخب ٢ / ٣٦١.

قال المفسرون: آنية أهل الجنة التي يأكلون فيها الطعام، والكؤوس التي يشربون فيها الشراب كلُّها من ذهب وفضة كما قال تعالى: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴾ [الإنسان: ١٥]. وفي الحديث: (لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحفائها، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة) [١].

وفي الجنة كل ما تشتهيه النفوس من أنواع اللذائذ والمشتهيات، وتُسرُّ به الأعين من فنون المناظر الجميلة، والمشاهد اللطيفة، وأنتم في الجنة باقون دائمون، لا تخرجون منها أبداً. وهذا إتمامٌ للنعمة وإكمال للسرور، فإنَّ كل نعيمٍ زائلٍ موجبٌ لخوف الزوال. [٢]

وتلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجليلة أعطيتموها بسبب أعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا. قال ابن كثير: أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات. [٣]

لكم في الجنة من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير - سوى الطعام والشراب - من هذه الفواكه تأكلون تفكهاً وتلذذاً.

قال المفسرون: يأكل أهل الجنة من بعض الثمار، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرةٌ تخلو عن ثمرها لحظة، فهي مزينةٌ بالثمار أبداً، لأن كل ما يؤكل يخلف بدله. [٤]

---

(١) يراجع: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٦٥. والحديث متفق عليه رواه البخاري ٥/ ٢٠٦٩، برقم ٥١١٠، ومسلم ٣/ ١٦٣٧ برقم ٢٠٦٧.

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود ٥/ ٤٩.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٦.

(٤) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ١٦٥.

من هداية الآيات:

* كل خلة يوم القيامة تنقطع إلا خلة كانت في الله ولله تعالى.
* بيان فضل التقوى وشرف المتقين.
* بيان أن الرجل يجمع الله بينه وبين زوجته المسلمة في الجنة.
* بيان نعيم أهل الجنة من طعام وشراب وسائر المستلذات.
* الإيمان والعمل الصالح سبب في دخول الجنة بعد فضل الله، كما أن الشرك والمعاصي سبب في دخول النار وهذا عدل الله. [1]

حال الأشقياء الفجار يوم القيامة

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

مناسبة الآيات الكريمة لما قبلها:

لما ذكر سبحانه حال السعداء الأبرار أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجار؛ للمقابلة بين الصورتين، والمقارنة بين الحالتين.

التفسير الإجمالي

إن الكافرين الراسخين في الإجرام في العذاب الشديد في جهنم دائمون فيها أبداً. قال الصاوي: والمراد بالمجرمين الكفار لأنهم ذكروا في مقابلة المؤمنين.

---

(١) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٣٤ بتصرف يسير.

لا يخفَّف عنهم العذاب لحظة، وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير.

وما ظلمناهم بعقابنا لهم، ولكنْ كانوا هم الظالمين لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد. (١)

ونادى المجرمون - حين يئسوا من تخفيف العذاب الشديد - مالكاً خازن النار قائلين له: سل ربك أن يُميتنا لنستريح من أهوال جهنم. فقال لهم مالك: إنكم مقيمون فى العذاب دائماً، لا خلاص لكم منه بموتٍ ولا بغيره.

لقد جئناكم أيها الكفار بالحق الساطع المبين، ولكنكم كنتم كارهين لدين الله مشمئزين منه لكونه مخالفاً لأهوائكم وشهواتكم. وفي هذا الخطاب من التوبيخ والتقريع ما فيه.

بل أأحكم مشركو مكة أمرهم على تكذيب الرسول والتآمر على قتله ؟ فإنا محكمون أمراً فى مجازاتهم وإظهارك عليهم. (٢)

بل أيحسب هؤلاء المشركون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بتدبير الكيد، وما يتكلمون به فيما بينهم من تكذيب الحق ؟ بلى نسمعها، والحفظة من الملائكة عندهم يكتبون ذلك. قال ابن جزي: السرُّ ما يحدث به الإِنسان نفسه أو غيره في خفية. والنجوى ما تكلموا به بينهم. (٣)

من هداية الآيات:

* بيان عقوبة الإجرام على النفس بالشرك والمعاصي.
* عذاب الآخرة لا يطاق ولا يُتصور، يدل عليه طلبهم الموت ليستريحوا منه وماهم بميتين.
* أكبر عامل من عوامل كراهية الحق، حب الدنيا واتباع الهوى. (٤)

---

(١) المنتخب ٢/ ٣٦٢ بتصرف.

(٢) المنتخب ٢ / ٣٦٢.

(٣) يراجع: التسهيل لعلوم التنزيل، ٤ / ٣٣، المنتخب ٢ / ٣٦٣.

(٤) أيسر التفاسير، لأبي بكر الجزائري ٤/ ٣٥.

تنزيه الله تعالى عن الولد والشريك

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو فُرض أنَّ لله ولداً لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد ولكنه جل وعلا منزَّه عن الزوجة والولد، قال القرطبي: وهذا كما تقول لمن تناظره: إن ثبتَ ما قلت بالدليل فأنا أول من يعتقده، وهذا مبالغةٌ في الاستبعاد، وترقيقٌ في الكلام.

وقال البيضاوي: ولا يلزم من هذا الكلام صحة وجود الولد وعبادته له، بل المراد نفيهما على أبلغ الوجوه، وإنكاره للولد ليس للعناد والمراء، بل لو كان أولى الناس بالاعتراف به، فإن النبي يكون أعلم بالله وبما يصح له وما لا يصح. (١)

تنزَّه وتقدَّس اللهُ العظيمُ الجليل، ربُّ السماواتِ والأرضِ، وربُّ العرشِ العظيم، عمَّا يصفه به الكافرون من نسبة الولد إليه.

اترك كفار مكة في جهلهم وضلالهم، يخوضوا في باطلهم ويلعبوا بدنياهم إلى ذلك اليوم الرهيب الذي وُعدوه – وهو يوم القيامة – فسوف يعلمون حينئذٍ كيف يكون حالهم ومصيرهم ومآلهم. فالآية الكريمة تسلية للرسول ﷺ عما لحقه منهم من أذى، وتهديد لأولئك الكافرين على أقوالهم الباطلة، وأفعالهم الشنيعة.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢ / ١٧٨.

إنه الله جل وعلا معبودٌ في السماء ومعبود في الأرض، لأنه هو الإله الحق، المستحق للعبادة في السماء والأرض. قال ابن جزي: أي هو الإله لأهل الأرض وأهل السماء. (١)

وقال ابن كثير: أي هو إله من في السَّماء وإلهُ من في الأرض، يعبده أهلهما، وكلُّهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، هو الحكيم في تدبير خلقه، العليمُ بمصالحهم. (٢)

تعالى وتعظم الذي له – وحده – كمال التصرف في السموات والأرض، وفيما بينهما من مخلوقات الجو المشاهدة وغيرها، وله تدبير الأمر فى ذلك، وعنده – وحده – علم وقت القيامة، وإليه – وحده – ترجعون في الآخرة للحساب.

ولا يملك أحدٌ ممن يعبدونهم من دون الله أن يشفع عند الله لأحد، لأنه لا شفاعة إلا بإذنه ولمن شهد بالحق، وآمن عن علم وبصيرة. (٣)

وقيد – سبحانه – الشهادة بقوله:﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ للإشعار بأن الشهادة بالحق مع العلم بها هي المعتدة، أما الشهادة بدون علم بالمشهود بها فإنها لا تكون كذلك. (٤)

ولئن سألت يا محمد كفار مكة من الذي خلقهم وأوجدهم ؟ ليقولُنَّ اللهُ خلقنا، فهم يعترفون بأنه الخالق، ثم يعبدون غيره، ممن لا يقدر على شيء، فكيف ينصرفون عن عبادة الرحمن إلى عبادة الأوثان ؟ فهم في غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقول.

وهذا استفهام قصد به التعجب من أحوالهم المتناقضة أي: ما دمتم قد اعترفتم بأن الخالق لكم ولغيركم هو الله، فكيف انصرفتم عن عبادة الله إلى عبادة غيره. (٥)

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٤ / ٣٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٨.

(٣) المنتخب ٢ / ٣٦٣ وما بعدها.

(٤) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٨١٨.

(٥) الوسيط، لسيد طنطاوي ١ / ٣٨١٨.

ثم حكى سبحانه ما تضرع به الرسول ﷺ إلى ربه فقال:﴿ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾. والضمير يعود إلى الرسول ﷺ. وقراءة الجمهور بفتح اللام وضم الهاء (وقيلَهُ) على أنه معطوف على قوله تعالى قبل ذلك: ﴿ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ ﴾ ويكون مقول القول: ﴿ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

والمعنى: أيحسب هؤلاء الكافرون الجاهلون، أننا لا نسمع سرهم ونجواهم، ونسمع تضرع رسولنا إلينا بقوله: ﴿ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾. إن كانوا يحسبون ذلك الحسبان فقد كذبوا وخسروا، لأننا نعلم ذلك وغيره علماً تاماً.

ويصح أن يكون قوله تعالى ﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ منصوبا بفعل محذوف والتقدير: ويعلم قيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون..

وقرأ عاصم وحمزة:﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ بكسر اللام والهاء، عطفا على الساعة أي: وعنده سبحانه علم الساعة، وعلم قول الرسول ﷺ يا رب إن هؤلاء المشركين قوم لا يؤمنون.

والتعبير بالنداء لفظ الرب، يشعر بالقرب، ويوحى بالإجابة، ويفيد كمال التضرع كما أن التعبير بقوله: ﴿ قَوۡمٞ ﴾ يشير إلى أن كفرهم كان كفراً جماعياً، لا كفراً فردياً.

وقوله تعالى:﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾إرشاد وتسلية من الله تعالى لنبيه. أي: فأعرض عنهم، ولا تطمع فى إيمانهم لشدة كفرهم، وقل لهم: أمري وشأني الآن مسالمتكم ومتاركتكم.. فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ سوء عاقبة كفرهم وإصرارهم على باطلهم. [١]

من هداية الآيات:

* جواز استعمال الفروض الجدلية للإقناع وإلزام الحجة
* الشفاعة ملك لله تعالى، وقد يأذن بشيء منها لأحد من كرام خلقه.

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي ١ / ٣٨١٩.

* بيان تضارب الكفار المعاندين في اعترافهم بالله سبحانه مع إشراكهم به.

* الإعراض عن الكافرين ومتاركتهم مرحلة من مراحل الدعوة. وقد تتحقق في أي زمان أو مكان.

وأخيراً.. فهذه سورة الزخرف، قبس من نور الله، وفيض من رحمته، ولمحة من إعجازه.. لا أزعم أني وفيت هذه السورة الكريمة حقها من التفسير والبيان، ولكن حسبي أني حاولت واجتهدت. وأسأل الله الكريم من فضله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين، وأن يلحقنا بركاب المقبولين.. اللهم آمين.

أهم الدروس المستفادة من سورة الزخرف

احتوت سورة الزخرف على دروس عديدة، نشير إلى أهمها فيما يلي:

* بيان شرف القرآن الكريم وعلو مكانته على سائر الكتب السابقة.

* وجوب إنكار المنكر ومحاولة تغييره في حدود ما يسمح به الشرع وتتسع له طاقة الإِنسان.

* حرمة التقليد للآباء والسابقين في غير الحق.

* هوان الدنيا وحقارتها عند الله، وهي سجن المؤمن وجنة الكافر.

* وجوب التمسك بالكتاب والسنة اعتقاداً وعملاً.

* شرف هذه الأمة بالقرآن، فإن أضاعته أضاعها الله وأذلها.

* ذم الجدل لغير إحقاق حق وإبطال باطل.

* كل خلة يوم القيامة تنقطع إلا خلة كانت في الله سبحانه.

* أكبر عامل من عوامل كراهية الحق حب الدنيا واتباع الهوى.


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

سورة الدخان

بين يدي السورة:

تسميتها:

تسمى «سورة الدخان» وسميت بهذا الاسم في أكثر المصاحف وعند أكثر المفسرين والمحدثين لأن الله تعالى جعل الدخان آية لتخويف الكفار حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة بسبب تكذيبهم للرسول ﷺ، فبعث الله عليهم الدخان حتى كادوا يهلكوا، ثم نجاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ. وقال بعضهم: أن اسم السورة: (حم الدخان)[1].

عدد آياتها:

قال الداني: آياتها تسع وخمسون في الكوفي، وسبع وخمسون في البصري، وست وخمسون في عدد الباقين[2].

مناسبتها لما قبلها:

إن الله سبحانه ختم سورة الزخرف قبلها بالوعيد والتهديد ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٩] أي فسوف يعلمون عاقبة إجرامهم وتكذيبهم، وهو وعيد من الله لهم وتهديد، فناسب افتتاح هذه السورة بشيء من الإنذار الشديد[3] ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾[٣].

وقال البقاعي: قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تضمنت «سورة حم» السجدة، وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما أشير إليه مما لم تنطو سورة غافر على شيء منه، وحصل من

---

(١) أسماء السور القرآنية: عبد الله الهنائي: ٢٣٥، رسالة ماجستير، وقال القرطبي: مكية باتفاق إلا قوله تعالى ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ ﴾. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨/ ٨٣، صفوة التفاسير: الصابوني، سورة الدخان.

(٢) روح المعاني، الألوسي، ١٤/ ١٦٩؛ فتح القدير: الشوكاني: ٢/ ٩٨٢.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي: ١٨:٣، روح المعاني، الألوسي، ١٤/ ١٦٩.

مجموع ذلك الإعلام بتنزيله من عند الله.... إلى قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة، افتتح الله تعالى سورة الدخان بما يكمل الغرض وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا فقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ ثم ذكر من فضائلها فقال: (فيها يفرق كل أمر حكيم)[1].

سبب نزولها:

أخرج البخاري: عن مسروق: قال: قال عبد الله: إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسنين يوسف (عليه السلام) فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة من الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ ﴾ [الدخان / ١٠] فأتى الرسول ﷺ فقيل يا رسول الله: استسق لمضر فإنها قد هلكت، قال: "لمضر؟ إنك لجريء". فاستسقى فسقوا فنزلت: ﴿ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله عز وجل:﴿ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان / ١٦][2].

أهدافها:

التوحيد، النبوة، الرسالة، البعث وهي نفس أهداف السور المكية بصفه عامة لترسيخ العقيدة، وتثبيت دعائم الإيمان.

فضائلها:

ذكر المفسرون أحاديث كثيرة في فضل سورة الدخان، وغيرها من السور إلا أن أغلب هذه الأحاديث ضعفها العلماء، ومن هذه الأحاديث[3] ما أخرج الترمذي والبيهقي عن أبي

---

(١) **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: البقاعي، ١٨/ ٣.

(٢) **الصحيح المسند في أسباب النزول**: مقبل بن هادي الوادعي، ط١، دار القدس، صنعاء، ١٩١٣، ص ٢٠٦.

(٣) انظر: **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير، ٧/ ٢٣١، **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، ٨/ ٨٣. وانظر: =

هريرة قال: قال رسول الله ﷺ من قرأ (حم الدخان) في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك -قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأحد رواة هذا الحديث عمر بن أبي خثعم ضعيف[1].

وأخرج الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال ﷺ: من قرأ (حم الدخان) في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له.

قال الترمذي: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام بن المقدام يضعف والحسن لم يسمع من أبي هريرة[2].

محور السورة:

محور السورة الذي يربط أجزاءها ومقاطعها هو حقيقة الإيمان، والحديث عن التوحيد والبعث، والرسالة، وهي أهداف السور المكية عامة في ترسيخ العقيدة وتثبيت دعائم الإيمان.

وقد قسمت السورة إلى ست مقاطع:

المقطع الأول: إعجاز القرآن ونزوله في ليلة مباركة.

ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن الكريم المعجزة الخالدة الباقية الذي مصدره الله القوي الغالب الذي لا يقهر رحمة بعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور ووقت إنزاله في ليلة مباركة هي من أفضل الليالي «ليلة القدر» وبينت شرف هذه الليلة التي فيها تدبر وتفصل أمور الخلق، والتي اختارها الله تعالى، العزيز في ملكه، الحكيم في خلقه.

= روح المعاني، الألوسي، ١٤/ ١٧٠.

(١) سنن الترمذي: أبواب ثواب القرآن، باب ما جاء في فضل حم الدخان، رقم ٢٨٩٠. وانظر: **الإتقان في علوم القرآن**، ٢/ ١١٢٥. تحفة الأحوذي، **أبواب فضائل القرآن**: باب ما جاء في حم الدخان، رقم الحديث ٣٠٥٠، ٨/ ١٩٨.

(٢) تحفة الأحوذي، **أبواب فضائل القرآن**: رقم الحديث، ٣٠٥١، ٨/ ١٩٨، والترمذي: باب ما جاء في فضل حم الدخان: رقم (٢٨٨٩).

المقطع الثاني: موقف المشركين من القرآن.

بين الله تعالى موقف المشركين من القرآن العظيم وأنهم في شك وارتياب من أمره فهددهم بالعذاب، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود ﷺ قال: إن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف عليه السلام فأصابهم قحط، حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى فسقوا فنزلت.

وفي رواية البخاري تتمة للرواية السابقة: فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

المقطع الثالث: تذكيرهم بما حل بقوم فرعون المنكرين.

تذكير المشركين بقوم فرعون، ليعتبروا بما حل بهم من العذاب نتيجة طغيانهم وإجرامهم وعن الآثار التي تركوها - بعد أن أهلكهم الله - من قصور وحدائق ومساكن وأنهار وعن ميراث المؤمنين لهم من بني إسرائيل.

المقطع الرابع: إثبات البعث.

إنكار المشركين للبعث، وإثباته لهم وتذكيرهم بقوم تبع ومن قبلهم من المكذبين والطغاة الذين أهلكهم الله، وإن سنن الله لا تختلف في إهلاك الطغاة والمنكرين.

المقطع الخامس: الترهيب من مصير الفجار والمنكرين.

تذكيرهم بأهوال يوم القيامة، وجزاء الكفار وترهيبهم مما يتعرض له العصاة والكفار في الآخرة.

المقطع السادس: الترغيب بما يلقاه المؤمنون.

ترغيبهم بما يلقاه المتقون من ألوان النعيم في يوم القيامة، وفي الآخرة.

المقطع الأول: إعجاز القرآن وإنزاله في ليلة مباركة.

قال تعالى: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي:

إن تصدير السورة بهذين الحرفين ﴿ حمٓ ﴾ كسائر الحروف المقطعة في أوائل السور الأخرى بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها، وعلى خطورة ما يلقى من أحكام وهذا قول ابن كثير، ذكره في أول سورة البقرة في تفسير، ﴿ الٓمٓ ﴾ وقال: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته[1]. وهو قول أكثر المفسرين[2].

﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ أقسم الله سبحانه وتعالى بهذا القرآن الموضح لكل ما يحتاجه الإنسان في أمور دينه ودنياه، الذي أنزله الله في ليلة مباركة هي ليلة القدر من ليالي شهر رمضان المبارك من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، أو ابتداء نزوله فيها واستمر نزوله منجماً بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة، ووصفت الليلة "بالبركة" لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب[3] لينذر به الخلق، وليستضيئوا بنوره، ويسيروا على هداه، ويبتعدوا عن الكفر والعصيان الذي يستوجب العقاب في الدنيا والآخرة ولتقوم الحجة عليهم، كما قال تعالى

---

(١) **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير، ١/ ٥٩؛ وهو قول أكثر المفسرين. انظر: مواهب الرحمن: المدرس: ٧/ ٩٠.

(٢) انظر: **الجامع لأحكام القرآن**: القرطبي، ٨/ ١٦، ١٢٦. **ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور**: البقاعي: ١٨/ ٢.

(٣) **الجامع لأحكام القرآن**: القرطبي، ٨/ ١٢٦. وانظر: **تنوير الأذهان من تفسير روح البيان**: للبرسوي: ٤/ ٢٦، **والكشاف**: للزمخشري: ٤/ ٢٧٤.

في سورة البقرة: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وفي سورة القدر: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾[القدر: الآية ١]. وفي هذه الليلة المباركة يفصل الله تعالى ويبين كل أمر محكم من أرزاق العباد وآجالهم وسائر أحوالهم من خير وشر وحياة وموت، وغير ذلك.

وهذا الأمر من رحمة الله بعباده ألا يتركهم دون تحذير من العقاب فأنزل القرآن وأرسل الرسل رعاية لمصالح العباد[1] وهو أعلم بما يصلح لهم ويصلحهم. فالربوبية تقتضي الرحمة والسماع لأقوال البشر وما يصلح له.

فالله السميع العليم الذي أنزل القرآن: هو رب السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما ومالكهما إن كنتم من أهل الإيمان واليقين لا رب غيره، ولا معبود سواه لا إله إلا هو، يحيي ويميت، فهو المستحق للعبادة دون غيره وهو خالق المخاطبين، وخالق من سبقهم من الأمم الماضية.

ثم ذكر الشاكين اللاعبين الذين لا يميزون بين الحق والباطل فبعد إقرارهم بأن الله خالقهم، أنكروا البعث والتوحيد فهم لاعبون لا جدية عندهم في الاعتقاد الصحيح، والسلوك السليم.

دروس وعبر:

* أقسم الله بالقرآن الكريم المنزل على نبيه محمد ﷺ في ليلة مباركة، رحمة بعباده ليعبدوه فهو الواحد القهار، رب السماوات والأرض.
* بين الله طبيعة الكافرين، وأنهم لا يوفون بعهدهم مع الله رغم التهديدات المتكررة التي تقرعهم لينزجروا ويبتعدوا عن المعصية قبل حلول العذاب.

---

(١) **البحر المحيط**: أبو حيان، ٨/ ٣٣، و**صفوة التفاسير**: الصابوني، ١٤٧، تفسير سورة الدخان.

المقطع الثاني: تهديد المشركين بالعذاب

قال تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي:

بعد أن ذكر الله تعالى في المقطع الأول وصف المشركين، وأنهم في شك من التوحيد والبعث وقدرة الله، التفت في هذا المقطع إلى رسوله ﷺ لينتظر عذابهم يوم تأتي السماء بدخان كثيف واضح بين، وقد اختلف المفسرون بهذا الدخان إلى قولين:

الأول: أنه وقع فعلاً وذلك فيما روي عن ابن مسعود ﷺ[(١)]: «أن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام، واستعصت على رسول الله ﷺ - دعا عليهم بسنين كسني يوسف ﷺ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد. قال تعالى:﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله استسقي الله لمضر فإنها قد هلكت فاستسقى ﷺ لهم فاسقوا فنزلت ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ قال ابن مسعود ﷺ أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟... فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.... قال: يعني يوم بدر.

---

(١) رواه البخاري ومسلم، ورواه الإمام أحمد في مسنده، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيرهما، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به، وقد وافق جماعة من السلف ابن مسعود على هذا التفسير وأن الدخان قد مضى وهو اختيار ابن جرير وذكره صاحب **الظلال**، ٥/ ٣٢١٠، وذكره ابن كثير: **تفسير القرآن العظيم**: ٧/ ٢٢٣.

القول الثاني: إن الدخان لم يمض بعد، بل هو من أمارات الساعة كما ورد في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري - الذي أخرجه مسلم في صحيحه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها والدخان، والدابة.... " وروى ابن جرير بسنده عن أبي مالك الاشعري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة... " وقال ابن كثير: إسناده جيد[١]. وأورد أحاديث أخرى تدل على أن الدخان من الآيات المنتظرة يوم القيامة. وقال الرازي: لما وصف الله البطشة الكبرى بأنها «كبرى» وجب أن تكون أعظم أنواع البطش وذلك يوم القيامة[٢]. وقيل وهي دخان: أي هي مثل الدخان، إشارة إلى أنه لا تماسك لها[٣].

دروس وعبر من المقطع الثاني:

* إن الله سبحانه بين لنبيه في هذا المقطع أن عذاب هؤلاء الكفار بعد أن دعى عليهم ﷺ بقوله: "اللهم اجعل سنيهم كسني يوسف، فارتفع المطر، أصيبوا بالمجاعة وأكلوا الجيف والكلاب وصار الواحد منهم يرى ما بينه وبين السماء كالدخان وفي الآخرة سيدخلهم النار، ومن علاماتها ظهور الدخان بسبب ضعف الطاقة الشمسية، يأخذ المؤمن منه كالزكام وينفخ الكافر حتى يخرج من كل مسمع منه.

* يبين الله في هذا المقطع أن الكافر يلجأ إلى الله خاصة في وقت الشدة فإذا فرج الله عنه الضر عاد إلى المعصية وهذا تحليل دقيق لطبيعتهم، وما تنطوي عليه نفوسهم.

---

(١) **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير: ٨/ ٢٣٣. وانظر: **الإتقان في علوم القرآن** للسيوطي: ٢/ ١٢٧٤.

(٢) **مفاتيح الغيب**: الرازي: ١٤/ ٢٤٥.

(٣) **عمدة الحفاظ**: السمين الحلبي: ١٧٤.

المقطع الثالث: تذكيرهم بقوم فرعون

قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي
لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ
﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ
﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾
وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ
مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾
وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بين الله تعالى في المقطع السابق إصرار المشركين على كفرهم وتكذيبهم محمد ﷺ وذكرهم في هذا المقطع أن كثيراً من المتقدمين كانوا مثلهم كذبوا رسله، وفي مقدمة هؤلاء قوم فرعون الذين كذبوا موسى عليه السلام إذ أرسله إليهم رسولاً كريماً، ليحرر بني إسرائيل من عذاب فرعون وملئه، حيث كانوا يسومونهم سوء العذاب، وكانوا عباداً مخلصين لله، ظلموا بغير حق، وأيده الله بالمعجزات والآيات البينات. فطلب من فرعون وملئه قائلاً لهم: ﴿ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ ﴾المؤمنين من بني إسرائيل، أي أرسلوهم معي وأطلقوا سراحهم من العذاب والظلم والاستعباد ليعبدوا ربهم إني لكم رسول أمين على ما أرسلني به ربي، أدعوكم للإيمان به وعبادته، وقبول دعوتي: ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ ﴾ ولا تتكبروا عن اتباع ما أتيتكم به من البراهين والحجج التي لا تستطيعون إنكارها قال ابن كثير: «(وأن لا تعلو على الله...) أي لا تستكبروا عمن اتبع آياته، والانقياد بحججه والإيمان ببراهينه... ﴿ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ ﴾ أي بحجة ظاهرة واضحة، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة»[1]. فهددوه بالرجم، فالتجأ إلى الله قائلاً:﴿ وَإِنِّي

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: ٧/ ٢٣٧، ٢٣٨.

عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ ﴾ فإن لم تصدقوا بما أتيتكم به من عند الله، فاتركوني ولا تؤذوني. فأصروا على كفرهم وعنادهم وهموا بقتله فدعا عليهم موسى عليه السلام أن ينزل عليهم العذاب، وقال: هؤلاء قوم مكذبون مجرمون فاستجاب له ربه إنهم جند مغرقون. وأمره أن يخرج بعباده من بني إسرائيل ليلاً وسراً، وأن يضرب طريقاً في البحر يمرون فيه، وأخبره أن فرعون سيتبعه من نفس الطريق، فلا يضربه بعصاه حتى يمر فرعون ومن معه، فأنجى الله قوم موسى، وأغرق فرعون وملئه. وتركوا ما متعوا به في الحياة الدنيا وأورثه الله للمؤمنين من بني إسرائيل بعد أن كانوا مستعبدين. وكذلك نفعل بكل من عصانا. ولا نكترث به ولا نحزن عليه، ولا يحزن عليه أحد في السماء والأرض، وما كانوا ممهلين عن العقوبة.

ولقد امتن الله تعالى على بني إسرائيل بعد أن نجاهم من عذاب فرعون، الذي ذبح أبناءهم واستحيا نساءهم، إنه كان متعالياً وعنيداً، ومتكبراً متجبراً، مسرفاً في كفره بالله، وارتكابه للمعاصي وادعائه الألوهية والربوبية. قال القرطبي: ﴿ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ أي جباراً من المشركين وليس هذا علو مدح بل هو في الإسراف... وقيل: هذا العلو هو الترفع عن عبادة الله»[1].

وقد اختار الله تعالى اصطفاء بني إسرائيل على العالمين في زمانهم لاستحقاقهم لذلك ولجهادهم في سبيل الله، ولاتباعهم لموسى الذي أعطاه الله المعجزات والآيات وخوارق العادات، وأنجاهم من الغرق، وأنزل عليهم المن والسلوى مناً عليهم وحجة عليهم على ما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام، قال الرازي: (وآتيناهم من البينات: مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى وغيرها من الآيات القاهرة التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم ﴿ بَلَـٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴾ أي نعمة ظاهرة لأنه تعالى لما كان يبلو بالمحنة فقد يبلو أيضاً بالنعمة اختباراً ظاهراً ليتميز الصديق من الزنديق»[2]، فلما بدلوا الإيمان بالكفر، والصلاح بالفساد لعنهم وطردهم من رحمته.

---

(١) **الجامع لأحكام القرآن**: القرطبي، ٨/ ٩٣..

(٢) **مفاتيح الغيب**: الرازي، ١٤/ ٢٤٩، وانظر: **صفوة التفاسير**، سورة الدخان، ص ١٥٢.

دروس وعبر:

* تذكير المشركين بقوم فرعون قبلهم كيف كذبوا موسى بعد أن دعاهم إلى عبادة الله واغتروا بما عندهم من جاه ومال وسلطان فأهلكهم الله، وهكذا يفعل بهم إن هم أصروا على تكذيب نبيهم محمد ﷺ، فقد أهلك من هم أشد منهم قوة وأكثر مالاً وأعز سلطاناً.
* إن العاقبة للمتقين والنصر للمؤمنين، والهلاك للطاغين العصاة، إذ لا يمكن التساوي بينهم.

المقطع الرابع: إنكار المشركين البعث

قال تعالى:﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

لما تحدثت الآيات في المقطع الثالث عن قصة فرعون وملئه مع موسى ليتعظ المشركون من كفار قريش الذين أصروا على الكفر، ولم يؤمنوا، بين في هذا المقطع إنكار المشركين للبعث والنشور صراحة وأنهم يقولون: إذا متنا فلا حياة بعد الموت ولا بعث وتحدوا الرسول ﷺ والمؤمنين – محتجين بآبائهم الأولين، الذين ذهبوا فلم يرجعوا- أن يأتوا بهم إن كان البعث حقاً كما يقولون.

قال القرطبي: قائل هذا أبو جهل، قال: يا محمد إن كنت صادقاً في قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا أحدهما قصي بن كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً لنسأله عما يكون بعد الموت[1].
وقال الرازي: إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن قالوا: إن كان البعث والنشور ممكناً فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا ليصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في البعث

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ١٤٤.



يوم القيامة(١).

وطلبهم هذا باطل لأن البعث والنشور لا يكون في الدنيا وإنما يكون يوم القيامة. وقد توعدهم الله وأنذرهم عقوبته التي لا ترد، فإن كانوا يظنون أنهم أقوياء وأشداء، فقد أهلكنا من هم أشد قوة وبأساً منهم، وأكثر أموالاً، وأعظم نعيماً وهم أهل سبأ ملوك اليمن، أهلكنا من سبقهم من الأمم الظالمة، كعاد ونحوهم، ودمرناهم بسبب كفرهم مع ما كانوا عليه من القوة والمنعة، وإهلاك هؤلاء أولى، وعلل سبب إهلاكهم بسبب إجرامهم وتكذيبهم، وهذا وعيد وتهديد لقريش فهم ليسوا بخير من قوم تبع(٢). ثم ذكر الله سبحانه الدليل القاطع على البعث والقيامة فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾، قال الرازي: ولو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعبادي لعباً وعبثاً(٣)، والله تعالى ما خلق السموات والأرض إلا بالحق والعدل ليجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وتنزيه الله عن اللهو والعبث»(٤).

دروس وعبر:

* إصرار الكفار على إنكار البعث والقيامة وتكذيب الرسول ﷺ، وهم في ذلك كقوم فرعون، سيهلكهم الله كما أهلك قوم فرعون.
* الرد على حججهم الواهية التي يتذرعون بها في إنكارهم البعث يوم القيامة فإن الله لم يخلق السماوات والأرض عبثاً وإنما لإظهار الحق وتوحيد الله والتزام طاعته.
* إن الله سبحانه خلق السماوات والأرض في دقة متناهية في كل شيء، وله قصد في تعميمه، ودعا سبحانه الخلق إلى التدبر في هذا الكون العجيب الدقيق فلا شيء فيه إلا وله غاية. وكذلك الإنسان، فالحكمة تقتضي أن يكون يوم القيامة هو يوم الفصل في أمر الخلائق.

---

(١) مفاتيح الغيب: الرازي: ١٤/ ٢٤٩.
(٢) روح المعاني: الآلوسي، ١٤/ ١٩٩.
(٣) مفاتيح الغيب: الرازي: ١٤/ ٢٥١.
(٤) صفوة التفاسير، الصابوني، سورة الدخان، ١٥٢.

المقطع الخامس: الترهيب من مصير الفجار والمنكرين

قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن أثبت الله تعالى في المقطع السابق الأدلة على البعث والقيامة ذكر في هذا المقطع ما يصيب الكافر من أهوال يوم القيامة الذي يفصل الله فيه بين الخلائق فلا ينفع فيه أحدٌ أحدا إلا من رحم الله من المؤمنين الذين يؤذن لهم، قال ابن كثير: «لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج، ثم قال: «إلاّ من رحم الله» أي لا ينفع يومئذ إلا من رحمة الله عز وجل»[1].

ثم ذكر وعيد الكفار وما أعد لهم من طعام من شجرة خلقها الله في جهنم طعامها يغلي في بطون الكافرين كالنحاس المذاب، ويقال للملائكة الذين هم خزنة النار: خذوا هذا الأثيم وجروه إلى وسط النار بقوة، ثم صبوا على رأسه الماء الشديد الحرارة الذي يصهر ما في بطنه وجلده ويقال له على سبيل الاستهزاء والإهانة: ذق هذا العذاب فإنك أنت المعزز المكرم. وهذا العذاب الذي كنتم تشكون فيه حيث كنتم في الدنيا[2].

والأثيم هو أبو جهل الذي كان يقول: يعدنا محمد أن في جهنم الزقوم، إنما الثريد بالزبد والتمر، ثم يأتي بالزبد والتمر ويقول لأصحابه: تزقموا، سخرية واستهزاء بكلام الله[3].

---

(١) **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير: ٧/ ٢٤٥.

(٢) **التفسير المنير**، الزحيلي: ٢٥/ ٢٣٨.

(٣) **السابق**: ٢٥/ ٢٣٤.



دروس وعبر:

* إن يوم القيامة هو يوم الحساب الذي فيه يكون كل فرد مسؤول عن نفسه، وفيه يحاسب الله الخلائق على ما قدموا لأنفسهم، فيتميز المؤمن من الكافر، والمحسن من المسيء: ففريق إلى الجنة، وفريق إلى النار.
* ثم يبين الله الإهانة والذل الذي سيصيب الكفار الفجار وأن طعامهم من شجرة الزقوم التي لا تحترق في النار، والتي يأكل منها الآثمون الفجار الذين يشكون ويستهزئون بالمؤمنين فإذا أكلوا منها تغلي في بطونهم وتستعر وهذا غاية في التهديد والوعيد.

المقطع السادس: الترغيب بما يلقاه المؤمنون

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ
وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ
ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾
فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ
إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

ذكر الله في المقطع السابق حال الكفار الأشقياء وما أعده لهم من عذاب، وأنهم أهل النار ثم أتبعه في هذا المقطع بحال المؤمنين الأبرار وما أعده لهم من النعيم، وأنهم أهل الجنة. وهم الأتقياء الذين اتقوا ربهم فامتثلوا أوامره واجتنبوا ما نهى عنه، هؤلاء لهم يوم القيامة مساكن آمنة من كل المنغصات والمكاره في جنات وبساتين ناضرة وعيون جارية لباسهم الحرير الرقيق وهو: السندس، والحرير السميك وهو: الإستبرق، يقابل بعضهم بعضاً ليأنس بعضهم ببعض على سرر متقابلين وكذلك يزوجهم ربهم بالحور العين، قال البيضاوي: أي قرناهم بالحور

العين، والحوراء: البيضاء، والعيناء: عظيمة العينين، ووصف تعالى نعيمهم بذلك؛ لأن الجنات والأنهار من أقوى أسباب نزهة الخاطر، وانفراجه من الغم، ثم ذكر الحور الحسان؛ لأنهم بها اكتمال سعادة الإنسان[1]. ويطلبون في الجنة ما شاءوا من الفواكه والثمار، فهم آمنون من الأمراض والأوجاع، ومن التعب والموت، فلا يموتون في الآخرة، بعد موتة الدنيا التي انتهت بدخولهم الجنة، وحماهم الله من دخول النار وكل هذه النعم فضلاً من الله وإحساناً وذلك هو الفوز العظيم الذي لا يعلوه فوز.

وفي ختام هذا المقطع جمع الله كل مقاطع السورة، وربط بين المقطع الأول: ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾ ذكر أن كل هذا ذكرناه وأنزلناه سهلاً واضحاً بيناً بلسانك العربي ولسان قومك؛ كي يتذكروا ويتعظوا ويعملوا بما فيه، وينزجروا عن المعاصي. قال البرسوي: «أي سهلناه بلغتك وبلسانك[2] الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فيسر به لفظه وتيسر معناه، (لعلهم يتذكرون)، ما فيه نفعهم فيفعلونه، وما فيه ضررهم فيتركونه».

ومع هذا البيان وهذا الوضوح كفر بعض قومك وعاند وكذب، فانتظر يا محمد ما وعدناك به من النصر عليهم، وما سيحل بهم، إن استمروا على الكفر والتكذيب، فإنهم منتظرون هلاكك وفي هذا تسلية للرسول ﷺ، ووعد بالنصر والظفر عليهم ووعيد الكافرين.

دروس وعبر:

* في هذا المقطع حث للمؤمنين وللناس أجمعين على اتباع القرآن الكريم وما جاء به، وبين لهم الثواب الذي سينالونه إن اتبعوا ما أنزل، فذكر لهم النعم التي سينالونها بمسكنهم في الجنة، التي فيها من النعم الحسية والمعنوية ما ترنوا إليه نفوس البشر، من مسكن وملبس ومقابلة في المجالس ليأنسوا ببعضهم، وبالمأكل والمشرب، والأزواج المطهرة، هذه النعم

---

(١) **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**: البيضاوي: سورة الدخان.

(٢) **تنوير الأذهان من تفسير روح البيان**: للبرسوي: ٤/ ٣٩، وانظر: **الكشاف**: للزمخشري: ٤/ ٢٨٦..

التي يفيضها الله عليهم، نعم مستمرة دائمة لا تؤخذ منهم كما هو الحال في الدنيا. كل ذلك تفضلاً منه سبحانه وتعالى وتلك هي السعادة الحقيقية.

* وفي ختام هذا المقطع توجيه إلى جميع البشر في كل زمان ومكان أن لا نجاة للبشرية إلا باتباع القرآن الكريم الذي أنزله الله بلغة العرب بلسان النبي ﷺ ليتعظوا ويؤمنوا وهي لغة سهلة على كل من يقرأ القرآن ولو من غير العرب، وفيها كذلك تهديد للمخالفين المكذبين بالهلاك والدمار والعذاب، وأن النصر للمؤمنين.

الخاتمة:

إن السورة ربطت بين مقصد الإعجاز والتحدي ونزول القرآن في ليلة مباركة وبين أمر الوحدانية والبعث والنشور وتفنيد مزاعم المشركين والرد عليها، فهي توضح حقيقة المشركين في زمن النبي ﷺ، وإصرارهم على الكفر وعدم إيمانهم. وإنكارهم للبعث والحساب يوم القيامة، فأنذرهم الله تعالى في هذه السورة وحذرهم رحمة بهم، ليعرفوا ربهم رب السماوات والأرض وما بينهما. فيسارعوا إلى الإيمان قبل أن يأتي العذاب الشديد الذي سيكون في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، حذرهم من العذاب الشديد الذي سينالونه إن لم يؤمنوا في يوم مخيف، يوم تأتي السماء بدخان لا ينكشف، وفي ذلك اليوم سوف يحاسبون على كفرهم وعنادهم.

كما ذكرهم في هذه السورة انتقامه من فرعون الذي علا وتكبر مع قومه، فلم يتبعوا موسى الذي دعاهم لعبادة الله ولم يسمعوا له فكانوا من المغرقين، وتركوا ما كان لديهم من جنان وعيون وزروع ومقام كريم.

كما ذكرهم بقوم ﴿تُبَّعٍ﴾ ومصرعهم، وما هم بخير منهم إن لم يؤمنوا وأصروا على كفرهم وقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ وختم الله السورة بمشهد العذاب الذي سيصيب الكافرين وأن طعامهم من شجرة الزقوم، ويصب من فوق رؤوسهم الحميم جزاء بما كانوا يكذبون.

وفي مقابل هذا مشهد النعيم الذي أعده الله للمؤمنين «وهكذا تطوف السورة في عوالم شتى بين السماء والأرض، والدنيا والآخرة، والجحيم والجنة، والماضي والحاضر، والغيب والشهادة، والموت والحياة، وسنن الخلق ونواميس الوجود»[1] لكي يقفوا على حقيقة الإيمان الذي دعاهم إليه الرسول ﷺ وبينه القرآن الذي أنزله الله بلغتهم لعلهم يتذكرون.

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٥/ ٣٢٠٧.


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies
تفسير

سورة الجاثية

مكية وآياتها سبع وثلاثون[1]

بين يدي السورة:

تسميتها:

تسمى «سورة الجاثية» عند أكثر العلماء، وذلك لأن الخلائق كلها تجثوا يوم القيامة على الركب للأهوال التي يلقونها، فزعاً في انتظار الحساب. وأخذاً من الآية المذكورة فيها:﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾[٢٨]. والأظهر أن اسمها التوقيفي هو (حم الجاثية، كما ورد في الدر المنثور عن ابن عباس فيما أنزل بمكة، وما ذكر أنه أنزل بمكة[2]، وعنون الحاكم في مستدركه[3] اسم السورة (حم الجاثية).

وللسورة اسمان توفيقيان: هما: (سورة الشريعة) و(سورة الدهر)، لذكرهما فيها، وقد نسب القول الأول إلى عبد الله بن الزبير بل إلى أهل الحرمين عموماً، وذكر الاسم الثاني الآلوسي وابن عاشور[4] وقال: وسميت به لأنها انفردت بذكر الدهر دون سائر الـ (حم) الأخرى، ولكن هذا الاسم مدعاة للاشتباه مع ما ورد من اسم توقيفي باللفظ نفسه لسورة[5] ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾ [الإنسان:١].

---

(١) **مفاتيح الغيب**: الرازي: ١٤/ ٢٥٧؛ وذكر الآلوسي أن آياتها سبع وثلاثون في الكوفي، وذكر الباقون أنها ست وثلاثون وسبب اختلافهم في (حم) هل هي آية مستقلة أو لا؛ **روح المعاني**: **الآلوسي**، ١٤/ ٢٢١. وانظر: **الكشاف**: ٤/ ٢٨٨.

(٢) **الدر المنثور**: السيوطي: ٧/ ٤٢٢.

(٣) **المستدرك على الصحيحين**: الحاكم النيسابوري: ٢/ ٤٩٠.

(٤) **روح المعاني**: الآلوسي: ١٤/ ٢١١؛ **التحرير والتنوير**: لابن عاشور، ٢٥/ ٣٢٣.

(٥) **السور القرآنية**: عبد الله الهنائي، ١٧١.

مناسبتها لما قبلها:

اختتمت سورة الدخان قبلها بأن الله تعالى أنزل القرآن عربياً بلسان النبي ﷺ ولسان قومه، فناسب ابتداء هذه السورة بأن نزول القرآن الكريم من الله تعالى للحث على اتباعه والإيمان به والسورتان تتشابهان في مطلعهما (حم) وفي الغايات الكبرى للقرآن الكريم: وهي اثبات وحدانية الله، وترسيخ عقيدة الإيمان بالله تعالى وتوحيده، والاعتقاد بنزول القرآن من عند الله والإيمان بنبوة محمد ﷺ والإيمان باليوم الآخر، والبعث والجزاء[1].

محور السورة:

هو إقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى من خلال بيان أدلة القدرة الإلهية في ستة براهين، من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة[2]. وهي:

١- خلق السماوات والأرض.

٢- خلق الناس.

٣- خلق الدواب.

٤- اختلاف الليل والنهار.

٥- إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به.

٦- تصريف الرياح.

مقاصد السورة:

١- ترسيخ الإيمان بالبعث والحساب من خلال مشاهد يوم القيامة.

٢- دعوة النبي ﷺ إلى الصبر على ما يلاقيه من عناد قومه، والمصابرة على الدعوة إلى الإسلام

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: البقاعي، ١٨/ ٥٩، وانظر: التفسير المنير: الزحيلي، ٢٥/ ٢٤٦.

(٢) أضواء البيان: الشنقيطي، ٧/ ٣٢٩.

من خلال ما يعرض عليه من سير الأنبياء السابقين وأممهم.

٣- التحدي والإعجاز من خلال الحروف المقطعة، ومعالجة قضايا العقيدة والإيمان من خلال عرض ما لاقته الدعوة الإسلامية من عناد واستكبار.

المقطع الأول: مصدر القرآن الكريم وإثبات وحدانية الله

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي:

افتتحت السورة كما افتتحت سابقتها (سورة الدخان) ببيان مصدر القرآن الكريم، وأنه من عند الله العزيز الحكيم. وكما في سائر السور التي تبدأ بالحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأنه منزل من عند الله العزيز في ملكه الحكيم في صنعه. قال ابن الجوزي: إن الغاية من هذه الحروف أن ينبه «بذلك على إعجازه فكأنه قال: هذه الحروف التي تؤلفون منه كلامكم فما بالكم تعجزون عن معارضته، فإذا عجزتم فاعلموا أنه ليس من قول محمد عليه الصلاة والسلام»[١]. وفي هذا يقول سيد قطب في تفسير: «﴿ حمٓ ﴾... من ناحية أن هذا الكتاب المعجز مصوغ من مثل هذه الأحرف، وهم لا يقدرون على شيء منه»[٢].

ثم أخبر الله تعالى عن دلائل وحدانيته وقدرته، في السماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وما تنطويان عليه من فنون الآيات الكونية البديعة، والنجوم الزاهرة، واختلاف

(١) **زاد المسير**: ابن الجوزي: ١/ ٢١.

(٢) **في ظلال القرآن**: سيد قطب، ٥/ ٣٢٢.



الليل والنهار، والشمس والقمر، وما في الأرض من جبال وبحار وأنهار، هذه الآيات وهذه المشاهد التي يشاهدها الناس كل يوم من تعاقب الليل والنهار واختلافهما طولاً وقصراً، بنظام محكم دقيق وما أنزل من السماء من مطر به حياة البشر وهو سبب الرزق قال ابن كثير: سمي المطر رزقاً لأن به يحصل الرزق(١)، فبالمطر تحيا الأرض بعد أن تكون هامدة يابسة لا نبات فيها ولا زرع وحياتها بإخراج أنواع الزروع والنبات والثمر، وكذلك في تقليب الرياح من حالة البرد الشديد إلى الحر الشديد، ومن الشمال إلى الجنوب، وتسيرها للسفن في عرض البحار، كل ذلك علامات باهرة، وبراهين ساطعة على وجود الله سبحانه المدبر لها، وهي دلائل لأصحاب العقول النيرة، وحجج وبراهين تدل على وحدانية الله، وحيثما مد الإنسان بصره وجد آيات الله ففي كل شيء له آية، تدل على أنه الواحد المتفرد في ملكه، فإذا لم يؤمنوا بعد كل هذه البراهين الدالة على توحيد الله وعظمته وجلاله وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده تعالى(٢). فبأي شيء يؤمنون ويصدقون! هذه الآيات وحدها كفيلة إلى توجيههم للإيمان، والقرآن وجه قلوبهم إليها، ففي الكون وفي النفس علامات واضحة على وجود الله تعالى ووحدانيته، لقوم يعقلون والغرض استعظام تكذيبهم للقرآن بعد وضوح بيانه وبراهينه(٣).

وقال القرطبي: هذه حجج الله وبراهينه الدالة على وحدانيته وقدرته لا باطل فيها ولا كذب فبأي حديث بعد حديث الله وآياته يؤمنون(٤).

دروس وعبر من المقطع الأول:

* القرآن الكريم كلام الله المنزل على محمد ﷺ المعجزة الكبرى الذي به تحدى العرب أن يأتوا بمثله فهو مؤلف من نفس الحروف التي يتكلمون بها وقد ابتدأت السورة بـ﴿ حمٓ ﴾

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: سورة الجاثية: ٧/ ٢٤٥ النسخة المحققة.

(٢) الكشاف: للزمخشري: ٤/ ٢٨٩. وانظر: أضواء البيان: الشنقيطي، ٧/ ٣٢٩.

(٣) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، ١٥٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨/ ١٠٤، وانظر: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير: ٧/ ٢٥٠.

وهذه إشارة أو رمز إلى تحدي العرب، من ناحية أن هذا القرآن المعجز مصوغ من مثل حروفهم وهم لا يقدرون على شيء منه ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[الإسراء: ٨٨].

* دعا المشركين إلى التأمل في كل ما حولهم في السماوات والأرض وما يشاهدونه من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وما حولهم من الأفلاك والعناصر، واختصاص كل عنصر بصفة معينة، وحركة خاصة، ومهمة ثابتة، دعاهم إلى التأمل في هذه الحقائق المشاهدة في آيات الكون، وفي أنفسهم، فكل ذلك لا بد أن يكون له صانع مدبر حكيم، فإذا لم يؤمنوا بعد كل هذه الآيات فبماذا يؤمنون؟ هذه الدلائل الموحية التي يمكن أن يصل الإنسان بعقله إلى معرفة صانعها وخالقها، ووجههم القرآن إليها لكي لا يكون للإنسان حجة بعد كل هذا الوضوح من بيان القرآن وإعجازه.

المقطع الثاني: جزاء المكذبين بآيات الله

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد أن ساق لهم في المقطع الأول الأدلة والبراهين على وحدانية الله سبحانه وتعالى، فلم يؤمنوا، واستمروا على كفرهم وعنادهم، وإنكارهم لنبوة محمد ﷺ، واستعظم تكذيبهم للقرآن، جاءهم في هذا المقطع بوعيد عظيم، وتهديد شديد فيه هلاك ودمار لكل من يسمع آيات الله تقرأ عليه، وهي في دلائلها ووضوحها ظاهرة بينة، ثم يستمر على كفره، ويتمادى في

غيه وضلاله وكفره، مستكبراً عن آيات ربه كأن لم يسمعها، بالعذاب الشديد الذي سيلحقه، قال الرازي: «وهذا وعيد عظيم، والأفاك الكذاب، والأثيم المبالغ في اقتراف الآثام»[1]. وسماه بشارة تهكماً به، لأن البشارة هي للخبر السار[2]، والآية وإن نزلت في (النضر بن الحارث) الذي كان يشغل الناس بأحاديث الأعاجم عن استماع القرآن، وكان إذا بلغه شيء من الآيات التي أنزلها الله على محمد ﷺ، استهزأ بها وسخر منها. إلا أن الحكم عام في كل من يتصف بهذه الصفة، أولئك المستهزئون بالقرآن لهم عذاب شديد مع الذل والإهانة في الدنيا، وجهنم تنتظرهم يوم القيامة، ولا ينفعهم ما ملكوه في الدنيا من مال وولد أو جاه، ولا ما اتخذوا من دون الله من أصنام يطمعون أن تشفع لهم، وتدفع الضرر عنهم[3].

وقد أكد الله سبحانه في نهاية المقطع على وصف القرآن بهدى الله الذي يجب اتباعه فهو الحق والصواب والموجه إلى سعادة الدنيا والآخرة، والذين كفروا بآيات القرآن الكريم وجحدوا بها لهم أشد العذاب يوم القيامة.

دروس وعبر:

* في هذا المقطع وعيد شديد، وتهديد واضح في أول المقطع وآخره، لكل من استكبر عن اتباع الحق بعد ظهوره ووضوحه وتمادى في جحوده وكفره متعالياً عن اتباع القرآن والانقياد لطاعة الله تعالى، متحدياً قدرة الله، ومستهزئاً بآياته.

* تأكيد على أن القرآن الكريم هدى الله سبحانه فكل من لم يتدبر آياته ولم يتبع دلائله على وحدانية الله وقدرته، ويكفر بها، ويحيد عنها وعن منهج وعقيدة الإسلام، ويتخذ من دون الله أولياء فهؤلاء الكفرة والمعاندون لهم عقاب صارم شديد في الدنيا ومن ورائهم جهنم في الآخرة ولن تغني عنهم أولياؤهم في الدنيا شيئا.

---

(١) **مفاتيح الغيب**: الرازي، ١٤/ ٣٦١.

(٢) **صفوة التفاسير**: الصابوني: ١٥٧.

(٣) **التسهيل لعلوم التنزيل**، ٤/ ٣٨، **مفاتيح الغيب**: الرازي، ١٤/ ٢٦٢.

المقطع الثالث: التذكير بنعم الله على عباده

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي:

بعد التهديد والوعيد الشديد في المقطع السابق لكل من استكبر عن آيات القرآن والحث على اتباع ما جاء به، ذكّر الله عباده في هذا المقطع بالنعم الجليلة الدالة على قدرته وحكمته ليشكروه ويوحدوه، فهو الذي ذلل البحر لكم لتسير السفن على سطحه بإرادته ومشيئته لمنافعكم دون أن تغوص في الماء في أعماق البحر، ولتطلبوا من فضل الله بسبب التجارة والمكاسب الأخرى التي تستخرج من البحر بصيد اللؤلؤ والمرجان، وصيد الأسماك، ونقل التجارة بالسفن، كل ذلك من فعله وخلقه، وتمام نعمته على عباده[1]. قال الرازي: خلق وجه الماء على الملامسة التي تجري عليها الفلك، وخلق الخشبه على وجه تبقى طافية على وجه الماء دون أن تغوص فيه وذلك لا يقدر عليه واحد من البشر، فلا بد من موجد قادر عليها وهو الله[2].

وكذلك خلق لكم كل ما في هذا الكون في السماوات والأرض من كواكب وجبال وبحار وأنهار، ونبات وأشجار، كل ذلك من فضله وإحسانه لتستدلوا على وحدانيته وقدرته، فهي دلائل واضحة وعبر وعظات لمن يتأمل في بدائع خلق الله.

ثم أتبع ذلك بتعليم فضائل الأخلاق ومحاسن الأفعال فطلب من النبي ﷺ أن يأمر المؤمنين بالصفح عن الكافرين، وأن يتجاوزوا عما يصدر منهم من الأذى، والأفعال الموحشة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨/ ١٠٥.

(٢) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٤/ ٢٦٣. وانظر: روح المعاني: الآلوسي، ١٤/ ٢٢١.

والأقوال البذيئة لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولا بلقاء الله تعالى. قال ابن كثير: أمر الله المسلمين أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك تأليفاً لهم، وبعد أن أصروا على العناد، شرع الله للمؤمنين الجهاد[١] ليجازي الكفرة المجرمين بما ارتكبوه، واقترفوه من الإثم والإجرام والتنكير والتحقير، فعلى المؤمنين الصبر وتحمل الأذى ليكون ذلك سبباً لجزائهم فيجزي الله المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فالكل راجع إلى الله يوم القيامة، فيجازيهم على أعمالهم حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية خيراً على الخير وشراً على الشر[٢]. وهذا تهديد ووعيد لهم وهو كقوله تعالى في سورة المزمل: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ ﴾[المزمل: ١١- ١٢] وكقوله تعالى:﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [المعارج: ٤٢] فالأعمال لا تذهب سدى فمن عمل صالحاً انتفع به يوم القيامة، ومن عمل سوءاً فسيناله عقاب من الله شديد، فلا يغتر الكافر بالنعم التي نالها في الدنيا، فإنها وإن ساءت ما يناله المؤمن أو زادت عليها في الدنيا، فإن الآخرة خالصة للمؤمنين، وسيرى الكافرون ما أعد الله لهم من عذاب أليم.

دروس وعبر:

* يذكر الله في هذا المقطع الإنسان بالنعم التي أنعمها عليه من تسخير البحر وجريان السفن فيه، واستخدامه في التجارة والمنافع من اصطياد السمك واستخراج اللؤلؤ والمرجان وتسخير ما في السماوات والأرض من شمس وقمر ونجوم وكواكب هي من أسرار الحياة، وجبال وسهول وأنهار وزروع وغير ذلك مما ينتفع به الإنسان، كل ذلك ليوجه قلبه بهذه الدلائل الواضحة إلى عبادة الله وتوحيده. فهو المنفرد بهذه النعم، وليفكر ويتدبر في خالق هذه النعم، وأسرار هذا الوجود.

* يدعو الله الإنسان للتحلي بالأخلاق الفاضلة الكريمة، وهي العفو والصفح عن المسيء

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٧/ ٢٥١.

(٢) روح المعاني، الآلوسي: ١٤/ ٢٢٦، وانظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: المدرس، ٧/ ١٠٤.

من المشركين والمنافقين واليهود، ليكون ذلك سبباً في زيادة درجاتهم يوم القيامة، فالعمل الصالح ينفع صاحبه، والعمل السيء يضر بصاحبه فالجميع راجع إليه يوم القيامة. وفي هذا ترغيب منه سبحانه للعمل الصالح، والابتعاد عن العمل السيء.

المقطع الرابع: نعمه الخاصة ببني إسرائيل وإنزال الشرائع

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي:

لما ذكر الله سبحانه وتعالى النعم العامة في المقطع السابق على جميع الناس أتبعه في هذا المقطع بالنعم الخاصة على بني إسرائيل، وهذه النعم هي: إنزال التوراة التي فيها هدى ونور، وإرسال الرسل موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء، وأعطاهم الفهم والفقه لفصل القضاء والخصومات بين الناس، ورزقهم من أنواع النعم من المآكل والمشارب والثمار، قال القرطبي: وهي الحلال من الأقوات والثمار والأطعمة التي كانت بالشام وقيل المن والسلوى في التيه[(١)]. وفضلهم على سائر الناس في زمانهم. وذلك قبل ظهور أمة محمد ﷺ أما بعد ظهورها فقد صرح القرآن الكريم بأنها خير الأمم، في قوله تعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠]، قال الشنقيطي: «وهذا واضح لأن ما جاء في القرآن من تفضيل بني إسرائيل، إنما يراد به أحوال سابقة»[(٢)].

ومع كل هذه النعم، وهذه الحجج والبراهين وبعد قيام الحجة عليهم وعلمهم الحقيقة

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٨/ ١٠٧.
(٢) أضواء البيان: الشنقيطي: ٧/ ٣٥٢.



اختلفوا في أمر الدين، وبغى بعضهم على بعض عناداً وحسداً وحباً للرئاسة، والله سيفصل بينهم بحكمه يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، وبذلك انتهت قيادتهم، وبطل استخلافهم. وجعلت الخلافة لأمة محمد ﷺ وشريعة الإسلام، وبهذا أمر النبي ﷺ بأن يتمسك بالحق وإظهار الصدق وأن لا يكون له غرض سوى اتباع الشريعة التي أنزلها الله تعالى بالدلائل والبراهين، ولا يتبع أهواء المشركين الذين قالوا له وهو بمكة: اتبع ملة آبائك فهم كانوا أفضل منك، فلو ملت إلى ما يريدون من اتباع أديانهم الباطلة، صرت مستحقاً للعذاب مثلهم، وهم لا يستطيعون دفع العذاب عنك، والظالمون لا مولى لهم، بل يتولى بعضهم بعضاً، وأما المتقون فمولاهم الله وناصرهم الله.

قال الرازي: والمقصود التعجب من هذه الحالة، لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وهنا صار العلم سبباً لحصول الاختلاف لأنه لم يكن مقصودهم نفس العلم، وإنما المقصود طلب الرئاسة. وفي هذا زجر للمشركين أن يسلكوا مسلك من سبقهم من الأمم العاتية[1] الظالمة. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ بأن هؤلاء أصروا على الكفر بعد أن منّ الله عليهم فلم يشكروا، فكذلك قومك.

ثم ختم المقطع بقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ إلى ما في القرآن الكريم من دلائل واضحة، وهدى ونور ورحمه لمن اتبعه بإيمان. قال الألوسي: «كان ما فيه من معالم الدين وشعائر الشرائع بمنزلة البصائر في القلوب»[2].

دروس وعبر:

* أن القرآن الكريم يذكر النبي ﷺ في هذا المقطع والمؤمنين بأن القيادة كانت لبني إسرائيل، مكنهم الله في الأرض ورزقهم من الطيبات وبعث فيهم الأنبياء، فلما فقدوا الإيمان

---

(١) روح المعاني: الألوسي، ١٤/ ٢٨٨.

(٢) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٤/ ٢٦٦.

واختلفوا وتحاسدوا، وتنازعوا وظلموا وفشلوا انتهت قيادتهم، وكذلك قومك فقد اختارهم الله لقيادة الإنسانية وأمرهم بالطاعة، وشرع لهم شريعة مرتبطة به، فإن حادوا عنها وتحاسدوا، وتقاتلوا، وتباغضوا سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب.

* لا يجوز أن يتبع المؤمنون أهواء المضلين والظالمين ويجب عليهم أن ينتبهوا ويحذروا منهم، فهؤلاء الظلمة المضلين في كل زمان ومكان يريدون من المؤمنين أن يتبعوا ضلالاتهم ويبتعدوا عن بصائر الله التي بصر بها عباده ليعبدوه، ويعملوا بما أمرهم في شريعة الإسلام(١).

المقطع الخامس: عدل الله في الحكم على المحسنين والمسيئين

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بين الله سبحانه وتعالى في المقطع السابق أن الجزاء يوم القيامة منوط بالعمل وأن هناك فرقاً بين الظالمين والمتقين، وبيّن هنا أن من اقترف السيئات والمعاصي في الدنيا، وكفر بالله وعبد غيره وأشرك به لا يسوّي بينه وبين المؤمنين، وابتدأ المقطع بالاستفهام الإنكاري على المشركين والكفار الذين يظنون أن الله يساوي بينهم وبين المؤمنين في الجزاء والثواب والرحمة، في المحيا والمات! ومنازل السعادات، وسبب ذلك أن ثلاثة من المشركين قالوا لثلاثة من المؤمنين: والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولون حقاً لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما إنا

(١) روح المعاني: الألوسي، ١٤/ ٣٥٢.

أفضل منكم حالاً في الدنيا، فأنكر الله عليهم هذا الكلام[1]، فالمؤمن يموت مؤمناً ويبعث مؤمناً، والكافر يموت كافراً ويبعث كافراً. قال الرازي: كل يموت حسب ما عاش عليه[2]. فساء ما ظنوا بعدل الله من المساواة بين الأبرار والفجار. فالله عادل وقد أتبع ذلك بالدلالة على عدله في خلق السماوات والأرض بالحق والعدل، ليجزي كل إنسان بعمله، وبما اكتسب من خير أو شر، وذلك لا يتم إلا إذا حصل البعث والقيامة، وحصل التفاوت في الدرجات، فمن أقبل على الدنيا وترك الإيمان، وعبد الهوى، يميل إلى طبعه ونفسه، وكأنه اتخذ إلهه هواه، وهو يعلم الحق، وهذا كما في قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾فالأرواح البشرية إما أن تكون نورانية أو ظلمانية تميل إلى الشهوات، فكل واحد ينال ما يليق بجوهره. قال ابن عباس: ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه، فلا يهوى شيئاً إلا ركبه، وأضله الله وهو عالم بالحق غير جاهل به، فهو أقبح ممن يضل على جهل، وذلك لأنه يعرف الحق والهدى وينحرف عناداً، كما قال تعالى في آية أخرى:﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ ﴾[النمل:١٤] فطبع على سمعه وقلبه فلا يفكر في الوعيد والآيات، ولا يتأثر بالمواعظ فهو كالأعمى لا يبصر الرشد، ولا يرى الحق والنور الساطع الذي جاء به القرآن الكريم. فلا أحد يستطيع هدايته بعد أن أضله الله فاعتبروا أيها المؤمنون واتعظوا.

دروس وعبر:

إن الله سبحانه في هذا المقطع من السورة يبين مكانة المؤمنين عند الله يوم القيامة، واستنكار التسوية بين المحسنين والمسيئين سواء في الحياة أو في المات كما يظن أهل الكتاب الذين ارتكبوا المنكرات، فالحق الذي تقوم عليه العدالة في شريعة الله عدم التسوية والتفرقة بين المسيئين والمحسنين، وحكمه عليهم يوم القيامة في مجازاة كل نفس بما كسبت وهذه قاعدة ثابتة من أصول الدين تتكرر في القرآن الكريم: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

(١) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٤/ ٢٦٧.
(٢) السابق، ١٤/ ٢٦٨.



المقطع السادس: الرد على الدهريين

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ
(٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلِ ٱللَّهُ
يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ (٢٧) ﴾.

في هذا المقطع يحكي الله سبحانه وتعالى قول الدهريين من الكفار ومن وافقهم من المشركين في إنكارهم ليوم القيامة[١] وقولهم: ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، فلا حياة إلا هذه الحياة: نحيا ويموت بعضنا، ونموت ويحيا بعضنا[٢]، وقولهم هذا مبني على التوهم والتخيل ليس له دليل عقلي أو نقلي، والمشركون يقولون أن ولادة الأشخاص بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع فالموجب للحياة والموت تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك، ولا حاجة إلى إثبات الخالق[٣]. وقد كان العرب في الجاهلية يعتقدون أن الدهر هو الفاعل لما أصابهم، فسبوه كدهر وإنما فاعلها الله تعالى، فكأنهم سبوا الله عز وجل[٤]. وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا تسبوا الدهر، فإن الله تعالى هو الدهر"[٥].

هؤلاء إذا قرأت عليهم آيات القرآن الواضحة في الدلالة على يوم البعث والنشور، طلبوا إحياء آبائهم الأولين! فقل لهم: الله خلقكم ابتداء حين كنتم نطفاً، وهو الذي يميتكم عند إنتهاء آجالكم، ثم يبعثكم بعد الموت للحساب والجزاء، كما أحياكم في الدنيا، ويوم القيامة لا شك فيه

---

(١) **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير، ٧/ ٢٥٣.
(٢) **الجامع لأحكام القرآن**: القرطبي، ٨/ ١١١.
(٣) **مفاتيح الغيب**: الرازي، ١٤/ ٢٧١.
(٤) **تفسير القرآن العظيم**: ابن كثير: ٧/ ٢٥٤.
(٥) صحيح البخاري، تفسير سورة الجاثية: ٦/ ١٦٦، وكتاب التوحيد، ٩/ ١٧٥. مسند الإمام أحمد: ٥/ ٢٦٩.

ولا ارتياب، ولكنهم لا يعلمون الحق لجهلهم، ولقصور نظرهم: فالقادر على الخلق والإيجاد ابتداء، وجب أن يكون قادراً على الإعادة ثانياً، والحكمة اقتضت الجمع للجزاء يوم القيامة، فهو سبحانه وتعالى مالك جميع الكائنات في السموات والأرض، والخسران المبين لمن ينكر يوم القيامة.

دروس وعبر:

في هذا المقطع إثبات للقدرة الإلهية على الحياة والموت، فهو المهيمن على كل ما في الوجود، وهو القادر على الإنشاء والإعادة، فقد رد على الدهريين الذين ينكرون الإعادة، ولا ينظرون ما حولهم ولذلك طالبوا أن يأتي الله بآبائهم، لكي يقتنعوا بقدرته سبحانه على إحياء الموتى، إنهم لو نظروا وتدبروا لوجدوا أن هذا الذي طلبوه يقع أمام أعينهم فالله يحيي ويميت، ولذلك هو قادر على جمع من أحياهم وأماتهم يوم القيامة، أما قبل هذا الموعد فلا، هكذا اقتضت حكمته سبحانه وتعالى.

المقطع السابع: من مشاهد يوم القيامة

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾.

وفي هذا المقطع في ختام هذه السورة يعرض الله مشهداً من مشاهد يوم القيامة الذي ينكره الدهريون، ولا يصدقون به، بل يستهزئون ويشكون فيه، يصورهم في ذلك اليوم وكأنه

واقع يرونه رأي العين[١]، وتجثوا الأمم كلها على ركبها من شدة الهول والفزع، قال ابن كثير: وهذا إذا جيء بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه[٢]. في انتظار الحساب أمام الواحد القهار، فيقال لهم: اليوم تجزون ما كنتم تعملون في الدنيا. ويجدون كل شيء مكتوباً أمامهم فلا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها من غير زيادة ولا نقصان. وقال السمان الحلبي: وترى كل أمة جاثية أي باركة على ركبها[٣].

هذه الجموع الهائلة في هذا المشهد منذ أن خلق الله الخلق تنقسم إلى فريق المؤمنين وفريق الكافرين.

فأما الفريق الأول: الذين آمنوا وأطاعوا الله فحالهم يسير، يرون ما أعد الله لهم من ثواب ورحمة وهي دخولهم الجنة مكان تنزل رحمة الله تعالى على عباده المؤمنين، وذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز بعده﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[آل عمران: ١٨٥].

وأما الفريق الثاني: وهم الكافرون المستكبرون الذين استكبروا عن عبادة الله، ولم يتبعوا الرسل، فيوبخهم ويقرعهم، ويقول لهم: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم. فتكبرتم عن الإيمان، وأنكرتم لقاء يومكم هذا وقد قيل لكم: إن وعد الله حق وهو يوم القيامة، وإن الساعة لا شك فيها، فكذبتهم وكنتم مغرقين في غيكم وضلالكم، غير مصدقين ولا مستيقنين من حدوثها، وخدعتكم الحياة الدنيا بزخارفها وأباطيلها ونسيتم لقاء يومكم هذا، فها هو قد ظهر لكم وأحاط بكم، كما أحاط بكم العذاب الذي كنتم تنكرون، وتستهزئون به، فاليوم ننساكم في النار كما نسيتم لقاء يومكم هذا، ونترككم تعذبون، وليس لكم من ينصركم ويخلصكم من عذاب النار، بسبب كفركم، واستهزائكم بكلام الله في الدنيا، وعدم اتباعكم الرسل وإنكاركم للبعث والنشور، فجزاؤكم النار لا تخرجون منها، ولا يطلب منكم الطاعة لعدم نفعها في

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٥/ ٣٢٣١.

(٢) تفسير القرآن الكريم: ابن كثير: ٧/ ٢٥٥.

(٣) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: ٨٩.

الآخرة، وتوصد أبواب النار من خلفكم وينطلق أخيراً صوت الحمد لله رب العالمين، فلا يستحق الحمد سواه فهو المدبر للسماوات والأرض وهو رب العالمين، له العظمة والعزة والكبرياء، وهو الغالب الذي لا يقهر، الحكيم في صنعه وتدبيره[١].

دروس وعبر:

* في هذا المقطع مشهد من المشاهد التي ستقع يوم القيامة يصورها الله تبارك وتعالى كما ستكون أمام المنكرين لها، وأمام المؤمنين بها ليزداد الذين آمنوا إيماناً، ولينتبه الكافرون ويراجعوا أنفسهم قبل وقوعها، فيسارعوا إلى الإيمان. مشهد لهذا اليوم الذي يشكون فيه ولا دليل عندهم، فقد أرسل الله للناس الرسل ليرشدوهم إلى طريق الحق وعبادة الله، فقد خلقهم الله في هذه الحياة ليبتليهم ويعطيهم فرصة للعمل، ثم يموتون حتى يحين موعد الحساب الذي جعل الله له وقتاً معلوماً، فيحاسبوا على ما عملوا، وتظهر نتيجة هذا الابتلاء، ولكنهم أنكروا هذا البعث وهذا الحساب، وأنكروا وجود الله استكباراً وعلواً فيقول لهم ويذكرهم ويقرعهم: أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين. وفي هذا حث للإنسان في هذه الحياة أن يسارع إلى طاعة الله واتباع أوامره قبل فوات الفرصة.

* لا يستحق الحمد إلا الله تعالى فهو المتفضل على عباده بكل أنواع النعم فهو خالقهم ومالكهم ومالك الكون كله سمائه وأرضه المتفرد بالعظمة والجلال لا إله إلا هو له الكبرياء والعزة والحكمة المدبرة وهو العزيز الحكيم في صنعه وفعله وتدبيره.

---

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب: ٥/ ٣٢٣٤، وانظر: صفوة التفاسير/ سورة الجاثية: الصابوني: ١٦٢.

الخاتمة:

هذه السورة كسابقتها «سورة الدخان» توضح حقيقة المشركين في زمن النبي ﷺ وكيف وقفوا معاندين بوجه الدعوة الإسلامية، واتباعهم لأهوائهم وإصرارهم على الضلال مكابرين، منكرين للبعث والنشور صامين آذانهم عن استماع القرآن الحق المنزل على النبي ﷺ وهم يحسبون أنهم متساوون مع المؤمنين. وهذا شأن الكافرين الذين كانوا قبلهم وهو شأن المنكرين إلى يوم الدين.

وهذه السورة أوضحت عدل الله تعالى وبينت لهم سوء حساباتهم، وبينت لهم الفرق بينهم وبين المؤمنين في الآخرة وصورت لهم كل الأمم في ذلك اليوم العظيم، وهي جاثية على ركبها تدعى إلى كتابها الذي ينطق بالحق الذي كان يعمله كل فرد، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، صورت لهم وقوع الآخرة لتستيقظ قلوبهم من غفوتها وليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها، ويومئذ يخسر المنكرون للقرآن الذي تحدى قريش والعرب جميعاً على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، الذي فيه تكون الأمم جاثية على ركبها، وهذا تهديد لمن لم يؤمن بعد كل هذه الأدلة لقريش ولمن يأتي بعدهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن التي حروفه من حروف كلامهم إن كانوا قادرين.

وأما المؤمنون فيدخلون في رحمة الله وجنته تذكرهم السورة بأنه من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها إن السورة كلها موضوع واحد من أولها إلى آخرها تعالج قضية الإيمان بالله وباليوم الآخر تبدأ بالقرآن الكريم المعجز وأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم، وتنتهي بحمد الله رب العالمين له الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.

وفي سياق السورة عرض للمقاطع التي فصلناها في التفسير توضح المبادئ، وتخاطب العقول والقلوب لتتطلع إلى حقائق القرآن الكريم، وإلى حقائق الكون، فهي تعالج قضايا العقيدة والإيمان من خلال ما لاقته الدعوة الإسلامية من عناد لترسيخ أمور الآخرة والبعث من خلال حجج عقلية، وتدعو المسلمين للتمسك بشرع الله الحق فلا مساومة في أمور الشريعة تدعوهم إلى الصبر والمصابرة كما صبر النبي ﷺ.



تفسير
مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

سورة الأحقاف

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة:

لأحقاف. والأحقاف (جمع حقف) وهو الجبل من الرمل [1].

ب- فضائل السورة:

مرّ في أول سورة المؤمن (غافر) فضل الحواميم.

ج- السورة مكية.

قال القرطبي: في قول جميعهم [2]. وذهب البعض إلى أن السورة مكية إلا آيتين، وهما قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الآية. وقوله سبحانه: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ الآية [3].

د- عدد آياتها:

ثلاثون وخمس آيات في الكوفي، وأربع في عدد الباقين. والاختلاف في﴿ حمٓ ﴾؛ عدّها الكوفي، ولم يعدها الباقون [4].

هـ- محور السورة:

إثبات أصول العقيدة الإسلامية الثلاثة: وهي التوحيد، والرسالة والوحي، والبعث والجزاء. وهذا مقصود القرآن كله [5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٦٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٧٨).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي (٥/ ٩١).

(٤) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/ ٤٨٠).

(٥) قال فخر الدين الرازي – رحمه الله –: " ومن تأمل هذا البيان علم أن المقصود من كل القرآن تقرير =

و- المناسبات في السورة:

١- المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

تهديد أهل الكفر بإهلاكهم، لشركهم وتكذيبهم كما أهلك الله سبحانه قوم هود. فقد دلّت تسميتها بالأحقاف، بما دلت عليه قصة قوم هود عليه السلام، من التوحيد، وإنذارهم بالعذاب دنيا وأخرى، ومن إهلاكهم، وعدم إغناء ما عبدوه عنهم، ودفنهم تحت أحقافهم، بما تحقق من إعراضهم وخلافهم [١].

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بدأت السورة بالحديث عن تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، عقبها مباشرة الأدلة من خلق الكون على التوحيد والحشر. وختمت بالتأكيد على قدرة الله على البعث، وتوجيه الرسول ﷺ إلى الصبر، وعدم الاستعجال لهم بالعذاب، فإنه آتيهم لا محالة﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٢].

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

وجه اتصال سورة الأحقاف بخاتمة الجاثية أنه تعالى لما ختم الجاثية بذكر التوحيد وذم أهل الشرك والوعيد، افتتح الأحقاف بالتوحيد، ثم بالتوبيخ لأهل الكفر من العبيد [٣].

= التوحيد، والنبوة، والمعاد. وأمّا القصص فالمراد من ذكرها ما يجري مجرى ضرب الأمثال في تقرير هذه الأصول". مفاتيح الغيب، الرازي (٢٨/ ٣٠).

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/ ٢٨٠-٢٨١).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٧، ٩)، وانظر التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة الزحيلي (٢٦/ ٦-٧).

(٣) تفسير روح المعاني، الألوسي (٢٦/ ٤).

٤- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

إن نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة الجاثية، ونستطيع أن نقول: إن مضمون سورة الأحقاف هو نفس مضمون السورة التي قبلها - سورة الجاثية - فقد تناولت موضوع العقيدة: التوحيد، والرسالة (القرآن من عند الله)، ثم البعث والمسؤولية في الآخرة[1].

المقطع الأول: القرآن حق من عند الله يدعو إلى التوحيد ونبذ الشرك

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) انظر مفاتيح الغيب، الرازي (٢٨/ ٣)، وروح المعاني، الألوسي (٢٦/ ٤).

التفسير الإجمالي:

تقدم الكلام عن الأحرف المقطعة في أوائل السور. وقد افتتحت السورة بالحديث عن القرآن: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، والانتقال من الأحرف العربية المقطعة في أول السورة إلى الكتاب المصوغ من جنس هذه الأحرف، على غير مثال من كلام البشر شهادة بأن تنزيل هذا القرآن من الله ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾. العزيز: المنيع الذي لا ينال ولا يغالب، والحكيم: في أقواله وأفعاله. يقال: أحكم الشيء ؛ إذا أتقنه ومنعه من الخروج عمّا يزيد، فهو محكم، وحكيم على التكثير [1]. فالقرآن منزل من عند الله، ليس بكذب عليه.

وإيثار وصفي ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ بالذكر دون غيرهما من الأسماء الحسنى، لإشعار وصف ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ بأن ما نزل منه مناسب لعزته، فهو كتاب عزيز، كما وصفه تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت: ٤١].

أي هو غالب لمعانديه ؛ وذلك لأنه أعجزهم عن معارضته ؛ ولإشعار وصف ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ بأن ما نزل من عنده مناسب لحكمته، فهو مشتمل على دلائل اليقين والحقيقة ؛ ففي ذلك إيماء إلى أن إعجازه من جانب بلاغته ؛ إذا غلبت بلاغته بلاغة بلغائهم. ومن جانب معانيه ؛ إذْ أعجزت حكمته حكمة الحكماء. وقد تقدم مثل هذا في طالعة سورة الزمر، وقريب منه في طالعة سورة غافر [2]، ونفس المطلع في سورة الجاثية.

ولمس العلاقة بين كتاب الله المتلو المنزل من عنده وكتاب هذا الكون الذي نراه، والذي سخره الله لهذا الإنسان، والتي نلمسها في أوائل السورة السابقة:﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ٩].

نرى في هذه السورة ذكر كتاب الله المفتوح في هذا الكون ودلالته على الحق:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١/ ٢٨٨)، (٢/ ١٣١).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٥/ ٢٢٥-٢٢٦).



﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ أي للزوال والفناء، أو للحساب والجزاء، بالنسبة لمن سخرت لهم السماوات والأرض،﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يعني القيامة [١]، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾ [النجم: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر: ٨٥].

ومع أن القرآن المنزل، وخلق السماوات والأرض يدل كل منهما على وحدانية الله وتفرده بالخلق والإيجاد، وتفرده بالألوهية، فله الطاعة التامة وحده، وله العبادة الخالصة وحده ؛ مع هذا الخلق كله الذي يدلّ على الحكمة والتقرير والتدبير، فإن الذين كفروا لاهون عمّا يراد بهم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾ [٢].

فالكتاب المنزل المتلو يقرر أن الله واحد لا يتعدد، وأنه ربّ كل شيء ومالكه وسيده، بما أنه خالق كل شيء ومدبّر كل شيء، ومقدر كل شيء. وكتاب الكون الحي ينطق بهذه الحقيقة ذاتها ؛ فنظامه وتنسيقه وتناسقه كلها تشهد بوحدانية الصانع المقدّر المدبر، الذي يصنع على علم، ويبدع على معرفة، وطابع الصنعة واحد في كل ما يصنع ويبدع، فأنّى يتخذ الناس آلهة من دونه ؟! وماذا صنع هؤلاء الآلهة، وماذا أوجدوا ؟ وهذا هو الكون قائماً معروضاً على الأنظار والقلوب ؛ فماذا لهم فيه، وأيّ قسم من أقسامه أنشؤوا ؟ [٣]

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٠/ ٥٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٣).
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١٠).

وهذا تلقين من الله لرسوله ﷺ للاستدلال على نفي صفة الإلهية عن أصنامهم ومعبوداتهم كلها، بمسالك الأدلة بأسرها:

فأولها المعقول ؛ وهو قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ (١). وهذا الدليل العقلي دليل تعجيز لهم ؛ فلن يملك إنسان أن يزعم أنّ تلك المعبودات من دون الله – سواء كانت حجراً أم شجراً أم جناً أم إنساً أم ملائكة أم غيرها – قد خلقت من الأرض شيئاً. ولن يملك إنسان كذلك أن يزعم أن لتلك المعبودات شركة في خلق السماوات أو في ملكيتها (٢). فالفطرة لا تملك إلا أن تقر بالربوبية والألوهية والسيادة لله سبحانه.

وما تضمنته هذه الآية من أن من لم يخلق شيئاً ولم يكن له شرك في السماوات لا يصح أن يكون معبوداً بحال، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [فاطر: ٤٠]. وقوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١]. وقوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ [سبأ: ٢٢]. والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة (٣).

والاستدلال الثاني ؛ دلالة السمع، حيث قال تعالى: ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، فاستدعي منهم كتاباً منزلاً قبل القرآن يتضمن عبادة غير الله، أو بقية من علم مستيقن ثابت، ترووها عن أهل العلم السابقين، غير مسطورة في الكتب. والأثارة: البقية القديمة (٤).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٢-١٨٣).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١٠).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي (٧/ ٢١٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٣)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٢).

وكل الكتب المنزلة قبل القرآن تشهد بوحدانية الخالق المبدع المدبر، وتدعو إلى التحرر من العبودية لغير الله تبارك وتعالى، وعبادته وحده سبحانه، فهي جميعاً كتب تحرير، وهدفها الأساس التوحيد (التحرير). وليس فيها من كتاب يقر الآلهة المتعددة، أو يقول بأن لها في الأرض خلقاً أو في السماوات شركاً، وليس هناك من علم ثابت يؤيد مثل هذا الزعم المتهافت [١].

ثم يأخذ بهم إلى نظرة موضوعية في حقيقة هذه الآلهة المدّعاة، منددا بضلالهم في اتخاذها، وهي لا تستجيب لهم، ولا تشعر بدعائهم في الدنيا، ثم هي تخاصمهم يوم القيامة، وتنكر دعواهم في عبادتها [٢].

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦ ﴾.

وقد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة ؛ إمَّا لذاتها، وإما باعتبارها رموزاً ممثلة للمعبود خلفها من الملائكة أو الجن أو الصالحين أو غير ذلك. وبعضهم يعبد الأشجار، أو الفراعنة والمتألهين من شياطين الإنس والجن، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أو الشيطان آلهة، وكل هذا واقع من المشركين قديماً وحديثاً. ومن يزور في هذا العصر غرب جبل سنجار - بين سورية والعراق - فسيرى عباد الشيطان يرمزون له بالطاووس، ويرى من يزور الهند عباد الأصنام وعباد البقر.

وكل هذه المعبودات من دون الله لا تستجيب لعابدها أصلاً، أو لا تستجيب لهم استجابة نافعة ؛ فلا تقدم لهم خيراً ولا تدفع عنهم ضراً ؛ فلا أحد أضلّ وأجهل ممّن يدعوها ويعبدها من دون الله، وهي كلها بأنواعها غافلة عن دعاء عابديها، لا المعبودات من الجماد والحيوان فقط بل المعبودات من شياطين الإنس والجن غافلة أيضاً في الدنيا عن عابديها، مشغولة بتحقيق أهدافها

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٤)، والتحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ١١).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١١).



في التسلط على عابديها، لا بتحقيق مصالح عابديها، وإن ادعت ذلك. ولذلك جاءت الكنايات والضمائر في هذه الآية عن المعبودات كما تجيء عمّن يعقل، كما وصفها بالغفلة لتغليب العقلاء أو لأن عابديها يعاملونها في العبادة معاملة من يعقل [١].

هذا حالهم في الدنيا، وإذا حشر الناس للجزاء والحساب يوم القيامة كان المعبودين أعداءً لعابديهم ؛ فالملائكة أعداء للكفار، والجن وشياطينهم وشياطين الإنس يتبرؤون غداً من عَبَدتهم، ويلعن بعضهم بعضاً. ويجوز أن تكون الأصنام أعداء للكفار الذين عبدوها، على تقدير خلق الحياة لها، كما قال تعالى:﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم: ٨١-٨٢] [٢].

ثم يمضي السياق يتحدث عن موقفهم من رسول الله ﷺ وما جاءهم به من الحق، بعدما تحدث عن واقعهم وتهافت عقيدة الشرك (العبودية لغير الخالق)، ويقرر قضية الوحي كما قرر قضية التوحيد:

﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾.

ليس غريباً أن ينكر عُبّادُ غير الله الحقَّ الذي أوحاه الله إلى رسوله ؛ لأنهم إذا أقروا به وأنه حق من عند الله لزمهم اتباعه وطاعة الله فيما أنزل ؛ لهذا نرى كثيراً من الكفار يقرون بأن الله هو الخالق، وهو رب السماوات والأرض ومن فيها، ثم ينكرون الوحي ويكذبون الرسل ؛ ليتركوا طاعة الله فيما أنزل، ويستمروا في طاعة ساداتهم وكبرائهم في معصية الله.

من أجل ذلك يأتي الحديث عن النبوة والوحي في أكثر السور، مكيّها ومدنيها.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٣)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٣)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٢-٩٣).



ونحن نرى هنا أن الله تعالى لما قرر الأصل الدال على إثبات الإله، وعلى عدله بخلق السماوات والأرض بالحق وإلى أجل مسمّى، هو يوم القيامة، بنى على ذلك التفاريع الثلاثة:

الفرع الأول: الردّ على عبدة الأصنام، وعبدة غير الله على الإطلاق فقال:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾الآية.

والفرع الثاني: إثبات نبوة محمد ﷺ على الإنس والجن، وتفنيد ادعاءاتهم في إنكار الوحي وتكذيب الرسول ﷺ. وهو هذه الآية وما بعدها.

والفرع الثالث والأخير الذي يتم ويتحقق به العمل الجاد بأمر الله والتحرر عن العبودية لغيره هو: إثبات البعث والحساب والجزاء، وإقامة الدليل على قدرة الله على إعادة الخلق. ويأتي ذلك في آخر السورة.

وتقرير هذه الأصول الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، هو المقصود من كل القرآن [(١)].

يبدأ الحديث هنا عن قضية الوحي بترذيل مقولتهم عنه، واستنكار استقبالهم له، ويظهر عناد المشركين وتعنتهم إذا تتلى عليهم آيات القرآن، فيها الدلائل واضحات على أنها الحق من عند الله سبحانه، قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين [(٢)]، أي سحر واضح، وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا. وإنما قالوا ذلك عن القرآن من حيث قالوا: هو يفرق بين المرء وولده، وبينه وبين زوجه، إلى نحو هذا مما يوجد مثله للسحر بالوجه الأخس [(٣)].

وهكذا يبدأ الهجوم منذ البدء على تقولهم الظالم وادعائهم القبيح، الذي لا يستند إلى شبهة ولا ظل من دليل.

ثم يرتقي في إنكار مقولتهم الأخرى (افتراء)، فلا يسوقها في صيغة الخبر، بل في صيغة

---

(١) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، الرازي (٢٨/ ٤، ٢٩-٣٠).

(٢) تفسير بحر العلوم، السمرقندي (٣/ ٢٧١).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٤)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٣).

الاستفهام، كأنّ هذا القول لا يمكن أن يقال، وبعيد أن يقال [١]:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ التقدير: أيقولون افتراه، أي تقوّله محمد، وهو إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً. ومعنى الهمزة في ﴿ أَمْ ﴾ الإنكار والتعجب ؛ كأنه قال: دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضيّ منه العجب. وذلك أن محمداً كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويَفْتريَهُ على الله، ولو قدر عليه دون أمة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة كانت تصديقاً من الله له، والحكيم سبحانه لا يصدق الكاذب، فلا يكون محمد ﷺ مفترياً [٢].

ويأمر الله رسوله أن يرد بأدب النبوة وقوة الدليل:

﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

يأمر الله سبحانه رسوله أن يقول ثلاثة أقوال في الرد عليهم رداً مفصلاً، ومن ثم تتكرر كلمة ﴿ قُلْ ﴾ ثلاث مرات في معرض الجواب:

الجواب الأول: هذه الآية، حيث أمر الرسول ﷺ أن يجيبهم بجواب يقلع مقالتهم من جذورها، وجعل الافتراء مقروناً بحرف (﴿ إِنِ ﴾ الذي من شأنه أن يكون شرطه نادر الوقوع إشارة إلى أنه مفروض في مقام مشتمل على دلائل تقلع الشرط من أصله. والتقدير: إن افتريته عاقبني الله معاقبة لا تملكون ردها. فقوله: ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ دليل على الجواب المقدر في الكلام بطريق الالتزام.

ووجه الملازمة بين الشرط وجوابه في قوله:﴿ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أن الله لا يقر أحداً على أن يُبَلِّغ إلى الناس شيئاً لم يأمره بتبليغه، وقد دلّ القرآن على هذا في قوله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٤).



تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]. ولعلّ حكمته في ذلك أن التقول على الله يفضي إلى فساد عظيم يختلّ به نظام الخلق، والله يغار على مخلوقاته، فلا يُمكنّ أحداً من الافتراء عليه، وادعاء أنه مرسل وهو كاذب، إذْ لابد أن يظهر كذبه للناس واضحاً جلياً، ويدمره الله في الدنيا قبل الآخرة [(١)]. ولا يقال: إن كثيرين تنتشر دعواهم الضالة وهم غير مستقيمين ؛ فالكلام عمّن يدعي أنه رسول الله، والدعوات الضالة قد تنتشر فترة من الزمن، ثم يدفع الله الباطل ويزيله بالحق الذي ينزله مؤيَّداً بالأدلة والمعجزات.

وبعد نقض حجتهم يترك النبي ﷺ أمرهم إلى الله بأسلوب فيه تهديد لهم ووعيد أكيد وترهيب شديد. ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [(٢)]. والإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع. أفاضوا في الحديث، أي اندفعوا فيه. وقيل: المعنى تخوضون فيه من التكذيب، وهو سبحانه يجزيكم بما يعلمه من أمركم [(٣)]. قال النسفي: «ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم» [(٤)]. ثم ختم الآية بالترغيب لهم بالتوبة والإنابة: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾، الغفور لمن تاب، الرحيم بعباده المؤمنين [(٥)].

والجواب الثاني: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾.

البِدْع: - بكسر الباء وسكون الدال - معناه البديع، ومنه الخِلّ بمعنى الخليل، ومن أسمائه سبحانه: «البديع»، أي خالق الأشياء ومخترعها. قال ابن عباس وغيره: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ١٤-١٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٤).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٤-١٨٥)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٣).
(٤) تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (٤/ ١٤٠).
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٥)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٣).

ﵟالرُّسُلِﵞ، ما أنا بأول من أرسل، قد كان قبلي رسل [١]. فالمعنى: لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلي، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكرون وتستبعدون بعثتي إليكم، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء إلى الأمم [٢].

ومن ثم أتم الله الحجة آمراً رسوله أن يقول: ﴿ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ ﴾، أي وما أعلم ما يفعل الله بي وبكم فيما يستقبل من الزمان، أي في الدنيا. عن الحسن البصري في هذه الآية قال: «أما في الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل، ولكن قال: وما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا ؛ أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلي، أو أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي، ولا أدري ما يفعل بي ولا بكم ؛ أمتي المكذبة، أم أمتي المصدقة، أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قذفاً، أم مخسوف بها خسفاً» [٣].

وهذا القول هو الذي عوّل عليه ابن جرير الطبري، وأنه لا يجوز غيره. ولا شك أن هذا هو اللائق به ﷺ، فإنه بالنسبة للآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة، هو ومن اتبعه. وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش، أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم [٤]. ومما يدل على أن المراد نفي علمه ﷺ في الدنيا معنى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ ﴾[الأعراف: ١٨٨]. ولذلك كان قوله: ﴿ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ استئنافاً بيانياً، وإتماماً لما في قولـه: ﴿ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ ﴾، بأن قصارى ما يدريه هو اتباع ما يُعْلمه الله به [٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٤)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٣).

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (٢٦/ ٧-٨).

(٤) المرجع السابق (٢٦/ ٨)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٥)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٨٦).

(٥) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ١٧).

﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾، أي مبين النذارة، لا مفترٍ، فأمري ظاهر لكل ذي لب وعقل [١]. وقد أقام الله عليهم الحجة، وأيّد رسوله بالمعجزات الدالة على صدقه.

والآن يأتي الجواب الثالث على زعمهم أن محمداً ﷺ افترى هذا القرآن: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

وجواب الشرط﴿ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ هو: ألستم ظالمين، أو فقد ظلمتم. دل عليه قوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٢]. والمعنى: ما ظنكم أيها المشركون الكافرون بالقرآن أن الله صانع بكم، إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله الله عليّ لأبلغكموه وقد كفرتم به وكذبتموه ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾، أي قد شهد بصدقه وصحة الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلي؛ فقد بشرت به، وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به [٣]، من التوحيد والوعد والوعيد، وغير ذلك، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [الشعراء: ١٩٦-١٩٧]. وقوله سبحانه:﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾[الأعلى: ١٨-١٩]. وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ [الشورى: ٣] [٤].

وقد روى الطبري عن الحسن «بلفظ بلغني»، وعن عوف بن مالك الأشجعي، وعن غيرهما أن الآية نزلت في عبد الله بن سلام ﷺ. وروي عن مسروق قال: «والله ما نزلت في عبد

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٥).
(٢) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٩)، وروح المعاني، الألوسي (٢٦/ ١٢)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٦).
(٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (٤/ ٣٠٣).

الله بن سلام، ما نزلت إلا بمكة، وما أسلم عبد الله إلا بالمدينة، ولكنها خصومة خاصم محمد بها قومه، قال: فنزلت: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ قال: فالتوراة مثل القرآن، وموسى مثل محمد، فآمنوا بالتوراة وبرسولهم وكفرتم». وروى الطبري مثل ذلك عن الشعبي.

ورجح الإمام الطبري قول مسروق ؛ لأنه أشبه بظاهر التنزيل، فقوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ في سياق توبيخ الله تعالى ذكره مشركي مكة، واحتجاجاً عليهم لنبيّه، وهذه الآية نظيرة سائر الآيات قبلها، ولم يجر لأهل الكتاب ولا لليهود قبل ذلك ذكر، ولا انصرف الكلام عن أخبار المشركين إلى غيرهم [1]. ولا ترقى الروايات عن الحسن وغيره لدفع ظاهر النص القرآني وسياقه.

أمّا رواية البخاري عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «ما سمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحيّ يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلاّ لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾ الآية» [2]. فهذه الرواية، وإن كانت لا يشك في صحتها فإنها ليست نصاً في السببية، وكل ما تفيده أن عبد الله بن سلام داخل في مضمونها، شاهد على صدق القرآن.

ثم يمضي السياق في استعراض أقوال المشركين في اعتذارهم عن تكذيب الحق. هذه الأقوال التي يظهر منها إعجابهم بأنفسهم، وتعاليهم واستكبارهم، وذلك بمناسبة ما جاء في الآية السابقة ﴿ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾، حيث يقول سبحانه:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ

---

(١) جامع البيان، الطبري (٢٦/ ٩، ١١-١٢).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٨١٢).



﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ۝١١﴾.

قال قادة الكفر والشرك عن الذين آمنوا بالقرآن؛ لو كان خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء، يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضي الله عنهم، وأشياعهم وأضرابهم، من المستضعفين والعبيد والإماء[(١)].

والأمر ليس كذلك؛ فما كان يمنعهم عنه أنهم يشكّون فيه، أو يجهلون الحق الذي يقوم عليه، والخير الذي يحتويه، إنما هو الكبر عن الإذعان لمحمد، وللحق الذي أنزل على محمد ﷺ.

إن الهوى وحب التسلط على الآخرين يجعل أهل الكبر لا يذعنون للحق، ولا يستمعون لصوت الفطرة، ولا يسلمون للحجة. فهذا الذي يملي عليهم العناد والإعراض، واختلاق المعاذير الباطلة؛ ويخشون - إن آمنوا - فقدان المراكز الاجتماعية، والمنافع الاقتصادية.

فأما الذين سارعوا إلى الإسلام وسبقوا إليه فلم تكن في نفوسهم تلك الحواجز التي منعت تلك الكبراء والأشراف من الإيمان بالحق[(٢)].

ثم جاوز المكذبون نفي الخيرية عن القرآن إلى دعوى أنه كذب قديم: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾. إنهم استوفوا بمزاعمهم وجوه الطعن في القرآن، فقالوا: ﴿سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾، وقالوا: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾، وقالوا: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾، وبقي أن يقولوا: ﴿هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾.

والإفك: الكذب، ووصفوه بالقدم بمعنى أنه في أمور متقادمة، ويحتمل أن يريدوا إفك قيل قديماً[(٣)]، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٥﴾ [الأنعام: ٢٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٦)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٥)، وتفسير بحر العلوم، السمرقندي (٣/ ٢٧٢-٢٧٣).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١٦).

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ٩٥).



وهذا هو الكبر الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «الكبر بَطَر الحقِّ وغَمْط الناس»(١).

ثم أتبع إبطال مزاعمهم الفاسدة في قضية الوحي والرسالة بالإشارة إلى كتاب موسى وهو التوراة، باعتبار أن كتاب عيسى عليهما السلام تكملة وامتداد له، وأصل العقيدة والتشريع في التوراة، ومن ثم سمّى كتاب موسى إماماً، ووصفه بالرحمة، وفي كل كتاب أنزل من السماء رحمة لأهل الأرض، وتحرير حقيقي لهم عن العبودية لغير الخالق المالك:

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

ففي قوله: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ إبطال لإحالتهم أن يوحي الله إلى محمد ﷺ بأن الوحي سنة إلهية سابقة معلومة، أشهره كتاب موسى، أي التوراة، وقد بلغهم نبوءته من اليهود(٢). فكتاب موسى قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه كما يؤتم بالإمام، وهو رحمة لمن آمن به وعمل بما فيه من قوم موسى، وفيه البشارة ببعثة محمد ﷺ وصفات دعوته، وهذا القرآن كتاب مصدق لما بين يديه من الكتب. مصدق للأصل الأول الذي تقوم عليه الديانات كلها وللمنهج الإلهي الذي تسلكه الديانات جميعها، وللاتجاه الأصيل الذي توجه إليه البشرية، لتتصل بربها الكريم(٣)، وتتحرر عن العبودية للعبيد.

والتصديق يشعر بأن هذا القرآن حاكم على ما اختلف فيه من الكتب السابقة، وما حُرِّف فهمه أو نصه بها، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ ﴾[المائدة: ٤٨].

وزاده ثناءً بكونه﴿ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾، وهذا امتنان على العرب، وتذكير لهم بنعمة الله عليهم

(١) صحيح مسلم برقم (٩١) في حديث أوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر...» الحديث.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٢٤).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١٧).

ورعايته لهم، وأدمج لفظ ﴿لِّسَانًا﴾ للدلالة على أن المراد بعربيته عربية ألفاظه، لا عربية أخلاقه وتعاليمه؛ لأن أخلاق العرب يومئذ مختلطة من محاسن ومساوئ، فلما جاء الإسلام نفى عنها المساوئ، ولذا قال النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[١].

وقوله سبحانه: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ الظالمون هم المشركون، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [الأعراف: ٢]. فالقرآن مشتمل على النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين[٢]، المطيعين لخالقهم المتحررين عن الخضوع والتبعيّة لسواه.

وتأتي الآيتان الأخيرتان في هذا المقطع لبيان وتوضيح حقيقة المحسنين، وما أعد الله لهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾.

مرّ نظير هاتين الآيتين في سورة فصلت (٣٠-٣١). غير أن الخطاب هناك بواسطة الملائكة، وهنا لا واسطة.

وروي عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك - وفي رواية: غيرك - قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»[٣].

وروي عن أبي بكر الصديق ﵁ ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾: لم يشركوا بالله شيئاً. وروي عن عمر ﵁

(١) موطأ مالك في كتاب الجامع: باب ما جاء في حسن الخلق بإسناد منقطع عن مالك بن أنس، ومسند أحمد (٢/ ٣٨١). قال ابن الأثير: «ورواه أحمد والحاكم وغيرهما برجال الصحيح عن أبي هريرة وغيره». جامع الأصول في أحاديث الرسول، ابن الأثير الجزري (٤/ ٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٦).

(٣) صحيح مسلم برقم (٣٨).



أنه قال على المنبر وهو يخطب: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾، فقال: استقاموا والله على الطريقة لطاعته، ثم لم يَرغوا روغان الثعالب. وقال عثمان ﷺ: ثم أخلصوا العمل لله. وقال علي ﷺ: ثم أدّوا الفرائض. وأقوال التابعين بمعنى هذه الأقوال. فتلخيصها: اعتدلوا على طاعة الله عقداً وقولاً وفعلاً، وداوموا على ذلك [1].

قال صاحب الظلال عند هذه الآية: وقوله﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ليست كلمة تقال، بل إنها ليست مجرد عقيدة في الضمير ؛ إنما هي منهج كامل للحياة يشمل كل نشاط فيها وكل اتجاه، وكل حركة وكل خالجة ؛ ويقيم ميزاناً للتفكير والشعور، وللناس والأشياء، وللأعمال والأحداث وللروابط والوشائج في كل هذا الوجود.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ فله العبادة، وإليه الاتجاه. ومنه الخشية، وعليه الاعتماد.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾فلا حساب لأحد ولا لشيء سواه، ولا خوف ولا تطلع لمن عداه.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾فكل نشاط وكل تفكير، وكل تقدير متّجه إليه، منظور فيه إلى رضاه.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾فلا احتكام إلا إليه، ولا سلطان إلا لشريعته، ولا اهتداء إلا بهداه.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ فكل من في الوجود وكل ما في الوجود مرتبط بنا، ونحن نلتقي به في صلتنا بالله.

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾منهج كامل على هذا النحو، لا كلمة تلفظها الشفاه، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾. وهذه أخرى ؛ فالاستقامة والاطراد والثبات على المنهج درجة بعد اتخاذ المنهج. استقامة النفس، وطمأنينة القلب. استقامة المشاعر والخوالج، فلا تتأرجح ولا تضطرب ولا تشك ولا ترتاب بفعل الجواذب والدوافع والمؤثرات، وهي عنيفة ومتنوعة

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٥/ ٣٥٨).

وكثيرة. واستقامة العمل والسلوك على المنهج المختار. وفي الطريق مزالق وأشواك ومعوقات وفيه هواتف بالانحراف من هنا ومن هناك!

﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾. منهج. والاستقامة عليه درجة بعد معرفته واختياره. والذين يقسم الله لهم المعرفة والاستقامة هم الصفوة المختارة. وهؤلاء﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1]؛ فلا خوف عليهم فيما يستقبلون، ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٤ ﴾ أي الأعمال سبب لنيل الجنة وسبوغها عليهم، حيث يبدو واضحاً ارتباط الجزاء بالاعتقاد والعمل [2]. فالعمل بلا اعتقاد غير مقبول؛ لأن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً له، والاعتقاد الذي لا ينتج عنه عمل هو اعتقاد ادعائيّ كاذب.

وينتهي المقطع الأول من السورة بعد أن قرر محور السورة بأركانه الثلاثة. فقرر الوحي وإنزال القرآن من عند الله، ثم قرر أن خلق الكون وإنزال الوحي له هدف هو الحق؛ أي بإحقاق الحق الذي هو الحساب والجزاء يوم البعث والنشور.

وأنكر ما كان عليه القوم من الشرك، وندّد بضلال مَنْ يدعو من دون الله مَن لا يستجيب له؛ فقرر التوحيد وندّد بالشرك والعبودية لغير الخالق.

وبما أن للمشركين مزاعم لدفع الحق وتكذيب الوحي، من أجل أن يتركوا طاعة الله ويستمروا على شركهم، فقد جاء الرد الحاسم على مزاعمهم الباطلة؛ حيث وصموا القرآن بأنه سحر، وأنه مفترى، ولو كان خيراً ما سبقهم إلى الإيمان به الضعفاء والفقراء. وانتهى المقطع ببيان جزاء المؤمنين المستقيمين على أمر الله اعتقاداً وقولاً وعملاً.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ١٧-١٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٦).



المقطع الثاني: الفطرة في استقامتها وفي انحرافها

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ
أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ
عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾
وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ
ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ
قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا
فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

وجه الاتصال بما سبق أن هذا انتقال إلى قول آخر من أقوال المشركين، وهو كلامهم في إنكار البعث وجدالهم فيه، فإن ذلك من أصول كفرهم بمحلّ القصد.

وصيغ هذا في أسلوب قصة مناجاة ولد مؤمن شبّ على الإيمان بربه وخالقه بعد معرفة حقوق والديه، وجدال بين والدين مؤمنين وولد كافر ؛ لأن لذلك الأسلوب وقعاً في أنفس السامعين [١].

فيبين هذا المقطع أن شكر الله وعبادته وحده، والتحرر عن العبودية لسواه هو مسلك الفطرة السليمة. والجحود وإنكار الحق هو انحراف عن الفطرة السليمة.

وتبدأ الآيات بالنموذج الأول الذي يوضح مسلك الفطرة السليمة: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾.

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٢٨).



تتكرر في القرآن الكريم وفي حديث الرسول ﷺ الوصية بالإحسان إلى الوالدين. وجاءت في هذه السورة بعد الحديث عن التوحيد وإخلاص العبادة لله والاستقامة على طاعته، كما تأتي الوصية مقرونة بتوحيد الله والتحرر من العبودية لسواه في غير ما آية من القرآن، كقوله عز وجل: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقال عز وجل: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان: ١٤]. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

إنها وصية صادرة من خالق الإنسان لجنس الإنسان كله، قائمة على أساس إنسانيته وهي وصية الإحسان إلى الوالدين مطلقة من كل شرط ومن كل قيد، فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، بدون حاجة إلى أي صفة أخرى. وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضاً، فما يُعرف في عالم الطير أو الحيوان أن صغارها مكلفة برعاية كبارها. والمشاهد الملحوظ فقط هو تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارُها صغارَها.

ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة، ولمناسبة حالات معينة؛ ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مثير. وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التي كثيراً ما تصل إلى الموت - فضلاً على الألم - بدون تردد، ودون انتظار عوض، ودون منّ ولا رغبة حتى في الشكران! ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ ﴾ إنها صورة التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأمومة، والتي لا يجزيها أبداً إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين [1].

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا ﴾ فقاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً من وحم وغثيان، وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما ينال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ ﴾ أي بمشقة أيضاً من الطلق وشدته [2].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٧).

ويتقدم علم الأجنة، فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها في صورة مؤثرة:

إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم، وهي مزودة بخاصيّة أكّالة. تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله؛ فيتوارد دم الأم إلى موضعها حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائماً في بركة دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات وتمتصه لتحيا به وتنمو. والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص لتصب هذا كله دماً نقياً غنياً لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول! وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير (الكالسيوم) من دم الأم فتفتقر إلى الجير. ذلك أنها تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير! وهذا كله قليل من كثير!

ثم الوضع، وهو عملية شاقة، ممزقة؛ يتمزق فيها جدار الرحم عن المشيمة، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة الربانية، ولا تنسي الأم حلاوة الثمرة. ثمرة التلبية للفطرة، ومنح الحياة نبتةً جديدة تعيش وتمتد، بينما هي تذوي وتموت!

ثم الرضاع والرعاية؛ حيث تعطي الأم عصارة لحمها وعظمها في اللبن، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية. وهي مع هذا وذاك فرحة سعيدة رحيمة ودود. لا تملّ أبداً، ولا تكره تعب هذا الوليد. وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو، فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد.

فأنَّى يبلغ الإنسان في جزاء هذه التضحية، مهما يفعل، وهو لا يفعل إلا القليل الزهيد؟![1]

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أبوك»[2].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٢١).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٩٧١)، وصحيح مسلم برقم (٢٥٤٨).

وقد استدل علي ﷺ بقوله: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾، مع التي في لقمان: ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ [لقمان: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، ووافقه على هذا الاستدلال عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم.

ومن بديع معنى الآية جمع مدة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهراً، لتطابِقَ مختلف مدد الحمل ؛ إذ قد يكون الحمل ستة أشهر، وسبعة أشهر، وثمانية أشهر، وهو نادر، وتسعة أشهر، وهو الغالب. فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهراً، وإذا وضعته لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهراً، وإذا وضعته لستة أشهر فحولين كاملين [1]. وذلك أقصى أمد الإرضاع، فعوّضوا عن نقص كل شهر من مدة الحمل شهراً زائداً في الإرضاع، لأن نقصان مدة الحمل يؤثر في الطفل هزالاً.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾. والأشد: حالة اشتداد القوى العقلية والجسدية، وهو جمع لم يسمع له مفرد [2]. وبداية الأشد والاكتمال ثلاث وثلاثون سنة، وغايته الأربعون [3].

واعتبر الرازي رحمه الله مدة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام:

المرتبة الأولى: سن النشوء والنماء.

والمرتبة الثانية: سن الوقوف، وهو سن الشباب.

والمرتبة الثالثة: وهي الأخيرة ؛ سن النقصان، وهو على قسمين: النقصان الخفي، وهو

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٧)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٣).
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٣٣).
(٣) تفسير النسفي، عبد الله بن أحمد النسفي (٤/ ١٤٣).

سن الكهولة، والنقصان الظاهر، وهو سن الشيخوخة [١].

وجعل الله سبحانه غاية الاكتمال بلوغ سن الأربعين ﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾، فجمع بين شكري النعمة عليه وعلى والديه. وأعظم نعم الله على العبد الهداية إلى توحيده والتحرر من العبودية لسواه، ومن النعم بعد الهداية النعمة على الوالدين بالتحنن والشفقة حتى ربيا ولدهما صغيراً، ونعمة الصحة والعافية على الولد ووالديه، ونعمة الغنى والثروة على الولد وعلى والديه حتى تمكنا من الإنفاق عليه وغير ذلك من النعم كثير.

ومع الشكر على النعم يأتي طلب الثبات على العمل الصالح، إذْ هو الشكر العملي ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾، أي في المستقبل من عمري، ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾ [٢]. وهذه دعوات ثلاث لصاحب القلب الشاعر بنعمة ربه عليه؛ فالأولى: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾.

والثانية: ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾.

والثالثة: ﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ﴾، وهي رغبة قلب المؤمن أن يتصل عمله الصالح في ذريته، وأن يؤنس قلبه شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه. والذرية الصالحة أمل العبد الصالح. وهي آثر عنده من الكنوز والذخائر، وأروح لقلبه من كل زينة الحياة. وبالذرية الصالحة ترتاح النفس وتقر العين كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٤].

وشفاعة العبد إلى ربه التي يتقدم بها بين يدي هذا الدعاء هي التوبة والإسلام: ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [٣]، تبت إليك من كل ذنب، وإني من المستسلمين المنقادين لأمرك.

(١) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ١٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٤)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٧).

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٢٢).

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ ﴾. وهذه الآية تدل على أن الآية التي قبلها ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ ... ﴾ إلى آخرها مرسلة نزلت على العموم، وهو قول الحسن البصري رحمه الله: «ومعنى ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ ﴾: نتقبل منهم الحسنات ونتجاوز عن السيئات». قال زيد بن أسلم - ويحكيه مرفوعاً -: «إنهم إذا أسلموا قُبِلت حسناتهم وغفرت سيئاتهم». ﴿ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ ﴾ أي مع أصحاب الجنة [(١)].

قال ابن كثير رحمه الله: «هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، التائبون إلى الله، المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم، فنغفر لهم الكثير من الزلل، ونتقبل منهم اليسير من العمل، وهم في جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله، كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأناب، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾[(٢)]؛ فقد وعدهم الله ذلك في الدنيا بالكتب المنزلة، وعلى ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم»[(٣)].

فأمّا النموذج الآخر، فهو نموذج الانحراف عن الفطرة؛ إنه نموذج الفسوق والضلال:

﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ... ﴾ الآيتين.

هذا الفريق مقصود من الآيات السابقة المبدوءة بقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ ... ﴾ الآيات. وهذا الفريق الذي انحرف عن الفطرة فكفر بربه وأساء إلى والديه، وقد عُلم أن والديه كانا مؤمنين من قوله تعالى: ﴿ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ... ﴾ الآية. وهو نموذج من نماذج المشركين في مكة يوم نزل الوحي، ومن المشركين في كل عصر، حين ينكر البعث ويكذب بالحق، ويصدر منه أقبح الأفعال، التي منها عقوق الوالدين وإيذاؤهما، وهما أقرب الناس إليه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٦).

فالآية عامة في كل من كان هذا حاله. ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما فقوله ضعيف بعيد عن الصحة ؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه (١). وأنكرت عائشة رضي الله عنها نزولها في عبد الرحمن بن أبي بكر حين زعم مروان ذلك (٢). وقال الحسن البصري وقتادة أيضاً: «هي نعت عبد كافر عاق لوالديه». وهذا هو الصحيح. قال الزجاج: «كيف يقال نزلت في عبد الرحمن قبل إسلامه، والله عز وجل يقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ ﴾، أي العذاب، ومن ضرورته عدم الإيمان، وعبد الرحمن من أفاضل المؤمنين»(٣).

وأفّ: اسم فعل بمعنى أتضجر. والتأفيف: صوت إذا صوّت به الإنسان علم أنه متضجر. وقوله: ﴿ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ ﴾ أي أبعث، ﴿ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ﴾، أي مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿ وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ أي يدعوان الله له بالهداية، أو يستغيثان بالله من كفره، ويقولان لولدهما: ﴿ويلك آمن﴾ ﴿ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ أي صدق بالبعث إن وعد الله حق، ﴿ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ (٤)، أي أحاديثهم وما سطروه مما لا أصل له (٥).

ويعاجل الله هذا الصنف بمصيره المحتوم:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨ ﴾.

---

(١) ورواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية نزلت في ابن لأبي بكر، وهي رواية ضعيفة واهية؛ لأن طريق العوفي عن ابن عباس سلسلة الضعفاء والمدلسين، وأشار ابن كثير إلى عدم صحتها. انظر تفسيره (٤/ ١٥٨-١٥٩).

(٢) انظر أخذ مروان البيعة من أهل المدينة ليزيد بن معاوية وردّ عبد الرحمن بن أبي بكر عليه في صحيح البخاري برقم (٤٨٢٧).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٥٩).

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٨).

والقول الذي حق عليهم من الله هو العذاب الأبديّ في جهنم، حيث قال سبحانه: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

وأية خسارة أكبر من خسارة الإيمان واليقين في الدنيا، ثم خسارة الرضوان والنعيم في الآخرة، ثم العذاب الذي يحق على الجاحدين المنحرفين ؟!

وبعد بيان العاقبة والجزاء إجمالاً للمهتدين والضالين، يصور دقة الحساب والتقدير لكل فرد من هؤلاء وهؤلاء على حده [١]:

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾، أي لكل واحد من الفريقين المؤمنين والكافرين، من الجن والأنس مراتب عند الله يوم القيامة بأعمالهم. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «درجات أهل النار في هذه الآية تذهب سِفالاً، ودرج أهل الجنة علواً»[٢].

والتعبير عن تلك المراتب بالدرجات تغليب ؛ لأن الدرجة مَرْتَبة في العلوّ، وهو علوّ اعتباري إنما يناسب مراتب الخير، وأما المرتبة السفلى فهي الدركة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

والدرجات هي مراتب الجزاء التي تكون على حسب الأعمال، ومقادير ذلك لا يعلمها إلا الله، وهي تتفاوت بالكثرة وبالسبق وبالخصوص [٣]، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الواقعة: ١٠-١٢]، وقال بعد ذلك: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الواقعة: ٢٧-٢٩].

ويختلف عقاب الدعاة إلى الكفر والقادة فيه عن الأتباع. ويختلف جزاء المغضوب عليهم وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، عن الضالين، الذين لم يعرفوا الحق ولم يتبعوه، ويشير إلى

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٢٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ١٩٩).
(٣) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٤١).

ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]، وغيرها من الآيات، كالآية التي ذكرتها قبل قليل في المنافقين وأنهم في الدرك الأسفل من النار.

ثم عقّب على ذلك بقوله: ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾، أي قدرنا جزاءهم على مقادير درجاتهم لنوفيهم جزاء أعمالهم ؛ فنجازيهم تاماً وافياً لا غبن فيه.

وجملة ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ احتراس منظور فيه إلى توفية أحد الفريقين، وهو الفريق المستحق للعقوبة، لئلا يُحسب أن التوفية بالنسبة إليهم أن يكون الجزاء أشد مما تقتضيه أعمالهم [١].

ثم يقفهم وجهاً لوجه أمام مشهد شاخص لهم في يوم الحساب الذي كانوا يجحدون:

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

وتقدم عرض جهنم للكافرين في سورة الكهف: ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ﴾، وتقدم عرض الكافرين على النار في سورة غافر: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [٤٥-٤٦]، وهاتان الآيتان في عذاب القبر كما قاله جمهور المفسرين، وكما يدل عليه السياق. وتقدم عرض الكافرين على النار أيضاً في سورة الشورى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ﴾ [٤٥].

ويقال لهم على وجه التوبيخ: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾[٢]، والمعنى استوفيتم ما لكم من الطيبات، وتمتعتم بها في الدنيا باتباعكم الشهوات واللذات في معصية الله. وهو

---

(١) المرجع السابق (٢٦/ ٤١).

(٢) وقرئ «أأذهبتم» بهمزتين مخففتين، وقرئ «آذهبتم» بهمزة ممدودة على الاستفهام، وقرأ الجمهور بهمزة واحدة من غير مدّ على الخبر، وكلها لغات فصيحة، ومعناها التوبيخ، والعرب توبخ بالاستفهام وبغير الاستفهام.

إعذار لهم وتقرير لكونهم لا يظلمون، فرتب عليه قوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾، أي عذاب الخزي والفضيحة، والهون: الهوان (١). ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾(٢)، فعلَّلَ ذلك العذاب بجرمين عظيمين: الأول ؛ فعل القلب، وهو الاستكبار. الاستكبار على الحق وعدم اعتقاده، والاستكبار على الخلق بالتسلط عليهم والتجاوز على حقوقهم. وفعل القلب هذا يتبعه الجرم الثاني، وهو الفسق. والفسق ذنب الجوارح بارتكاب الآثام، ويكون ذلك بالخروج عن طاعة الله، وطاعة غيره في معصية (٣).

وقدّم ذنب القلب على ذنب الجوارح ؛ لأن أعمال الجوارح ناشئة عن مراد القلب (٤).

ويوضح هذه الآية ما جاء في قوله تعالى من وصف المؤمنين بضّد هاتين الصفتين ؛ فهم متواضعون لا يبغون الاستكبار والاستعلاء. وهم لا يفسدون في الأرض، بل لا يبغون الفساد بارتكاب المعاصي: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٨٣].

قال ابن كثير: «فجوزوا من جنس عملهم ؛ فكما نعموا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصي، جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة والحسرات المتتابعة، والمنازل في الدركات المفظعة، أجارنا الله سبحانه من ذلك كله» (٥).

ولا دلالة في الآية على تحريم الطيبات على المؤمنين، حيث بين الله السبب بقوله: ﴿ بِمَا

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٠)، وانظر القراءات صـ ١٩٩.

(٢) الباء في قوله: ﴿بما كنتم تستكبرون في الأرض﴾ للسببيّة، وهي متعلقة بفعل تجزون. التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٤٣).

(٣) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٢٣).

(٤) روح المعاني، الألوسي (٢٦/ ٢٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٦٠).

كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾، وقال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وما روي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه تورع عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وكان يتنزه عنها ويقول: «إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾»، فإنما هو الورع، وخشية أن تشغله اللذائذ عن فقراء رعيته. وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: اشتهى أهلي لحماً فاشتريته لهم، فمررت بعمر بن الخطاب ﷺ، فقال: ما هذا يا جابر ؟ فأخبرته، فقال: أو كلما اشتهى أحدكم شيئاً جعله في بطنه ! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ .... ﴾ الآية. فعمر ﷺ لا يحرم اللحم، إنما هو عتاب منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جِلْف الخبز والماء؛ فإن تعاطي الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع، وتستمرؤها العادة، فإذا فقدتها استسهلت في تحصيلها بالشبهات، حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمارة بالسوء ؛ فأخذ عمر الأمر من أوله، وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله.

والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه: «على المرء أن يأكل ما وجد، طيباً كان أو قفاراً[١]، ولا يتكلف الطيب، ويتخذه عادة». وقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدِم ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمد أصلاً ولا يجعله دَيْدَناً. ومعيشة النبي ﷺ معلومة، وطريقة الصحابة منقولة ؛ فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير، والله يهب الإخلاص، ويعين على الخلاص برحمته[٢].

وهكذا ينتهي هذا المقطع من السورة بعرض ذينك النموذجين ومصيرهما في النهاية

(١) القفار (بالفتح): الطعام بلا أدم.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٢).

وبهذا المشهد المؤثر للمكذبين بالآخرة، الخارجين عن منهج الله، المستكبرين عن طاعته. وهي لمسة للقلب البشري تستجيش الفطر السليمة القويمة لارتياد الطريق الواصل المأمون[1]؛ وهو طاعة الله والعبودية له وحده، والاستعداد ليوم الجزاء.

المقطع الثالث: خسران المكذبين، وهلاكهم في الدنيا عبرة لمن يعتبر

﴿ ۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ
إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾
فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ
﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ
مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ
وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾
وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن
دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

يرد القصص في القرآن في مواضع ومناسبات. وهذه المناسبات التي يُساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها والطريقة التي تؤدّى بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه. وبذلك تؤدي دورها الموضوعي وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب.

ويحسب أناس أن هناك تكراراً في القصص القرآني، لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٢٥).

في سور شتى. ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة – أو حلقة من قصة – قد تكررت في صورة واحدة ؛ من ناحية القدر الذي يساق، وطريقة الأداء في السياق. وأنه حيثما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار.

والحق الذي يلمسه كل من ينظر في هذا القرآن، وهو مستقيم الفطرة، مفتوح البصيرة هو أن المناسبة الموضوعية هي التي تحدد القدر الذي يعرض من القصة في كل موضوع، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الأداء. والقرآن كتاب دعوة، ودستور نظام، ومنهج حياة، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ ؛ وفي سياق الدعوة يجيء القصص المختار، بالقدر وبالطريقة التي تناسب الجوّ والسياق، وتحقق الجمال الفني الصادق، الذي لا يعتمد على الخلق والتزويق ولكن يعتمد على إبداع العرض، وقوة الحق، وجمال الأداء [١].

وهنا لما كان أكثر إعراض كفار مكة عن قبول الدلائل بسبب اغترارهم بالدنيا، واستغراقهم في استيفاء طيباتها وشهواتها، وبسبب أنه كان يثقل عليهم الانقياد لمحمد ﷺ والاعتراف بتقدمه عليهم ضرب لذلك مثلاً وهم قوم عاد، فإنهم كانوا أكمل في منافع الدنيا من قوم محمد عليه الصلاة والسلام، ثم لما قرر نبوته على الإنس أردفه بإثبات نبوته على الجن [٢].

وقد سيقت قصة هود وقومه مساق الموعظة للمشركين الذين كذبوا بالقرآن، كما أخبر الله عنهم في أول هذه السورة في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾، مع ما أعقبت من الحجج المتقدمة من قوله: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الذي يقابله قول هود: ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، ثم قوله: ﴿ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ الذي يقابله قوله تعالى: ﴿ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ ﴾. ذلك كله بالموعظة بحال هود مع قومه. وسيقت أيضاً مساق الحجة على رسالة محمد ﷺ وعلى عناد قومه بذكر مثال لحالهم مع رسولهم بحال عاد مع رسولهم. ولها أيضاً موقع التسلية للرسول ﷺ على ما تلقاه به قومه من العناد والبهتان لتكون تسلية وموعظة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (١/ ٦٣).
(٢) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٢٩).

معاً، يأخذ كل منها ما يليق به [(١)].

وعاد أول الأمم العربية الذين جاءهم رسول بعد رسالة نوح ﷺ. يدل على ذلك تسلسل القصص عن هؤلاء الأقوام في سورة الأعراف، وفي سورة هود. كما سبق في سورة الأعراف قول هود لقومه: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وأخو عاد هو هود ﷺ، كان أخاهم في النسب لا في الدين. والأخ يراد به المشارك في نسب القبيلة، يقولون: يا أخا بني فلان، ويا أخ العرب. ﴿ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾، أي اذكر لهؤلاء المشركين قصة عاد ليعتبروا بها، أو هو أمر من الله لمحمد ﷺ بأن يتذكر في نفسه قصة هود ليقتدي به، ويهون عليه تكذيب قومه له؛ وكلمة (اذكر) تصلح لمعنى الذكر اللساني، ولمعنى الذكر - بالضم - بأن يتذكر تلك الحالة في نفسه. والأحقاف ديار عاد، وهي الرمال العظام. والحقف: ما استطال من الرمل العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبلاً. وقد كانت مساكنهم جنوب الجزيرة بين عمان وعدن، ويقال في حضرموت: ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾، أي قد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده، وتفسّرها قراءة ابن مسعود «من بين يديه ومن بعده». وقد أنذرهم هود بما أنذر به كل رسول قومه: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [(٢)]. وعبادة الله وحده والتحرر من العبودية لسواه هي دعوة الرسل جميعاً، وهي عقيدة في الضمير، ومنهج في الحياة؛ والمخالفة عنها تنتهي إلى العذاب العظيم في الدنيا والآخرة، أو في الآخرة. فماذا كان جواب قومه؟

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قالوا: أجئتنا لتصرفنا وتصدنا عن آلهتنا، واستعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٤٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٣-٢٠٤). وجملة ﴿ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ معترضة بين جملة (أَنْذَرَ) وجملة (أن لا تعبدوا إلا الله) المفسرة بها، و(أنْ) تفسيرية؛ لأن (أنذر) فيها معنى القول دون حروفه. انظر التحرير والتنوير (٢٦/ ٤٥).



وقوعه، كقوله جلّت عظمته: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى: ١٨][(١)].

فقال لهم هود عليه السلام: ﴿ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾. فقوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ ردّ على قولهم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ ﴾؛ يريد بذلك أن الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب، فسيفعل ذلك بكم، وأمّا أنا فمن شأني أن أبلغكم ما أرسلت به ﴿ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ فلا تعقلون ولا تفهمون، حيث تصرّون على طلب العذاب بهذه الوقاحة التامة؛ وهب أنه لم يظهر لكم كوني صادقاً، ولكن لم يظهر لكم كوني كاذباً، فالإقدام على الطلب الشديد لهذا العذاب جهل عظيم[(٢)].

وقال: ﴿ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾، ولم يقتصر على ﴿ تَجْهَلُونَ ﴾؛ للدلالة على تمكن الجهالة منهم، حتى صارت من مقومات قوميتهم، وللدلالة على أنها عمَّت جميع القبيلة، كما قال لوط لقومه: ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨][(٣)].

وكانوا قد أصابهم قحط شديد، يشير إلى ذلك قول هود عليه السلام: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود: ٥٢]. فاستقبلهم عذاب الله على هيئة عارض أي سحاب معترض السماء:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ فرحوا واستبشروا خيراً برؤية السحاب وهو مستقبل أوديتهم، وقالوا هذا عارض ممطر لنا. فقال: بل هو ما استعجلتم من العذاب، ثم بين ماهيته فقال: ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، ثم وصف عمل الريح فقال:

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٦٠).

(٢) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٢٤).

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٤٨).

التدمير: الهلاك، وكذا الدمار، فهذه الريح تدمّر كل شيء مّرت عليه من رجال عاد وأموالها. قال ابن عباس: أي كل شيء بُعثت إليه [١].

يقول سيد قطب: «والنص القرآني يصوّر الريح حيّة مدركة مأمورة بالتدمير ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾، وهي الحقيقة الكونية التي يحفل القرآن بإشعارها للنفوس. فهذا الوجود حيّ، وكل قوة من قواه واعية، وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه، والإنسان أحد هذه القوى، وحين يُؤمن حق الإيمان، ويتفتّح قلبه للمعرفة الواصلة، يستطيع أن يعي عن القوى الكونية من حوله، وأن يتجاوب معها، وأن تتجاوب معه، تجاوب الأحياء المدركة، بغير الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس من الحياة والإدراك. ففي كل شيء روح وحياة، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق. والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار، تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار.

وقد أدّت الريح ما أمِرَت به، فدمّرت كل شيء ؛ ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ ﴾ أمّا هم وأما أنعامهم، وأما أشياؤهم، وأما متاعهم، فلم يعد شيء منه يرى. إنما هي المساكن قائمة خاوية موحشة، لا ديار فيها ولا نافخ نار. ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾. سنة جارية وقدر مطرد في المجرمين» [٢].

وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين يلمس قلوبهم بما ترتعش منه القلوب وتعتبر:

﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٥-٢٠٦).
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٢٨).



ولقد كانوا أشد منكم قوة، وأكثر أموالاً، ومع ذلك ما نجوا من عقاب الله، فكيف يكون حالكم. وقد فتحنا عليهم أبواب النعم ؛ وأعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الدلائل وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبر، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في طلب معرفة الله تعالى، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها بطرق تخالف منهج الفطرة الذي يأمر به الله، فلا جرم ما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئاً.

ثم علل عدم إغناء السمع والأبصار والأفئدة عنهم شيئاً بسبب أنهم يجحدون بآيات الله ؛ لأن لفظ ﴿إِذْ ﴾ في قوله: ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ ﴾ بمنزلة التعليل، فقد يأتي هذا اللفظ للتعليل.

وفي هذه الآية أشد التخويف لأهل الكفر في مكة ؛ فإن قوم عاد لما اغتروا بدنياهم وأعرضوا عن قبول الدليل والحجة نزل بهم عذاب الله الذي كانوا يستهزئون به، حيث كانوا يطلبون العذاب على سبيل التكذيب والاستهزاء، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم، فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى بأن يحذروا من عذاب الله ويخافوا[١].

وعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكاً حتى أرى لَهَواته[٢]، إنما كان يبتسم. قالت: وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عُرف في وجهه. قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عُرف في وجهك الكراهية ؟! فقال: «يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا»[٣]. وعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصرت بالصبا،

(١) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٢٥-٢٦).
(٢) لهواته جمع لهاة، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم.
(٣) صحيح البخاري برقم (٤٨٢٩)، وصحيح مسلم برقم (٨٩٩).

وأهلكت عاد بالدبور»[١].

ويختم هذا المقطع بالعبرة الكلية لمصارع من حولهم من القرى، من عاد وغيرهم:

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

ولقد أهلكنا الأمم المكذبة بالرسل مما حول أهل مكة، كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وسبأ وهم أهل اليمن ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وقوم لوط ومساكنهم تكتشف الآن تحت البحيرة التي تسمّى البحر الميت ؛ وكان أهل مكة يمرون عليهم في أسفارهم، في رحلتي الشتاء والصيف، وكانت أخبار هؤلاء المهلكين متواترة عندهم[٢].

ولقد نوّع الله سبحانه الآيات يعني الحجج والبراهين والدلالات، وأنواع البينات لأهل تلك القرى لعلهم يرجعون إلى ربهم، ويتوبون عن شركهم فيتحررون من العبودية لغير الله، لكنهم مضوا في ضلالهم فأخذهم العذاب الأليم[٣]، ألواناً وأنواعاً، تتحدث بها الأجيال من بعدهم، ويعرفها الخلف من ورائهم.

وهذا يلفتهم إلى الحقيقة الواقعة والنتيجة الحاسمة. لقد دمّر الله على المشركين قبلهم وأهلكهم دون أن تنجيهم آلهتهم. فهلاّ نصرتهم آلهتهم التي تقربوا بها إلى الله بزعمهم وهلاّ منعتهم من عذاب الله ؛ إنهم لم ينصروهم، ﴿ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ ﴾ وتركوهم وحدهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾، أي اتخاذهم غير الله آلهة، وزعمهم

(١) صحيح البخاري برقم (٣٢٠٥)، وصحيح مسلم برقم (٩٠٠). وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٩)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٦٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٠٩).

أنها تقربهم إلى الله هو كذبهم، وما كانوا يختلقونه [١].

قال ابن عاشور: «والافتراء نوع من الكذب، وهو ابتكار الأخبار الكاذبة، ويرادف الاختلاق؛ لأنه مشتق من فري الجلد، فالافتراء الكذب الذي يقوله، فعطف ﴿ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ على ﴿ إِفْكُهُمْ ﴾ عطف الأخص على الأعم؛ فإن زعمهم الأصنام شركاء لله كذب مروي من قبل، فهو إفك. وأما زعمهم أنها تقربهم إلى الله فذلك افتراء اخترعوه.

وإقحام فعل ﴿ كَانُوا۟ ﴾ للدلالة على أن افتراءهم راسخ فيهم. ومجيء ﴿ يَفْتَرُونَ ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على أن افتراءهم متكرر» [٢].

وهكذا أدّت قصة عاد وإهلاكهم بالريح دورها في السورة؛ من تهديد المشركين في مكة وغيرها، لعلّ الترهيب ينفعهم ليأخذوا عبرة وعظة ممّن سبقهم من ذوي العقول المتحجرة.

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي (٧/ ٢٨٦)، وبحر العلوم، السمرقندي (٢/ ٢٧٨).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٥٦-٥٧).

المقطع الرابع والأخير: الرسول محمد ﷺ

مصدّق من عند الثقلين، ومعظّم في العالمين ؛ الإنس والجن

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟
إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ
عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ
ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا
ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التفسير الإجمالي:

بعد ذكر إهلاك الأقوام المكذبة من الإنس في المقطع السابق ذكر في هذا المقطع الأخير إيمان الجن بالله، وتصديقهم لمحمد ﷺ، وإيمانهم بما أنزل عليه من الوحي، وربطه بالحق المنزل سابقاً على موسى عليه السلام، ثم ختم السورة بالدليل على قدرة الله على بعث الموتى، والتهديد بالعذاب الدائم يوم القيامة للمكذبين.

اذكر يا محمد لقومك قصة استماع الجن القرآن وإيمانهم به، لعلّهم يتنبهون لجهلهم وغلطهم، وقبح ما هم عليه من الكفر بالقرآن والإعراض عنه، حيث إنهم كفروا به، وجهلوا أو تجاهلوا أنه من عند الله تعالى، وهم أهل اللسان الذي نزل به، من جنس الرسول الذي جاء به ؛ وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عنده تعالى وآمنوا به، وهم ليسوا من أهل لسانه، ولا من جنس رسوله. ففي ذكر هذه القصة توبيخ لكفار قريش والعرب، ووقوعها إثر قصة هود

وقومه وإهلاك من أهلك من أهل القرى ؛ لأن أولئك كانوا ذوي شدة وقوة، كما حكي عنهم في غير آية، والجن توصف بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل: ٣٩]. ووصفهم بذلك معروف بين العرب فناسب ما قبلها لذلك. مع ما قيل: إن قصة عاد متضمنة ذكر الريح، وهذه متضمنة ذكر الجن وكلاهما من العالم الذي لا يُشاهد[١].

وتشير رواية البخاري ومسلم من حديث ابن عباس أن الجن مرّوا برسول الله ﷺ وهو يقرأ فسمعوا القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم ؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ [الجن: ١- ٢]، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن: ١]، وإنما أوحي إليه قول الجن»[٢].

ولا يبعد أن يكون الجن قد صُرفوا إلى النبي ﷺ، فجاءوه وفوداً أكثر من مرة، فأقرأهم القرآن، كما تدل على ذلك روايات، وفي أفراد مسلم من حديث علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال: لا. ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، والتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا: استطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة

(١) روح المعاني، الألوسي (٢٦/ ٣٠).

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٧٣)، وصحيح مسلم برقم (٤٤٩).

بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاءٍ من قبل حراء. قال: فقلنا: يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن». قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم. وسألوه الزاد فقال: " لكم كل عظم ذُكر اسم الله عليه يقع في أيديكم، أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم» [(١)].

فقد استمعوا قراءته ﷺ، ثم رجعوا إلى قومهم منذرين، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالاً وقوماً بعد قوم، وفوجاً بعد فوج، كما وردت بذلك الأخبار [(٢)].

ويظهر أدب الجن في الاستماع إلى القرآن عندما حضروه ﴿ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ ﴾ أي فرغ من تلاوته، كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقد استدل بهذه الآية على أن في الجنّ نُذُر، وليس فيهم رسل، إذْ لم يدل دليل على أن الله بعث من الجن رسولاً، بل قد دلت الآيات على أن الرسل من البشر الذكور، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال عز وجل: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠]. فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنس، كقوله: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي أحدهما.

ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم، فقال مخبراً عنهم: ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾، ولم يذكر عيسى عليه السلام ؛ لأن كتاب موسى عليه السلام وهو التوراة أجلّ الكتب قبل القرآن، وكان عيسى عليه السلام مأموراً بالعمل بمعظم ما فيه، أو بكله، ثم إن الإنجيل فيه مواعظ

---

(١) صحيح مسلم برقم (٤٥٠)، وانظر زاد المسير، ابن الجوزي (٧/ ٣٨٧-٣٨٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٦٣)، وانظر ما حرره الثعالبي في تفسيره (٤/ ١٥٧).

وترقيات، وقليل من التحليل والتحريم، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة ؛ فلهذا قالوا: ﴿ أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ ﴾، وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ أول مرة فقال: «بخ بخ، هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، يا ليتني أكون فيها جذعاً....»[(١)].

وقد تضمن إنذار الجن أسس الاعتقاد الكامل: تصديق الوحي، ووحدة العقيدة بين التوراة والقرآن. والاعتراف بالحق الذي يهدي إليه القرآن، والإيمان بالآخرة ؛ وما ينتهي إلى المغفرة وما ينتهي إلى العذاب من الأعمال. والإقرار بقوة الله وقدرته[(٢)]. ونستطيع أن نقسم إنذارهم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وصفوا فيه القرآن بثلاثة أوصاف:

الأول: إنه أنزل من بعد موسى، فهو يؤيد ما جاء من قبل في السورة: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ ﴾.

الوصف الثاني: إن هذا القرآن مصدق لما بين يديه من الكتب التي أنزلها الله ؛ فمحمد ﷺ ليس بدعاً من الرسل كما مرَّ.

الثالث: إن هذا القرآن ﴿ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ يهدي إلى الحق في الاعتقاد والأخبار، ويهدي إلى طريق مستقيم في المنهج والأعمال ؛ فإن القرآن مشتمل على شيئين: خبر وطلب ؛ فخبره صدق، وطلبه عدل، كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وهكذا قالت الجن عن القرآن: ﴿ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ ﴾ في الاعتقادات، ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ في المنهج والأعمال[(٣)].

والقسم الثاني من الإنذار: الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وما فيه من الجزاء: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧٠)، وتفسير روح المعاني، الألوسي (٨/ ٩٥).

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب (٢٦/ ٣٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧٠).

أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

داعي الله هو محمد ﷺ، وهذا يدلّ على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن والإنس. ﴿ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ أي بالداعي، ويكون الإيمان بالله الذي أرسله من باب أولى، أو آمنوا بالله واستجيبوا لرسوله، ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. وهذا جزاء الإيمان بالله ورسوله يوم البعث والجزاء.

ولا دليل في هذه الآية لمن قال: إن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحيهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة، فهناك نصوص أخرى تدل على دخولهم الجنة، منها قوله عز وجل: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٦-٤٧] وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس، فقالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد. فلم يكن تعالى ليمنّ عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يجازي كافرهم بالنار، وهو مقام عدل، فلأن يجازي مؤمنهم بالجنة، وهو مقام فضل من باب أولى. وممّا يدل على ذلك أيضاً عموم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٧]، وقال تعالى مخاطباً الجن والإنس: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾، إلى أن قال: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠-١٣٢][1].

ويأتي القسم الثالث والأخير من الإنذار؛ وهو تهديد ووعيد بعدم الإفلات من قدرة الله:

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧١)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢١٧-٢١٨).



المعجز: الذاهب في الأرض الذي يعجز طالبه، فلا يقدر عليه [١]. إن عدم الاستجابة للحق وخيم العاقبة، وإن الذي لا يستجيب لا يفلت من قدرة الله سبحانه، وكيف يفلت أحد والكون كله بيد الله، يصرّفه كيف يشاء، ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البروج: ٢٠]. فقدرة الله شاملة ومحيطة بالكافرين، وعذابه نازل بهم، بل لا يجيرهم منه سبحانه أحد، هؤلاء الذين تلبسهم الضلال عن الحق ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [٢].

وإلى ههنا قد تم الكلام في التوحيد وفي النبوة ثم ذكر عقيبهما تقرير البعث والمعاد [٣] وبمناسبة الحديث عن قدرة الله الشاملة، وأنه لا يفلت من عذابه أحد من الكفرة، يأتي المثل والاحتجاج على البعث ؛ لأن المشركين قالوا: إن الأجساد لا يمكن أن تبعث، ولا تعاد ؛ وهم مع ذلك معترفون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض، فأقيمت عليهم الحجة من أقوالهم [٤]:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

وهذا عود على بدء، فقد ابتدأت السورة بالإشارة إلى الدليل على البعث في الهدف من الخلق: ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ... ﴾ الآية، ويتصل بذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾، إلى قوله: ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

والرؤية هنا بمعنى العلم، ﴿ وَلَمْ يَعْىَ ﴾ أي لم يعجز عن ذلك. يقال: عي فلان بأمره إذا لم يهتد له ولم يقدر عليه. قال الزجاج: عييت بالأمر، إذا لم تعرف وجهه، وأعييت إذا تعبت [٥].

(١) تفسير الثعالبي (٤/ ١٥٨)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ١٠٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧١)، وانظر التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٦/ ٦٢).
(٣) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٣٠).
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ١٠٦).
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي (٧/ ٣٩١)، والمحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ١٠٦).

فالمقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على كونه تعالى قادراً على البعث. والدليل عليه أنه تعالى أقام الدلائل في أول السورة على أنه هو الذي خلق السماوات والأرض، وذكرنا قبل قليل أن المشركين معترفون بذلك، ولا شك أن خلقها أعظم وأفخم من إعادة هذا الشخص حياً بعد أن صار ميتاً ؛ لأن القادر على الأقوى والأكمل، لا بد أن يكون قادراً على الأقل والأضعف(١)، كما قال عز وجل: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧]، ولذلك ختم الآية هنا بقوله: ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢).

وبعد أن أقام الله الدلالة على صحة القول بالحشر والنشر يرسم مشهد الجزاء كأنه شاخص للأبصار، فيذكر بعض أحوال الكفار فيقول: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

واذكر يوم يُعرض كفار قريش وغيرهم ممّن هو على شاكلتهم على النار، ويقال لهم: ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾، وهذا تهكم بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده، في مثل قولهم: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الصافات: ٥٩]. ولا يسعهم إلا الاعتراف حين لا يفيد الاعتراف، حيث يجيبون: ﴿ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾، فيقال لهم بأسلوب فيه الإهانة: ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفركم(٣).

ويأتي التفريع على ما سبق في هذه السورة من تكذيب المشركين رسالة محمد ﷺ، واستهزائهم به وبما جاء به من البعث والجزاء، وما اتصل به من ضرب المثل لهم بعاد ؛ فيُؤمر الرسول ﷺ بالصبر على ما لقيه منهم من أذى، ويضرب له المثل بالرسل أولي العزم:

---

(١) التفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٣٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢١٩)، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧١)، والتفسير الكبير، الرازي (٢٨/ ٣٠).

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

وأولو العزم: هم ذوو الحزم والصبر. والمراد من حفظت له مع قومه شدة ومجاهدة، كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم.

وقال ابن زيد: والرسل كلهم أولو العزم، وتكون ﴿ مِنَ ﴾ لبيان الجنس ؛ لأن قوله: ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ ﴾ يتضمن رسلاً وغيرهم، فبين بعد ذلك جنس الرسل خاصة، تعظيماً لهم. وقيل: هم الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام ؛ لأنه قال بعقب ذكرهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] (١).

والأشهر أن أولي العزم هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وخاتم الأنبياء محمد ﷺ ؛ فقد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من الأحزاب والشورى، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] (٢).

والعزم المحمود في الدين بالمعنى العام: هو الصبر على فعل المأمورات، والصبر على ترك المحظورات. وقوته: شدة المراقبة ؛ بأن لا يتهاون المؤمن عن محاسبة نفسه، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] ويدخل في ذلك الصبر على قدر الله، وعدم الخروج عن حكم الشرع، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧].

وأعقب سبحانه أمره نبيّه بالصبر نهيه عن الاستعجال لهم بالعذاب أو الهلاك. وذلك

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية (٥/ ١٠٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧٢).

تثبيتٌ له ﷺ، وتهديد للمشركين ؛ فطريق الدعوة شاق يحتاج إلى الوعظ والتثبيت والأمر بالصبر، والاقتداء بأولي الحزم والثبات من الأنبياء السابقين. والتهديد للمشركين كامن في نهيه ﷺ عن استعجال العذاب لهم ؛ لأنه آتيهم لا محالة، كما قال تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ ﴾ [المزمل: ١١]، وكقوله: ﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق: ١٧].

فالعذاب منهم قريب، وهذه الدنيا إلى زوال، وهي متاع قليل بالنسبة للآخرة: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب، أو من الآخرة التي فيها عذابهم، ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ في جنب يوم القيامة، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النازعات: ٤٦]، وكقوله عز وجل: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥][(١)].

ثم يقول سبحانه: ﴿ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي هذا القرآن بلاغ، دليله قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، وقوله: ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، والبلاغ بمعنى التبليغ، ولا يهلك إلا القوم الخارجون عن أمر الله وحكمه[(٢)].

وكما أن هذه الألفاظ وعيد محض، وإنذار بين للمشركين الكافرين، فهي رجاء للمؤمنين. حيث يقال: إن قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أرجى آية في كتاب الله للمؤمنين ؛ وذلك أن الله عز وجل جعل الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، قال تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٠] وغفر الغفور الرحيم الصغائر باجتناب الكبائر، فقال سبحانه: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النساء: ٣١]، ووعد الغفران على التوبة فقال سبحانه: ﴿ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٤/ ١٧٢)، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٦/ ٢٢٢).

(٢) المرجعين السابقين.



رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المائدة: ٣٩]، وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فلن يهلك على الله إلا هالك [١].

(١) تفسير الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد الثعالبي (٤/ ١٥٩). وانظر آخر الحديث «ولا يهلك على الله إلا هالك» في صحيح مسلم برقم (١٣١).

سورة محمد ﷺ

بين يدي السورة

يحسن بنا أن نقف بين يدي هذه السورة الكريمة لإلقاء الضوء على اسمها، وفضائلها ومكيتها أو مدنيتها، وعدد آياتها، ومحورها، والمناسبة بينها وبينه، والمناسبة بين افتتاحيتها وخاتمتها، وبين افتتاحيتها وخاتمة ما قبلها، وبين مقاطعها ومحورها، وبين مضمونها ومضمون السورة التي قبلها، **وبيان ذلك كله على النحو الآتي:**

(أ) اسم السورة:

قال الزركشي: «ينبغى النظر فى وجه اختصاص كل سورة بما سميت به، لأن العرب تراعى فى الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائى للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز؛ كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة فيها، وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها من كثير من أحكام النساء»[1].

وللسورة التي نفسرها موضوعيا في هذا المقام ثلاثة أسماء: **أولها**: سورة محمد، **وثانيها**: سورة القتال، **وثالثها**: سورة الذين كفروا مراعاة لمطلعها ﴿ **ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١** ﴾.

والأشهر الأول، ووجهه أن اسم النبي ﷺ قد ذكر في الآية الثانية منها﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢** ﴾ فعرفت به قبل سورة آل عمران التي ذكر فيها اسمه ﷺ في الآية الرابعة والأربعين بعد المائة، وسورة الأحزاب التي ذكر فيها اسمه ﷺ في الآية الأربعين، وسورة الفتح التي ذكر اسمه ﷺ

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٢٧٠.

في آيتها الأخيرة [1].

وهذا سميت هذه السورة في أكثر كتب السنة "سورة محمد" وكذلك ترجمت في صحيح البخاري، وفي أكثر التفاسير [2].

وأما تسميتها بسورة القتال في بعض كتب السنة وكتب التفسير ؛ فلأن مشروعية القتال ذكرت فيها في قوله تعالى:﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ ﴾.

كما أن لفظة القتال قد ذكرت في الآية العشرين منها، قال تعالى:﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾.

فتكون تسميتها بسورة القتال تسمية قرآنية، وهو اسم حقيقي؛ لأن القتال موضوعها وهو العنصر البارز في صورها وإيقاعها وظلالها [3].

(ب) مكية السورة أو مدنيتها:

للمفسرين في كون سورة محمد مكية أو مدنية ثلاثة أقوال [4]:

---

(١) يلاحظ أن المرات التي ذكر فيها اسمه ﷺ في القرآن الكريم كانت في سور مدنية عنيت بالحديث عن مرحلة من الصراع المرير الذي نشب بينه ﷺ وبين الكافرين، إما بوصف حلقة من حلقات هذا الصراع، أو بالتنظير للأسس والمعالم التي يجب على المسلمين أن يحرصوا على تمثلها عمليا أو فكريا أونفسيا عند دخولهم في ميادينه، ويلاحظ أن اسمه ﷺ قد اقترن في هذه المرات بوصف يدل على نبوته، وهذا يفيد أن غاية هذا الصراع كانت إثبات هذه الحقيقة في مواجهة قوم ينكرونها، ويصدون الناس عنها بكل الوسائل المتاحة لديهم.

(٢) انظر: سنن الترمذي ٥ / ٣٨٣، وصحيح البخاري ٤ / ١٨٢٨، وجامع البيان للطبري ٢٦ / ٣٨، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٧١.

(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٧٨.

(٤) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ١٩٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٣٩٥، والجامع =

أولها: أنها مدنية، قاله الأكثرون، ولم يذكروا استثناء، قيل: نزلت بعد يوم بدر، وقيل: نزلت في غزوة أحد.

وعدت السادسة والتسعين في عداد نزول سور القرآن الكريم بجملته، والتاسعة حسب ترتيب نزول السور المدنية، ونزلت بعد سورة الحديد وقبل سورة الرعد.

ثانيها: أنها مكية، قاله الضحاك والسدي وسعيد بن جبير والثعلبي.

ولعله وهم ناشئ بسبب ما روي عن ابن عباس من أن قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ﴾ نزلت في طريق مكة قبل الوصول إلى حراء، أي في الهجرة.

ثالثها: أنها مدنية ولكن فيها آية مكية، فعن ابن عباس وقتادة أنها مدنية إلا آية منها نزلت عليه ﷺ بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً ويقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»[(١)] فنزل عليه﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ﴾.

والقول الأول هو الأصح؛ ولهذا قرر ابن عطية الإجماع عليه، وقال عن الاستثناء الوارد في القول الثاني والثالث: " وما كان مثل هذا فهو معدود في المدني؛ لأن المراعى في ذلك إنما هو ما كان قبل الهجرة أو بعدها "[(٢)].

ولهذا لم يذكر السيوطي هذه السورة ضمن السور التي منها آيات مستثناة، بل ذكر قولا لابن عباس عن مجاهد بأنها مدنية، وقال: إن إسناده جيد رجاله كلهم ثقات، كما أضاف هذا القول إلى قتادة وعكرمة والحسن بن أبي الحسن وأبي الحسن بن الحصار، وعد رحمه الله تعالى ما

= لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٢٣، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٦.

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل مكة ٥ / ٧٢٢ (٣٩٣٥) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، والحاكم في المستدرك ٣ / ٨ (٤٢٧١) وقال: هذا حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٠٩.

حكاه النسفي بأنها مكية قولا غريبا [1].

(ج) عدد آيات السورة[2]:

سورة محمد ثمان وثلاثون آية في الكوفي، وتسع وثلاثون آية في المدنيين والمكي والشامي، وأربعون آية في البصري، اختلافها في موضعين: الأول: قوله تعالى:﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ لم يعده الكوفي آية، وعده الباقون، والثاني: قوله تعالى:﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ عده البصري، ولم يعده الباقون.

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع سبعة مواضع ﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ و﴿ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾ و﴿ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ و﴿ بِبَعْضٍ ﴾ و﴿ ءَانِفًا ﴾ و﴿ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ ﴾و﴿ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ وعدد كلمها خمس مئة وتسع وثلاثون كلمة، وعدد حروفها ألفان وثلاث مئة وتسعة وأربعون.

(د) محور السورة:

الصراع بين المؤمنين والكافرين هو محور هذه السورة الكريمة، سواء أكان صراعاً مادياً ظاهراً يسعره الكافرون ويصل إلى درجته القصوى بالقتال، أم كان صراعاً خفياً يديره المنافقون من وراء ستار الإيمان الذي يتخفون وراءه، ولا يجد المؤمنون بداً من اقتحام ميادين هذا الصراع ليحولوا بين الكافرين وبين الصد عن سبيل الله عز وجل.

ومن هنا تعرض السورة الكريمة الملامح الفكرية والنفسية والسلوكية للشخصية الكافرة ثم المنافقة ليعرف المؤمنون عدوهم الذي يضطرهم لخوض حروب نص الله عز وجل على كراهيتهم لها في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

كما نهاهم رسولهم ﷺ عن تمنيها في قوله: " لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١ / ٣٧ – ٥٥.
(٢) انظر: البيان في عد آي القرآن للداني ١ / ٢٢٨.

لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف "[1].

وفي خضم ذكر السورة لملامح الشخصية الكافرة والمؤمنة تعرض الملامح الفكرية والنفسية والسلوكية لشخصية المؤمنين، وتقرر حقائق حول الصراع الدائر بينهم وبين الكفار والمنافقين وحكمة هذا الصراع ومقتضياته وثمراته.

(هـ) المناسبات في السورة:

هناك عدة مناسبات لا يمكن أن يكتمل تصورنا لسورة محمد ﷺ دونها، فأكثر لطائف السور القرآنية مودعة في الترتيبات والروابط، والمناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول، وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء[2].

ويتجلى ذلك في بيان المناسبة بين اسم السورة ومحورها، والمناسبة بين مقاطعها ومحورها والمناسبة بين افتتاحيتها وخاتمتها، والمناسبة بين مضمونها ومضمون ما قبلها.

(١) المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

هناك تناسب بين اسم سورة محمد ﷺ وبين محورها، فلولا مجيء محمد ﷺ برسالة الله تعالى وإيمان المؤمنين وكفر الكافرين بهذه الرسالة ما قام هذا الصراع المرير الذي قاد ﷺ فيه المؤمنين وفق سياسة ربانية في مصدرها وغايتها، ولهذا كان الجهاد خلقه ﷺ إلى أن توفاه الله تعالى، فهو نبي الرحمة بالملحمة حسب وصف برهان الدين البقاعي[3].

كما أن اسم سورة القتال يناسب محورها المتمثل في الصراع المادي الذي يصل إلى أقصى

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار ٣/ ١٠٨٢ (٢٨٠٤) ومسلم في الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو ٣/ ١٣٦٢ (١٧٤٢).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ٣٥، ٣٦.

(٣) انظر: نظم الدرر للبقاعي ١٨/ ١٩٤ – ١٩٥.



درجاته المتمثلة في القتال الذي يسعره الكافرون والمنافقون في مواجهة المؤمنين، حيث تقرر آياتها حقائق حول هذا الصراع وحكمته ومقتضياته وثمراته.

أما اسم سورة الذين كفروا فيناسب بدايتها، وحديثها المفصل عن الشخصية الكافرة في جوانبها الفكرية والنفسية والسلوكية، وهي الجوانب التي تسببت في الصراع الذي هو محور السورة.

ويمكن جمع هذه الأسماء الثلاثة في جملة واحدة تعطي تصوراً تاماً عن القضايا التي تعالجها السورة، وهي: محمد ﷺ يقاتل الكفار [1].

(٢) المناسبة بين محور السورة ومقاطعها:

إذا كان الصراع بين المؤمنين والكافرين هو محور هذه السورة الكريمة، سواء أكان صراعاً مادياً ظاهراً يسعره الكافرون، أم كان صراعاً خفياً يديره المنافقون من وراء ستار الإيمان، فإن المقطع الأول يعنى بالتعريف بطرفي الصراع الواضحين مع حث الطرف المؤمن على قتال طرف الكفار.

وفي المقطع الثاني يحرض المؤمنين على نصرته عموماً إن أرادوا منه النصر والتثبيت لأنفسهم، والتعس والضلال للكافرين، فتلك هي سنته التي لا تتبدل في الدنيا حسب الشواهد المبثوثة في الأرض، أما في الآخرة فالفارق بين متاعهم ومتاع الكافرين فارق أصيل، فمتاعهم متاع كريم لأنهم يتلقونه من يد الله تعالى، بينما عاقبة الكافرين العذاب رغم أن حظهم من الدنيا لم يزد على حظ الأنعام.

وفي المقطع الثالث ذكر لحال المنافقين – الطرف المتخفي من أطراف الصراع – وموقفهم إزاء ما يسمعونه من رسول الله ﷺ ثم موقفهم من قضية الجهاد، ومن اليهود، وتآمرهم معهم سرا ضد الإسلام والمسلمين بحيث يأخذ المؤمنون حذرهم من الفريقين.

---

(١) انظر: التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق لصلاح الخالدي ص ٢٤٣.

وفي المقطع الرابع وعيد لهؤلاء المنافقين بكشف أمرهم في الدنيا، وإحباط أعمالهم مع أعمال الكافرين إن أصروا على كفرهم بالله تعالى وصدهم عن سبيله، ويدفع المؤمنين لتحمل تكاليف الإيمان المتمثلة في الجهاد والطاعة والصبر على طول الطريق ومكابدة الأعداء ومقاومة ضغط زينة الدنيا على النفوس، ويهددهم إن تولوا بأن يأتي بقوم آخرين لا يكونون مثلهم.

فهي إذا معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها يظللها جو الصراع، وتتسم بطابعه في كل فقراتها، وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة، أو القرارات العسكرية الحاسمة﴿ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾﴿ بَالَهُمْ ﴾﴿ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾﴿ أَهْوَآءَهُم ﴾﴿ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء:﴿ أَوْزَارَهَا ﴾﴿ أَمْثَٰلُهَا ﴾﴿ أَقْفَالُهَآ ﴾ وهناك شدة في الصور كالشدة في جرس الألفاظ المعبرة عنها، فالقتال أو القتل يقول عنه: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ والتقتيل والأسر يصوره بشدة وقسوة تناسب قسوة الكافرين في المواجهة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾ والدعاء عليهم يجيء في لفظ قاس ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ وهلاك الغابرين يرسم في صورة مدوية ظلاً ولفظاً ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ وصورة العذاب في النار تجيء في هذا المشهد ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ وحالة الجبن والفزع عند المنافقين تجيء في مشهد كذلك عنيف ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ ﴾ حتى تحذير المؤمنين من التولي يجيء في تهديد نهائي حاسم: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ وهكذا يتناسب محور السورة مع مقاطعها بل ومع فواصلها وصورها تناسبا تاما يجعل منها وحدة واحدة دون تكلف أو تعسف(١).

(٣) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة سورة الأحقاف واضحة جلية، فهناك اتصال وتلاحم بينهما بحيث لو سقطت من البين البسملة ؛ لكانا متصلاً واحداً لا تنافر فيه كالآية الواحدة آخذاً

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٠.

بعضها بعنق بعض [1].

فبعد أن ختم الله تعالى سورة الأحقاف بقوله: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ يمكن أن يقول قائل: كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره فيكون في إهلاكه إهدار عمله وقد قال الله عز وجل في سورة الزلزلة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ ﴾؟ دفع الله تعالى تلك الشبهة في أول سورة محمد فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾ أي لم يبق لهم عمل ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك المذكور في الأحقاف [2].

ويمكن اعتبار أول جملة في سورة محمد بدل من آخر جملة في سورة الأحقاف، بحيث لو سقطت البسملة لاتصلا على النحو الآتي: ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾.

(٤) المناسبة بين مضمون السورة ومضمون التي قبلها:

سورة الأحقاف تضمنت دلائل وحدانية الله تعالى، وحقية وحيه المنزل على نبيه ﷺ ونقض الشرك، ودحض شبهات المشركين، وعرضت المآل الذي يصير إليه الكافرون وهو الهلاك والبوار في الدنيا من خلال طرح صور لهلاك طوائف منهم، وأشارت إلى العذاب الأليم الذي ينتظرهم في الآخرة، وحثت الرسول ﷺ على الصبر حتى يتحقق موعود الله تعالى فيهم سواء أكان في العاجلة أم الآجلة.

أما سورة محمد ﷺ فتضمنت صفات هؤلاء الكافرين بالوحدانية وبالوحي الذي اتضحت دلائلها في سورة الأحقاف، وبينت حرصهم على الصد عن سبيله تعالى، وحثت على السير في الأرض لمعرفة المآل الذي صار إليه أمثالهم في الدنيا، وهو المآل الذي عرضت سورة

---

(١) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٦.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٣٢.

الأحقاف صورا منه، كما عرضت لعاقبتهم في الآخرة، ولا شك أن الوقوف على عاقبة الكفار من خلال السير في الأرض وخبر هذه السورة يعين على تحمل عبء الصبر الذي حثت عليه سورة الأحقاف.

على أن سورة محمد تدفع المؤمنين إلى تحمل مسؤولياتهم في تحقق سنة الله عز وجل في الكافرين، ولهذا ورد فيها الأمر بنصرة دين الله تعالى، وبمعاقبة هؤلاء الكافرين على صدهم عن سبيله بالقتل أو الأسر.

(٥) المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

لما قرر الله تعالى في أول السورة أنه قد أضل أعمال الكفار، وأمر المؤمنين بالشدة عليهم في القتال وبين أنه لو شاء لانتصر منهم لكنه أراد أن يبلو بعضهم ببعض ليتميز الخبيث من الطيب، بين في آخر السورة أنه سيبتلي المؤمنين ليتبين المجاهدون والصابرون منهم، وأنه سيحبط أعمال الكافرين في الصد عن سبيله، وأمر المؤمنين بطاعته وبطاعة رسوله ﷺ وحثهم على نبذ الوهن والدعوة إلى السلم، ودعاهم إلى تحمل مسؤوليتهم تجاه دينه لأنه تعالى غني عنهم قادر على الانتصار من الكفار بقوم آخرين، فرجع بذلك أول السورة إلى آخرها، وعلم أن معنى هذا الآخر وذلك الأول أنه سبحانه يذل الكافرين ويعز المؤمنين [١].

سبب نزول السورة:

أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: " نزلت سورة محمد آية في بني أمية " [٢].

وأورده السيوطي في الدر المنثور بلفظ " سورة محمد آية فينا، وآية في بني أمية " [٣].

---

(١) انظر: نظم الدرر للبقاعي ١٨ / ٢٧١ - ٢٧٢.
(٢) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٦.
(٣) انظر: الدر المنثور ٧ / ٤٥٦.

قال الآلوسي: « ولا أظن صحة الخبر، نعم لكفار بني أمية الحظ الأوفر من عمومات الآيات التي في الكفار، كما أن لأهل البيت رضي الله تعالى عنهم المعلى والرقيب من عمومات الآيات التي في المؤمنين، وأكثر من هذا لا يقال، سوى أني أقول لعن الله تعالى من قطع الأرحام وآذى الآل»[1].

المقطع الأول

تعريف موجز بطرفي الصراع وحث المؤمنين على القتال

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي:

هذا عرض للصفات الأساسية لطرفي الصراع، وهي الصفات التي يترتب عليها فوز الطرف المؤمن وخسارة الطرف الكافر بكل معاني الفوز والخسارة، وهو توطئة لتحريض المؤمنين على قتال من غضب الله تعالى عليهم بسبب كفرهم وصدهم الناس عن دينه.

وبدأ بالموصول والصلة المتضمنة كفر الذين كفروا ومناوأتهم لدين الله تشويقاً لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة، وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر، أي لأجل

(١) روح المعاني للآلوسي ٢٦ / ٣٦.

كفرهم وصدهم أضل أعمالهم، وفي ذلك براعة استهلال للغرض المقصود [(١)].

والآيات تعم كل من دخل تحت ألفاظها[(٢)] وأضيف السبيل إلى الله تعالى لأنه الدين الذي ارتضاه لعباده، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ واستعير اسم السبيل للدين ؛ لأنه يوصل إلى رضى الله عز وجل كما يوصل السبيل السائر فيه إلى بغيته وقد صد الكافرون أنفسهم عن سبيل الله تعالى ومنعوا عقولهم من اتباع الدليل، كما صدوا غيرهم ومنعوهم من ذلك.

ولهذا استحقوا أن يبطل ثواب أعمالهم الخيرة، أو يبطل ما عملوه من الكيد للإسلام ولرسوله ﷺ بنصره ﷺ وإظهار دينه على الدين كله، ولعله أوفق بما بعده وكذا بما قيل أن الآية نزلت ببدر، واللفظ يعم هذا القول والذي حسب قول ابن عطية [(٣)].

وفي مقابل الذين كفروا يذكر الذين آمنوا ويقرن الإيمان بالعمل الصالح ؛ لأنه ثمرته الدالة على وجوده وحيويته وانبعاثه، وفي مقابل إبطال عمل الكافرين ولو كان صالحا تغفر السيئة للمؤمنين، ومع تكفير السيئات يكون إصلاح بالهم أي أمرهم وشأنهم وحالهم، والكل متقارب [(٤)].

وتحرير التفسير في لفظة البال أنها بمعنى الفكر والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب، وإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها ؛ لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٧٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٠٩، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٧.
وقد أخرج الحاكم رواية عن ابن عباس في أن الذين كفروا منهم أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله ﷺ والذين آمنوا هم الأنصار أهل المدينة الذين آووه، وفي الطائفتين نزلت الآيتان، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. انظر: المستدرك للحاكم ٢ / ٤٩٦ (٣٧٠٣).

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩١، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٣٧، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٠٩.

(٤) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٣٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٧٣.

رأيه، والتوحيد هو أصل صلاح بال المؤمن، إذ منه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبس بها أهل الشرك، وحكاها عنهم القرآن في مواضع كثيرة، فكأن اللفظة مشيرة الى صلاح عقيدتهم، وغير ذلك من الحال تابع[1].

وما ينال الفريقين أمر له أصله الثابت المرتبط بسنة ربانية قام عليها أمره تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾.

والأمثال: جمع مثل وهو الحال التي تمثل صاحبها وتعرف به فلا يلتبس بنظائره، والمعنى: كهذا التبيين يبين الله للناس أحوالهم فلا يبقوا في غفلة عن شؤون أنفسهم، محجوبين عن تحقق كنههم بحجاب التعود، لئلا يختلط الخبيث بالطيب، ولكي يكونوا على بصيرة في شؤونهم[2].

ومن شأن هذه البصيرة أن تهون شأن الكافرين في نفوس المؤمنين فيمتثلوا أمر ربهم بالشدة على المحاربين منهم في قوله: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾.

فضرب الرقاب كناية مشهورة يعبر بها عن القتل، والتعبير به عنه تصوير له بأشنع صورة وتهويل لأمره لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وأوجه أعضائه، وأثخنتموهم أكثرتم قتلهم وأغلظتموه من الشيء الثخين وهو الغليظ أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى تتحطم قوتهم وتتهاوى، فلا تعود بهم قدرة على العدوان، وعندئذ - لا قبله - يشد وثاقهم، وهو هنا كناية عن الأسر لأن الأسر يستلزم الوضع في القيد، وإنما أمر بشد الوثاق لئلا يفلتوا إلى أن يختار المؤمنون بحسب المصلحة بين أن يمنوا عليهم بإطلاق سراحهم أو يقبلوا منهم الفدية [3].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٠٩، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٧٥ - ٧٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٧٧.

(٣) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٠، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٢٦، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩٢.

وتقديم المن على الفداء ترجيح له ؛ لأنه أعون على امتلاك ضمير الممنون عليه، وفيه إشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال ؛ لأن الغاية العظمى من قتال المؤمنين للكافرين أن تضع الحرب آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها ؛ وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد من جرها فكأنها تحملها وتستقل بها، فإذا انقضت فكأنها وضعتها[(١)].

وحتى تبقى الفاعلية المطلقة لله عز وجل وحده في حس المؤمنين، ويدركوا الغاية الحقيقية من أمرهم بقتال الكافرين، وهي تخليص نفوسهم له سبحانه بحيث لا تتطلع إلا إلى وجهه ولا تبتغي إلا رضاه قال تعالى:﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾.

وهذا التطلع هو السبيل الوحيد لتحصيل ثمرات القتال والموت في سبيله سبحانه، حيث يتعهدهم بالهداية بعد الاستشهاد، وبإصلاح البال، ويهديهم عند حشرهم إلى طريق الجنة ثم يعلم كل أحد منزلته ودرجته فيها.

قال مجاهد: يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها، وعن مقاتل إن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه الله، ويمكن أن يكون عرفها بمعنى طيبها لهم من العرف وهو طيب الرائحة [(٢)].

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا " [(٣)].

وعن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: « للشهيد عند الله ست خصال يغفر

(١) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٠، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٣٩، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٨٢.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة ٥ / ٢٣٩٤ (٦١٧٠)

له في أول دفعة ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه "[1].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولا: الإيمان أساس قبول الأعمال:

الله عز وجل يبطل في الدنيا ما يعمله الكافرون من الكيد لدينه ولرسوله ﷺ بنصره ﷺ وإظهار دينه على الدين كله، كما أن عمل الكافرين الحسن في الحياة الدنيا يبطل يوم القيامة ويضمحل، وسبب ذلك أن أعمالهم لم تقترن بالإيمان.

فلا بد من الإيمان ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه في كل اتجاهاتها، وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه، ويكون له هدفه، ويكون له اطراده، وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهي الذي يجعل لكل عمل وظيفة وأثرا[2].

قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ وقال في سورة هود ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ وقال في سورة الشورى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

ويرى بعض العلماء أن الكفار يثابون على حسناتهم بنعم الدنيا فقط، وقال بعضهم إنه إذا أسلم تضاف إلى حسناته في الإسلام، وهذا أحد التأويلين في قول النبي ﷺ لحكيم بن حزام:

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد ٤ / ١٨٧ (١٦٦٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٠ - ٣٢٨١.

«أسلمت على ما سلف لك من خير»(١).

فقوم قالوا: تأويله أسلمت على إن يعد لك ما سلف من خير، وهذا هو التأويل الذي أشرنا إليه، وقالت فرقة: معناه أسلمت على إسقاط ما سلف لك من خير إذ قد ثوبت عليه بنعم دنياك(٢).

ثانيا: العمل الصالح قرين الإيمان:

الإيمان لابد أن يقترن بالعمل الصالح ؛ لأنه ثمرته الدالة على وجوده وحيويته وانبعاثه، فعمل بلا إيمان كجسم بلا روح، وإيمان بلا عمل كشجرة بلا ثمر.

وتخصيص الإيمان بمحمد ﷺ بالذكر في آية ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ مع أنه يندرج فيما قبله للتنويه بشأنه، وللتنبيه على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنه الأصل فى الكل، فهو من باب عطف الخاص على العام، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته بالنسبة لكل من آمن بنبي سبقه، ولذلك أكد بالجملة الاعتراضية التي هي قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ بطريق حصر الحقية فيه، ومن حقيته كونه ناسخا غير منسوخ، فالحق على هذا مقابل الزائل وعلى الأول مقابل الباطل(٣).

ثالثا: إصلاح البال ثمرة الإيمان:

إصلاح بال المؤمنين نعمة كبرى تترتب على اتباعهم للحق، وهي نعمة تترتب على الإيمان وتليه في القدر والقيمة والأثر، وذكرها يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب شراء المملوك من الحربي ٢ / ٧٧٣ (٢١٠٧).

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٢.

(٣) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣١٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٧٣، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩١.

إذ متى صلح البال ؛ استقام الشعور والتفكير، واطمأن القلب والضمير، وارتاحت المشاعر والأعصاب، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام[1].

ومن مقتضيات صلاح بال المؤمنين في الدنيا أنهم يقدمون على قتال الكفار وهم يحرصون على الموت في سبيل الله كما يحرص أعداؤهم على الحياة، فإن نالوا مرادهم كانت لهم في الآخرة درجة من إصلاح البال أجل وأعظم من التي ذاقوها في الدنيا ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾.

رابعا: العاقبة للحق وأهله:

الباطل ليست له جذور ضاربة في كيان هذا الوجود، ومن ثم فهو ذاهب هالك مع كل من يتبعه وكل ما يصدر عنه، بينما الحق ثابت ضارب بجذوره في أعماق هذا الكون، ومن ثم يبقى كل ما يتصل به ويقوم عليه.

قال تعالى في سورة الرعد: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ وقال في سورة الإسراء: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾.

وهذا هو الأصل الثابت المرتبط بسنته تعالى التي عبر عنها بإيجاز التعقيب على عاقبة كل من المؤمنين والكافرين: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ ﴾.

فلا ينبغي أبدا أن يدب اليأس إلى نفوس المؤمنين إن رأوا للباطل صولة ولأهله جولة، لأن الأمور بعواقبها، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨١.



تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

خامسا: إيجابية المؤمن وغايتها:

ما يفعله الله عز وجل للمؤمنين في أعدائهم يدفعهم إلى الفعل والإيجابية لا إلى الكسل والتواكل والسلبية، ولهذا يأمرهم بمجابهة الكافرين بما يستحقون عند اللقاء ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾.

ويؤكد لهم أنه لو شاء لانتصر من الكافرين جهرة كما انتصر من بعضهم عبر قرون بأسباب ظاهرة أو خفية، لكنه عز وجل يريد للمؤمنين الخير حين يحملهم مسؤولية مجاهدة هؤلاء الكافرين.

فمن شأن هذه المجاهدة أن تخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض الدنيا الفانية، ويعز عليهم الحق فلا يستطيعون الحياة بدونه، بل يجاهدون في سبيله وهم يتطلعون فقط إلى وجه الله تعالى ورضاه.

فقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ لفتة في غاية الأهمية بالنسبة للمؤمنين، وهي أنه لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الجهاد والموت في سبيل الله تعالى وحده، والنصرة له وحده، وإلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا[(١)].

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله ؟ قال: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله "[(٢)].

سادسا: القتال لإقرار السلم:

غاية تشريع القتال في الإسلام هي منع العدوان ابتداء ووقف الحرب إذا وقعت، بدليل أن الله تعالى أمر بضرب رقاب الكفار بعد ذكر صدهم عن سبيله، وجعل توقف الحرب غاية

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٣ / ١٠٣٤ (٢٦٥٥).

لإنهاك الكفار.

فحتى في قوله ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ﴾ للتعليل، أي لأجل أن تضع الحرب أوزارها، أي ليكف المشركون عنها فتأمنوا من الحرب عليكم، قال تعالى في سورة النساء: ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك، فإن امتناعهم عن قتالكم كاف في استحقاقهم لعدم تعرضكم لهم، وأنتم أولى بالسلم منهم[١].

بل إن هذا الكف يتيح لكم أن تبروهم وتحسنوا إليهم حسب قوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ⁽٨⁾ ﴾.

وقد نص الرسول ﷺ على استعداده لقبول أية خطة من شأنها إقرار السلم حين قال يوم الحديبية: " والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها "[٢].

قال ابن حجر: " قوله " لا يسألونني خطة " بضم الخاء المعجمة، أي خصلة " يعظمون فيها حرمات الله " أي من ترك القتال في الحرم، ووقع في رواية ابن إسحاق " يسألونني فيها صلة الرحم " وهي من جملة حرمات الله " إلا أعطيتهم إياها " أي أجبتهم إليها "[٣].

ويوم فتح مكة أخذت الحماسة سعد بن عبادة فقال: اليوم يوم الملحمة، أي يوم المقتلة العظمى، فدخل أبو سفيان على الرسول ﷺ فقال له: أمرت بقتل قومك ؟ قال: «لا» فذكر له مقالة سعد بن عبادة، فقال: «يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشا» وأرسل إلى سعد فأخذ منه الراية ودفعها إلى ابنه قيس[٤].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٥٣٣، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٢ / ٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد ٢ / ٩٧٤ - ٩٨٠ (٢٥٨١).

(٣) فتح الباري لابن حجر ٥ / ٣٣٦.

(٤) انظر: ما أخرجه البخاري في المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح ٤ / ١٥٥٩ (٤٠٣٠) =

وقد عقد ﷺ معاهدة مع اليهود إثر مقدمه المدينة، كما عقد معاهدة الحديبية مع كفار قريش إيثارا للسلم ورغبة في الصلح.

من هنا كان في تقييد إعداد المستطاع من القوة بقصد إرهاب الأعداء المجاهرين والمستخفين دليل على تفضيل جعله سبباً لمنع الحرب على جعله سبباً لإيقاد نارها، وهذا عين ما يسمى في عرف دول هذه الأيام بالسلام المسلح، بناء على أن الضعف يغري الأقوياء بالتعدي على الضعفاء، ويؤيد ذلك ورود آية الجنوح إلى السلم بعد آية إعداد المستطاع من القوة (١).

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾.

سابعا: أهم مقصد مصلحة الدعوة:

مصلحة الدعوة أهم مقصد في الإسلام وليس هناك اختلاف بين مدلول قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ﴾ ومدلولا الآية التي عاتب الله فيها الرسول ﷺ والمسلمين لاستكثارهم من الأسرى في غزوة بدر والتقتيل كان أولى.

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ لأن الإثخان يكون أولا لتحطيم قوة العدو وكسر شوكته، وبعد ذلك يكون الأسر.

= وفتح الباري لابن حجر ٨/ ٩.

(١) انظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ١٠ / ٦٦.



والحكمة ظاهرة، لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام هي الهدف الأول من القتال، وبخاصة حين كانت القوة العددية للأمة المسلمة قليلة محدودة، وكانت الكثرة للمشركين وكان قتل محارب يساوي شيئاً كبيراً في ميزان القوى حينذاك، والحكم ما يزال سارياً في عمومه في كل زمان بالصورة التي تكفل تحطيم قوة العدو وتعجيزه.

ثامنا: تحديد الحكم في الأسرى:

الحكم في الأسرى تحدده آية سورة محمد ﷺ فهي النص القرآني الوحيد المتضمن حكم الأسرى، فإما أن يطلق سراحهم بلا مقابل من مال أو من فداء لأسرى المسلمين، وإما أن يطلق مقابل فدية من مال أو عمل أو في نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين، وليس في الآية حالة ثالثة كالاسترقاق أو القتل.

قال الألوسي: «وظاهر الآية على ما ذكره السيوطي في أحكام القرآن العظيم امتناع القتل بعد الأسر وبه قال الحسن»[١].

وقال الحسن وعطاء: التخيير بين المن والفداء فقط دون قتل الأسير، فقتل الأسير يكون محظوراً، وظاهر هذه الآية يعضد ما ذهب اليه الحسن وعطاء كما قال ابن عاشور[٢].

ولكن الذي حدث فعلا أن رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده استرقوا بعض الأسرى وقتلوا بعضهم، كما قتل ﷺ عقبة ابن أبي معيط يوم بدر صبراً، والنضر بن الحارث بعد الأسر يوم بدر، وقتل يوم أحد أبا عزة الشاعر بعدما أسر، وشرط على ابن أبي الحقيق ألا يكتم شيئاً فلما ظهر على خيانته وكتمانه قتله، وفتح مكة وأمر بقتل هلال بن خطل، وقال:" اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة "[٣].

---

(١) روح المعاني للألوسي ٢٦/ ٤٠.

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٨١.

(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٣ - ٣٢٨٤، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك ٢ / ٦٢ (٢٣٢٩) قال الهيثمي: ورجاله ثقات. انظر: مجمع الزوائد للهيثمي ٦ / ١٦٨ - ١٦٩.

وتتبع الحالات التي وقع فيها القتل يعطي أنها حالات خاصة، وراءها أسباب معينة غير مجرد التعرض للقتال والأسر، فالنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط كلاهما كان له موقف خاص في إيذاء رسول الله ﷺ وإيذاء دعوته، وكذلك أبو عزة الشاعر، وأمر بقتل بن خطل لأنه كان مسلما فبعثه ﷺ مصدقا، وبعث معه رجلا من الأنصار، وكان معه مولى يخدمه، وكان مسلما، فنزل منزلا، فأمر المولى أن يذبح تيسا ويصنع له طعاما، فنام واستيقظ ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً، وكانت له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ وهكذا نجد في جميع الحالات أسباباً معينة تفرد هذه الحالات من الحكم العام للأسرى الذي تقرره الآية بالمن أو الفداء[1].

والخلاصة أن هذا النص القرآني هو الوحيد الذي يتضمن حكم الأسرى، وأنه هو الأصل الدائم للمسألة، وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسر، وما وقع بالفعل خارجاً عنه كان لمواجهة حالات خاصة وأوضاع وقتية.

ولهذا لما أتى الحجاج بن يوسف بأسارى فدفع إلى ابن عمر رضي الله عنهما رجلا ليقتله، قال ابن عمر: ليس بهذا أمرنا، قال الله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾[2].

ويكفي ما ثبت في صحيح البخاري من قوله ﷺ في أسارى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له»[3].

لأن الإطلاق على ذلك التقدير لا يثبت إلا وهو جائز شرعاً لمكان العصمة وكونه لم يقع لعدم وقوع ما علق عليه لا ينفي جوازه شرعا[4].

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ٤ / ٦٠ – ٦٢، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٤.
(٢) انظر: الدر المنثور للسيوطي ٧ / ٤٥٨.
(٣) أخرجه البخاري في المغازي، باب شهود الملائكة بدرا ٤ / ١٤٧٥ (٣٧٩٩).
(٤) انظر: روح المعاني للآلوسي ٢٦ / ٤١.



تاسعا: تحديد الموقف من الرق:

الاسترقاق كان لمواجهة أوضاع عالمية قائمة، وتقاليد في الحرب عامة، ولم يكن ممكنا أن يطبق الإسلام في جميع الحالات النص العام ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ في الوقت الذي يسترق أعداء الإسلام من يأسرونهم من المسلمين.

ومن ثم طبقه الرسول ﷺ في بعض الحالات، فأطلق بعض الأسارى منا، وفادى ببعضهم أسرى المسلمين، وفادى بعضهم بالمال، وفي حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لا تعالج بغير هذا الإجراء، فإذا حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى فإن الإسلام يرجع حينئذ إلى قاعدته الإيجابية الوحيدة وهي ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ لانقضاء الأوضاع التي كانت تقضي بالاسترقاق، فليس الاسترقاق حتمياً، وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى في الإسلام [1].

عاشرا: الإعلام سلاح نافذ:

الإعلام سلاح نافذ التأثير ولذلك يجب أن تكون للمسلمين آلة إعلامية تتبنى خطاباً مضاداً للحملات التي يشنها أعداؤهم للنيل من إرادتهم وتوهين عزيمتهم.

وهذا ما أفهمه من قول قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ نزلت يوم أحد ورسول الله ﷺ في الشعب، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركون: اعل هبل، ونادى المسلمون: الله أعلى وأجل، وقال المشركون: يوم بيوم بدر والحرب سجال، فقال النبي ﷺ: «قولوا لا سواء، قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون، وقتلاكم في النار يعذبون» فقال المشركون: إن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم [2].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٢٨٥.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ٤ / ١٠٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٢٩، وقد رواه الإمام

إن مجرد نزول الآية مع حرص الرسول ﷺ على الرد على خطاب المشركين الإعلامي بخطاب إعلامي آخر له أهداف وآثار تتجاوز المواجهة الآنية لآثار وأهداف الخطاب الإعلامي للمشركين إلى بناء منظومة إعلامية مهمتها الحفاظ على اعتزاز الأمة بهويتها، وزيادة ارتباطها بالله تعالى وبوحيه، ومواجهة الرسائل الإعلامية المضادة من موقع المهاجم لا المدافع.

المقطع الثاني

سنة الله التي لا تتبدل في المؤمنين والكافرين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ ﴾

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع السابق:

بعد أن عرَّف في المقطع السابق بطرفي الصراع وحث الطرف المؤمن على قتال الكفار يحرض المؤمنين هنا على نصرته عموما إن أرادوا منه النصر والتثبيت لأنفسهم، والتعس والضلال للكافرين، فتلك هي سنته التي لا تتبدل في الدنيا حسب الشواهد التي يمكن معاينتها بالسير

أحمد في مسنده ١ / ٤٦٣، قال الهيثمي: وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط.

في الأرض للنظر في عواقب السابقين.

ولن يقف التمايز بين الطرفين عند حد هذه الحياة، ولكنه سيمتد إلى الآخرة حيث الفارق الأصيل بين متاع المؤمنين ومتاع الكافرين.

فمتاع المؤمنين كريم علوي رفيع ؛ لأنهم يتلقونه من يد الله عز وجل، بينما عاقبة الكافرين العذاب في عالم الخلود مع أن حظهم من الحياة الدنيا لم يزد على حظ الأنعام.

التفسير الإجمالي:

هذا المقطع نص صريح الدلالة على أن المؤمنين إن نصروا ربهم نصرهم على أعدائهم وثبت أقدامهم أي عصمهم من الفرار والهزيمة.

وقد افتتح تحريض المؤمنين على نصره بندائهم بصلة الإيمان اهتماما بالكلام وإيماء إلى أن الإيمان يقتضي منهم ذلك، ويقصد بنصره عز وجل: نصرهم لدينه ولكتابه وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا وأن تقام حدوده، وتمتثل أوامره وتجتنب نواهيه [١].

أما نصره تعالى لمن نصره فيكون بخلق القوة والجرأة فيه، وتثبيت الأقدام على الإسلام وفي موطن الحرب وعقب النصر.

فتأخير تثبيت الأقدام عن النصر يوحي بأن المقصود معنى التثبيت على النصر وتكاليفه في عدم الزهو به والبطر، وفي عدم التراخي بعده والتهاون، لأن كثيراً من الناس يثبت على المحنة والبلاء ولا يثبت على النصر والنعماء [٢].

و لأن الكافرين كرهوا ما أنزل الله تعالى من قرآن وشريعة ومنهج كان الحزن والشقاء والهلاك والخيبة حقا لهم عنده تعالى وفق سنته التي لا تتبدل، وفي ذلك تقوية لقلوب المؤمنين

---

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٧/ ٢٥١ – ٢٥٢.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٣٢، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٢٨٩.



حتى لا يتوهم أحد منهم أن الكافر أيضا يثبت فيدوم القتال، وفي ذلك مشقة عظيمة [(١)].

وسنة الله تعالى في الكافرين لها آثار دمار وخراب واضحة لمن سار في الأرض ونظر في أحوال السابقين، وهي سنة مرتبطة بقانون قائم يرتاع منه كل من كان له قلب أو ألقى السمع في كل زمان ومكان.

هذا القانون هو ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ وقد وقع ذلك لأول من خوطبوا بهذا القانون، حيث استأصل صناديدهم يوم بدر ويوم حنين بالسيف، وسلط عليهم الريح يوم الخندق فهزمهم، وسلط عليهم الرعب والمذلة يوم فتح مكة، وكل ذلك مماثل لما سلطه على الأمم في الغاية منه وهو نصر الرسول ﷺ بل جعل الله تعالى ما نصر به رسوله ﷺ أعلى قيمة بكونه بيده وأيدي المؤمنين مباشرة بسيوفهم وذلك أنكى للعدو[(٢)].

وهذا الفارق بين عاقبة طرفي الصراع محكوم بقاعدة أصيلة دائمة، وهي أن الله تعالى مولى الذين آمنوا أي وليهم وناصرهم، أما الكافرون فلا مولى لهم [(٣)].

ولذلك يدخل سبحانه المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار، بينما الكافرون يتقلبون في النار، لأنهم كانوا يأكلون في الدنيا أكلا مجردا من الفكر والنظر، غافلين عن عواقبهم ومنتهى

---

(١) أكثر الأقوال في معنى تعسا ترجع إلى الدعاء عليهم بالهلاك، وقال في حق المؤمنين ويثبت بصيغة الوعد لأن الله تعالى لا يجب عليه شيء، وقال في حق الكافرين بصيغة الدعاء وهي أبلغ من صيغة الإخبار من الله. انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٤٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٣٢ – ٢٣٣، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٤٤.

(٢) انظر المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٣، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٤٤، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٨٨.
يقال دمره: أهلكه، ودمر عليه: أهلك ما يختص به، فدمر عليه أبلغ من دمره، وجاءت المبالغة من حذف المفعول وجعله نسيا منسيا بكلمة الاستعلاء لتضمن التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم أو نحوه. انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٤٥.

(٣) وفي قراءة ابن مسعود «ولي الذين آمنوا» انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٢.

أمورهم، فمثلهم مثل الأنعام من البهائم المسخرة التي لا همة لها إلا في الاعتلاف دون غيره ولهذا ثبت في الصحيح «المؤمن يأكل في معي واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء»(١).

وتعترض سلسلة الموازنات بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين لفتة إلى القرية التي أخرجت الرسول وموازنة بينها وبين القرى الهالكة مع أنها كانت أشد قوة منها.

وقوله تعالى ﴿ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ بيان لعدم خلاصهم بواسطة الأعوان والأنصار إثر بيان عدم خلاصهم منه بأنفسهم، وهذا تعريض بتأييس المشركين من إلفاء ناصر ينصرهم في حربهم للمسلمين قطعاً لما قد يخالج نفوسهم أنهم لا يغلبون لتظاهر غيرهم معهم (٢).

ثم يشير سبحانه إلى علة هذا التمايز الواضح بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين، وهي أن المؤمنين كانوا على بينة من ربهم(٣).

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٢٦ / ٤٧، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٤٥، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٣، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٤٦، والحديث أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة، باب المؤمن يأكل في معي واحد ٥ / ٢٠٦١ (٥٠٧٨).

وقد اختلف في معناه، فقيل: ليس المراد به ظاهره وإنما هو مثل ضرب للمؤمن وزهده في الدنيا والكافر وحرصه عليها، فكأن المؤمن لتقلله من الدنيا يأكل في معي واحد والكافر لشدة رغبته فيها واستكثاره منها يأكل في سبعة أمعاء، وقيل: المعنى أن المؤمن يأكل الحلال والكافر يأكل الحرام، وقيل: المراد حض المؤمن على قلة الأكل إذا علم أن كثرته صفة الكافر، وحقيقة العدد ليست مرادة، فتخصيص السبعة للمبالغة في التكثير، ولا يلزم اطراد هذا في كل مؤمن وكافر. انظر: فتح الباري لابن حجر ٩ / ٥٣٨ - ٥٣٩.

(٢) انظر: روح المعاني للألولسي ٢٦ / ٤٧، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩١.

(٣) البينة هي القرآن أو الدين أو البصيرة واليقين والحجة، والذي على بينة من ربه هو الرسول أو المؤمن عموما، والأولى حمل اللفظ على العموم لأهل هاتين الصفتين غابر الدهر، لأن التخصيص لا يساعده النظم الكريم ولا داعي إليه.

ومعنى وصف البينة بأنها من الله تعالى: أنه أرشدهم إليها وحرك أذهانهم فامتثلوا وأدركوا الحق، فالحجة حجة في نفسها، وكونها من عند الله تزكية لها وكشف للتردد فيها وإتمام لدلالتها، كما يظهر الفرق بين =

أما الكافرون فزين لهم سوء أعمالهم واتبعوا أهواءهم، ثم يعرض صورة أخرى من صور التمايز بين المؤمنين والكافرين في المصير بعد الصورة السابقة في الفرق بين الجانبين في الاهتداء والضلال.

فكل من اتقى الشرك، وعمل الصالحات واجتنب السيئات له في الجنة أنهار من ماء ولبن غير متغير ولا فاسد، وأنهار من خمر لذيذة لا يكون فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر وأنهار من عسل لا يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها[1].

وفي ذلك تمثيل لما يقوم مقام الأشربة في الجنة بأنواع ما يستلذ منها في الدنيا بالتجريد عما ينقصها وينغصها، والتوصيف بما يوجب غزارتها واستمرارها[2].

= أخذ العلم عن متضلع فيه وأخذه عن مستضعف فيه وإن كان مصيبا، وهذا الفريق هم المؤمنون وهم ثابتون على الدين واثقون بأنهم على الحق، فلا جرم يكون لهم الفوز في الدنيا لأن الله يسر لهم أسبابه، فإن قاتلوا كانوا على ثقة بأنهم على الحق وأنهم صائرون إلى إحدى الحسنيين فقويت شجاعتهم، وإن سالموا عنوا بتدبير شأنه وما فيه نفع الأمة والدين فلم يألوا جهداً في حسن أعمالهم، وذلك من آثار أن الله تعالى أصلح بالهم وهداهم. انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٧/ ٤٠٠، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥/ ١١٣، ومعالم التنزيل للبغوي ٥ / ١٩١، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩٣.

(١) عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: " إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد " أخرجه الترمذي في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة أنهار الجنة ٤/ ٦٩٩ (٢٥٧١) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٧/ ٤٠١، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩٥، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٤، ومعالم التنزيل للبيضاوي ٥ / ١٩٢.

وإطلاق الأنهار على أنهار الماء حقيقة، وأما إطلاق الأنهار على ما هو من لبن وخمر وعسل فذلك على طريقة التشبيه البليغ، أي مماثلة للأنهار، فيجوز أن تكون المماثلة تامة في أنها كالأنهار مستبحرة في أخاديد من أرض الجنة فإن أحوال الآخرة خارقة للعادة المعروفة في الدنيا، فإن مرأى أنهار من هذه الأصناف مرأى مبهج، ويجوز أن تكون مماثلة هذه الأصناف للأنهار في بعض صفات الأنهار وهي الاستبحار. انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩٦.

ولهم فيها مع ذلك كله أصناف من جميع أجناس الثمرات مما علموه في الدنيا ومما لم يعلموه، بالإضافة إلى تجاوز ربهم عنهم، فلهم أن يعملوا ما شاءوا بلا تكليف عليهم على نحو معنى قوله ﷺ: « لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "[1] وقد تكون المغفرة كناية عن الرضوان عليهم، بينما الكافرون محرومون من هذا الرضوان ومن جميع ما ذكر من المشروبات، وليسوا بذائقين إلا السخط والماء الحار الذي يقطع أمعاءهم[2].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولا: تكاليف النصر:

نصر الله عز وجل ليس هبة تمنح دون مقابل، بل لابد من تقديم تكاليف هذا النصر والتي تتمثل في نصرة دينه تعالى وكتابه، والسعي في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده، وتمتثل أوامره وتجتنب نواهيه.

وهذا المعنى واضح في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الحج: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١ ﴾.

وقد أشار ابن القيم إلى هذه الحقيقة في تعليقه على قول الله عز وجل في سورة النساء:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر ٤ / ١٩٤١ (٢٤٩٤).

(٢) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩٧.

عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل في سورة إبراهيم: ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ قال: "يقرب إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقع فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله عز وجل ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ ويقول تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾. أخرجه الحاكم في مستدركه ٢ / ٤٩٦ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ حيث قال: «انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى، فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مكفي مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ظاهراً وباطناً»(١).

ولذلك عهد عمر بن عبدالعزيز إلى بعض عماله: عليك بتقوى الله في كل حال ينزل بك، فإن تقوى الله أفضل العدة وأبلغ المكيدة وأقوى القوة، ولا تكن في شيء من عداوة عدوك أشد احتراسا لنفسك ومن معك من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم، وإنما نعادي عدونا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم ؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا قوتنا كقوتهم(٢).

ثانيا: التنويع في مجال الوعظ:

ينبغي أن نستفيد في مجال الدعوة إلى الله تعالى من النسق القرآني الذي ينوع في مجال الوعظ، حيث يتم الانتقال من أجواء عقاب الكافرين في الدنيا إلى أجواء عذابهم في الآخرة، ثم يعود مرة ثانية إلى صور العقاب الدنيوي بحيث تجد الطبائع المختلفة ما يشدها إلى الإيمان ويخلعها من الكفر.

إن الإطناب في الوعيد مطلوب لأن مقام التهديد والتوبيخ يقتضي الإطناب مراعاة لطبيعة المنحرفين، فمفاد آية ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ مؤكد لمفاد آية ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ فحصل توكيد ذلك بما هو مقارب له من إهلاك الأمم ذوات

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم ٢ / ١٧٣ - ١٧٤.

(٢) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء ٥ / ٣٠٣.



القرى والمدن بعد أن شمل قوله ﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ من كان من أهل القرى.

وزاد هنا التصريح بأن الذين من قبلهم كانوا أشد قوة منهم ليفهموا أن إهلاك هؤلاء هين على الله عز وجل، فإنه لما كان التهديد السابق تهديداً بعذاب السيف من قوله ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ قد يلقى في نفوسهم غروراً بسبب المنعة التي تتمتع بها قريتهم مكة بسبب تظاهر قبائل العرب معها، أعلمهم الله تعالى أن قرى كثيرة كانت أشد قوة من قريتهم أهلكهم الله فلم يجدوا نصيراً[1].

ولا يقف الأمر عند حد التنويع في مجال الترهيب فقط بل لابد من الترغيب مع الترهيب لأن الرجاء والخوف يختلطان بالكيان البشري ويصوغان أفكار الإنسان ومشاعره، وبالتالي أهدافه وسلوكه، فعلى قدر ما يرجو ونوع ما يرجو، وعلى قدر ما يخاف ونوع ما يخاف تتحد الأهداف ويصاغ منهج الحياة.

ومن هنا ذكرت السورة إلى جانب الترهيب بعاقبة الكافرين في الدنيا والآخرة الترغيب ببيان عاقبة المؤمنين في الدنيا والآخرة.

ثالثا: لكل مقام مقال:

لكل مقام مقال ولذلك يجب أن نتخير الظرف الملائم والخطاب المناسب في التخفيف عن كل من يتعرض للابتلاء على طريق الدعوة إلى الله تعالى.

وهذا واضح من نزول آية ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣ ﴾ في أثناء رحلة الخروج والهجرة، تسلية للرسول ﷺ وتسرية عنه، وتهوينا من شأن المشركين الجبارين الذين وقفوا في وجه الدعوة، وآذوا أصحابها، حتى هاجروا من أرضهم وأهلهم وأموالهم فرارا بعقيدتهم[2].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ٩١.

(٢) انظر: الدر المنثور للسيوطي ٧ / ٤٦٣.



ولو أننا تتبعنا معظم الآيات التي نزلت في وعد المؤمنين بالنصر وبيان عاقبة السوء التي تنتظر الكافرين لوجدنا أنها قد تنزلت في مناسبات تعرض فيها الرسول ﷺ والمؤمنون للون من ألوان الأذى أو الاضطهاد أو حتى توهم الانكسار.

ومن أوضح الشواهد على ذلك كل آيات سورة آل عمران التي تنزلت للتعقيب على أحداث غزوة أحد، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

رابعا: سلاح الإعلام باق في كل الأحوال:

يجب أن تبقى للمسلمين حملاتهم الإعلامية حتى بعد أن يتحقق النصر ؛ لأن هذا يقوي صفهم ويخلخل نفوس خصومهم.

وهذا واضح من المقابلة بين المبدأ الذي عليه المؤمنون والمبدأ الذي عليه الكافرون في ثنايا الحديث عن تحقق النصر للمؤمنين في الدنيا والفوز بالنعيم في الآخرة، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

والاستفهام مستعمل في إنكار المماثلة التي يقتضيها حرف التشبيه، والمقصود من إنكار المشابهة بين هؤلاء وهؤلاء هو تفضيل الفريق الأول، وإنكار زعم المشركين أنهم خير من المؤمنين، فقوله ﴿ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ فرق فارق وقوله ﴿ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ مكمل له، وذلك أن البينة إذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها وبين القائل قولاً لا دليل عليه، فإذا كانت البينة منزلة من الله عز وجل تكون أقوى وأظهر، فتكون أعلى وأبهر، وكذلك قوله عز وجل ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ فرق فارق وقوله ﴿ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾[(١)].

المقطع الثالث

التعريف بالمنافقين والموازنة بينهم وبين المؤمنين

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ
يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةًۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ
صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ
﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ
أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ
لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِۖ وَٱللَّهُ
يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨/ ٤٦.

بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع السابق:

لما بين الله تعالى في المقطعين السابقين حال الكافر وعاقبته موازنة بحال المؤمن وعاقبته ذكر هنا حال المنافق وعاقبته، ووازنها بحال المؤمن وعاقبته، فهذه الجولة مع المنافقين وموقفهم إزاء شخص رسول الله ﷺ وإزاء القرآن الكريم، ثم موقفهم من قضية الجهاد ومن اليهود وتآمرهم معهم سرا للإيقاع بالإسلام والمسلمين.

فذكر المنافقين هنا باعتبار أنهم فرقة من الكافرين الذين دار الحديث عنهم قبل ذلك، أو باعتبار أنهم - في الظاهر - طائفة من المسلمين الذين دار الحديث عنهم في الآيات السابقة حيث إنهم متظاهرون بالإسلام معهم، وقد كانوا يعاملون معاملة المسلمين بحسب ظاهرهم حسب المنهج الإسلامي في معاملة الناس.

التفسير الإجمالي:

حركة النفاق حركة مدنية لم يكن لها وجود في مكة، لأن المسلمين فيها كانوا في موقف المضطهد الذي لا يحتاج أحد أن ينافقه، فلما أعزهم الله تعالى اضطر ناس ممن كرهوا الإسلام إلى التظاهر بالإيمان وهم يضمرون الحقد والبغضاء ويتربصون بالمؤمنين الدوائر.

وكان وجود اليهود في المدينة وتمتعهم فيها بقوة عسكرية واقتصادية وتنظيمية مع كراهيتهم للإسلام وأتباعه مشجعا للمنافقين على التحالف معهم.

وقد كان هؤلاء يستمعون إلى خطبة رسول الله ﷺ يوم الجمعة أو قوله على عموم الأوقات

استماعا بالغاً جيداً؛ لأنهم يستمعون ثم يستعيدون بعد خروجهم من علماء الصحابة[١] استهزاء بما سمعوه كما قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ أو لأنهم لا يفهمون بسبب طبع الله تعالى على قلوبهم، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ومنهم من كان يقول ذلك جهالة ونسياناً؛ لأنه كان في وقت الكلام مقبلا على فكرته في أمر دنياه وفي كفره، فكان القول يمر صفحا، فإذا خرج قال: ماذا قال آنفا، أي الساعة الماضية القريبة منا، ويضاف إلى ذلك أنهم اتبعوا أهواءهم أي فلا فهم صحيح ولا قصد قويم[٢].

وفي مقابل نهج المنافق نرى المؤمن المهتدي يستمع فيفهم ويعمل بما يعلم، ولهذا يؤتيه الله عز وجل ثواب تقواه أو توفيق العمل، وهذا يقطع عذر المنافقين ويبين كونهم مذمومي الطريقة، فإنهم لو قالوا: ما فهمنا قول الرسول ﷺ لغموضه وكونه معمى ؛ يرد عليهم بأن الأمر ليس كما تزعمون، بدليل أن المهتدي فهم واستنبط لوازمه وتوابعه وازدادوا بما سمعوه هدى فذلك منكم أيها المنافقون لعماء القلوب لا لخفاء المطلوب[٣].

ولذلك لا يتوقع منهم الإيمان إلا عند قيام الساعة رغم أن علاماتها قد اتضحت، مما استدعى أن يهزهم هزة في غاية القوة ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾.

والذكرى اسم مصدر بمعنى الاتعاظ الحامل على الإيمان، والمعنى فأنى لهم الخلاص أو النجاة إذ جاءتهم الذكرى بما كانوا يكذبون به في الدنيا وجاءهم العذاب مع ذلك، أو فأنى

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه قال: كانوا يدخلون على رسول الله ﷺ فإذا خرجوا من عنده قالوا لابن عباس رضي الله عنهما: ماذا قال آنفا ؟ فيقول: كذا وكذا. انظر: الدر المنثور للسيوطي ٧/ ٤٦٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٠١، وانظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٥، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨/ ٥١، وزاد المسير لابن الجوزي ٧/ ٤٠٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٧٨.

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥١

لهم ذكراهم وعملهم بحسبها إذا جاءتهم الساعة، وفيه حكم بخطئهم وفساد رأيهم فى تأخير التذكر إلى إتيانها ببيان استحالة نفع التذكر حينئذ كقوله عز وجل في سورة الفجر: ﴿ يَوۡمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾ أي وكيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم[1].

ويوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ ومن معه ليثبتوا على طريق العلم بحقيقة التوحيد التي يقوم عليها أمر الدين، ويستغفروا الذنوبهم استغفاراً ينبئ عن الشعور برقابة الله عز وجل وعلمه الشامل المحيط بهم في كل متقلب وفي كل إقامة، بحيث لا تشغلهم عن هذا النهج أية شواغل[2].

ويعرض تطلع المؤمنين وشوقهم إلى سورة من القرآن لتفصل في قضية من قضايا القتال كانت تشغل بالهم، فإذا أنزلت سورة فاصلة بينة لا تحتمل وجهاً إلا وجوب القتال ولا يرد عليها النسخ إذا بمن ملأ النفاق والشك قلوبهم يفقدون تماسكهم، ويسقط عنهم ستار الرياء الذي يتسترون به، وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف بنظرهم إلى الرسول ﷺ نظر المغشي عليه من الموت[3].

وكان الأجدر بهم أن يستسلموا لأمر الله عز وجل عن طمأنينة، ويقولوا قولا ينبئ عن نظافة الحس واستقامة القلب وطهارة الضمير، وأن يصدقوا ويخلصوا إذا جد الجد فيقاتلوا بنية الجهاد، لأنهم لو فعلوا ذلك لكان خيراً لهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا خير العزة والكرامة وفي الآخرة خير الجنة، ويمكن أن يكون فأولى لهم مستعملاً في التهديد والوعيد كما في قوله

---

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٦، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩٧، وأضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٢٥٥.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٦.

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤٠٥.
وإنما قال وذكر فيها القتال ؛ لأن السورة الكريمة ليست كلها متمحضة لذكر القتال، فإن سور القرآن ذوات أغراض شتى، قال قتادة: كل سورة أنزل فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين. انظر: الدر المنثور للسيوطي ٧ / ٤٩٦.

تعالى في سورة القيامة: ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ﴾ وهو ما اقتصر عليه الزمخشري(١).

وهل يتوقع من هؤلاء وأمثالهم من المعرضين عن الإسلام إلا أن يفسدوا في الأرض بأن يقتل بعضهم بعضاً ويغير بعضهم على بعض فتتقطع الأواصر والأرحام، أو إن تولوا الحكم في بلد من البلاد إلا أن يفسدوا فيها بالجور والظلم فتحل عليهم لعنة الله تعالى فإذا هم صم الآذان، عمي الأعين والأبصار(٢).

وليتهم يدركون هذه الحقيقة فيقبلوا على علاج أدوائهم بالتدبر والتفهم في آيات القرآن الكريم، فهذا التدبر وحده هو الذي يزيل غشاوة الأبصار، ويفتح نوافذ الآذان، ويسكب النور في القلب، وينشيء حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير، لكن قلوب هؤلاء المنافقين مقفلة لا يتوصل إليها ذكر من الله عز وجل.

عن خالد بن معدان قال: ما من آدمي إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيراً أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله به غير ذلك طمس عليهما فذلك قوله ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾(٣).

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٥، والكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٧، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ١١٠ - ١١١.

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤٠٧، وفتح الباري لابن حجر ٨ / ٥٨١.
وفي قوله ﴿ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ لطيفة وهي أن الله تعالى قال أصمهم ولم يقل أصم آذانهم وقال وأعمى أبصارهم ولم يقل أعماهم وذلك لأن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار، والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع تسمع الكلام، فقال أصمهم من غير ذكر الأذن وقال أعمى أبصارهم مع ذكر العين لأن البصر ههنا بمعنى العين، ولهذا جمعه بالأبصار، ولو كان مصدرا لما جمع، فلم يذكر الأذن إذ لا مدخل لها في الإصمام والعين لها مدخل في الرؤية، بل هي الكل، ويدل عليه أن الآفة في غير هذه المواضع لما أضافها إلى الأذن سماها وقرا، كما قال تعالى في سورة لقمان ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ والوقر دون الصم وكذلك الطرش. انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٦.

(٣) انظر: جامع البيان للطبري ٢٦ / ٥٧.



فأم في ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ بمعنى بل، وهمزة التقرير للتسجيل عليهم بذلك، وقال على قلوب لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة، والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها[(١)].

وبسبب هذه الأقفال ارتد قوم على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، وهم اليهود الذين كانوا يؤمنون بنبينا محمد ﷺ فلما بعث وتحققوا أنه هو النبي الموصوف في كتبهم كفروا به.

فارتدادهم على أدبارهم هو كفرهم به بعد أن عرفوه وتيقنوه، وعلى هذا فالهدى الذي تبين لهم هو صحة نبوته ومعرفته بالعلامات الموجودة في كتبهم، فهذه الآية يوضحها قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾وقال بعض العلماء نزلت الآية المذكورة في المنافقين، والآية تعم كل من دخل في ضمن لفظها غابر الدهر[(٢)].

وقد سول الشيطان لهم هذه الردة أي سهلها وزينها وحسنها لهم، كما مناهم بطول الأعمار، لأن طول الأمل من أعظم أسباب ارتكاب الكفر والمعاصي، كما قال الله عز وجل في سورة النساء:﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ ويمكن أن يرجع ضمير الفاعل في وأملى لهم إلى الله تعالى، والمعنى: الشيطان سول لهم، والله جل وعلا أملى لهم أي أمهلهم إمهال استدراج[(٣)].

(١) انظر الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٤٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٨، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٩، وأضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٣٧٩.

(٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٩، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤٠٩، وأضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٣٨٠.

والتسويل: تسهيل الأمر الذي يستشعر منه صعوبة أو ضر، وتزيين ما ليس بحسن، والإملاء: المد =

وقد نتج التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر من قولهم للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر، والله عز وجل مطلع على سرائرهم، ولذلك يفضح سرهم ويسلط عليهم الملائكة عند الموت يضربون وجوههم وأدبارهم.

قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وسبب كل هذا البلاء أنهم اتبعوا ما أغضب الله تعالى من الكفر به وطاعة الكفار الكارهين لما نزله، ولما كان اتباع ما أسخطه تعالى مقتضيا للتوجه ناسب ضرب الوجه، وكراهة رضوانه سبحانه مقتضياً للأعراض ناسب ضرب الدبر، ففي الكلام مقابلة بما يشبه اللف والنشر وأضاف إلى ذلك إحباط أعمالهم التي عملوها حال إيمانهم من الطاعات أو بعد ذلك من أعمال البر التي لو عملوها حال الإيمان لانتفعوا بها [1].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولا: كل يأخذ من القرآن:

القرآن الكريم يعطي لكل إنسان بحسب استعداده، فالمؤمن المهتدي يستمع إليه فيفهم آياته ويعمل بها فيزداد إيماناً مع إيمانه، بينما يزداد الذين في قلوبهم مرض بنفس الآيات كفراً وعصياناً.

= والتمديد في الزمان، ويطلق على الإبقاء على الشيء كثيرا. انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ١١٦.

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٩، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ١٠٠، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٦.

قال تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إن أقواما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع[1].

وقرأ الحسن قول الله تعالى في سورة ص: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ فقال: وما تدبر آياته إلا اتباعه، أما والله ما هذا بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول: إني لأقرأ القرآن فما أسقط منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله، فما يرى له القرآن في خلق ولا عمل[2].

فتدبر القرآن وتفهمه والعمل به أمر لا بد منه لكل من له قدرة على ذلك، لأن الذم والإنكار على من لم يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس.

ولو أن القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالإصطلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به ليس أحد منهم مستكملاً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلا، ومن المعلوم أيضاً أن عمومات الآيات والأحاديث الدالة على حث

(١) صحيح مسلم ١ / ٥٦٣.
(٢) انظر: فهم القرآن للحارث المحاسبي ص ٢٧٥.

جميع الناس على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أكثر من أن تحصى [(١)].

ثانيا: علم الساعة عند الله:

ليس هناك دليل يخول للبعض حسم القول في المتبقي من عمر الدنيا، وكل ما يمكن قوله أن أمارات الساعة وعلاماتها قد اتضحت، ومنها بعثة نبينا محمد ﷺ فقد قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى»[(٢)].

وقال ﷺ: « إن بين يدي الساعة لأياما ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج " [(٣)] وقال ﷺ: « والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفحش وسوء الجوار، وقطيعة الأرحام، وحتى يخون الأمين ويؤتمن الخائن " [(٤)].

وأشراط الساعة منها صغار، وقد مضى أكثرها، ومنها كبار ستأتي، وهي التي تضمنها حديث حذيفة بن أسيد عند مسلم، ومنها الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها كالحامل المتم، ونزول عيسى بن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، والريح التي تهب بعد موت عيسى فتقبض أرواح المؤمنين [(٥)].

---

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٧/ ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ بعثت أنا والساعة كهاتين ٥/ ٢٣٨٥ (٦١٣٨ - ٦١٤٠) ومسلم في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/ ٥٩٢ (٨٦٧) واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب ظهور الفتن ٦/ ٢٥٩٠ (٦٦٥٣ - ٦٦٥٦) ومسلم في العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ٤/ ٢٠٥٦ (٢٦٧٢).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٥٥٨ (٨٥٦٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٨٥، ونص الحديث عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: " ما تذاكرون ؟ " قالوا: نذكر الساعة، قال: " إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ﷺ ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم ". أخرجه مسلم في، باب في الآيات التي تكون قبل=

ومن وقف على الكتب المؤلفة في هذا الشأن وأطلع على أحوال الأزمان رأي أن أكثر علامات الساعة قد برزت للعيان، وامتلأت منها البلدان، ومع هذا فأمرها مجهول، ورداء الخفاء عليه مسدول، وقصارى ما يمكن قوله: أن ما بقي من عمر الدنيا أقل قليل بالنسبة إلى ما مضى [(١)].

ثالثا: العلم أساس العمل والإقرار بالإيمان كاف:

قول الله تعالى ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ دليل على وجوب تقدم العلم على العمل، ولهذا بوب البخاري رحمه الله العلم قبل القول والعمل استنادا إلى هذه الآية الكريمة[(٢)].

وفي تقديم الأمر بالتوحيد إيذان بمزيد شرفه ؛ فإنه أساس الطاعات ونبراس العبادات، ومن اعتقد جازما بحقائق الإيمان فقد صح إيمانه من غير إثم، لحصول المقصود، بدليل اكتفاء النبي ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم من العوام بمجرد الإقرار بلا إله إلا الله محمد رسول الله الدال بحسب ظاهر حالهم على أنهم يعتقدون مضمون ذلك ويذعنون له، ولو كان الاستدلال فرضا لأمروا به بعد النطق بالكلمتين، أو علموا الدليل ولقنوه، ولو وقع ذلك لنقل إلينا، فإنه من أهم مهمات الدين، ولم ينقل أنهم أمروا أحدا منهم أسلم بترديد نظر، ولا سألوه عن دليل تصديقه ولا أرجؤوا أمره حتى ينظر، فلو كان النظر واجباً على الأعيان ولو إجمالياً لما اكتفى النبي ﷺ من أولئك العوام والأجلاف بمجرد الإقرار لأنه وأصحابه لا يقرون أحداً على ترك فرض العين من غير عذر، فلا يكون تاركه آثما فضلا عن أن يكون بتركه غير صحيح الإيمان بل قد يقال إن ظاهر كثير من الآيات والأخبار يدل على أن كثيراً من المشركين في عهده ﷺ لم يكونوا عالمين بأدلة التوحيد مطلقا[(٣)].

= الساعة ٤ / ٢٢٢٥ (٢٩٠١)

(١) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٥٣.

(٢) انظر: صحيح البخاري ١ / ٣٧.

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٦٢.

رابعاً: عصمة الرسول ﷺ من الذنوب والآثام:

عصمة الرسول ﷺ من الذنوب والآثام حق لا ريب فيه، ويقصد بذنبه في﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ ترك الأولى، عبر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، وإرشاداً له ﷺ إلى التواضع وهضم النفس واستقصار العمل، وقيل: استغفر الله أن يقع منك ذنب، أو استغفر الله ليعصمك من الذنوب، وقد ذكروا أن لنبينا ﷺ في كل لحظة عروجاً إلى مقام أعلى مما كان فيه، فيكون ما عرج منه في نظره الشريف ذنباً بالنسبة إلى ما عرج إليه فيستغفر منه، وفي هذه الآية لطيفة وهي أنه ﷺ له أحوال ثلاثة: حال مع الله، وحال مع نفسه، وحال مع غيره، فأما مع الله وحده، وأما مع نفسك فاستغفر لذنبك(١) واطلب العصمة من الله، وأما مع المؤمنين فاستغفر لهم(٢).

خامساً: اهتمام المؤمن بأمر أخيه:

في قوله ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ دليل على وجوب الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات.

---

(١) في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يدعو اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطاياي وعمدي وكل ذلك عندي. أخرجه البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ٥ / ٢٣٥٠ (٦٠٣٦).
وفي الصحيح أيضا أنه كان يقول في آخر الصلاة: " اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيئ قدير " أخرجه البخاري في الدعوات باب قول النبي ﷺ اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ٥ / ٢٣٥٠ (٦٠٣٥).
وفي الحديث " أني لاستغفر الله في اليوم مائة مرة " أخرجه الحاكم في المستدرك ٢ / ٤٩٦ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١١٦، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٥٤، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ٩٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٤٢، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٥٥.

وهذا الوجوب يحمل في طياته دلالة على مزيد اهتمام المؤمن بأمر أخيه الديني والدنيوي ففي الحديث: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "[١].

سادسا: لا تتعجل قدر الله تعالى:

لا ينبغي للإنسان أن يتعجل شيئاً لم يحققه الله تعالى، بل عليه أن يسأله سبحانه أن يرضيه بقضائه، وأن يبارك له في قدره حتى لا يحب تعجيل ما أخر ولا تأخير ما عجل.

وقد بين الله عز وجل أن المؤمنين تمنوا في وقت من الأوقات أن يشرع لهم الجهاد فلما فرضه وأمر به نكل عنه كثير من الناس.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾.

وفي سورة محمد قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾.

سابعا: الإعراض عن الإسلام رأس كل شر وفساد:

الإعراض عن الإسلام رأس كل شر وفساد ؛ لأنه دين التوحيد والبر والصلة والصلاح فعن عمرو بن عبسة قال أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث وهو بمكة وهو حينئذ مستخف، فقلت: ما أنت ؟ قال: «أنا نبي» قلت: وما النبي ؟ قال: «رسول الله» قلت: بم أرسلك ؟ قال:

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٤ / ١٩٩٩ (٢٥٨٦).

«بأن يعبد الله، وتكسر الأوثان، وتوصل الأرحام بالبر والصلة»[١].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم[٢]: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت: بلى يا رب، قال: فهو لك، قال رسول الله ﷺ اقرؤا إن شئتم ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾[٣].

والرحم على وجهين: عامة وخاصة ؛ فالعامة رحم الدين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم والنصفة في معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة كتمريض المرضى وحقوق الموتى، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم، وأما الرحم الخاصة فهي القرابة من طرق الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة كالنفقة وتفقد أحوالهم وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب[٤].

ثامنا: لا يجوز لعن المعين:

الجمهور على أنه لا يجوز لعن المعين فاسقاً كان أو ذمياً حياً أو ميتاً ولم يعلم موته على الكفر؛ لاحتمال أن يختم له بالإسلام، بخلاف من علم موته على الكفر كفرعون وأبي جهل[٥].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤ / ١٦٥ (٧٢٤٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) يحتمل أن يكون كلام الرحم على سبيل الحقيقة ؛ لأن الأعراض يجوز أن تتجسد وتتكلم بإذن الله تعالى، ويجوز أن يكون على حذف، أي قام ملك فتكلم على لسانها، ويحتمل أن يكون ذلك على طريق ضرب المثل والاستعارة، والمراد تعظيم شأنها وبيان فضل واصلها وإثم قاطعها. انظر: فتح الباري لابن حجر ٨ / ٥٨٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من وصل من وصله الله ٥ / ٢٢٣٢ (٥٦٤١).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٥) انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٢.

ثم إن اللعن في حق غير المعين زجر عن تعاطي الفعل الذي لعن بسببه، وفي حق المعين أذى له وسب، وقد ثبت النهي عن أذى المسلم، فيجمع بين المصلحتين ؛ لأن لعن المعين والدعاء عليه قد يحمله على التمادي أو يقنطه من قبول التوبة، بخلاف ما إذا صرف ذلك إلى المتصف فإن فيه زجراً وردعاً عن ارتكاب ذلك، وباعثا لفاعله على الإقلاع عنه، قال الغزالي: وفي معنى اللعن الدعاء على الإنسان بالسوء حتى على الظالم مثل لا أصح الله جسمه، وكل ذلك مذموم والأولى حمل كلام الغزالي على الأول [1].

تاسعاً: أمر الإنسان بيده:

مفتاح سلطان الشيطان على الإنسان بيد الإنسان نفسه، فإذا أقفل قلبه أمام الهدايات الربانية تفتحت نوافذ هذا القلب للتسويلات الشيطانية، ويبقي الإنسان مع ذلك ممسكا بزمام الأمور، بحيث يكون في وسعه عدم الانصياع لهذه الوساوس إن بقيت بينه وبين وحي الله تعالى أدني صلة.

وهذا ما فهمته من مجيء الردة عن الهدى بعد الآية التي تستنكر عدم تدبر القرآن بسبب الأقفال التي على القلب، وبسبب اتباع ما يسخط الله تعالى.

ويؤكد ذلك قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾ ﴾.

عاشراً: ردة صريحة:

كل من أطاع من كره ما نزل الله وعاونه وآزره في مقتضيات هذه الكراهية وفيما يترتب عليها مرتد عن الهدى كافر بالله إن لم تكن لدية شبهة جهل أو اضطرار.

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٢ / ٧٦.

ولهذا قال الله تعالى فيمن كان كذلك ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾.

فالذي يطيع من كره ما نزل الله يكون كارها رضوانه تعالى ؛ لأن رضوانه ليس إلا في العمل بما نزل، فاستلزمت كراهة ما نزل كراهة رضوانه ؛ لأن رضوانه فيما نزل، ومن أطاع كارهه فهو ككارهه[1].

حادي عاشر: لكل مقام مقال:

عن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ يضربون وجوههم وأستاههم ولكن الله سبحانه كريم يكني[2].

فيجب أن نتأدب في مثل هذا ونكني عن قبيح الأسماء، ونستعمل المجاز والألفاظ التي تحصل الغرض ولا يكون في صورتها ما يستحيا من التصريح بحقيقة لفظه.

وبهذا الأدب جاء القرآن العزيز، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

---

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٧ / ٣٨٣.

(٢) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: لا يتوفى أحد على معصية إلا تضرب الملائكة في وجهه وفي دبره، قال الألوسي: والكلام على الحقيقة عنده، ولا مانع من ذلك وإن لم يحس بالضرب من حضر، وما ذلك إلا كسؤال الملكين وسائر أحوال البرزخ. انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٦.

وقوله في سورة النساء: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾.

وقوله في سورة البقرة: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾.

فإن وجدت مصلحة راجحة وهي إزالة اللبس أو الاشتراك أو نفي المجاز أو نحو ذلك جاز استعمال صريح الاسم [١].

فعن بن عباس رضي الله عنهما قال لما أتى ماعز بن مالك النبي ﷺ قال له: «لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت» قال: لا يا رسول الله، قال: «أنكتها» لا يكني، قال فعند ذلك أمر ﷺ برجمه [٢].

وعند ابن حبان فقال رسول الله ﷺ له: «أنكتها» فقال: نعم، فقال: «هل غاب ذلك منك فيها كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر ؟» فقال: نعم، فقال: «فهل تدري ما الزنا ؟» قال: نعم، أتيت منها حراماً مثل ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً، قال: «فما تريد بهذا القول» قال: أريد أن تطهرني، فأمر به رسول الله ﷺ أن يرجم فرجم [٣].

وإنما ذكر ﷺ هذا اللفظ صريحاً بعد ذكر الجماع ؛ لأن الجماع قد يحمل على مجرد الاجتماع فلم يكتف بإقرار المقر بالزنا، بل استفهمه بلفظ لا أصرح منه في المطلوب، وهو لفظ النيك الذي كان ﷺ يتحاشى عن التكلم به في جميع حالاته، ولم يسمع منه إلا في هذا الموطن، ثم لم

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١ / ٢٣٧ – ٢٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المحاربين، هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت ٦ / ٢٥٠٢ (٦٤٣٨)

(٣) صحيح ابن حبان ١٠ / ٢٤٥ (٤٣٩٩).

يكتف ﷺ بذلك بل صوره تصويراً حسياً، ولا شك أن تصوير الشيء بأمر محسوس أبلغ في الاستفصال من تسميته بأصرح أسمائه وأدلها عليه، فدل جميع ما ذكر على أنه يجب الاستفصال والتبين، وأنه يندب تلقين ما يسقط الحد، وأن الإقرار لا بد فيه من اللفظ الصريح الذي لا يحتمل غير المواقعة (١).

المقطع الرابع

تهديد الضالين ودفع المؤمنين لتحمل تكاليف الإيمان

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ
فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ
ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ
مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟
ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن
يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا
فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم
مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾

المناسبة بين هذا المقطع والمقطع السابق:

لما بين في المقطع السابق حال المنافقين وعاقبتهم وموقفهم إزاء شخص رسول الله ﷺ وإزاء

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ١٢/ ١٢٤، وسبل السلام للصنعاني ٤/ ٧، ونيل الأوطار للشوكاني ٧/ ٢٦٦.

القرآن الكريم، ثم موقفهم من قضية الجهاد وتآمرهم مع اليهود توعدهم هنا بكشف أمرهم وإحباط أعمالهم مع أعمال الكافرين، وأمر المؤمنين بتحمل تكاليف الإيمان المتمثلة في الابتلاء بالجهاد والطاعة والصبر على طول الطريق ومكابدة الأعداء ومقاومة ضغط زينة الدنيا على النفوس، وهددهم إن هم تولوا بأن يأتي بقوم آخرين لا يكونون مثلهم في التفريط في هذه التكاليف.

التفسير الإجمالي:

بعد أن قدّر الله تعالى أنه يعلم أسرار الكافرين والمنافقين استهجن تصورهم أنه لن يبرز أحقادهم وأمراضهم(١) وبين أنه لو شاء لكشف لرسوله ﷺ عنهم بذواتهم وأشخاصهم أو بعلامة على وجوههم (٢) ولكنه أخر ذلك لمحض المشيئة إبقاء عليهم وعلى قرابتهم، وإن كانوا قد عرفوا بلحن القول(٣) وكانوا في الاشتهار على مراتب كعبد الله بن أبي والجد بن قيس وغيرهم ممن دونهم في الشهرة، ومع ذلك فإن لهجتهم، ونبرات صوتهم، وإمالتهم للقول عن استقامته، وانحراف منطقهم في الخطاب سيدل الرسول ﷺ على نفاقهم، فليعلم المنافقون أن الله تعالى محيط بأعمالهم، وليطمئن المؤمنون إلى علمه تعالى بأعمالهم التي يتميزون بها عن هؤلاء المنافقين، وبالتالي فلن يضيع ثوابهم عليها، فالآيات إذا فيها وعد ووعيد(٤).

---

(١) استعير المرض إلى الكفر بجامع الإضرار بصاحبه، ولكون الكفر مقره العقل المعبر عنه بالقلب كان ذكر القلوب مع المرض ترشيحا للاستعارة ؛ لأن القلب مما يناسب المرض الخفي إذ هو عضو باطن فناسب المرض الخفي، والإخراج أطلق هنا على الإظهار والإبراز على وجه الاستعارة، لأن الإخراج استلال شيء من مكمنه فاستعير للإعلام بخبر خفي. انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ١٢٠.

(٢) قال أنس: ما خفي على النبي ﷺ بعد هذه الآية أحد من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم. انظر: روح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٧.

(٣) قال الكلبي في ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٣.

(٤) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٢٩ - ٣٣٠، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢٠ - ١٢١، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٨.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه يكشف لهم بعض حقائق علمه، حيث يبتليهم بالأمر بالجهاد وسائر التكاليف التي تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس، وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها، بحيث يتعلق علمه بها في حالتها الظاهرة التي يراها الناس عليها، وهذا العلم هو العلم الذي يقع به الجزاء ؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم(١).

ويعود للحديث عن الكفار عامة ليصرح بأنهم أضأل وأضعف من أن يضروا دين الله أو منهجه أو يحدثوا حدثا في نواميسه وسننه، ولو قدروا على إيذاء بعض المسلمين، فإن هذا بلاء وقتي يقع بإذن الله لحكمة يريدها، وسيحبط مكايدهم فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغون، ولا تثمر لهم إلا الخراب والدمار(٢).

ويحذر المؤمنين من هذا المصير، ويوجههم إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ حتى لا تبطل أعمالهم بالمعاصي والكبائر(٣) أو النفاق والرياء والسمعة أو المن أو الردة (٤) كما يوجههم إلى مواصلة الجهاد بالنفس وبالمال دون تراخ أو دعوة إلى مهادنة الكفر المعتدي ؛ لأن الله معهم برعايته وحفظه وكلاءته، ولن ينقصهم شيئا من ثواب أعمالهم(٥).

---

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٦٠ - ٦٢، ومعالم التنزيل للبيضاوي ٥ / ١٩٦، والمحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٤.
وأخبارهم التي يبلوها: قولهم آمنا، أو إخبارهم من عدم توليتهم الأدبار عند اللقاء، أو أنه كانت للمؤمن أخبار صادقة مسموعة من النبي ﷺ وللمنافق أخبار أراجيف، فعند تحقق الإيجاف يتبين الصدق من الإرجاف.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢١، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ١٠١.

(٣) قال قتادة: من استطاع منكم أن لا يبطل عملا صالحا عمله بعمل سيئ فليفعل، ولا قوة إلا بالله، فإن الخير ينسخ الشر، وإن الشر ينسخ الخير، وإن ملاك الأعمال خواتيمها. انظر: جامع البيان للطبري ٢٦/ ٦٢.

(٤) ويدل على الردة قوله تعالى عقب ولا تبطلوا أعمالكم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ ﴾.

(٥) انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٣١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٨٢.

ويحذرهم من أن يحملهم حب لذائذ العيش على الزهادة في مقابلة العدو[(١)] لأن الحياة الدنيا ما هي إلا لعب ولهو، واللعب ما تشتغل به ولا يكون فيه ضرورة في الحال ولا منفعة في المآل، ولم يشتغل به الإنسان عن أشغاله المهمة، فإن شغله ودهشه عن مهماته فهو لهو، فالمطلوب منهم هو الإيمان والتقوى إن رغبوا حقا في أجر الله عز وجل[(٢)].

والإيمان والتقوى لا يستلزمان إنفاق الأموال كلها في سبيل الله ؛ لأنه عز وجل لا يسألكم ذلك بحيث يخل أداؤها بمعاشكم، وإنما اقتصر على نزر يسير، كما أن نبيه ﷺ لا يسألكم أموالكم أجراً على ما بلغكم من الوحي، وهذا الوجه تشهد له آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ وقيل: لا يسألكم أموالكم لنفسه أو لحاجة منه إليها، إنما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه إليكم، وقيل: لا يسألكم أموالكم إنما يسألكم أمواله ؛ لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها[(٣)].

ولو أنه سألكم أموالكم كلها لبخلتم ولضاقت صدوركم لذلك وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم، ودليل ذلك أنكم تدعون إلى الإنفاق في سبيله تعالى فمنكم

---

(١) اختلف العلماء في قوله ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ فقيل: إنها ناسخة لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ لأن الله تعالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح، وقيل: إنها منسوخة بآية الأنفال، وقيل: هي محكمة والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال، وقيل، إن قوله ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ مخصوص في قوم بأعيانهم والأخرى عامة فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وذلك إذا عجز المسلمون عن مقاومتهم لضعف في العدد أو العدة. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٦.

(٢) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢٣، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٢٨ / ٦٤.
ومعلوم أن في الحياة الدنيا ما ليس بلعب ولا لهو وهو الطاعة وأمر الآخرة وما جرى مجراه، لكن الآية تتحدث عن واقع أغلب الناس في الأخذ من الدنيا.

(٣) انظر: معالم التنزيل للبيضاوي ٥ / ١٩٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٧، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨ / ١٠٢.

من يبخل، ومن يبخل فبخله عن نفسه ولا يتعداه ضرر بخله، لأن الله تعالى هو الغني الذي تستحيل عليه الحاجات، ولكنه يدعوكم لحاجتكم وفقركم إلى الثواب، وإن لا تنهضوا بتكاليف هذه الدعوة فإنه تعالى يحرمكم كرامة حملها، ويستبدل قوما غيركم يعرفون قدرها وينهضون بتكاليفها، وهو تهديد عنيف مخيف يعالج حالات نفسية قائمة في صفوف المسلمين إلى جانب حالات التفاني والتجرد والشجاعة والفداء التي يمتلئ بها واقعهم، والتي يعجز القلم أحيانا عن تصويرها(١).

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولاً: الابتلاء سنة ربانية:

سنة الله تعالى أن يختبر الناس بالضراء والسراء ليتميز لهم بذلك صادقهم من كاذبهم وينكشف ما هو مخبوء من معادن النفوس، وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها.

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ وفي سورة التوبة: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ وفي سورة العنكبوت: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

وهذا العلم هو العلم الذي يقع عليه به الجزاء ؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم

---

(١) انظر: جامع البيان للطبري ٢٦ / ٦٥ - ٦٦، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٤١٤ - ٤١٧، والكشاف للزمخشري ٤ / ٣٣٢ - ٣٣٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٨٣.

فيحفكم أي يجهدكم ويطلبه كله، والإحفاء: المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء، يقال أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح، وأحفى شاربه إذا استأصله، قال قتادة: قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان، وصدق، فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه. انظر: الكشاف للزمخشري ٤ / ٣٣٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٨٣.

عليهم، فتأويله حتى نعلم المجاهدين علم شهادة لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة(١).

ومع هذا فإن العبد المؤمن يرجو ألا يتعرض لبلاء الله عز وجل وامتحانه، ويتطلع إلى عافيته ورحمته، فإذا أصابه بلاء صبر له واستسلم لمشيئة الله تعالى وهو واثق من حكمته، متطلع إلى رحمته وعافيته بعد الابتلاء.

وقد روي عن الفضيل بن عياض أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا، وهتكت أستارنا وعذبتنا(٢).

ثانياً: قول القائل وفعله يدل على نيته:

أنزل الله تعالى سورة براءة، فبين فيها أقوال ومسالك وأفكار المنافقين ولهذا كانت تسمى الفاضحة.

وقد ورد في الحديث تعيين جماعة من المنافقين(٣) ولكنه تعالى لم يفعل ذلك في جميع المنافقين سترا منه على خلقه، وحملا للأمور على ظاهر السلامة، وردا للسرائر إلى عالمها، وإبقاء على سنته تعالى في نظام الخلق بقدر الإمكان لأنها سنة ناشئة عن الحكمة، فلما أراد سبحانه تكريم رسوله ﷺ بإطلاعه على دخائل المنافقين سلك في ذلك مسلك الرمز اكتفاء بأن قول القائل وفعله يدل

---

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٧/ ٣٨٤ - ٣٨٦.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري ٤/ ٣٣٠.
وفي الحديث الذي سبق تخريجه: « لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

(٣) عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: " إن منكم منافقين فمن سميت فليقم " ثم قال: " قم يا فلان، قم يا فلان، قم يا فلان " حتى سمى ستة وثلاثين رجلا، ثم قال: " إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله " قال: فمر عمر رضي الله عنه برجل ممن سمى مقنع قد كان يعرفه، فقال: مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ فقال: بعدا لك سائر اليوم. أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٧٣.

على نيته، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه [1].

ثالثاً: الكبائر لا تبطل الأعمال الصالحة:

ليس هناك دليل على أن الكبائر تبطل الأعمال الصالحة، بل هما متعادلان بدليل قول الله عز وجل في سورة الزلزلة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.

ففي ذلك حجة بالغة على أن الكبائر لا تبطل صالحات الأعمال، فإن قصد من يقول إنها تبطلها أن عقاب الكبيرة قد يكبر حتى لا يعادله صغار الحسنات فهذا صحيح، وأما الكبيرة التي تختص بذلك العمل كالعجب ونحو المن والأذى بعد التصدق فهي محبطة لا محالة اتفاقاً لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ وعلى هذا القول يحمل ما نقل من الآثار [2].

---

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٥ / ١٢٠، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ١٨١.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ٣/ ٦٤ - ٧٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٣١٩ - ٣٢٠، وروح المعاني للألوسي ٢٦ / ٧٩ - ٨٠، وفتح الباري لابن حجر ٣/ ٢٧٧.

قال القرطبي: « احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع صلاة كان أو صوما بعد التلبس به لا يجوز ؛ لأن فيه إبطال العمل، وقد نهى الله عنه، وقال من أجاز ذلك وهو الإمام الشافعي وغيره: المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض، فنهى الرجل عن إحباط ثوابه، فأما ما كان نفلا فلا ؛ لأنه ليس واجبا عليه، فإن زعموا أن اللفظ عام، فالعام يجوز تخصيصه، ووجه تخصيصه أن النفل تطوع والتطوع يقتضي تخييرا». الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦ / ٢٥٥.

رابعاً: لا تفريط في عزة المؤمن:

لا يجوز للمؤمنين أن يهنوا ويدعو محاربيهم إلى الصلح والمهادنة طلباً للدعة، ورغبةً في ملذات الحياة، وهرباً من تبعات الصراع.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾.

فالوهن: الضعف والعجز، وهو هنا مجاز في طلب الدعة، ومعناه: النهي عن إسلام أنفسهم لخواطر الضعف، والعمل بهذا النهي يكون باستحضار مساوي تلك الخواطر فإن الخواطر الشريرة إذا لم تقاومها همة الإنسان دبت في نفسه رويداً رويداً حتى تتمكن منها، فتصبح ملكة وسجية، فالمعنى: ادفعوا عن أنفسكم خواطر الوهن واجتنبوا مظاهره، وأولها الدعاء إلى السلم وهو المقصود بالنهي[1].

خامساً: التكاليف الشرعية إنسانية:

تكاليف هذا الدين تراعي الفطرة الإنسانية بكل استعداداتها وطاقاتها وأحوالها، فلا مبالغة في فرائضه وتكاليفه بصورة تضيق الصدور وتظهر الأضغان.

وللنفس الإنسانية مع كل تكليف ترغيب وترهيب يدفعها إلى امتثاله، فمثلا لا يكلف الله تعالى الناس أن يبذلوا كل أموهم في سبيله، وما يكلفهم ببذله ما هو إلا رصيد لهم يجدونه يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

وفي سورة المزمل: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ

(١) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٦ / ١٣٠

ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾.

سادساً: عقوبة الاستبدال:

اختيار الله تعالى أمة من الأمم لحمل دعوته تكريم ومن وعطاء، فإذا لم تحرص هذه الأمة على أن تكون أهلا لهذا الفضل، وإذا لم تنهض بتكاليف هذه المكانة، فإن الله يسترد منها ما وهب، ويختار غيرها ممن يقدر هذا الفضل ويقوم بتبعاته.

وتلك عقوبة رهيبة، فما يطيق الحياة إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه ويطرد من الكنف، وتوصد دونه الأبواب، بل إن الحياة لتغدو جحيما لا يطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب، قال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره[1].

قال الله عز وجل للمؤمنين في سورة محمد: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ وقال في سورة المائدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٥٦٥، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٣٠٣ - ٣٣٠٤.

سورة الفتح

أولاً: بين يدي السورة:

أ- اسمها:

اشتهرت هذه السورة بسورة (الفتح)، ووجه تسميتها لافتتاحها ببشرى الفتح المبين. كما تكرر لفظ الفتح فيها ثلاثاً. ولا يعرف لها اسم غير اسمها الذي سُمِّيت به. وبذلك كُتِبت في المصاحف وكتب التفسير والسنة. وجاءت تسميتها في كلام الصحابة رضوان الله عليهم.

ب- فضائل السورة:

عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر: ثكلتك أمك! نزرت رسول الله ﷺ ثلاث مرات، كل ذلك لا يجيبك، قال عمر: فحركت بعيري حتى كنت أمام الناس، وخشيت أن ينزل فيَّ قرآن، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي، قال: فقلت لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن، قال فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه، فقال: لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[1].

وعن أنس بن مالك ﷺ حدثهم قال: (لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال: لقد أنزلت عليَّ آية هي أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً)[2].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة الفتح، رقم الحديث: ٤٦٢٦. ومعنى: نزرت.. لا يجيبك، أي: ألححت عليه في المسألة إلحاحاً أدَّبك بسكوته عن جوابك. ومعنى ما نشبت: ما لبثت، وما تعلقت بشيء غيره، ولا اشتغلت بسواه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: ٥/ ٤٠، و٥/ ٥٢.

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم الحديث: ٣٨٩٥، وصحيح مسلم: كتاب =

وعن أنس بن مالك ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ قال: الحديبية، قال أصحابه: هنيئاً مريئاً، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قال شعبة: فقدمت الكوفة فحدثت بهذا كله عن قتادة، ثم رجعت فذكرت له فقال: أما ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فعن أنس وأما ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ فعن عكرمة)[1].

وقد قرأها النبي ﷺ يوم الحديبية: فعن حبيب بن أبي ثابت قال: حدثني أبو وائل، قال: كنا بصفين، فقام سهل بن حنيف فقال: (أيها الناس اتهموا أنفسكم، فإنا كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: بلى، فقال: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنيَّة في ديننا، أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبداً، فانطلق عمر إلى أبي بكر، فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، فقال: إنه رسول الله، ولن يضيِّعه الله أبداً، فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها، فقال عمر: يا رسول الله أوَ فتح هو؟ قال: نعم)[2].

كما قرأها ﷺ أيضاً يوم فتح مكة: فعن عبد الله بن مغفل ﷺ يقول: (رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته، وهو يقرأ سورة الفتح يُرَجِّع، وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجَّعْت كما رجَّع). وفي رواية: (رأيت النبي ﷺ يقرأ وهو على ناقته أو جمله وهي تسير به، وهو يقرأ سورة الفتح أو من سورة الفتح قراءة ليِّنة، يقرأ وهو يرجِّع)[3].

= الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، رقم الحديث: ١٧٨٦.

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم الحديث: ٣٨٥٤.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجزية، باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم الحديث: ٢٩٤٥.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب أين ركز النبي ﷺ الراية، رقم الحديث: ٣٩٤٥، وكتاب فضائل القرآن، باب الترجيع، رقم الحديث: ٤٦٥٩. والترجيع: ترديد الصوت بالقراءة، ومنه ترجيع الأذان، وقيل: هو تقارب ضُروب الحركات في الصوت. قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: معنى الترجيع تحسين التلاوة، لا ترجيع الغناء، لأن القراءة بترجيع الغناء تنافي الخشوع الذي هو مقصود التلاوة. وقد =

ج. مرحلة النزول:

هي السورة الثالثة عشرة بعد المائة في ترتيب السور في قول جابر بن زيد، نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة التوبة، وقد نزلت ليلاً فهي من القرآن الليلي، ونزولها سنة ست بعد الهجرة منصرف النبي ﷺ من الحديبية، وقبل غزوة خيبر، في موضع يقال له: (كراع الغميم) بين مكة والمدينة[1].

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية، وقد حيل بيننا وبين نُسُكِنَا، فنحن بين الحزن والكآبة أنزل الله تعالى:﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ ﴾، فقال رسول الله ﷺ: (لقد أُنزلت عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها).

وفي رواية: (من أولها إلى آخرها)[2].

د. أسباب نزولها:

تعددت أسباب النزول لعدد من الآيات، وسيشار إلى كل سبب في موضعه من المقطع الخاص به.

=استدل العلماء بهذا الحديث على سُنِّية قراءة القرآن على الدابة، وأصل هذه السُنِّية قوله تعالى: ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ ﴾الزخرف ١٣]. وكذا ملازمته ﷺ للعبادة، لأن حال ركوبه الناقة لم يترك العبادة بالتلاوة، وفي جهره بذلك إرشاد إلى أن الجهر بالعبادة قد يكون في بعض المواضع أفضل من الإسرار، وهو عند التعليم، وإيقاظ النائم، ونحو ذلك. انظر: فتح الباري، العسقلاني: ٨/ ٧١٠، والنهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: ٢/ ٢٠٢.

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٦/ ١٤١.

(٢) حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. أخرجه الحاكم في المستدرك: كتاب التفسير، (سورة الفتح)، رقم الحديث: ٣٧١٠.

هـ. عدد آياتها:

تسع وعشرون آية في جميع العدد، ليس فيه اختلاف، خالية من النسخ(١).

و. محور السورة:

اعتنت هذه السورة بجانب التشريع، شأنُ سائر السور المدنية التي تعالج الأسس التشريعية في المعاملات والعبادات والأخلاق..

تحدثت السورة عن وعْد الرسول ﷺ بالفتح والغفران، وإنزال السكينة على أهل الإيمان، وإيعاد المنافقين بعذاب الجحيم، ووعْد المؤمنين بنعيم الجنان، والثناء على سيد المرسلين، وذِكْر العهد، وبيعة الرضوان، وذِكْر ما للمخالفين من الخذلان، وبيان عُذْر المعذورين، والمنَّة على الصحابة بعدم الظفر عليهم من أهل مكة ذوي الطغيان، وصدق رؤيا سيد المرسلين ﷺ على حقِّية الرسالة، وشهادة الملك الديان، وتمثيل حال النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم بالزرع والزراع في البهجة والنضارة وحسن الشان(٢).

ز. المناسبات في سورة (الفتح):

١. المناسبة بين السورة ومحورها:

تناولت السورة أحداث (صلح الحديبية)، الذي تم بين الرسول ﷺ وبين المشركين سنة ست من الهجرة، والذي كان بداية لفتح مكة الأعظم. وتحدثت عن جهاد المؤمنين، وعن بيعة الرضوان. وعن الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ من الأعراب والمنافقين. كما تحدثت عن صدق الرؤيا التي رآها رسول الله ﷺ في منامه، وهي دخوله ﷺ والمسلمين مكة آمنين مطمئنين، وقد تحققت تلك الرؤيا الصادقة، فدخلوها معتمرين مطمئنين. وختمت بالثناء على

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي: ١/ ٣٠٦، والبيان في عدِّ آي القرآن، الداني: ص: ٢٢٩، وبصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٣٢.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزأبادي: ١/ ٤٣٢.

الرسول ﷺ وأصحابه الأطهار[1].

٢ـ المناسبة في افتتاحية السورة:

تكونت السورة من مقطعين؛ كل منهما مبدوء بقوله تعالى: ﴿إِنَّا﴾، في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾، وقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾، وإذا كانت السورة تبين كيف يتنزل نصر الله على العصبة المؤمنة، فإنها في الوقت نفسه تذكر الصفات التي يجب أن تتوافر في العصبة المؤمنة، كما تذكر لنا أنواعاً من الناس يسقطون بين يدي النصر، وتبين لنا كيف ينبغي أن يُعامل هؤلاء فيما بعد[2].

٣ـ المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

لقد فصَّلت السورة في قضايا تتعلق بالإيمان والتقوى وأخلاق الجماعة المؤمنة، وفصَّلت في الكفر وأخلاقه ودوافع أهله، وفصَّلت في النفاق وأخلاق أهله ودوافعهم، وفصَّلت في كيفية تعامل الجماعة المسلمة مع المنافقين، وفصَّلت في سنن الله في عملية الصراع بين الإيمان والكفر وفيما ينبغي أن يلاحظه المسلمون في عملية الصراع، ومن أهم ذلك حماية أرواح المؤمنين المخالطين للكافرين، كما فصَّلت في خصائص الجماعة الإسلامية في تعاطفها مع بعضها، وفي شدتها على الكافرين، وفي إقبالها على الله بالعبادة، وإخلاصها له في النية، كما فصَّلت فيما تقتضيه عملية الإيمان من نصرة لرسول الله ﷺ وتعظيمه.

ومما ينبغي تذكُّره أنه لا يكفي أن يقول قائل آمنت بالله ورسوله، بل لا بدَّ أن يرافق ذلك نصرةٌ لرسول الله ﷺ بنصرة شخصه في حياته، ونصرة شريعته ودينه، وأن يرافق ذلك توقيرٌ وتعظيمٌ لشخص رسول الله ﷺ في حياته ومماته، وأن يرافق ذلك تنزيهٌ لله عز وجل، وأن يضم المسلمين فيما بينهم صف واحد يمتاز بالرحمة فيما بينه، والشدة على العدو الكافر، ويمتاز بالصلاة والعبادة، والترقي والإيمان والعمل الصالح، والصراع المتواصل لنشر الإسلام حتى

---

(١) صفوة التفاسير، الصابوني: ٣/ ٢١٦.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٩/ ٥٣٦١.

يَعمَّ الإسلام العالم(١).

٤. المناسبة بين افتتاحية سورة (الفتح) وخاتمة ما قبلها:

يتمثل وجه مناسبتها لما قبلها فيما يلي:

١ - إنه لما تقدم قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا ﴾الآية، وهي خطاب لكفار قريش أخبر سبحانه رسوله ﷺ بالفتح العظيم، وأنه بهذا الفتح حصل الاستبدال، وآمن كل مَن كان بها وصارت مكة دار إيمان.

٢ - المراد بالفتح هو النصر مرتبٌ على القتال.

٣ - إن في كل منهما ذكراً وبياناً لأوصاف المؤمنين والمخلصين والمنافقين والمشركين.

٤ - إن في السورة السالفة أمراً للنبي ﷺ بالاستغفار، وافتتحت هذه السورة بذكر وقوع المغفرة.

٥ - ذُكِرت الكلمة الطيبة هناك بلفظها الشريف، وكنَّى عنها هنا بلفظ: (كلمة التقوى)، بناء على أشهر الأقوال فيه(٢).

٥. المناسبة بين افتتاحية سورة (الفتح) وافتتاحية سابقتها:

الملاحظ أن سورة (القتال) السابقة على سورة (الفتح) ذكرت شيئاً عن المسالمة والمصالحة، وأنها جائزة في بعض الحالات، وقد جاءت سورة الفتح لتعرض علينا نموذجاً على أن الهدنة والصلح قد يترتب عليهما من المنافع والمصالح للمسلمين أضعافاً مضاعفة، بل قد لا يكون في لحظة من اللحظات أية مصالح في الحرب. ومن هذه الصلة بين السورتين ندرك كيف أن السور

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٩/ ٥٣٩١.

(٢) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٤٨٢، وتفسير روح المعاني، الألوسي: ٢٦/ ٨٤، ونظم الدرر، البقاعي: ١٨/ ٢٧٧، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٤٢، والأساس في التفسير، سعيد حوى: ٩/ ٥٣٩٠.

القرآنية في القسم الواحد منه يكمِّل بعضها بعضاً[1].

٦ـ المناسبة بين سورة (الفتح) وما بعدها:

لقد جالت سورة (الفتح) جولات في واجبات المرسل إليهم، وجاءت سورة (الحجرات) تكمِّل سورة (الفتح) في تبيان واجبات المرسل إليهم، لذا ابتدأت بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ ﴾.

وتنتهي سورة (الفتح) بقوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾، وتأتي سورة (الحجرات) لتذكر أدب العلاقة بين المؤمنين ورسولهم، وبين المؤمنين مع بعضهم، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ ﴾ ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ ﴿ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾. وهذا مظهر آخر من مظاهر تكامل سورة (الحجرات) مع سورة (الفتح). وعلى ذلك فسورة (الحجرات) تتكامل مع مجموعتها وتكملها، فسورة (الجاثية) عمَّقت معنى الاهتداء بكتاب الله، وسورة (الأحقاف) عمَّقت معنى التوحيد، وسورة (القتال) بيَّنت أن الأصل هو القتال بين أهل الفسوق وأهل الإيمان، وسورة (الفتح) بيَّنت أن معارك المسلمين منصورة، وسورة (الحجرات) بيَّنت أدب السير، وأدب الجماعة المسلمة في حركتها نحو الهدف[2].

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٩/ ٥٣٥٠.

(٢) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٩/ ٥٣٩٦.

ثانياً: التفسير الإجمالي:

المقطع الأول: (صلح الحديبية وآثاره) الآيات: (١-٧)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

جاء هذا المقطع بمثابة مدخل ومقدمة للسورة، فقد ذكر الله تعالى فيه عنايته وفضله على نبيه ﷺ وبأنه ينصر رسوله، كما أبان بعض أفضاله على المؤمنين من أصحابه وبعض أسباب النصر وهو تثبيت أقدام المؤمنين، واطمئنان قلوبهم في ميادين المعارك، وأردفه ببيان سنته في تسليط بعض جنوده على بعض، ثم رفع معنويات الجند المؤمنين بوعدهم بالخلود في الجنان، وإيعاد الكافرين والمنافقين المعادين للمؤمنين بالعذاب الشديد، والغضب عليهم وطردهم من رحمته، وذلك بين يدي المقطع الذي يبدأ بتبيان مهمات الرسول ﷺ، وواجبات المؤمنين تجاهه[1].

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (تفتتح السورة بهذا الفيض الإلهي على رسوله ﷺ: فتح مبين، ومغفرة شاملة، ونعمة تامة، وهداية ثابتة، ونصر عزيز.. إنها جزاء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه. والاستسلام الراضي لإيحائه وإشارته. والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية.

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٩/ ٥٣٥١، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٥٥.

والثقة العميقة بالرعاية الحانية.. يرى الرؤيا فيتحرك بوحيها. وتبرك الناقة، ويتصايح الناس: خلأت القصواء. فيقول: (ما خلأت. وما هو لها بخلق. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها). ويسأله عمر بن الخطاب في حمية: فلم نعطي الدنيَّة في ديننا؟ فيجيبه: (أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيِّعني). ذلك وحين يشاع أن عثمان قُتِل، يقول ﷺ: (لا نبرح حتى نناجز القوم). ويدعو الناس إلى البيعة، فتكون بيعة الرضوان التي فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا. وكان هذا هو الفتح؛ إلى جانب الفتح الآخر الذي تمثل في صلح الحديبية، وما أعقبه من فتوح شتى في صور متعددة: كان فتحاً في الدعوة.

يقول الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه. ولقد دخل في تينك السنتين (بين صلح الحديبية وفتح مكة) مثلُ مَن كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمئة في قول جابر بن عبد الله. ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف. وكان ممن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

وكان فتحاً في الأرض. فقد أمن المسلمون شر قريش، فاتجه رسول الله ﷺ إلى تخليص الجزيرة من بقايا الخطر اليهودي بعد التخلص من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وكان هذا الخطر يتمثل في حصون خيبر القوية التي تهدد طريق الشام. وقد فتحها الله على المسلمين وغنموا منها غنائم ضخمة، جعلها الرسول ﷺ فيمن حضر الحديبية دون سواهم.

وكان فتحاً في الموقف بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة وسائر المشركين حولها.

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة بحق في كتابه: (سيرة الرسول ﷺ؛ صور مقتبسة من القرآن الكريم):

« ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق. بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية، وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده، أو بالأحرى من أعظمها. فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتهما وكيانهما، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها، بل دفعتهم عنها بالتي هي أحسن، في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم، وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقلتهم إزاء الغزاة. ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب، الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقدوة، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثر. وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون. بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح، وبُعد مداه.

ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي ﷺ فيما فعل، وأيده فيه القرآن، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه؛ إذ قووا في عيون القبائل، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوتاً، وشأنهم ضآلة، وإذ صار العرب يفدون على النبي ﷺ من أنحاء قاصية، وإذ تمكن من خضد شوكة اليهود في خيبر وغيرها من قراهم المنتشرة على طريق الشام، وإذ فرغ باله فأرسل رسله إلى ملوك الأرض في مختلف أطراف الجزيرة وخارجها، يحملون كتبه المبشرة بالإسلام والداعية إليه، وإذ استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها، وكان في ذلك النهاية الحاسمة، إذ جاء نصر الله وفتحه، ودخل الناس في دين الله أفواجاً»[1].

ونحن نعود فنؤكد أنه كان هناك إلى جانب هذا كله فتح آخر. فتح في النفوس والقلوب، تصوره بيعة الرضوان، التي رضي عنها الله وعن أصحابها ذلك الرضى الذي وصفه القرآن. ورسم لهم على ضوئه تلك الصورة الوضيئة الكريمة في نهاية السورة: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾.

---

(١) سيرة الرسول ﷺ؛ صور مقتبسة من القرآن الكريم: ٢/ ٣٥٢.



فهذا فتح في تاريخ الدعوات له حسابه، وله دلالته، وله آثاره بعد ذلك في التاريخ.

ولقد فرح رسول الله ﷺ بهذه السورة. فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين معه. فرح بالفتح المبين. وفرح بالمغفرة الشاملة، وفرح بالنعمة التامة، وفرح بالهداية إلى صراط الله المستقيم. وفرح بالنصر العزيز الكريم. وفرح برضى الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل. وقال في رواية: (نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها). وفي رواية: (لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس).

وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته. فاضت بالشكر في صورة صلاة طويلة مديدة، تقول عنها عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تنفر رجلاه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً)؟ ذلك الافتتاح كان نصيب النبي ﷺ خاصة.

ثم مضى السياق يصف نعمة الله على المؤمنين بهذا الفتح، ومس يده لقلوبهم بالسكينة وما ادخره لهم في الآخرة من غفران وفوز ونعيم:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾.

والسكينة لفظ معبّر مصوّر ذو ظلال؛ والسكينة حين ينزلها الله في قلب، تكون طمأنينة وراحة، ويقيناً وثقة، ووقاراً وثباتاً، واستسلاماً ورضى.

ولقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى، وتفور بانفعالات متنوعة. كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ بدخول المسجد الحرام؛ ثم مواجهة موقف قريش، وقبول الرسول ﷺ للرجوع عن البيت في هذا العام، بعد الإحرام، وبعد إشعار

الهدي وتقليده. كان هذا أمراً شاقاً على نفوسهم ما في ذلك ريب. وقد روي عن عمر ﷺ أنه جاء أبا بكر وهو مهتاج، فكان مما قال له غير ما أثبتناه في صلب رواية الحادث: (أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به)؟ قال أبو بكر الموصول القلب بقلب رسول الله ﷺ الذي ينبض قلبه على دقات قلب رسول الله ﷺ: (بلى. أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قال: لا. قال: فإنك تأتيه وتطوف به). فتركه عمر ﷺ إلى النبي ﷺ فقال له فيما قال: (أوَ لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال ﷺ: بلى. أفأخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال: لا. قال رسول الله ﷺ: فإنك آتيه ومطوف به). فهذه صورة مما كان يجيش في القلوب..

وكان المؤمنون ضيقي الصدور بشروط قريش الأخرى، مِن رد مَن يُسْلم ويأتي محمداً بغير إذن وليه. ومِن حميتهم الجاهلية في رد اسم الرحمن الرحيم. وفي رد صفة رسول الله ﷺ، وقد روي أن علياً ﷺ أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل بن عمرو بعد كتابتها، فمحاها رسول الله ﷺ بنفسه وهو يقول: (اللهم إنك تعلم أني رسولك).

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة، يبدو هذا في بيعتهم الإجماعية؛ ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع. فلم يكن هيناً على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه. يبدو هذا في تباطئهم في النحر والحلق، حتى قالها رسول الله ﷺ ثلاثاً. وهم مَن هم طاعةً لأمر رسول الله وامتثالاً. كالذي حكاه عنهم لقريش عروة بن مسعود الثقفي. ولم ينحروا ويحلقوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله ﷺ يفعل هذا بنفسه، فهزَّتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزُّهم القول، وثابُوا إلى الطاعة كالذي كان في دهشة المأخوذ!

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنيَّة العمرة، لا ينوون قتالاً، ولم يستعدوا له نفسياً ولا عملياً. ثم فوجئوا بموقف قريش، وبما شاع من قتلها لعثمان، وبإرسال النفر الذين رموا في عسكر المسلمين بالنبل والحجارة. فلما عزم رسول الله ﷺ على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم. ولكن هذا لا ينفي موقف المفاجأة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له. وهو بعض ما كان يجيش في قلوبهم من انفعالات وتأثرات. وهم ألف وأربعمئة وقريش في

دارها، ومِن خلفهم الأعراب والمشركون.

وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.. ويذوق طعم اللفظ وطعم العبارة، ويتصور الموقف يومئذ، ويعيش فيه مع هذه النصوص، ويحس بَرْدَ السكينة وسلامها في تلك القلوب.

ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ، أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان، والحمية الإيمانية لا لأنفسهم، ولا لجاهلية فيهم. فقد تفضل عليهم بهذه السكينة:﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ والطمأنينة درجة بعد الحمية والحماسة، فيها الثقة التي لا تقلق، وفيها الرضى المطمئن باليقين.

ومن ثم يلّوح بأن النصر والغلب لم يكن عسيراً ولا بعيداً، بل كان هيناً يسيراً على الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون، فإن لله جنوداً لا تحصى ولا تغلب تدرك النصر وتحقق الغلب وقتما يشاء:﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾.. فهي حكمته وهو علمه، تسير الأمور وفقهما كما يريد.

وعن العلم والحكمة:﴿ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾. ليحقق لهم ما قدَّره من فوز ونعيم:

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ ﴾..

وإذا كان هذا في حساب الله فوزاً عظيماً، فهو فوز عظيم! فوز عظيم في حقيقته، وفوز عظيم في نفوس مَن ينالونه مِن عند الله مقدراً بتقديره، موزوناً بميزانه.. ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم؛ وكانوا قد تطلعوا بعدما سمعوا افتتاح السورة، وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله. تطلعوا إلى نصيبهم هم، وسألوا عنه، فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضى والفرح واليقين.

ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدَّر في هذا الحادث؛ وهو مجازاة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، بما يصدر عنهم من عمل وتصرف:

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾..

وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في صفة ظن السوء بالله؛ وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين. وفي أنهم جميعاً ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ ﴾[1] فهم محصورون فيها، وهي تدور عليهم وتقع بهم. وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم، وفيما أعده لهم من سوء المصير.. ذلك أن النفاق صفة مرذولة لا تقل عن الشرك سوءاً، بل إنها أحط؛ ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات، وإن اختلف هذا الأذى وذاك في مظهره ونوعه.

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله. فالقلب المؤمن حسَنُ الظن بربه، يتوقع منه الخير دائماً. يتوقع منه الخير في السراء والضراء. ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين. وسرُّ ذلك أن قلبه موصول بالله. وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً. فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة، وأحسها إحساس مباشرة وتذوُّق.

فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله. ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها، فيسوء ظنهم بالله؛ وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور، ويبنون عليها أحكامهم. ويتوقعون

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (السُّوء) بضم السين، من السُّوء بمعنى الهزيمة والشر، وقرأها الباقون: (السَّوء) بالفتح، من ساءه يسوءه سَوءاً ومساءة، نقيض سرَّه مسرَّة. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٠٣، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٢٨٠، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٦٥.

الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين، كلما كانت ظواهر الأمور توحي بهذا؛ على غير ثقة بقدر الله وقدرته، وتدبيره الخفي اللطيف.

وقد جمع الله في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع؛ وبين حالهم عنده، وما أعده لهم في النهاية. ثم عقَّب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته:

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾..

فلا يعييه من أمرهم شيء، ولا يخفى عليه من أمرهم شيء، وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم)[1].

دروس وعبر من المقطع الأول:

١ـ جمهور أهل العلم على أن المراد بالفتح هو صلح الحديبية، وإنما سُمِّيَ فتحاً لأنه كان سبب فتح مكة.

قال الفراء: كان فتح وفيه قتال قليل مراماة بالحجارة، فالفتح قد يكون صلحاً، ويكون أخذ الشيء عنوة.

واستدل العلماء بلفظ الماضي في قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا ﴾، على أن ذلك الفتح قد مضى، سيما وقد نزلت السورة في شأن الحديبية، في حين أن سورة (النصر) دلت على الاستقبال لا على المضي في قوله: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾ ﴾[النصر: ١].

قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، اختلط المشركون بالمسلمين، وسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام من قلوبهم، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير كثر بهم سواد الإسلام، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف ففتحوها[2].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٦١، وروح المعاني، الألوسي: ٢٦/ ٨٤، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٩/ ٣٣، وأضواء البيان، الشنقيطي: ٧/ ٦٠٣، ومعاني القرآن، الفراء: ٣/ ٦٤.

٢ـ تمثلت فضائل الفتح وثماره في حق النبي ﷺ بأربعة أمور:

أولها: البراءة المطلقة للنبي ﷺ بمغفرة ذنوبه المتقدمة والمتأخرة التي تعدُّ بمثابة خلاف الأولى، والأفضل بالنظر لمقامه الشريف ﷺ.

ثانيها: إتمام النعمة عليه ﷺ بالجمع بين النبوة والملك، وبين سعادة الدنيا والآخرة، بعد أن كانت له النبوة وحدها.

ثالثها: الإرشاد والهداية إلى الطريق المستقيم في تبليغ الرسالة، والثبات على الحق، وإقامة مراسم الرئاسة.

رابعها: النصر المؤزر العزيز المنيع الذي لا ذلَّ بعده، ورهبة الجانب، ونفاذ الكلمة.

٣ـ وتمثلت فضائل الفتح وثماره في حق المؤمنين بأربعة أمور:

أولها: الطمأنينة والسكينة، **وثانيها**: زيادة الإيمان، **وثالثها**: دخول الجنة، **ورابعها**: تكفير السيئات.

٤ـ وتمثلت فضائل الفتح وثماره في حق الكفار والمنافقين بأربعة أمور:

أولها: العذاب الأليم، **وثانيها**: غضب الله تعالى، **وثالثها**: اللعنة والطرد من رحمة الله تعالى، **ورابعها**: دخول جهنم.

٥ـ تمثل الفتح المبين في معان جليلة، منها: أن نزول السورة كان مؤنساً للمؤمنين مما استوحشوه من ردِّ قريش لهم، ومن تلك المهادنة، فنزلت السورة مؤنسةً المؤمنين في صدهم عن البيت، ومذهبةً ما كان في قلوبهم، ومنه حديث عمر الشهير، وما قاله للنبي ﷺ ولأبي بكر وظهرت على يديه ﷺ آية الماء في بئر الحديبية حيث وضع سهمه، وثاب الماء حتى كفى الجيش، واتفقت بيعة الرضوان، وهي الفتح الأعظم، وبلغ هديه محله، واستقبل فتح خيبر، وامتلأت أيدي المؤمنين خيراً، ولم يفتتحها إلا أهل الحديبية، لم يشركهم أحد من المتخلفين عن الحديبية، واتفقت في ذلك الوقت ملحمة عظيمة بين الفرس والروم وظهرت فيها الروم فكانت من جملة

الفتح على رسول الله ﷺ، وسُرَّ بها هو والمسلمون لظهور أهل الكتاب على المجوس، وانخضاد الشوكة العظمى من الكفر، ثم عظَّم الله تعالى أمر نبيه ﷺ وشرَّفه بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر[١].

٦ـ الذنب المقصود بمغفرته في حق النبي ﷺ هو جميع ما فرط منه من هفوات مما يصح أن يُسمَّى ذنباً بالنظر إلى مقامه الشريف ﷺ، وإن كان لا يعدُّ ذنباً في حق غيره، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين.

والمراد من غفران الذنوب التي قبل الرسالة والتي بعدها. عن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله ﷺ (كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أحبُّ أن أكون عبداً شكوراً، فلما كثر لحمه صلى جالساً، فإذا أراد أن يركع قام فقرأ، ثم ركع)[٢].

٧ـ يرشد عقد صلح الحديبية إلى معاني جليلة ونتائج طيبة، منها: معرفة قوة العدو ومقدار كفايته وحدّها، ومعرفة المؤمنين الصادقين من المنافقين الذين تخلفوا، واختلاط المسلمين بالمشركين حبَّب الإسلام إلى قلوب كثير منهم، فدخلوا في دين الله أفواجاً، وتحقق سيادة الدولة الإسلامية واستقلالها، وظهوره ﷺ حاكماً وإماماً إلى جانب كونه نبياً، كما تحقق له عزُّ الدنيا والآخرة، وثباته على الحق، ونشره في أرجاء الدنيا.

كذلك اعتراف المشركين بالدولة الإسلامية، والإقرار بسيادتها واستقلالها[٣].

---

(١) تفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٣/ ٤٢٩.

(٢) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، رقم الحديث: ٤٤٦٠.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٥٣، ١٥٩.

المقطع الثاني: (مهام النبي ﷺ ومغزى بيعة الرضوان)

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ (الآيات: ٨ ـ ١٠)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد بيان فضائل الفتح ـ صلح الحديبية ـ على النبي ﷺ وعلى أصحابه المؤمنين، أعقبه ببيان خصائصها، فذكر وظائف الرسول ﷺ الثلاث، (وفي الأحزاب: الخمس) ومدحه، وأبان فائدة بعثته ليرتب عليه ذكر البيعة، فذكر بيعة الرضوان بين النبي ﷺ والمؤمنين، وأشاد بإخلاص المبايعين ونصرة دين الله تعالى، وأوضح جزاء ناقض العهد، ومَن أوفى بالعهد[1].

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (ثم عاد بالخطاب إلى رسول الله ﷺ منوهاً بوظيفته مبيناً للغاية منها، موجهاً المؤمنين إلى واجبهم مع ربهم بعد تبليغهم رسالته، مع ردهم في بيعتهم إلى الله مباشرة، وعقد العقدة معه جلَّ جلاله، وذلك حين يبايعون الرسول ﷺ ويتعاقدون معه. وفي ذلك تشريف لبيعة الرسول، وتكريم واضح لهذا التعاقد:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾[2].

فالرسول ﷺ شاهد على هذه البشرية التي أرسل إليها، يشهد أنه بلغها ما أُمِر به، وأنها

---

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٦١.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه ويسبحوه) بالياء في الأربعة، وقرأهن الباقون بالتاء. انظر: جامع البيان، الداني: ٤/ ١٥٩٤.

استقبلته بها استقبلته، وأنه كان منها المؤمنون، ومنها الكافرون، ومنها المنافقون. وكان منها المصلحون ومنها المفسدون. فيؤدي الشهادة كما أدى الرسالة. وهو مبشر بالخير والمغفرة والرضى، وحسن الجزاء للمؤمنين الطائعين، ونذير بسوء المنقلب والغضب. واللعنة والعقاب للكافرين والمنافقين والعصاة والمفسدين..

هذه وظيفة الرسول. ثم يلتفت بالخطاب إلى المؤمنين، يكشف لهم عن الغاية المرجوة لهم من الرسالة. إنها الإيمان بالله ورسوله، ثم النهوض بتكاليف الإيمان، فينصرون الله بنصرة منهجه وشريعته، ويوقرونه في نفوسهم بالشعور بجلاله؛ وينزهونه بالتسبيح والتحميد طرفي النهار في البكور والأصيل، وهي كناية عن اليوم كله، لأن طرفي النهار يضمَّان ما بينهما من آونة. والغرض هو اتصال القلب بالله في كل آن. فهذه هي ثمرة الإيمان المرجوة للمؤمنين من إرسال الرسول شاهداً ومبشراً ونذيراً.

وقد جاء ﷺ ليصلهم بالله، ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع بغيبة رسول الله ﷺ عنهم. فهو حين يضع يده في أيديهم مبايعاً، فإنما يبايع عن الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.. وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله ﷺ والواحد منهم يشعر وهو يضع يده في يده، أن يد الله فوق أيديهم.

فالله حاضر البيعة. والله صاحبها. والله آخذها. ويده فوق أيدي المتبايعين.. ومن؟ الله! يا للهول! ويا للروعة! ويا للجلال!

وإن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة، مهما غاب شخص رسول الله ﷺ، فالله حاضر لا يغيب. والله آخذٌ في هذه البيعة ومعطٍ، وهو عليها رقيب.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.. فهو الخاسر في كل جانب. هو الخاسر في الرجاع عن الصفقة الرابحة بينه وبين الله تعالى. وما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله، والله هو الغني عن العالمين. وهو الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله، فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذي يكرهه ويمقته، فالله يحب الوفاء ويحب الأوفياء.

﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[١].. هكذا على إطلاقه:﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.. لا يفصله ولا يحدده. فهو الأجر الذي يقول عنه الله إنه عظيم.

عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذي لا يرتقي إلى تصوره أبناء الأرض المقلُّون المحدودون الفانون!)[٢].

دروس وعبر من المقطع الثاني:

١ـ حددت الآيات مهام النبي ﷺ في ثلاث:

أولها: الشهادة على الخلق وعلى أمته بالبلاغ، **وثانيها**: تبشير مَن أطاعه بالجنة، **وثالثها**: إنذار مَن عصاه بالنار.

٢ـ تناولت الآيات لفظ: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ ﴾ واللفظ من المتشابهات التي لأهل السنة والجماعة فيها مذهبان؛

مذهب السلف: التسليم، والسكوت عن التأويل، والإيمان بظاهر النص، والتفويض إلى الله تعالى في معرفة الحقيقة، وإمرار آيات الله وأحاديث رسول الله ﷺ المتعلقة بالصفات كما جاءت، مع الإيمان بها من غير تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل ولا تحريف ولا صرف عن الظاهر،

---

(١) قرأ حفص: (عليهُ) بضم الهاء وتفخيم لفظ الجلالة، وقرأ الجمهور: بكسر الهاء وترقيق لفظ الجلالة، وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر: (فسنؤتيه) بالنون، وقرأ الباقون بالياء. قيل في وجه الضم إنها هاء هو وهي مضمومة، فاستصحب ذلك كما في: له وضربه، ووجه الكسر رعاية الياء، وكذا في: إليه وفيه، وكذا فيما إذا كان قبلها كسرة نحو: به، ومررت بغلامه، لثقل الانتقال من الكسر إلى الضم، وحسن الضم في الآية التوصل به إلى تفخيم لفظ الجلالة الملائم لتفخيم أمر العهد المشعر به الكلام، وأيضاً إبقاء ما كان على ما كان ملائم للوفاء بالعهد، وإبقائه وعدم نقضه. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٠٣، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٢٨٠، والأساس في التفسير: سعيد حوى: ٩/ ٥٢٦٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣٢٠.



وهو الحق.

ومذهب الخلف: التأويل بالقدرة والقوة والنصرة والنعمة على طريق الاستعارة بالكناية.

قال الرازي: وذلك يحتمل وجوهاً، لأن اليد في الموضعين إما أن تكون بمعنى واحد ففيه **وجهان**؛

أحدهما: يد الله بمعنى نعمة الله عليهم فوق أجسامهم، كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]،

وثانيهما: نصرته إياهم أقوى وأعلى من نصرتهم إياه، يقال: اليد لفلان، أي: الغلبة والنصرة والقوة، وإن قلنا إنها بمعنيين فنقول: اليد في حق الله تعالى بمعنى الحفظ، وفي حق المبايعين بمعنى الجارحة، فيكون المعنى: يد الله فوق أيديهم بالحفظ. وهذا هو مذهب أهل التأويل والكلام(١).

٣ـ كانت بيعة الرضوان على الثبات وعدم الفرار، وعلى الموت في سبيل الله تعالى، لذا كان الشقي الخاسر مَن نقض العهد والبيعة، لأنه حرم نفسه الثواب وألزمها العقاب، ومَن أوفى بعهده مع الله في بيعته فهو الرابح الفائز، وسيعطيه الله ثواباً عظيماً وهو الجنة، وفي هذا تفخيم لشأن البيعة، وتعظيم لأمرها. عن يزيد بن أبي عبيد قال: (قلت لسلمة: على أي شيء بايعتم النبي ﷺ يوم الحديبية؟ قال: على الموت)(٢).

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي: ٢٨/ ٨٧، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٩/ ٤٠، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٣/ ٤٤٢، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٦٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس، رقم الحديث: ٦٦٦٦.

المقطع الثالث: (أحوال المتخلفين عن الحديبية)

قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ (الآيات: ١١ ـ ١٧)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد بيان حال المؤمنين، بيّن الله تعالى حال المنافقين، وهم قوم من الأعراب امتنعوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، لظنهم أنه يهزم، وقد ذكر تعالى أحوالاً ثلاثاً لهم:

هي الاعتذار عن التخلف عن الحديبية بانشغالهم في الأموال والأهل، وطلب المشاركة في وقعة خيبر وغنائمها، ودعوتهم إلى قتال قوم أولي بأس شديد، ثم استثنى تعالى أصحاب الأعذار لترك الجهاد(١).

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (وعندما يصل إلى حقيقة البيعة، وإلى خاطر النكث

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٦٩.

وخاطر الوفاء، يلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب، الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ لسوء ظنهم بالله، ولتوقعهم الشر والضر للمؤمنين الخارجين، الذاهبين إلى قريش في عقر دارها، وهي غزت المدينة قبل ذلك عامين متوالين.. يلتفت إليهم لينبئ الرسول ﷺ عما سيعتذرون به إليه بعد عودته سالماً هو ومن معه، وقد هادنته قريش ولم تقاتله، وعقدت معه معاهدة يبدو فيها ـ مهما كان شروطها ـ التراجع من قريش، واعتبار محمد ﷺ نداً لها تهادنه وتتقي خصومته.

ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه، ويفضحهم ويقفهم مكشوفين أمام رسول الله ﷺ وأمام المؤمنين. كما ينبئه بما فيه البشرى له وللخارجين معه؛ وهو أنهم سيخرجون إلى مغانم قريبة ميسورة، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه الغنائم السهلة. ويلقنه طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم. فلا يقبل منهم الخروج معه في هذا الوجه القريب الميسور الذي سيقتصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية.

إنما ينبئهم بأن هنالك وجهاً آخر فيه مشقة وفيه قتال مع قوم أولي بأس شديد. فإن كانوا حقاً يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ، حيث يقسم الله لهم بما يريد. فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير، وإن عصوا كما عصوا من قبل كان لهم العذاب الشديد.

والقرآن لا يكتفي بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها؛ ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس، وهواجس القلوب، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيداً لعلاجها والطب لها. ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة، وقواعد الشعور والتصور والسلوك.

فالمخلفون من الأعراب وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأشجع وأسلم وغيرهم ممن حول المدينة سيقولون اعتذاراً عن تخلفهم:﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾.. وليس هذا بعذر. فللناس دائماً أهل وأموال. ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة، وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها، وسيقولون﴿ فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾. وهم ليسوا صادقين في طلب

الاستغفار كما ينبئ الله رسوله ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾.

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدَر الذي لا يدفعه تخلف، ولا يغيره إقدام؛ وبحقيقة القدرة التي تحيط بالناس، وتتصرف في أقدارهم كما تشاء. وبحقيقة العلم الكامل الذي يصرف الله قدره على وفقه:

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾(١).. وهو سؤال يوحي بالاستسلام لقدر الله؛ والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلكؤ. فالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضرراً، ولا يؤخر نفعاً. وانتحال المعاذير لا يخفى على علم الله. ولا يؤثر في جزائه وفق علمه المحيط. وهو توجيه تربوي في وقته، وفي جوِّه، وفي مناسبته على طريقة القرآن.

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.. وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين، وجهاً لوجه أمام ما أضمروا من نية، وما ستروا من تقدير، وما ظنوا بالله من السوء. وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة؛ وقالوا: يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم! يشيرون إلى أحد والأحزاب ولم يحسبوا حساباً لرعاية الله وحمايته للصادقين المتجردين من عباده.

كما أنهم بطبيعة تصورهم للأمور، وخُلُوِّ قلوبهم من حرارة العقيدة، لم يقدروا أن الواجب هو الواجب، بغض النظر عن تكاليفه كائنة ما كانت؛ وأن طاعة رسول الله ﷺ يجب أن تكون

---

(١) قرأ حمزة والكسائي: (ضُرّاً) بضم الضاد، وهو اسم لما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال أي: أمراً يضركم، وقرأ الجمهور: بفتح الضاد وهو مصدر ضررته ضَرّاً، والمصدر يؤدى عن المرة وأكثر، والحجة في الفتح أنه حمله على الضر الذي هو خلاف النفع، بدليل ما أتى بعده من نقيضه. انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد: ص: ٦٠٤، والكشف عن وجوه القراءات السبع، لمكي القيسي: ٢/ ٢٨١، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٦٨.

بدون النظر إلى الربح الظاهري والخسارة الشكلية، فهي واجب مفروض، يؤدى دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه.

لقد ظنوا ظنهم، وزين هذا الظن في قلوبهم، حتى لم يروا غيره، ولم يفكروا في سواه. وكان هذا هو ظن السوء بالله، الناشئ من أن قلوبهم بور. وهو تعبير عجيب موحٍ. فالأرض البور ميتة جرداء. وكذلك قلوبهم. وكذلك هم بكل كيانهم. بور. لا حياة ولا خصْب ولا إثمار. وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله؟ يكون بوراً. ميتاً أجرد نهايته إلى البوار والدمار.

وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة. الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله. البور الخالية قلوبهم من الروح والحياة. هكذا يظنون دائماً بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن كفة الباطل هي الراجحة، وأن قوى الأرض الظاهرة في جانب أهل الشر والضلال؛ وأن المؤمنين قلة في العدد، أو قلة في العدة، أو قلة في المكان والجاه والمال. هكذا يظن الأعراب وأشباههم في كل زمان أن المؤمنين لا ينقلبون إلى أهليهم أبداً إذا هم واجهوا الباطل المتنفش بقوته الظاهرة. ومن ثم يتجنبون المؤمنين حباً للسلامة؛ ويتوقعون في كل لحظة أن يُستأصلوا، وأن تنتهي دعوتهم فيأخذون هم بالأحوط، ويبعدون عن طريقهم المحفوف بالمهالك! ولكن الله يخيب ظن السوء هذا؛ ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو، وبتدبيره هو، وحسب ميزان القوى الحقيقية. الميزان الذي يمسكه الله بيده القوية، فيخفض به قوماً، ويرفع به آخرين، من حيث لا يعلم المنافقون الظانون بالله ظن السوء في كل مكان وفي كل حين!

إن الميزان هو ميزان الإيمان. ومِن ثَمَّ يردُّ الله أولئك الأعراب إليه؛ ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان، مع التلويح لهم برحمة الله القريبة، والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة، والتمتع بمغفرة الله ورحمته:

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾.. لقد كانوا يعتذرون

بأموالهم وأهليهم. فماذا تنفعهم أموالهم وأهلوهم في هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله؟ إنهما كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين. فإن الله الذي يوعدهم هذا الإيعاد، هو مالك السماوات والأرض وحده. فهو الذي يملك المغفرة لمن يشاء، وهو الذي يملك العذاب لمن يشاء.

والله يجزي الناس بأعمالهم ولكن مشيئته مطلقة لا ظل عليها من قيد، وهو يقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر في القلوب. غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل، فهذا الترتيب اختيار مطلق لهذه المشيئة.

ومغفرة الله ورحمته أقرب. فليغتنمها من يريد، قبل أن تَحِقَّ كلمة الله بعذاب مَن لم يؤمن بالله ورسوله، بالسعير الحاضرة المعدة للكافرين. ثم يلوح ببعض ما قدر الله للمؤمنين، مخالفاً لظن المخلفين. بأسلوب يوحي بأنه قريب:

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾أغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر، وقد يكون هذا، ولكن النص يظل له إيحاؤه ولو لم يكن نصاً في خيبر. فهو يوحي بأن المسلمين سيفتح عليهم فتح قريب يسير. وأن هؤلاء المخلفين سيدركون هذا فيقولون﴿ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ ﴾.

ولعل الذي جعل المفسرين يخصصون خيبر، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية. إذ كانت في المحرم من سنة سبع. بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية. وأنها كانت وافرة الغنائم. وكانت حصون خيبر آخر ما بقي لليهود في الجزيرة من مراكز قوية غنية. وكان قد لجأ إليها بعض بني النضير وبني قريظة ممن أُجْلُوا عن الجزيرة من قبل.

وتتواتر أقوال المفسرين أن الله وعد أصحاب البيعة في الحديبية أن تكون مغانم خيبر لهم لا يشركهم فيها أحد. ولم أجد في هذا نصاً. ولعلهم يأخذون هذا مما وقع فعلاً. فقد جعلها

رسول الله ﷺ في أصحاب الحديبية. ولم يأخذ معه أحداً غيرهم.

وعلى أية حال فقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة. وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله. وأخبر نبيه ﷺ أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج: ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾. فتمنعوننا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة. ثم قرر أن قولهم هذا ناشئ عن قلة فقههم لحكمة الله وتقديره. فجزاء المتخلفين الطامعين أن يحرموا، وجزاء الطائعين المتجردين أن يعطوا من فضل الله، وأن يختصوا بالمغنم حين يقدره الله، جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام، يوم كانوا لا يتوقعون إلا الشدة في الجهاد.

ثم أمر الله نبيه أن يخبرهم أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء. يقاتلونهم على الإسلام، فإذا نجحوا في هذا الابتلاء كان لهم الأجر، وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير:

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾. وتختلف الأقوال كذلك في مَن هم القوم أولو البأس الشديد. وهل كانوا على عهد رسول الله ﷺ أم على عهود خلفائه. والأقرب أن يكون ذلك في حياة رسول الله ﷺ ليمحص الله إيمان هؤلاء الأعراب من حول المدينة.

والمهم أن نلحظ طريقة التربية القرآنية، وطريقة علاج النفوس والقلوب، بالتوجيهات القرآنية، والابتلاءات الواقعية.

وهذا كله ظاهر في كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين، وفي توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيماني القويم.

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع، فقد بين الله أصحاب الأعذار الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد، بلا حرج ولا عقاب:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.. [1].

فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد، والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ. والأمر في حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان. هو حالة نفسية لا أوضاع شكلية. فمن يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه.

ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره. ولمن شاء أن يوازن بين مشقات الجهاد وجزائه، وبين راحة القعود وما وراءه.. ثم يختار!)[2].

دروس وعبر من المقطع الثالث:

١ـ المتخلفون عن الحديبية خمس قبائل: جهينة ومزينة وأشجع وغفار وأسلم، وفي تعيين القوم أولي البأس الشديد ثلاثة أقوال: أنهم فارس والروم، أو بنو حنيفة مع مسيلمة الكذاب، أو هوازن وغطفان يوم حنين. وفي قول الله تعالى:﴿ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ دلالة على أنهم باليمامة لا بفارس ولا بالروم، لأن الذي تعين عليه القتال حتى يسلم من غير قبول الجزية هم العرب في أصح الأقوال والمرتدون، فأما فارس والروم فلا يقاتلون حتى يسلموا، بل إن بذلوا الجزية قبلت منهم، وقد جاءت هذه الآية معجزة للنبي ﷺ وإخباراً بالغيب، كما دلت على صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فأبو بكر ﷺ دعا إلى قتال بني حنيفة، واستخلف عمر ﷺ، وعمر ﷺ الذي دعا إلى قتال فارس والروم، وخرج عليٌّ تحت لوائه، وقد ألزم الله المؤمنين طاعةَ مَن يدعوهم إليه، وأوعدهم على التخلف عمن دعاهم إلى قتالهم، مما يدل على

(١) قال ابن عباس: لما نزلت: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، قال أهل الزمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾. وقد قرأ نافع وابن عامر: (ندخله ونعذبه) بالنون جميعاً، وقرأهما الباقون بالياء. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٧٣، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٥٩٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣٢١.

صحة إمامتهما، إذ كان المتولي عن طاعتهما مستحقاً للعذاب الشديد[١].

٢ـ استدل الفقهاء بقوله تعالى: ﴿ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ ﴾ على حكم مَن لا تؤخذ منهم الجزية، وهم مشركو العرب والمرتدون، فمذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى: أنهم مقيدون بأمرين: إما المقاتلة، وإما الإسلام، لا ثالث لهما. وتقبل ممن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس. ومذهب الشافعي رحمه الله تعالى: لا تقبل إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب. قال الزجاج: التقدير: أو هم يسلمون[٢].

٣ـ ذكرت الآية عذر أهل الأعذار من العمى والعرج والمرض جملة، ورفع الحرج عنهم والضيق والمأثم، وهذا حكم هؤلاء المعاذير في كل جهاد إلى يوم القيامة، إلا أن يحزب حازب في حضرة ما، فالغرض متوجه بحسب الوُسع ومع ارتفاع الحرج، فجائز لهم الغزو وأجرهم فيه مضاعف، لأن الأعرج أحرى بالبصر وألا يفرَّ.

وقد غزا عبد الله بن أم مكتوم ﷺ وكان يمسك الراية في بعض حروب القادسية[٣].

٤ـ اقتصر النص القرآني على أصحاب الأعذار الثلاثة، لأن العذر إما بسبب اختلال القوة، أو إخلال في عضو، فيقاس عليهما ما في معناهما؛ كالفقر الذي يمنع من إحضار السلاح حال التطوع بالجهاد ودون تقديمه من الدولة، والاشتغال بذوي الحاجة والضعف كطفل ومريض، ونحو ذلك مما يعرف في الفقه.

وقد ضبط الفقهاء الأعذار المانعة من الجهاد بأن المانع إما عجز حسي؛ كالصغر والجنون والأنوثة والمرض المانع من الركوب للقتال، والعرج البيِّن، وفقد الصبر، وعدم وجدان السلاح

(١) أحكام القرآن، ابن العربي: ٤/ ١٣٥، وأحكام القرآن، الجصاص: ٣/ ٣٩٣، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٧٢، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٩/ ٤٨.

(٢) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٤٩٠، والكشاف، الزمخشري: ٤/ ٣٤٠، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٩/ ٤٨، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٧٨.

(٣) تفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٣/ ٤٥٢.



وآلات القتال، أو عجز حكمي؛ كالرقِّ والدَّين الحالِّ بلا إذن رب الدَّين، وعدم إذن أحد الأبوين المسلمين(١).

٥ـ في الآيات حث على الجهاد، والترهيب من ترك القتال، حيث ثواب الجنة مرهون بطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله، وإنما شرع الجهاد لدحر العدوان وطرد المعتدين، وهو طريق العزة والكرامة، وحماية حرمات البلاد والأوطان، ولولاه لذابت الأمم، وزالت الأديان والقيم، لذا جعله الله فريضة على المسلمين، وإن كان مكروهاً على النفس، امتحاناً للصادقين في إيمانهم، واختباراً لأعمال الناس، وهو ذروة سنام الإسلام، وسبيل إلى جنان الخلد، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون(٢).

المقطع الرابع: (بيعة الرضوان وآثارها الخيِّرة)

قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ (الآيات: ١٨ ـ ٢٤)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن بين الله تعالى حال المخلفين عام الحديبية، عاد إلى بيان حال الذين بايعوا تحت

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٧٩.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٧٩.

الشجرة، وذكروا فيما تقدم في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾، فأبان جزاءهم في الدنيا والآخرة، وهو الظفر بغنائم كثيرة من خيبر، وأخبر الله عن رضاه عن أهل تلك البيعة في الآخرة، لصدق إيمانهم، وإخلاصهم في بيعتهم، وإنزال السكينة (الطمأنينة) عليهم وتثبيت قلوبهم وأقدامهم. والخلاصة: لما ذكر تعالى حال مَن تخلف عن السفر مع الرسول ﷺ ذكر حال المؤمنين الخُلَّص الذين سافروا معه. والآية دالة على رضى الله تعالى عنهم ولذا سميت بيعة الرضوان.

وبعد أن وعد الله تعالى أهل الحديبية بمغانم خيبر، أردفه بذكر نعم كثيرة أخرى:

أولها: أن ما أتاهم من الفتح والمغانم ليس هو كل الثواب، بل وعدهم مغانم كثيرة من غير تعيين، وكل ما غنموه كان منها، والله سبحانه كان عالماً بها.

وثانيها: وعدهم بغنائم هوازن وفارس والروم وغيرها من البلاد التي ستفتح.

وثالثها: الوعد بنصر المؤمنين وخذلان الكافرين، وتلك سنة الله القديمة.

ورابعها: امتنان الله على عباده المؤمنين بكفِّ أيدي المشركين عنهم في الحديبية[1].

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (وإنني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم من الله العلي العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين. أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكنون؛ وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهي الكريم، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود. وأحاول أن أستشعر بالذات شيئاً من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بآذانهم، أنهم هم، بأشخاصهم وأعيانهم، يقول الله عنهم. لقد رضي عنهم. ويحدد المكان الذي كانوا فيه، والهيئة التي كانوا عليها حين استحقوا هذا

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٨٢، ١٨٧.

الرضى: ﴿ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾.. يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق، على لسان ربه العظيم الجليل..

يا لله! كيف تلقوا ـ أولئك السعداء ـ تلك اللحظة القدسية، وذلك التبليغ الإلهي؟ التبليغ الذي يشير إلى كل أحد، في ذات نفسه، ويقول له: أنت.

أنت بذاتك. يبلغك الله. لقد رضي عنك. وأنت تبايع. تحت الشجرة! وعلم ما في نفسك. فأنزل السكينة عليك!

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فيسعد. يقول في نفسه: ألست أطمع أن أكون داخلاً في هذا العموم؟ ويقرأ أو يسمع: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ فيطمئن. يقول في نفسه: ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون. واحداً واحداً. أن الله يقصده بعينه وبذاته. ويبلغه: لقد رضي عنه! وعلم ما في نفسه. ورضي عما في نفسه! يا لله! إنه أمر مهول!

﴿ ۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾ ﴾.. علم ما في قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم. وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم. وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله ﷺ طائعين مسلمين صابرين.

﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ ﴾.. بهذا التعبير الذي يرسم السكينة نازلة في هينة وهدوء ووقار تضفي على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة، برداً وسلاماً وطمأنينة وارتياحاً.

﴿ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾.. هو هذا الصلح بظروفه التي جعلت منه فتحاً، وجعلته بدء فتوح كثيرة. قد يكون فتح خيبر واحداً منها. وهو الفتح الذي يذكره أغلب المفسرين على أنه هو هذا الفتح القريب الذي جعله الله للمسلمين[1].

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال: بينما نحن قائلون، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: يا أيها =

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾.. إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خيبر. وإما تالياً له، إن كان الفتح هو هذا الصلح، الذي تفرغ به المسلمون لفتوح شتى.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.. وهو تعقيب مناسب للآيات قبله. ففي الرضى والفتح والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة، كما تتجلى الحكمة والتدبير. وبهما يتم تحقيق الوعد الإلهي الكريم.

وبعد ذلك التبليغ العلوي الكريم للرسول الأمين عن المؤمنين المبايعين يتجه بالحديث إلى المؤمنين أنفسهم. الحديث عن هذا الصلح، أو عن هذا الفتح، الذي تلقوه صابرين مستسلمين:

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.. وهذه بشرى من الله للمؤمنين سمعوها وأيقنوها، وعلموا أن الله أعد لهم مغانم كثيرة، وعاشوا بعد ذلك ما عاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذي لا يخلف. وهنا يقول لهم: إنه قد عجَّل لهم هذه. وهذه قد تكون صلح الحديبية ـ كما روي عن ابن عباس ـ لتأكيد معنى أنه فتح ومغنم. وهو في حقيقته كذلك كما أسلفنا من قول رسول الله ﷺ، ومن وقائع الحال الناطقة بصدق هذا الاعتبار. كما أنها قد تكون فتح خيبر ـ كما روي عن مجاهد ـ باعتبار أنها أقرب غنيمة وقعت بعد الحديبية. والأول أقرب وأرجح.

ويمنُّ الله عليهم بأنه كفَّ أيدي الناس عنهم. وقد كفَّ الله عنهم أيدي المشركين من قريش كما كفَّ أيدي سواهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر. وهم قلة على كل حال، والناس كثرة. ولكنهم وفوا ببيعتهم، ونهضوا بتكاليفهم، فكفَّ الله أيدي الناس عنهم، وأمَّنهم.

= الناس البيعة البيعة، نزل روح القدس، فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فأنزل الله: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية. لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٥٠.

﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.. هذه الوقعة التي كرهوها في أول الأمر، وثقلت على نفوسهم. فالله ينبئهم أنها ستكون آية لهم، يرون فيها عواقب تدبير الله لهم. وجزاء طاعتهم لرسول الله واستسلامهم. مما يثبت في نفوسهم أنها شيء عظيم، وخير جزيل، ويلقي السكينة في قلوبهم والاطمئنان والرضى واليقين.

﴿ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾.. جزاء طاعتكم وامتثالكم وصدق سريرتكم. وهكذا يجمع لهم بين المغنم ينالونه، والهداية يرزقونها. فيتم لهم الخير من كل جانب. في كل جانب. في الأمر الذي كرهوه واستعظموه. وهكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار؛ ويربي قلوبهم على الطاعة المطلقة والامتثال.

كذلك يمنُّ عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه. لم يقدروا عليها بقوتهم، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره:

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.. وتختلف الروايات في هذه الأخرى. أهي فتح مكة؟ أهي فتح خيبر؟ أهي فتوح مملكتي كسرى وقيصر؟ أهي فتوح المسلمين التي تلت هذه الوقعة جميعاً؟

وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هي فتح مكة. بعد صلح الحديبية وبسبب من هذا الصلح. الذي لم يدم سوى عامين، ثم نقضه المشركون، ففتح الله مكة للمسلمين بلا قتال تقريباً. وهي التي استعصت عليهم من قبل، وهاجمتهم في عقر دارهم، وردتهم عام الحديبية. ثم أحاط الله بها، وسلمها لهم بلا قتال.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾.. فهذه بشرى ملفوفة في هذا الموضع، لم يحددها لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيباً من غيب الله. أشار إليه هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرضى والتطلع والاستبشار.

وبمناسبة هذه الإشارة إلى الغنيمة الحاضرة، والغنيمة التي قد أحاط الله بها، وهم في

انتظارها، يقرر لهم أنهم منصورون؛ وأن الصلح في هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف. أو لأن المشركين أقوياء. ولكنه تم لحكمة يريدها. ولو قاتلهم الذين كفروا لهزموا. فتلك سنة الله حيثما التقى المؤمنون والكافرون في موقعة فاصلة:

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.. وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التي لا تتبدل. فأية سكينة؟ وأية ثقة؟ وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم؛ وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سننه الجارية في هذا الوجود؟ وهي سنة دائمة لا تتبدل. ولكنها قد تتأخر إلى أجل. ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم، واستقامتهم الاستقامة التي يعرفها الله لهم. أو تتعلق بتهيئة الجو الذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين، لتكون له قيمته وأثره. أو لغير هذا وذلك مما يعلمه الله. ولكن السنة لا تتخلف. والله أصدق القائلين:﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾...

كذلك يمنُّ عليهم بكفِّ أيدي المشركين عنهم، وكفِّ أيديهم عن المشركين من بعد ما أظفرهم على مَن هاجموهم. مشيراً إلى ذلك الحادث الذي أراد أربعون من المشركين أو أكثر أو أقل أن ينالوا من معسكر المسلمين. فأخذوا وعفا عنهم رسول الله ﷺ:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾[1]. وهو حادث وقع، يعرفه السامعون[2]؛ والله يذكره لهم في هذا الأسلوب،

---

(١) قرأ أبو عمرو: (وكان الله بما يعملون بصيراً) بالياء، وقرأها الباقون بالتاء. انظر: جامع البيان، الداني: ٤/ ١٥٩٥.

(٢) عن أنس أن ثمانين هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه فأخذوا أخذاً فأعتقهم رسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم ﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الفتح، رقم الحديث: ٣١٨٧، وأسباب النزول، الواحدي: ص: ٢٧٢، ولباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٥٠.

ليرد كل حركة وكل حادث وقع لهم إلى تدبيره المباشر؛ وليوقع في قلوبهم هذا الإحساس المعين بيد الله سبحانه، وهي تدبر لهم كل شيء، وتقود خطاهم، كما تقود خواطرهم، ليسلموا أنفسهم كلها لله، بلا تردد ولا تلفت، ويدخلوا بهذا في السلم كافة، بكل مشاعرهم وخواطرهم، واتجاههم ونشاطهم؛ موقنين أن الأمر كله لله، وأن الخيرة ما اختاره الله، وأنهم مسيرون بقدره ومشيئته فيما يختارون وفيما يرفضون. وأنه يريد بهم الخير.

فإذا استسلموا له تحقق لهم الخير كله من أيسر طريق. وهو بصير بهم، ظاهرهم وخافيهم فهو يختار لهم عن علم وعن بصر. ولن يضيعهم، ولن يضيع عليهم شيئاً يستحقونه: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾[١].

دروس وعبر من المقطع الرابع:

١ـ جازى الله تعالى أهل بيعة الرضوان بجزاءين: مادي ومعنوي.

أما المعنوي: فهو إسباغ الرضى الإلهي عليهم، وإنزال السكينة والطمأنينة على قلوبهم بسبب ما علمه في نفوسهم من الصدق والوفاء والسمع والطاعة.

وأما الجزاء المادي: فهو فتح خيبر أو فتح مكة، وغنائم خيبر وأموالها، فقسمها عليهم وكانت خيبر ذات عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكة، أو غنائم فارس والروم[٢].

٢ـ وعد الله عباده المؤمنين مغانم وفتوحات أخرى إلى يوم القيامة؛ منها: غنائم هوازن، وغنائم فارس والروم، وذلك قبل حدوثها، ولم يكونوا يرجونها، حتى أخبرهم الله بها، وهذا من الإخبار عن المغيبات، وهو دالٌّ على إعجاز القرآن، وأنه من عند الله تعالى، وأن الرسول ﷺ صادق في نبوته[٣].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣٢٥.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٨٤.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٩٠.

٣ـ تمثَّل كفُّ أيدي المشركين عن المسلمين في التنبه إلى غدرهم قبل وقوعه، وكفُّ أيدي المسلمين حين أمر رسول الله ﷺ بالعفو عنهم وإطلاقهم.

ويُعدُّ الكفُّ عن القتال الذي وقع يوم الحديبية منَّةً قد يسَّره الله تعالى رفقاً بالمسلمين، وإبقاءً على قوتهم في وقت حاجتهم إلى ذلك بعد وقعة بدر وأحد، وفي حادثة إطلاق سراح النفر الثمانين تحريض على العمل الصالح، لأن من استشعر أن الله يُبصر عمله أصلحه، وفيه إشارة إلى أن الإسلام حريص على حقن الدماء وصيانة الأنفس، وقد فعل النبي ﷺ ذلك تجنباً لما يعكر صفو الصلح[1].

٤ـ جمهور المفسرين حملوا (بطن مكة) في الآية على الحديبية من إطلاق البطن أسفل المكان، والمراد بالظفر في الآية ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ صلح الحديبية لا فتح مكة.

والصحيح أن الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكة، ولهذا استشهد أبو حنيفة رحمه الله تعالى بالآية على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً[2].

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ٢٦/ ١٨٤، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٣/ ٤٥٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٨٢، وتفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٤٩٥، والكشاف، الزمخشري: ٤/ ٣٤٤، وفتح البيان، صديق حسن خان: ٩/ ٥٣، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٨٩.

المقطع الخامس: (أسباب وآثار صلح الحديبية)

قال الله تعالى:﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ (الآيات: ٢٥ ـ ٢٦)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد أن ذكر الله تعالى امتنانه العظيم على المؤمنين إذ كفَّ عنهم أيدي الكافرين من قريش، وكفَّ أيدي المؤمنين على الكافرين، وأبرم بينهم ميثاق صلح الحديبية، أبان تعالى أسباب هذا الكف المتبادل، وأوضح حكمة المصالحة بقوله تعالى:﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ ﴾ حفاظاً عليهم، ومن أجل نشر دين الإسلام ودخول الناس فيه، وتبديد آثار الأنفة والحمية الجاهلية التي لا تستند إلى برهان معقول، وإنزال السكينة والطمأنينة والثبات على قلب الرسول ﷺ وأتباعه المؤمنين، وإلزامهم الوفاء بالعهود.

وقد ورد في بعض روايات صلح الحديبية: أنه لما هَمَّ رسول الله ﷺ بقتال كفار قريش، بعثوا سهيل بن عمرو، وحُوَيْطب بن عبد العُزَّى، ومِكْرز بن حفص، ليسألوه أن يرجع إلى عامه، على أن تُخْلي قريش مكة من العام المقبل ثلاثة أيام، فأجابهم، وكتبوا بينهم كتاباً، على النحو المذكور آنفاً(١).

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (ثم يحدثهم عن خصومهم، مَن هم في ميزان الله؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم وصدهم للمؤمنين عن بيته الحرام. وكيف ينظر إليهم هم عكس ما

---

(١) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٩٣.

ينظر إلى خصومهم المعتدين:

هم في ميزان الله واعتباره، الكافرون حقاً، الذين يستحقون هذا الوصف الكريه: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾.. يسجله عليهم كأنهم متفردون به، عريقون في النسبة إليه، فهم أكره شيء إلى الله الذي يكره الكفر والكافرين! كذلك يسجل عليهم فعلهم الكريه الآخر، وهو صدهم للمؤمنين عن المسجد الحرام، وصد الهدي وتركه محبوساً عن الوصول إلى محل ذبحه المشروع:

﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾. وهي كبيرة في الجاهلية وفي الإسلام. كبيرة في الأديان كلها التي يعرفونها في الجزيرة من لدن أبيهم إبراهيم. كريهة في عرفهم وفي عقيدتهم وفي عقيدة المؤمنين.. فلم يكن إذن كفُّ الله للمؤمنين عنهم بقياً عليهم لأن جرمهم صغير. كلا! إنما كان ذلك لحكمة أخرى يتلطف الله سبحانه فيكشف عنها للمؤمنين:

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾..

فلقد كان هنالك بعض المستضعفين من المسلمين في مكة لم يهاجروا، ولم يعلنوا إسلامهم تقية في وسط المشركين. ولو دارت الحرب، وهاجم المسلمون مكة، وهم لا يعرفون أشخاصهم، فربما وطؤوهم وداسوهم وقتلوهم. فيقال: إن المسلمين يقتلون المسلمين! ويلزمون بدياتهم حين يتبين أنهم قتلوا خطأً وهم مسلمون..

ثم هنالك حكمة أخرى، وهي أن الله يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام، مَن قسمت له الهداية، ومَن قدر له الله الدخول في رحمته، بما يعلمه من طبيعته وحقيقته[1]؛ ولو تميز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين في القتال، ولعذب الكافرين العذاب الأليم:

---

(١) أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة جنيد بن سبع قال: قاتلت النبي ﷺ أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وكنا ثلاثة رجال وسبع نسوة، وفينا نزلت: ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ ﴾ الآية. لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ص: ٢٥١.

﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.. وهكذا يكشف الله للجماعة المختارة الفريدة السعيدة عن جانب من حكمته المغيبة وراء تقديره وتدبيره. ويمضي في وصف الذين كفروا. وصف نفوسهم من الداخل. بعد تسجيل صفتهم وعملهم الظاهر:

﴿ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾.. حمية لا لعقيدة ولا لمنهج. إنما هي حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت. الحمية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله ﷺ ومن معه، يمنعونهم من المسجد الحرام، ويحبسون الهدي الذي ساقوه، أن يبلغ محله الذي ينحر فيه. مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة. كي لا تقول العرب، إنه دخلها عليهم عنوة. ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة في كل عرف ودين؛ وينتهكون حرمة البيت الحرام الذي يعيشون على حساب قداسته؛ وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في جاهلية ولا إسلام! وهي الحمية التي بدت في تجبيههم لكل من أشار عليهم أول الأمر بخطة مسالمة، وعاب عليهم صدّ محمد ومَن معه عن بيت الله الحرام.

وهي كذلك التي تبدت في رد سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم، ولصفة رسول الله ﷺ في أثناء الكتابة. وهي كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعجرفة المتعنتة بغير حق.

وقد جعل الله الحمية في نفوسهم على هذا النحو الجاهلي، لما يعلمه في نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له. فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية. وأحل محلها السكينة والتقوى:

﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ ﴾

والسكينة الوقورة الهادئة، كالتقوى المتحرجة المتواضعة كلتاهما تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه، الساكن بهذه الصلة. المطمئن بما فيه من ثقة. المراقب لربه في كل خالجة وكل حركة، فلا يتبطَّر ولا يطغى؛ ولا يغضب لذاته، إنما يغضب لربه ودينه. فإذا أمر أن يسكن ويهدأ

خشع وأطاع، في رضى وطمأنينة.

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى، وكانوا أهلها. وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم. إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة، وما أودع فيها من تقوى.

فهم قد استحقوها في ميزان الله، وبشهادته؛ وهو تكريم بعد تكريم، صادر عن علم وتقدير: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾[١].

دروس وعبر من المقطع الخامس:

١ـ استدل العلماء على وجوب مراعاة حرمة المؤمن والامتناع من قتله إذا اختلط بالكفار، إلا لمصلحة، ويشترط لهذه المصلحة أن تكون قطعية الحصول بقتل الترس، كلية؛ أي تفيد كل الأمة، ضرورية؛ فلا يحصل الوصول إلى الكفار إلا بقتل الترس. ولا خلاف في اعتبار قيود هذه المصلحة، فالمفترض أن الترس مقتول قطعاً، إما بأيدي العدو، فتحصل المفسدة العظيمة باستيلاء العدو على المسلمين، أو بأيدي المسلمين، فيهلك العدو وينجو المسلمون.

كما لا خلاف في أنه لا يجوز تعمد المسلمين المترس بهم بالقتل.

وهل تجب الدية والكفارة؟ فيه خلاف: قال الحنفية: لا دية ولا كفارة، وقال الشافعية والمالكية: تجب الدية والكفارة. وقال الثوري: فيه الكفارة ولا دية له، بل منع مالك حرق سفينة الكفار إذا كان فيها أسرى مسلمون، لأن التوصل إلى المباح بالمحظور لا يجوز، ولا سيما بروح المسلم[٢].

٢ـ في الآية لطائف معنوية؛ وهو أنه تعالى أبان غاية البون بين الكافر والمؤمن. باين بين الفاعلَين، إذ فاعلُ جعل هو الكافر، وفاعلُ أنزل هو الله تعالى؛ وبين المفعولَين، إذ تلك حمية،

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣٢٥.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي: ٤/ ١٣٨، وأحكام القرآن، الجصاص: ٣/ ٣٩٤، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ١٩٧.

وهذه سكينة؛ وبين الإضافتين، أضاف الحمية إلى الجاهلية، وأضاف السكينة إلى نفسه. وبين الفعل جعل وأنزل؛ فالحمية مجعولة في الحال في العرض الذي لا يبقى، والسكينة كالمحفوظة في خزانة الرحمة فأنزلها. والحمية قبيحة مذمومة في نفسها وازدادت قبحاً بالإضافة إلى الجاهلية، والسكينة حسنة في نفسها وازدادت حسناً بإضافتها إلى الله تعالى. والعطف في فأنزل بالفاء لا بالواو يدل على المقابلة، تقول: أكرمني فأكرمته، فدلت على المجازاة للمقابلة، ولذلك جعل فأنزل.

ولما كان الرسول ﷺ هو الذي أجاب أولاً إلى الصلح، وكان المؤمنون عازمين على القتال، وأن لا يرجعوا إلى أهلهم إلا بعد فتح مكة أو النحر في المنحر، وأبوا إلا أن يكتبوا: محمد رسول الله ﷺ وباسم الله، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ولما سكن هو ﷺ للصلح، سكن المؤمنون، فقال: ﴿ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. ولما كان المؤمنون عند الله تعالى، ألزموا تلك الكلمة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣][1].

٣ـ في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ إشارة إلى علمه تعالى بالمؤمنين ودفع الكفار عنهم، وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحديبية، إذ كان سبباً لامتزاج العرب وإسلام كثير منهم، وعلوِّ كلمة الإسلام، وأمِن الناس في تلك المدة الحرب والفتنة، وانقاد إلى الإسلام كل من كان له فهم من العرب، وزاد عدد المسلمين في تلك المدة أضعاف ما كان من قبل، فكانوا عام الحديبية ألفاً وأربعمئة، وبعد ذلك بعامين ساروا إلى مكة بعشرة آلاف فارس[2].

٤ـ تمثلت حمِيَّة المشركين الموسومة بحميَّة الجاهلية بأَنَفَتهم من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة، والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم، ومنعهم من دخول مكة، وكانت حمِيَّة جاهلية لأنها بغير

---

(١) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٤٩٨، ومفاتيح الغيب، الرازي: ٢٨/ ١٠٢.

(٢) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٤٩٨، وتفسير المحرر الوجيز، ابن عطية: ١٣/ ٤٦٧.

حجة، وفي غير موضعها، وكان ذلك محض تعصب، لأنه إنما جاء ﷺ البيت معظماً للبيت لا يريد حرباً(١).

المقطع السادس: (تحقيق رؤيا النبي ﷺ وأوصافه وأصحابه)

قال الله تعالى:﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الآيات: ٢٧ ـ ٢٩)

مناسبة هذا المقطع لسابقه:

بعد بيان كون النبي ﷺ مرسلاً بالهدى ودين الحق، بين حال الرسول والمرسل إليهم، فأكد الشهادة في قوله:﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ بقوله:﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ ثم وصف صحابته بأوصاف عجيبة: هي الشدة على الأعداء، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة العبادة، والحرص على الثواب والرضى من الله، والتميز بالنور والضياء في الدنيا والآخرة، وبيان صفاتهم في كل من التوراة والإنجيل، والانتقال من الضعف إلى القوة والكثرة، وكونهم موعودين من الله بالمغفرة والجنة(٢).

(١) تفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٤٩٨، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٨٨.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ٢٠٥.

التفسير الإجمالي للمقطع:

قال صاحب الظلال في هذه السورة: (ولقد مرَّ بنا أن بعض المؤمنين الذين خرجوا مستبشرين برؤيا رسول الله ﷺ قد هالهم ألا تتحقق الرؤيا هذا العام؛ وأن يردوا عن المسجد الحرام. فالله يؤكد لهم صدق هذه الرؤيا، وينبئهم أنها منه، وأنها واقعة ولا بدَّ. وأن وراءها ما هو أكبر من دخول المسجد الحرام أيضاً:

﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾..

فأما البشرى الأولى. بشرى تصديق رؤيا رسول الله ﷺ ودخولهم المسجد الحرام آمنين، وتحليقهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة، لا يخافون.. فأما هذه فقد تحققت بعد عام واحد. ثم تحققت بصورة أكبر وأجلى بعد عامين اثنين من صلح الحديبية. إذ تم لهم فتح مكة، وغلبة دين الله عليها.

ولكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان؛ وهو يقول لهم:﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.. فالدخول واقع حتم، لأن الله أخبر به. ولكن المشيئة يجب أن تظل في نفوس المسلمين في صورتها الطليقة لا يقيدها شيء، حتى تستقر هذه الحقيقة في القلوب، وتصبح هي قاعدة التصور للمشيئة الإلهية. والقرآن يتكئ على هذا المعنى، ويقرر هذه الحقيقة، ويذكر هذا الاستثناء في كل موضع، حتى المواضع التي يذكر فيها وعد الله. ووعد الله لا يخلف. ولكن تعلق المشيئة به أبداً طليق. إنه أدب يلقيه الله في روع المؤمنين، ليستقر منهم في أعماق الضمير والشعور.

ونعود إلى قصة تحقيق هذا الوعد؛ فقد ذكرت الروايات أنه لما كان ذو القعدة من سنة سبع ـ أي العام التالي لصلح الحديبية ـ خرج رسول الله ﷺ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية.

فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدي ـ كما أحرم وساق الهدي في العام قبله ـ وسار أصحابه يلبُّون.

فلما كان ﷺ قريباً من مرِّ الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه. فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين، فذهبوا فأخبروا أهل مكة. فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمرِّ الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن ياجج، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قُرُبها كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص، فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. فقال ﷺ: «وما ذاك؟» قال: دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح. فقال ﷺ: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى ياجج» فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء!

وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً. وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه. فدخلها ﷺ وبين يديه أصحابه يلبُّون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذٌ بزمام الناقة يقودها. وهكذا صدقت رؤيا رسول الله ﷺ، وتحقق وعد الله[1].

ثم كان الفتح في العام الذي يليه. وظهر دين الله في مكة. ثم ظهر في الجزيرة كلها بعد. ثم تحقق وعد الله وبشراه الأخيرة حيث يقول:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا

---

(١) أخرج الفريابي وعبد بن حُميد والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال: أُري النبي ﷺ وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، فلما نحر الهدي بالحديبية قال أصحابه: أين رؤياك يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ﴾الآية. لباب النقول في أسباب النزول: السيوطي: ص: ٢٥١.

﴿٢٨﴾.. فلقد ظهر دين الحق، لا في الجزيرة وحدها، بل ظهر في المعمور من الأرض كلها قبل مضي نصف قرن من الزمان. ظهر في إمبراطورية كسرى كلها، وفي قسم كبير من إمبراطورية قيصر، وظهر في الهند وفي الصين، ثم في جنوب آسيا في الملايو وغيرها، وفي جزر الهند الشرقية (أندونيسيا).. وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس، ومنتصف القرن السابع الميلادي.

وما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله، حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها، وبخاصة في أوروبا وجزر البحر الأبيض. وانحسار قوة أهله في الأرض كلها بالقياس إلى القوى التي ظهرت في الشرق والغرب في هذا الزمان.

أجل ما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله، من حيث هو دين.

فهو الدين القوي بذاته، القوي بطبيعته، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهله! لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة، ومع نواميس الوجود الأصيلة؛ ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح، وحاجات العمران والتقدم، وحاجات البيئات المتنوعة، من ساكني الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب!

وما من صاحب دين غير الإسلام، ينظر في الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة، وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يسر واستقامة..

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.. فوعد الله قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية. ووعد الله ما يزال متحققاً في الصورة الموضوعية الثابتة؛ وما يزال هذا الدين ظاهراً على الدين كله في حقيقته. بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادراً على العمل والقيادة، في جميع الأحوال.

ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم! فغير أهله

يدركونها ويخشونها، ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب!

والآن نجيء إلى ختام السورة. ختامها بتلك الصورة الوضيئة التي يرسمها القرآن لواقع صحابة رسول الله ﷺ، وبذلك الثناء الكريم على تلك الجماعة الفريدة السعيدة التي رضي الله عنها، وبلغها رضاه فرداً فرداً:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩ ﴾. إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع. صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة. فلقطة تصور حالتهم مع الكفار، ومع أنفسهم:﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم: ﴿ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا ﴾.. ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيش بها: ﴿ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ ﴾.. ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم:﴿ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ﴾.. ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ ﴾ وهذه صفتهم فيها.. ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل..﴿ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ ﴾ ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ ﴿ فَٱسۡتَغۡلَظَ ﴾ ﴿ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ ﴿ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ﴾..

وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد ﷺ، صفته التي أنكرها سهيل بن عمرو ومَن وراءه من المشركين: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ ﴾.. ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع. والمؤمنون لهم حالات شتى، ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم، ونقط الارتكاز الأصيلة في هذه الحياة. وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة..

وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها. التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة.

إرادة التكريم واضحة، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم:﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾.. أشداء على الكفار، وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً. رحماء بينهم، وهم فقط إخوة دين. فهي الشدة لله، والرحمة لله. وهي الحمية للعقيدة، والسماحة للعقيدة. فليس لهم في أنفسهم شيء، ولا لأنفسهم فيهم شيء. وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها. يشتدون على أعدائهم فيها، ويلينون لإخوتهم فيها. قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى، ومن الانفعال لغير الله، والوشيجة التي تربطهم بالله.

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم، هيئة الركوع والسجود، وحالة العبادة:﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾.. والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم. ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم؛ فعبَّر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعاً سجداً.

واللقطة الثالثة مثلها، ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾.. فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة. كل ما يشغل بالهم، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم، هو فضل الله ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به.

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم، ونضحها على سماتهم: ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾.. سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف. وليست هذه السيما في النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله:﴿ مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾.. فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة. واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها. فهو أثر هذا الخشوع. أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء

والفراهة. ويحل مكانها التواضع النبيل، والشفافية الصافية، والوضاءة الهادئة، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً.

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة. إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر، ومن ثَمَّ فهي قديمة، جاء ذكرها في التوراة:

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾.. وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها.

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ ﴾.. وصفتهم في بشارته بمحمد ﷺ ومن معه، أنهم:﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾[1]. فهو زرع نام قوي، يخرج فرخه، من قوته وخصوبته. ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده.﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾[2]. أو أن العود آزر فرخه فشده.. ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ ﴾الزرع وضخمت ساقه وامتلأت.﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾[3] لا معوجاً ومحنياً. ولكن مستقيماً قوياً سوياً.. هذه صورته في ذاته.

فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع، العارفين بالنامي منه والذابل. المثمر منه والبائر. فهو وقع البهجة والإعجاب: ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾. وفي قراءة يعجب (الزارع)[4].. وهو رسول الله ﷺ صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج..

وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس. فهو وقع الغيظ والكمد: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ

(١) قرأ ابن كثير وابن عامر: (شطَئَه) بفتح الطاء والهمزة، وقرأها الباقون بسكون الطاء. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٠٤، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٥٩٤.

(٢) قرأ ابن عامر: (فأَزَرَهُ) مقصورة الهمزة مفتوحة، وقرأها الباقون بالمد. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٠٥، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٥٩٤.

(٣) قرأ ابن كثير: (سوقه) بهمز الواو، وقرأها الباقون بواو مدية غير مهموزة. انظر: كتاب السبعة لابن مجاهد: ص: ٦٠٥، وجامع البيان، الداني: ٤/ ١٥٩٦.

(٤) لم أقف على سند لهذه القراءة فيما اطلعت عليه من كتب القراءات المتواترة أو الشاذة.

ٱلۡكُفَّارَۗ ﴾.. وتعمد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزرعة هي زرعة الله. أو زرعة رسوله ﷺ، وأنهم ستار للقدرة، وأداة لإغاظة أعداء الله!

وهذا المثل كذلك ليس مستحدثاً، فهو ثابت في صفحة القدر. ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ﷺ ومن معه إلى هذه الأرض. ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ﷺ ومن معه حين يجيئون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة.. صحابة رسول الله ﷺ.. فتثبت في صلب الوجود كله، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يتسمع إليها من بارئ الوجود. وتبقى نموذجاً للأجيال، تحاول أن تحققها، لتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم:﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾.. وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعدما تقدم من صفتهم، التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة.

مغفرة وأجر عظيم.. وذلك التكريم وحده حسبهم. وذلك الرضى وحده أجر عظيم. ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ.

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم. وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم. وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله، وفي ميزان الله، وفي كتاب الله.

وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية، وقد نزلت هذه السورة، وقد قرئت عليهم. وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم. وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها هو في كيانه.

وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه.. ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه. إلا من بعيد؟! اللهم إلا مَن يكرمه الله إكرامهم: فيقرب

له البعيد؟! فاللهم إنك تعلم أنني أتطلع لهذا الزاد الفريد!!!)[١].

دروس وعبر من المقطع السادس:

١ـ أثبتت الآيات صفة النبوة والرسالة للنبي محمد ﷺ، كما وصفت أصحابه بثماني صفات، هي:

الأولى: الشدة والصلابة على الكفار.

الثانية: الرحمة والرأفة بالمؤمنين.

الثالثة: كثرة الأعمال الصالحة، وأهمها الصلاة.

الرابعة: الإخلاص في العبادة، وابتغاء الأجر والثواب.

الخامسة: يتميزون بعلامة النور والضياء والسمت الحسن.

السادسة: أوصافهم مسطرة في التوراة والإنجيل.

السابعة: كثرة الخير والبركة والنماء فيهم.

الثامنة: وعدهم الله بالمغفرة والثواب الدائم في الجنة.

٢ـ الصحابة كلهم عدول، أولياء الله تعالى وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة. وقد ذهبت شرذمة لا مبالاة بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم، فيلزم البحث عن عدالتهم. ومنهم من فرَّق بين حالهم في بداءة الأمر فقال: إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك، ثم تغيرت بهم الأحوال فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء، فلا بد من البحث.

وهذا مردود، فإن خيار الصحابة وفضلاءهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم رضي الله عنهم ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضي عنهم وأرضاهم، ووعدهم بالجنة بقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة بإخبار الرسول هم القدوة مع

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٦/ ٣٣٢٩.

علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لهم بذلك. وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم، إذ كانت تلك الأمور مبنية على الاجتهاد، وكل مجتهد مصيب[1].

٣- استنبط الإمام مالك من الآية تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم يغيظونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر. ووافقه كثير من العلماء، والظاهر أنهم فسَّاق. وقد ذكر عنده رجل ينتقص الصحابة فقرأ مالك هذه الآية، وقال: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته هذه الآية. قال بعض العلماء عن خلافات الصحابة والاقتتال الذي حدث بينهم: تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا، فلا نلوث بها ألسنتنا، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٩٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٤/ ١٩٨، وتفسير البحر المحيط، أبو حيان: ٩/ ٥٠٣، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٦/ ٢٩٧، وروح المعاني، الألوسي: ٢٦/ ١٢٨، والتفسير المنير، الزحيلي: ٢٦/ ٢١٠.

سورة الحجرات

بين يدي السورة

اسم السورة:

لم أقف لهذه السورة على اسم غير الذي اشتهرت به، وهو سورة الحجرات.

مرحلة نزول السورة

سورة الحجرات مدنية، نزلت عام الوفود في السنة التاسعة للهجرة، يدل على ذلك سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، كما سيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ، وهذا يعني أنها نزلت على مجتمع يغلب الإيمان عليه، ولذا نجد السور المدنية تتعاهد الغرس الإيماني الذي بذر في قلوب المؤمنين في الفترة المكية، من فتنظم حياة الناس، مهذبة كثيراً من شؤون حياتهم، بغية النهوض بهم؛ لإقامة مجتمع تسوده المحبة والإخاء.

لقد أراد القرآن من خلال سوره الكثيرة، ومنها هذه السورة، أن ينشئ مجتمعاً متحاباً متآخياً مترابطاً، ولذا وضع أسساً لهذا المجتمع من أهمها: الإيمان، والأخوة، والعدل، والمساواة... وقد عنيت هذه السورة الكريمة ـ على وجازتها بهذه الأسس أيّما عناية، وإننا لنلمس من تأخر نزول السورة، أن من أفراد المجتمع من قد ارتقى في سلم الإيمان، حتى صار رفع الصوت بحضرة النبي ﷺ يوجب التنبيه عليه، والنهي عنه...، كما أن هناك من قد يخل بمقتضيات الأخوة، فيسخر ويلمز ويتنابز ويغتاب... وإننا لنجد فئة من المجتمع حديثة عهد بالإسلام، لا تزال بحاجة إلى مزيد من الرعاية والتوجيه، حتى في القضايا المتعلقة بالإيمان وهناك فساق في المجتمع، ينبغي الحذر في التعامل معهم... وبذا تحدد هذه السورة منهجاً للتعامل مع فئات المجتمع المتعددة.

عدد آيات السورة

عدد آيات سورة الحجرات ثماني عشرة في عد الجميع بلا خلاف.[1]

محور السورة

يدور محور السورة حول بناء المجتمع، وذلك من خلال الأسس الربانية التي تضمنتها هذه السورة الكريمة، هذه الأسس التي من شأنها أن تقيم مجتمعاً متحاباً متآخياً متماسكاً.

تبدأ السورة في بيان ما ينبغي على المجتمع أن يفعله إزاء قادته، وهذا بيان ضمني بأن المجتمعات لا بد لها من قيادة تسوسها، وإلا عمت الفوضى أرجاءه، هذه القيادة ينبغي أن يسمع لها الأتباع، لا أن تكون آراؤهم قبلها، فضلاً عن أن تخالفها...

ثم بينت أنه ينبغي الأدب معها.

بعدها كان الحديث عن نموذجٍ لتجاوز الأدب، فجاء التنبيه والتوجيه.

ولخطورة الشائعات وأثرها في هدم كيان المجتمع، يأتي ما يوضح منهج التعامل مع نبأ الفاسق، وفي الوقت نفسه، تنبه المصلحين لعدم اليأس، فلن ينصلح أمر المجتمع كله، بل سيبقى فيه فساق...

ولأن الاقتتال قد يقع، بسبب نبأ الفاسق، أو لأي سبب آخر، فقد بين القرآن كيفية التعامل مع هذه المشكلة، للوصول إلى الصلح، فذكَّر بالعدل، لكونه من أهم الأسس التي تبنى عليها المجتمعات، العدل مع الفئة الباغية التي رفضت الانصياع لنداءات الصلح، واستمرت حتى أطلق عليها وصف الفئة الباغية، ومع ذلك يأمر القرآن بالعدل معها، ثم يؤكد هذا الأمر بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، المقسطين في أمورهم كلها، الذين يجعلون العدل أساساً لتعاملاتهم. ولتأكيد هذا العموم، نجد أن الآيات التي نهت عن صور من الانتقاص

---

(١) فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن، ابن الجوزي/ ١٤١، وانظر بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي١/ ٤٣٥.

التي تحصل بين أفراد المجتمع قد ختمت بـ ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

ثم يقرر بعدها قاعدة عظيمة، وهي الأخوة؛ لكونها أساساً لبناء المجتمع، ولكونها أيضاً مما يصونه ويحميه من الاقتتال، ويحمي من ينتدب للاصلاح، فالكل أخوة، وعلى هذا الأساس أصلحوا بين أخويكم، وعلى هذا الأساس ينبغي أن لاتجوروا، ولتكن التقوى دافعكم، لعلكم ترحمون.

ثم تتوالى الآيات لتقتلع أسباب الخصام، الذي قد يؤدي إلى الاقتتال، وهي أمور لا يمكن أن تكون صفات لمجتمع متماسك ينشد الرقي والتحضر، ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾، ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾، ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾، ثم تفتح باباً للأمل وهو التوبة، والتوبة عامل مهم لإصلاح المجتمع، فلولاها لأصر الباغي على بغيه، وانتشر الظالمون، وخيم الفساد، ولتأثر بهم بعض أفراد المجتمع.

لقد أكدت هذه السورة الكريمة أهمية التوبة في مواضع شتى، أولها مع الذين رفعوا أصواتهم، ثم عادوا وامتثلوا الأمر الرباني، فجوزوا بـ ﴿ مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾، ثم للذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، بشرى وأمل ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، بل إن الآيات التي تضمنت منهيات كثيرة، بشر مرتكبوها ـ إن هم اتقوا الله بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾، وأخيراً الأعراب الذين قالوا آمنا، مدعين لأنفسهم هذا المنزلة، وُعدوا إن هم أطاعوا الله ورسوله بقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

إن هؤلاء الذين حادوا عن الجادة، هم لبنات ضعيفة، فإذا ما أهملت، أوجوبهت بالرفض من بقية أفراد المجتمع، فإنهم سيكونون معاول هدم في بقية اللبنات، وخصوصاً إذا علموا أن لا مكان لهم في العودة إلى المجتمع من جديد، فكان المنهج الرباني فريداً في التعامل معهم، وهذا كله من رحمة الله، فلكونه رحيماً تاب وغفر. ولكن السورة في الوقت نفسه، حذرت من إهمال التوبة تحذيراً شديداً، ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، فكأنه لا ظالم إلا هم.

وللغيبة أثرها السيء في إثارة الكراهية بين أفراد المجتمع، ولذا كان لها نصيب من التوجيهات، لكي يسلم المجتمع منها ومن ويلاتها.

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾؛ ليبين أن الناس جميعاً مخلوقون من ذكر وأنثى، فلا مجال للتفاخر، الذي هو مدعاة للسخرية... وقد هدم الإسلام التفاخر بالأنساب؛ لكون غيرها من أنواع التفاخر، كالمال والجمال دونها....

ثم تذكر السورة الجانب الإيماني الذي هوأعظم أسس بناء المجتمع، يعرضه أمراً واقعاً، من خلال وفد ادعى لنفسه منزلة الإيمان، وهو لمّا يصل إليها بعد، فجاءت الآيات الكريمات لتوضح حقيقة الإيمان، لترتقي بمن شاء لهذا السمو، فبينت أموراً لابد من توافرها ليصبح المرء كامل الإيمان.

وينتظم السورة أمر مهم جداً، هو الرقابة الداخلية، فابتداء بالافتتاحية ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ مروراً بـ ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ وغيرها، وانتهاء بـ ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾، كل ذلك يأتي ليغرس في الفرد، هذه الرقابة، التي لا تتأثر بوجود أجهزة للمراقبة، أو انعدامها، فهي توقن أن الله يرى مكانها، ويسمع كلامها، ويعلم نواياها.

ولذا فإن تحقيق بناء المجتمع، يتم بعاملين: خارجي، وداخلي، وعليهما يتم البناء.

مناسبات السورة

أولاً: المناسبة بين محور السورة ومرحلة نزولها[1].

تبدو المناسبة شديدة الترابط بين محور السورة ومرحلة نزولها، فالمحور هو بناء المجتمع

---

(١) قد تقرر أن من وسائل التعرف على محور السورة الوقوف على المرحلة الزمنية التي نزلت فيها. انظر مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم/ ٤١-٤٢. وقد رأيت أن مرحلة نزول السورة ألصق بالمحور الذي اخترته من اسمها.

والمرحلة مدنية متأخرة، وكما هو معلوم فإن السور المكية قد عنيت بغرس الإيمان في القلوب وبيان أصول الإخلاق الفاضلة، وما أن تكونت الدولة الإسلامية في المدينة، حتى شرعت الآيات الكريمة تبني هذا المجتمع؛ لتسمو به في مدارج الرقي، حتى تصل به إلى الإحسان فخطت للفرد من الأسس، ما يهذب قلبه وجسده، بصورة متناسقة متآخية، لا يطغى جانب على جانب. لينشأ النقي التقي القوي، وليتكون من هذا الفرد لبنة تُضَم لباقي اللبنات، فتعلي صرح مجتمع قوي متماسك، متعلق بأقوى العرى.

كما أنها حفلت بالكثير من التوجيهات التي تقي هذا المجتمع من التصدع، فحذرت من تلقي أخبار الفساق بالقبول المطلق، مبينة المنهج الذي ينبغى أن يتبع، كما أنها نبهت إلى خطورة ما قد يتهاون فيه من السخرية واللمز... فبالإضافة إلى كونها توهي بناء الفرد، من حيث كون ما يفعله يزعزع إيمانه ويضعف خلقه، ومن ثم ينقله إلى زمرة الفساق ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾، فإنها تخلخل بناء المجتمع، إذ هو مجموع هذه اللبنات.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت السورة بالنهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، مبينة أن الله عز وجل سميع عليم، كما نهت عن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ، والجهر له بالقول كما يجهر بعضنا لبعض ثم بينت جزاء من يمتثل أمر الله عز وجل فيغض صوته عند رسول الله ﷺ، بأنهم قد امتحن الله تعالى قلوبهم للتقوى، ولاشك أن علم ما في القلوب غيبي، فكان أن ختمت السورة ببيان سعة علم الله عز وجل، وأنه يعلم غيب السموات والأرض، وأن كل ما نعمله فإن الله تعالى يبصره، فوجب على العاقل الامتثال لأوامر الله عز وجل، ومعلوم أن العلم بالشيء يقتضي المجازاة عليه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

يضاف إلى هذا أن السورة ابتدأت بأن الله سميع عليم، وختمت بتأكيد علم الله وأنه ﴿ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وبأنه ﴿ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ماقبلها:

ختمت سورة الفتح بقول الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩]، وافتتحت سورة الحجرات بما سبق ذكره.

وقد ذكر العلماء أكثر من مناسبة فيما بين السورتين، نذكر منها:

قال أبو حيان: « ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة، لأنه ذكر رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم قال: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، فربما صدر من المؤمن عامل الصالحات بعض شيء مما ينبغي أن ينهى عنه، فقال تعالى: ﴿ رَّحِيمٌ ﴾»[1].

ومنها: «أن الله تعالى لما بيّن محل النبي عليه الصلاة والسلام وعلو درجته، بكونه رسوله الذي يظهر دينه، وذكره بأنه رحيم بالمؤمنين بقوله: ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، قال: لا تتركوا من احترامه شيئاً، لا بالفعل ولا بالقول، ولا تغتروا برأفته، وانظروا إلى رفعة درجته.

[ومنها] أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم أشداء [على الكفار] ورحماء فيما بينهم، راكعين ساجدين نظراً إلى جانب الله تعالى، وذكر أن لهم من الحرمة عند الله ما أورثهم حسن الثناء في الكتب المتقدمة بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الفتح: ٢٩]، فإن الملك العظيم لا يذكر أحداً في غيبته إلا إذا كان عنده محترماً، ووعدهم بالأجر العظيم، فقال في هذه السورة: لا تفعلوا ما يوجب انحطاط درجتكم وإحباط حسناتكم ولا تقدموا»[2].

لما ختمت سورة الفتح باسم محمد ﷺ، ومُدِحَ الصحابة رضوان الله تعالى عليهم لأجله،

(١) البحر المحيط، أبو حيان٨/ ١٠٥.

(٢) التفسير الكبير، الرازي٢٨/ ١١٠، وزِيدَ ما بين المعقوفين.

افتتحت هذه السورة بعدم التقدم عليه، واشتراط الأدب معه في القول والفعل، للعد من حزبه والفوز بقربه. (١)

ورد في خاتمة سورة الفتح ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾، وفي سورة الحجرات ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾، فكأن هذه الآية تبين أن غض الصوت بحضرة النبي ﷺ من مقتضيات الإيمان، كما أنه جزء من العمل الصالح.

رابعاً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

ذكر الله تعالى في بداية سورة الفتح رفعة منزلة النبي ﷺ، وأن الله تعالى أراد له المنزلة العالية، قال تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ وفي افتتاحية سورة الحجرات ما يؤكد هذا المعنى، فنبه الصحابة إلى توقير النبي ﷺ فنهى عن التقدم بين يديه... فعطَف النهيَ عن التقدم بين يدي رسول الله ﷺ على التقدم بين يدي الله عز وجل، ولا شك أن في ذلك تشريفاً ورفعة، كما أنه ﷺ وُصف بالرسول دون ذكر اسمه المجرد، وأضيف إلى المولى عز وجل إضافة تشريف، كما ذم رفع الصوت بحضرته وعند مخاطبته، وكل ذلك تشريف له ﷺ، وانظر إلى ما ورد في سورة الفتح من قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا ﴾؛ لتدرك ما بينهما من ارتباط، ثم عرِّج على ما نص عليه في سورة الحجرات ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ ﴾....

تحدثت السورتان عن الصحابة رضي الله عنهم، ففي سورة الفتح: هم المؤمنون الذين أنزل الله في قلوبهم السكينة ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم...، وهم الذين سيدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار...، وهم الذين بايعوا الرسول ﷺ، وهم بهذه البيعة إنما يبايعون الله عز وجل،.... وهم الذين رضي الله عنهم؛ لبيعتهم رسول الله ﷺ تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم... وهم الذين أنزل الله سكينته على رسوله وعليهم، يوم جعل الذين كفروا

---

(١) انظر نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٢٢٠.

في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها...، وهم من وصفهم ربهم بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في..

هذا مما ورد في سورة الفتح، فماذا في سورة الحجرات:

إن هؤلاء الصحابة مهما بلغوا من المنزلة فهم غير معصومين، وهم ليسوا فوق النقد ومن ثم تأتي التوجيهات الربانية؛ لتبين كيف ينبغي على هؤلاء الصحابة الكرام الذين بلغوا هذه المنزلة العظيمة أن يتعاملوا مع نبيهم ﷺ، وقد كان التوجيه لأفضل الصحابة على الاطلاق.

ثم يأتي الثناء على الغاضين، ويدخل فيهم مَن نزلت الآيات بشأنه، فقد ورد في السنة ما يبين أنهم امتثلوا للأوامر الربانية، ففي صحيح البخاري بعد ذكر سبب النزول الذي سيأتي ذكره[1]: «قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ، حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ. وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ[2] ولذا وصفوا بأنهم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، فهم قد اختبر الله تعالى قلوبهم، فاصطفاها وأخلصها للتقوى، [3] وبأن لهم مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها، وأجراً عظيماً، وهو الجنة. وقارن بما بيناه في سورة الفتح، ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾.

نجد بعد ذلك الإشارة إلى تشريف الصحابة رضي الله عنهم، فقد اختارهم العليم الخبير لصحبة نبيه ﷺ، ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾قال البقاعي: «أي: على وجه الاختصاص لكم

---

(١) عند المعنى الإجمالي للافتتاحية.

(٢) صحيح البخاري، رقم/ ٤٨٤٥، أما ما روي عن أبى بكر الصديق ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ قلت: يا رسول الله، والله لا أكلمك إلا كأخى السرار. فقد قال الهيثمي: « رواه البزار، وفيه حصين بن عمر الأحمسي، وهو متروك. وقد وثقه العجلى، وبقية رجاله رجال الصحيح». مجمع الزوائد ٧/ ١٠٨.

(٣) انظر جامع البيان، الطبري١١/ ٣٨١.

ويا له من شرف». [١] ثم التصريح بأن الله حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثم وصفوا بأنهم الكاملون في الرشاد، وأن هذا تفضل من الله ونعمة، والله عليم بمن يستحق هذا الفضل والإنعام، حكيم يضع الأمر فيمن يستحقه.

ثم لو نظرنا لمحور سورة الحجرات الذي اخترناه، لتبينَ أن السورة كما أسلفنا تريد أن تسمو بهذا الصحب الكريم إلى آفاق عالية، بفضل التوجيهات الربانية التي وردت في أثناء هذه السورة الكريمة، لتبني بهم مجتمعاً يكون قدوةً للمجتمعات من بعده.

ومن المناسبات بين السورتين ما نجده من ذكر الأعراب، وهذا واضح بين، فقد شغل حيزاً في السورتين، وبقليل من التأمل يظهر المقصود بإذن الله تعالى.

إلى غير ذلك. والله تعالى أعلم.

افتتاحية السورة

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾.

المعنى الإجمالي

بالتأمل في محور السورة نستطيع أن نتبين أن افتتاحية السورة قد أخذت منها حيزاً كبيراً، فهي تريد أن تنشئ مجتمعاً على هدي من الوحي، ولذا فقد تقدمت عملية بناء المجتمع افتتاحية، تضمنت بيان أن هذا المجتمع الذي يراد بناؤه، لا بد له من قيادة، وهذه القيادة يلزم المنقادين

---

(١) نظم الدرر ٧/ ٢٢٨.

لها المؤمنين بشرعيتها التقيد بأمور، ينبغي أن يسلموا بها قبل البدء ببيان كيف يكون البناء، وإلا لكان الحديث بعد ذلك لا طائل من ورائه.

ابتدأت الافتتاحية بقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١ ﴾، ولهذه الآية سبب نزول يحسن إيراده هنا؛ ليتضح المعنى، فقد أخرج البخاري بسنده عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَبُو بكر: أَمِّرْ الْقَعْقَاعَ بْنَ مَعْبَدِ بْنِ زُرَارَةَ. قَالَ عُمر: بَلْ أَمِّرْ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا أَرَدْتَ إِلا خِلافِي. قَالَ عُمَرُ: مَا أَرَدْتُ خِلافَكَ. فَتَمَارَيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا. فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ ﴾ حَتَّى انْقَضَتْ. [١]

يخاطب الله تعالى من آمن به، وأقر بوحدانيته، بأن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله ويتحرر من كلام العلماء أن التقدم على نوعين:

الأول: السبق في القول والعمل، وإن لم يكن فيه مخالفة، وفي هذا يقول ابن كثير: «لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور». [٢]

الثاني: أن لايقولوا ما يخالف الكتاب والسنة[٣].

وبناء على هذا التقسيم، ومن دراسة سبب النزول نعلم أن مافعله الشيخان، لا يعدو أن يكون اقتراحاً أبدوه، لكنهم تقدموا، أي: سبقوا باقتراحهما قول رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، بيد أنهما لم يخالفاه ـ وحاشاهما ـ أضف إلى ذلك أنه لم يكن ثمة نهي قد نزل بهذا الشأن، فنزلت هذه الآيات؛ تعليماً لهما، وللأمة ما الذي ينبغي عند مخاطبة النبي ﷺ. والله تعالى أعلم.

---

(١) صحيح البخاري برقم/ ٤٣٦٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٤/ ٢٦٠.

(٣) هذا تفسير ابن عباس رضي الله عنهما، انظر جامع البيان١١/ ٣٧٧.

وقد جمع الإمام الطبري بين القولين فقال: «لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله». [(١)] ومما ينبغي أن يعلم أن النهي يشمل.

والنهي عن التقدم عام، يشمل الأقوال والأفعال، وسواء قدم المرء قوله أو قول غيره وسواء قدم عقله أو عقل غيره... [(٢)].

ثم أمرهم عز وجل بأن يخافوا الله تعالى في كل ما يأتون وما يذرون من أمورهم، فلا يبدر منهم ما لم يأذن به الله عز وجل أو رسوله ﷺ، كما يأمرهم أن يراقبوه عز وجل؛ لأنه سميع لأقوالهم، عليم بأفعالهم وأحوالهم. [(٣)]

ثم نهى الله عز وجل من آمن بالله تعالى وصدق رسوله ﷺ، أن يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، وإن لم يكن هناك تقدم، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾.

ونعود إلى معنى الآية، فبعد أن نهت عن رفع الصوت عند رسول الله ﷺ، نهتهم أن يحدثوه كما يحدث بعضهم بعضاً إذا كلموه، بل لا بد أن يخفضوا أصواتهم، وإن ينادوه بـ: يا رسول الله، أو يا نبي الله، فتبين أن قوله تعالى: ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ ﴾ فيما إذا تُحُدِّث بحضرته، و﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ إذا كان الحديث معه ﷺ، ولعل ما يؤيد هذا أن ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ ﴾ وما قبلها، نزلت بشأن الشيخين رضي الله عنهما، وقد كانت أصواتهما قد ارتفعت بحضرة النبي ﷺ، أما ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ ﴾ فهي تمهيد لما حصل من الأعراب الذين نادوه ﷺ، فرفعوا أصواتهم، ونادوه باسمه ﷺ، وستأتي الآية المصرحة بذلك. فيعلم بذلك، أن التأدب معه ﷺ يكون في الأحوال كلها.

---

(١) جامع البيان١١/ ٣٧٧.

(٢) انظر لما سبق جامع البيان ١١/ ١٧٧-١٧٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٠، وبدائع التفسير، ابن القيم٤/ ١٧٧.

(٣) انظر جامع البيان ١١/ ٣٧٨، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٠، وأضواء البيان، الشنقيطي٧/ ٤٠٧.

ثم يأتي التحذير من مغبة المخالفة ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي: «إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده؛ خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله لغضبه، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري». [١] وقد ناقش بعض العلماء هذه القضية، وهي أن رفع الصوت من غير علم يحبط العمل، فبينوا أن المراد أن «عدم الانتهاء عن سوء الأدب مع الرسول ﷺ، يعوِّد النفسَ بالاسترسال فيه، فلا تزال تزداد منه وينقص توقير الرسول ﷺ من النفس، وتتولى من سيّيء إلى أشد منه، حتى يؤول إلى عدم الاكتراث بالتأدب معه، وذلك كفر». [٢]

وبعد هذا الترهيب الشديد، امتدح الله تعالى من يغض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن هؤلاء قد تبوؤا منزلة عالية، فهم قد اختبر الله تعالى قلوبهم، فاصطفاها وأخلصها للتقوى، كما يمتحن الذهب بالنار، فيخلص جيدها ويبطل خبثها. [٣]، ثم بين عز وجل جزاءهم: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، «عفو عن ذنوبهم السالفة، وصفح منه عنها لهم، ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وثواب جزيل، وهو الجنة». [٤]

هدايات الافتتاحية

* في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تشريف وتكريم لعباده المؤمنين، فإن الوصف بالإيمان فيه شرف كبير، ولذلك وصف به سبحانه حملة العرش ومن حوله ومدحهم بذلك، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧] [٥].
* وجوب كون المسلم تابعاً للكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١]، فالواجب هو الاتباع لا التقدم بين يدي الله ورسوله، ويدخل في هذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٦٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٢١.
(٣) انظر جامع البيان١١/ ٣٨١.
(٤) جامع البيان١١/ ٣٨١.
(٥) حول تفسير سورة الحجرات، الشيخ عبد الله سراج الدين/ ١١. بتصرف يسير.

كل تقدم، سواء أكان بالأقوال أو الأفعال أو..، وسواء كان التقديم لآرائنا أم لآراء غيرنا، فمن يقدم شرعاً وضعياً على شرع الله تعالى ورسوله، فقد شمله النهي الوارد فيها. يقول الشنقيطي: « ويدخل في ذلك دخولاً أولياً تشريع ما لم يأذن به الله، وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحلله؛ لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله، ولا حلال إلا ما أحله الله، ولا دين إلا ما شرعه الله». [1]

* في قوله تعالى: ﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ ما يؤدي إلى توحيد مصدر التلقي، وهو وحي رب العالمين، ولقد بين القرآن التفاوت بين من هذا حاله، وبين من تعددت مصادر تلقيه، يقول عز وجل: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزمر: ٢٩]، وهذا الأمر يعصم الفرد من الحيرة والتمزق اللذين يفسدان حياته، [2] كما أنه عامل مهم في تجانس أفراد المجتمع. [3]

* عظم منزلة النبي ﷺ، ولذا ينبغي أن لا يُسبق بقول أو فعل أو عقل، كما أنه لا ينبغي أن ترفع الأصوات بحضرته، وهنا نبين أن على المسلم أن يتأدب بهذا الأدب عند زيارته للنبي ﷺ، كما أن عليه أن يراعيه مع سنته من بعده. فلا يرفع من صوته إذا قرئت. ولا يتقدم عليها إذا ما ثبتت.

* مما ينبغي أيضاً عند الحديث عن النبي ﷺ ألا يذكر اسمه مجرداً، بل لا بد أن يسبق اسمه الشريف بالنبي أو الرسول. وأن يقرن بالصلاة والسلام عليه.

* مما يدخل تحت التقدم بين يدي الله وسوله، ما يفعله بعض الناس من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، وهي أشد أنواع التقدم، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك فقال: (... فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلافاً كَثِيراً، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّهَا ضَلالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ

---

(١) أضواء البيان٧/ ٤٠٧.

(٢) منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام، محسن عبد الحميد/ ٤٤

(٣) القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، عبد المجيد مسعود/ ٨٠.

ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ). (١)

فالدين قد اكتمل، ولا مجال للعقول أن تستدرك على الشرع. (٢)

* ما يفعله بعض المتصدرين للفتوى من تسرع، لا شك أنه داخل تحت قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فينبغي عدم التسرع والعجلة؛ لأنهم موقِّعون عن رب العالمين، وقد نهوا عن التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ، كما ينبغي عدم إعمال الرأي فيما لا مجال للعقل فيه. (٣)

* في قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ ﴾. دليل على علو منزلة النبي ﷺ ورفعة مقامه عند الله عز وجل،، فقد جعل الله تعالى للذين يغضون أصواتهم عنده، ويلتزمون الأدب معه أخلص مقامات التقوى وأصدقها وأنقاها. (٤) ووُعدوا على ذلك مغفرة وأجراً عظيماً.(٥)

* لا أحد من البشر يستغني عن التذكير ،فالشيخان الجليلان :أبو بكر وعمر رضي الله عنهما قد نبها.

* عناية الله تعالى بتهذيب عباده؛ للوصول بهم إلى درجات الكمال.

* خطورة اللسان، وأنه ينبغي الاحتراز منه ومن آفاته «إن الإسلام ينظر إلى الكلام على أنه عمل، وسوف يحاسب صاحبه على أعماله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر(٦)».

* روعة المنهج القرآني في التنبيه على الأخطاء، فالقرآن الكريم لم يصرح باسم من صدر عنه

---

(١) أخرجه أبو داود، برقم/ ٤٦٠٧، والترمذي، برقم٢٦٧٦. وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) انظر تفسير القرآن الكريم، (سورة الحجرات...)، ابن عثيمين ٨ـ١١.

(٣) انظر المصدر السابق / ١١.

(٤) انظر حول تفسير سورة الحجرات/ ٤١.

(٥) انظر المصدر السابق/ ٥٤.

(٦) بناء الأجيال، عبد الكريم بكار/ ٥٠.

هذا الأمر، كما أنه قدمه بذكر وصف محبب، وهو الإيمان، ولا شك أن عدم ذكر الأسماء أدعى للامتثال.

* ارتباط اللسان بالقلب، يتضح هذا من قول الله عز وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾.

* في قوله تعالى: ﴿ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ «إشارة إلى أن قلوب هؤلاء المؤمنين الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، قد أعدها الله تعالى، وأرادها لتكون مستقراً ومستودعاً للتقوى، وهذا هو السر في تعدية الفعل ﴿ ٱمْتَحَنَ ﴾ باللام، في قوله تعالى:﴿ لِلتَّقْوَىٰ ﴾، مع أن الأصل في فعل الامتحان أن يعدّى بالباء... وفي هذا ما يشير إلى أن تلك القلوب.. قد امتحنت فعلاً بالتقوى، وقد نجحت في هذا الامتحان، فأصبحت قابلة للتقوى متجاوبة معها..». [1]

* عظم منزلة الصحابة عز وجل، وبخاصة الشيخان الذين امتثلا أمر الله تعالى في هذا الأمر، وقد مر ذكر ذلك. فقد كان الرسول ﷺ يسألهم عن أمور يعلمونها حق العلم، فيتحرجون أن يجيبوا إلا بقولهم: الله ورسوله أعلم، [2] أخرج البخاري بسنده عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ قَال: خَطَبَنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ، قَال: أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْم هَذَا؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بغَيْرِ اسْمِه، قَال: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا»: بَلَى. قَال: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بغَيْرِ اسْمِه. فَقَال: أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى. قَال: أَيُّ بَلَد هَذَا؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بغَيْرِ اسْمِهِ، قَال: أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ؟ قُلْنَا: بَلَى...»[3]. فأعظم بهذا الأدب وأكبر بهذا الامتثال.

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب١٣/ ٤٣٦.

(٢) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب٦/ ٣٣٣٨.

(٣) صحيح البخاري، برقم/ ١٧٣٩ وصحيح مسلم، برقم/ ١٦٧٩.

* مراقبة الله تعالى في السر والعلن، فالله تعالى يسمع أقوالنا ويعلم نوايانا، وفي هذا غرس للرقابة الذاتية الداخلية، التي تخلو منها التشريعات الوضعية.

* ينبغي أن لا يستهين الإنسان في أي شيء يفعله، خيراً كان أو شراً، فقد ورد التهديد الشديد على من يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، وعلى الذي يجهر له بالقول... وتوعد على ذلك بحبوط العمل، ووعد من يغض صوته عند رسول الله ﷺ بالمغفرة والأجر العظيم.

* فيه رد على الفلاسفة الذين يقولون: إن الله تعالى يعلم الكليات ولايعلم الجزئيات، فالحديث الذي دار بين الشيخين رضي الله عنهما في شأن تأمير شخص على وفد بني تميم، لا شك أنه من الجزئيات.

* ينبغي احترام العلماء، وعدم رفع الصوت بحضرتهم، وكذا عند مخاطبتهم، بل ينادون بما يُشعر بتوقيرهم.

* في قوله تعالى:﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ ما يبرز التوبة كأساس من الأسس المهمة في بناء المجتمع ذلك أن أمر التوبة وإن كان يبدو أنه أمر بين العبد وربه، لكنه ذو تأثير معنوي في الأفراد، ومن ثم المجتمع، فالفرد لا يخلو من أن يقع في بعض الذنوب، ومن أن يساوره اليأس من الغفران، والطمع حيناً في العفو، وليس هذا وذاك مما تستقر عليه النفوس، وتهدأ به الحياة وإذا استولى القلق النفسي على الأفراد، فصاروا إلى خوف مسرف أو يأس مفرط، فإن المجتمع يصيبه من ذلك نوع من الشلل أو الخلل، فكان من الحكمة أن يبين هذا الأمر حتى يعلم العاصي أن له رباً رحيماً، يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات.

المقطع الأول: بناء المجتمع، أسس ومحاذير

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ
تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟
أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ
فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ
وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ
أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ
فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن
يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ
ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ
إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ
مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا
وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

المناسبات بين المقطع الأول وافتتاحية السورة

تضمنت الافتتاحية النهيَ عن التقدم بين يدي الله ورسوله،.. ثم ذكرت الأدب مع الرسول ﷺ، وابتدأ المقطع الأول بأمر قد حدث، أعراب يرفعون أصواتهم، طالبين خروج رسول الله ﷺ إليهم، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

ثم أعقبتها الآيات التي تؤكد على أنه لاينبغي التقدم بين يدي الله ورسوله، ما دام الرسول ﷺ فيهم، ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾، معللة بأن النبي ﷺ لو أطاعهم في كثير من الأمور، لأصابتهم المشقة، التي قد تفضي للهلاك. ثم أعقب ذلك بيان منّة الله تعالى عليهم، إذ حبب إليهم الإيمان، وزينه في قلوبهم... فعليهم أن يجعلوا هذه الآداب نصب أعينهم؛ لأنها من

مستلزمات الإيمان.

ثم بعد ذلك أخذ المقطع في بيان ما شرعه الله تعالى من آداب وأسس، من شأنها أن تسهم في صياغة المجتمع الذي يود الإسلام بناءه، وهو ما يجب أن يُلتزم به ولا يُتقدَّم عليه...

التفسير الإجمالي

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ ذكر العلماء ههنا سبباً للنزول « عن زيد بن أرقم ﷺ قال: جاء ناس من العرب فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً، فنحن أسعد الناس به، وإن كان ملكاً عشنا في جناحه، فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا، ثم جاؤوا إلى حجر النبي ﷺ فجعلوا ينادون: يا محمد يا محمد، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾. وأخذ رسول الله ﷺ بأذني وقال: لقد صدق الله قولك يا زيد». [١] يخاطب الله عز وجل نبيه ﷺ، ويبين له أن الذين يرفعون أصواتهم لتقبل عليهم، وينادونك بغير اللائق بك، أكثرهم لا يحسنون الأدب، ثم أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصنع مع رسول الله ﷺ، فقال عز وجل: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ ﴾ أي: انتظروا حتى تخرج أنت إليهم، لا أن يخرجوك هم[٢]، فيزعجوك، لكان هذا الصبر خيراً لهم في الدنيا[٣] والآخرة. ثم دعاهم عز وجل للتوبة فقال: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان١١/ ٣٨٢، والواحدي في أسباب النزول/ ٢٦٦، والطبراني في المعجم الكبير، برقم/ ٥١٢، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد٧/١٠٨: « وفيه داود بن راشد الطفاوي، وثقه ابن حبان، وضعفه ابن معين، وبقية رجاله ثقات». قال الشيخ إبراهيم محمد العلي في صحيح أسباب النزول/ ٢٠٢-٢٠٣:» والحديث حسن لشواهده، ولذا حسنه السيوطي في لباب النقول/ ٩٥». وكذا قال د. حسن البلوط في رسالته (أسباب النزول الواردة في كتاب جامع البيان) ٣/ ١٠١٥ [وقد ترددت في ذكر هذا السبب لما تقدم من كلام بعض العلماء عليه، لكني لما رأيت تحسين من تقدم له، آثرت إيراده، والعلم عند الله. ولا يخفي أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب].

(٢) انظر نظم الدرر ٧/ ٢٢٥.

(٣) ذُكر أن الخير الدنيوي فداء جميع أسراهم، وكانوا قد جاءوا لطلبهم، بيد أن سند الرواية ضعيف، ومتنها=

فمن رحمته فتح لكم باب التوبة.

بعد هذه الآية الكريمة التي تعرض نموذجاً لعدم مراعاة حسن الأدب مع رسول الله ﷺ، وهو القدوة للمجتمع المسلم، وقائده، يبين الله عز وجل المنهج الذي ينبغي أن يسلكه المجتمع المسلم في التعامل مع الأنباء، يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾[1]، فيأمر عز وجل المؤمنين بالتثبت والتبين مما يأتي به الفاسق من أنباء، والنبأ، هو: خبر ذو فائدة عظيمة...»[2]، والأمر بذلك؛ ليحتاط له؛ حتى لايحكم بقوله، [3] وهنا نلحظ منهجاً محكماً، فلم يوص بإهماله وعدم الالتفات لخبره، ولم يدع للمسارعة لقبوله، فهو نهج وسط، إذ يدعو للتريث؛ للتأكد من صحته، قال الراغب: «... إذا كان الخبر شيئاً عظيماً له قدر فحقه أن يتوقف فيه، وإن عُلم وغَلَبَ صحته على الظن، حتى يعاد النظر فيه ويتبين فضل تبيُّن». [4]، ثم يبين عز وجل سبب هذا التوجيه فيقول: ﴿ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾، أي: خشية أن تصيبوا قوماً بسبب جهلكم بحقيقة حالهم، «فتصيروا آخذين في الندم متلبسين به،

= أضعف، وقد أحسن الشيخ عبد الله سراج الدين حين قال: «وهذه الرواية ضعيفة بل مردودة، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم كان أكرم من أن يؤاخذهم أو يعاقبهم بذلك لسوء أدبهم معه، وقد قال الله تعالى له: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ حول تفسير سورة الحجرات/ ١٤.

(١) أورد كثير من المفسرين سبباً لنزول هذه الآية، وهي روايات ضعفها العلماء، انظر العواصم من القواصم، ابن العربي/ ٩٨-٩٠، وتعليق محب الدين الخطيب، بهامش العواصم، ولكاتب هذه السطور بحث محكّم حول هذا السبب، بين فيه ضعف هذه الروايات سنداً ومتناً، وقد نشر في مجلة الباحث الجامعي التي تصدر في جامعة إب باليمن، في العدد الأول، سنة ١٤١٨ هـ الموافق ١٩٩٨ م، بعنوان (سبب نزول الآية السادسة من سورة الحجرات، دراسة ونقد). وعليه فلم أشر لهذا السبب في المتن، وقد أحسن الشيخان الفاضلان: مقبل الوادعي، وصالح العلي، إذ لم يذكراه في كتابيهما المتعلقين بأسباب النزول.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن(نبأ).

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٦٤.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفاني (نبأ).

ثم تستديمونه». [١]

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ ﴾، والصحابة عز وجل يعلمون هذا، ولكنه لفتٌ للنظر إلى ما يمكن أن يغيب عن الأذهان، بسبب الإلف والعادة، وبخاصة ونحن نعلم ما كان عليه الرسول ﷺ من التواضع، مما قد يُذهل عن هذه الحقيقة، فلتستحضروا هذا الأمر دائماً، فهو رسول الله، ولا ينبغي التسرع في القول بين يديه، وهو فيكم، والرجوع إليه أمر ميسور، ونلحظ أن قوله تعالى: ﴿ فِيكُمۡ ﴾، وتقديمها ﴿ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ ﴾ تتضمن تشريفاً[٢] فقد اختصكم الله عز وجل بهذا الشرف، فهو فيكم لا في غيركم، كما أن فيها تكليفاً، بما يوجبه وجود هذا الرسول العظيم ﷺ بينهم، وهو ما تؤكد هذه السورة بعضَ حقوقه على أمته. «فعظِّموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ [الأحزاب: ٦] [٣].

﴿ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ ﴾، يعني: « لو كان رسول الله ﷺ يعمل في الأمور بآرائكم ويقبل منكم ما تقولون له فيطيعكم ﴿ لَعَنِتُّمۡ ﴾ يقول: لنالكم عنت، يعني: الشدّة والمشقة في كثير من الأمور، بطاعته إياكم لو أطاعكم؛ لأنه كان يخطئ في أفعاله... ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ بالله ورسوله، فأنتم تطيعون رسول الله، وتأتمون به، فيقيكم الله بذلك من العنت.... قوله: ﴿ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ يقول: وحسن الإيمان في قلوبكم فآمنتم ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ ﴾ بالله ﴿ وَٱلۡفُسُوقَ ﴾ يعني: الكذب، ﴿ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ ﴾ يعني: ركوب ما نهى الله عنه في خلاف أمر رسول الله ﷺ، وتضييع ما أمر الله به.... ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾... السالكون طريق الحق». [٤] مع تصلب وثبات. [٥]

---

(١) التفسير الكبير، الرازي٢٨/ ١٢١.
(٢) نظم الدرر٧/ ٢٢٨.
(٣) تفسير القرأن العظيم٤/ ٢٦٦.
(٤) جامع البيان ١١/ ٣٨٥، بحذف يسير.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦٥.

﴿ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾أي: هذا العطاء الذي منحكموه، هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.[1] لا يضع هدايته إلا لمن يستحقها.

ثم بين القرآن الكريم النهج الذي ينبغي أن يتبع فيما لو حصل اقتتال بين المؤمنين، والإسلام لا يريد من معتنقيه أن يتقاتلوا، ولكن وقوعه أمر ممكن، وبخاصة أن النفوس قد جبلت على الاختلاف، وهو مظنة التنازع، بيد أن القرآن يورده في سياق يجعل وقوع الاقتتال أمراً نادراً، أو قليل الوقوع، فيقول عز وجل: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾، وقد ذُكرت عقب التحذير من الاستعجال في تصديق خبر الفاسق، لتفادي ما قد يحصل.[2]

أخرج البخاري بسنده عن أنس ﷺ أنه قال: «قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَرَكِبَ حِمَاراً، فَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ، وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي، وَاللهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ مِنْهُم: وَاللهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحاً مِنْكَ. فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَشَتَمَهُ، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ. فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالأَيْدِي وَالنِّعَالِ. فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَتْ ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾»[3].

هذه الآية الكريمة تبين أنه إذا أرادت طائفتان من المؤمنين الاقتتال، بأن بدرت بوادره

(١) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٦٧.

(٢) انظر التفسير الكبير٢٨/ ١٢٦.

(٣) صحيح البخاري برقم/ ٢٦٩١، ومسلم برقم/ ١٧٩٩. قال ابن عاشور:" ويتأكد هذا أن تلك الوقعة كانت في أول أيام قدوم رسول الله ﷺ المدينة. وهذه السورة نزلت سنة تسع من الهجرة وأن أنس بن مالك لم يجزم بنزولها في ذلك لقوله: فبلغنا أن نزلت فيهم ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾. اللهم أن تكون هذه الآية ألحقت بهذه السورة بعد نزول الآية بمدة طويلة. التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٣٨.

أو حصل الاقتتال، فعلى المسلمين أن يسعَوا ويبادروا إلى الصلح بينهم، وذلك بدعوتهم إلى حكم الله عز وجل، فإن حصل التعدّي بعد ذلك من إحدى الطائفتين على الأخرى، ولم تقبل الصلح، وأجابت الأخرى، كان على المسلمين أن يقاتلوا الطائفة الباغية، حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه، فإن رجعت عن بغيها، وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحرّوا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، وتؤدّي ما يجب عليها للأخرى. ففي صحيح البخاري عن أنس ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. فقال رجل: يا رسول الله، انصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إذا كان ظالماً؟ كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره»[١] ثم أمر الله سبحانه المسلمين أن يعدلوا في كل أمورهم بعد أمرهم بهذا العدل الخاص بالطائفتين المقتتلتين فقال: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: واعدلوا وأزيلوا الجور، إن الله يحب من كانت هذه صفته، ومحبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء.[٢] كما أن فيه وعيداً شديداً لمن لا يعدل، إذ يعني بغض الله تعالى له، وما يستلزمه من مجازاتهم بأسوأ الجزاء.

ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وهذه الآية « تعليل لإقامة الإصلاح بين المؤمنين إذا استشرى الحال بينهم، فالجملة موقعها موقع العلة، وقد بُني هذا التعليل على اعتبار حال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الإخوة. وجيء بصيغة القصر المفيدة لحصر حالهم في حال الإخوة مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين»[٣]، والمراد أخوة الدين.[٤] قال القرطبي: «أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب»[٥]. وهذا ما أكده الرسول ﷺ حيث يقول: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا

---

(١) صحيح البخاري برقم/ ٦٩٥٢.

(٢) انظر فتح القدير ٥/ ٦٧ـ٦٨، بتصرف يسير. وانظر جامع البيان ١١/ ٣٨٧. والتفسير الكبير ٢٨/ ١٢٩.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٤٣.

(٤) انظر جامع البيان ١١/ ٣٨٩، وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٢٢ـ٣٢٣.

يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ في حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ في حَاجَتِه، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِماً، سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ). (١) والأحاديث كثيرة في هذا المعنى، وهي تبين واجبات الأخوة الإسلامية، ومن أجمعها مارواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُول: (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلام، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ). (٢) بل إن رسولنا الكريم ﷺ وصف حال المسلمين بوصف بليغ، ينبغي على كل من يريد إقامة مجتمع متين أن يعيه ويمتثل ما يرشد إليه، داعياً الآخرين إلى ذلك. يقول ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ في تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ. إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى). (٣)

وهذا يعني أن رابطة الأخوة تقتضي التعاون والتحاب والتناصح، لا التباغض والتنافر والتناقض، كما أنها تستدعي التدخل لفض ما قد يحصل من خصومات بينهم، فهم أخوة والاقتتال بين الأخوة مفسدته عظيمة...، ثم هم أخوتكم أنتم أيها المصلحون.

﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾، يعني بـ﴿ أَخَوَيْكُمْ ﴾: كل مسلمين تخاصما وتقاتلا وتخصيص الاثنين بالذكر؛ لإثبات وجوب الاصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى. (٤) وقال بعض العلماء: أي بين الفئتين. ولا تعارض بين القولين، كما مر.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ يخاطب المولى عز وجل «جميع المؤمنين، فيشمل الطائفتين الباغية والمبغي عليها، ويشمل غيرهما ممن أمروا بالإصلاح بينهما ومقاتلة الباغية، فتقوى كلٍّ بالوقوف عند ما أمر الله به كُلا بما يخصه. ومعنى ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾: تُرجى لكم الرحمة من الله، فتجري أحوالكم على استقامة وصلاح. وإنما اختيرت الرحمة؛ لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة

(١) صحيح البخاري برقم/ ٢٤٤٢. وصحيح مسلم برقم/ ٢٥٨٠.
(٢) صحيح البخاري برقم/ ١٢٤٠، ومسلم برقم/ ٢١٦٢.
(٣) صحيح مسلم برقم/ ٢٥٨٦.
(٤) فتح القدير ٥/ ٦٨. وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٢٣، والبحر المحيط ٨/ ١١١.

بين المؤمنين وشأن تعامل الإخوة الرحمة، فيكون الجزاء عليها من جنسها». [١] ولا شك أن الآية أطلقت الرحمة، فتشمل رحمة الله تعالى للمتقين في الدنيا والآخرة، وهو ترغيب، لكنه يتضمن تهديداً: أن من انسلخ من هذا الوصف فإن رحمة الله عز وجل بمنأى عنه.

ثم حذر القرآن مما يورث العداوة ومن ثم الاقتتال، فقلع أسبابه من جذورها، يقول عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ فبدأ بالنهي عن السخرية، وهي: احتقار الناس والاستهزاء بهم... إذ قد يكون المحتقَر أعظم قدراً عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له[٢]؛ «لأن الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات». [٣] وقد نهى الله تعالى الرجال والنساء جميعاً للعلة نفسها. ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ اللمز: الاغتياب وتتبع المعاب. [٤] ولذا قال الطبري: «ولا يغتب بعضكم بعضاً أيها المؤمنون، ولا يطعن بعضكم على بعض». [٥] وعلى هذا يحمل ما سيأتي من النهي عن الغيبة من باب ذكر الخاص بعد العام، إذا كان اللمز يشمل المغتاب والعيّاب، لكن هناك من ذهب إلى أن اللماز هو العياب[٦] قال ابن عاشور: «اللمز: ذكر ما يَعُده الذاكر عيباً لأحد مواجهةً، فهو المباشرة بالمكروه. فإن كان بحق فهو وقاحة واعتداء، وإن كان باطلاً فهو وقاحة وكذب، وكان شائعاً بين العرب في جاهليتهم»[٧]،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٤٥ بحذف يسير.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٨بتصرف يسير.

(٣) الكشاف، الزمخشري٤/ ٣٧١، وانظر البحر المحيط٨/ ١١٢.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن(لمز).

(٥) جامع البيان ١١/ ٣٩١.

(٦) ذكر ابن فارس ذلك فقال: «... اللمز وهو العيب... ورجل لماز ولمزة، أي: عياب» معجم مقاييس اللغة (لمز). وانظر الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٢٩. والبحر المحيط ٨/ ١١٢، وإرشاد العقل السليم٦/ ١١٧.

(٧) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٤٨. ثم قال بعدها: «وللمفسرين وكتب اللغة اضطراب في شرح معنى اللمز وهذا الذي ذكرته هو المنخول من ذلك».

فالله أعلم بمراده. وفي التعبير بـ ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ سر لطيف، وهو أن المسلمين كنفس واحدة، فالذي يطعن أخاه كأنه طعن نفسه، « فجعل اللامز أخاه لامزاً نفسه، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]، والمعنى: ولا يقتل بعضكم بعضاً.[١]

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾، أخرج الطبري بسنده عن أبي جُبيرة بن الضحاك، قال: كان أهل الجاهلية يسمون الرجل بالأسماء، فدعا النبيّ ﷺ رجلاً باسم من تلك الأسماء، فقالوا: يا رسول الله، إنه يغضب من هذا، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾. [٢] والمراد النهي عن « دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة»[٣] وقد استثنى العلماء من ذلك ما يقال لشهرة هذا اللقب على صاحبه، حتى لا يعرف إذا أطلق سواه، ولا يكون على سبيل التنقص. كالأعمش والأعرج ونحوهما،

ثم ذم الله تعالى التنابز المذموم بقوله: ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ وللعلماء فيها قولان:

الأول: بئس رجوعك للفسق بعد أن آمنت.

الثاني: بئس وصفك أخاك بالفسق بعد أن آمن. [٤]

ولعل الأول هو الأرجح؛ لما فيه من التهديد الشديد لمن يفعل ذلك، وإن كان القول الثاني مراداً، فإنه يقبح بالمسلم أن يصف أخاه بالفسق أو الكفر بعد أن تاب وأقلع.

ثم ذكر القرآن أن ما يحصل من هذه الأخلاق الردية التي قد لا يُلتفت لقبحها، إثم يجب على من فعله التوبة، فقال عز وجل: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ هم الظالمون لا غيرهم،

---

(١) انظر جامع البيان ١١/ ٣٩٠.

(٢) جامع البيان ١١/ ٣٩١، قال د. حسن شبالة في رسالته: أسباب النزول الواردة في كتاب جامع البيان(جمعاً وتخريجاً ودراسة) ٣/ ١٠٢٨: «إسناده صحيح».

(٣) المصدر السابق١١/ ٣٩٣.

(٤) انظر التفسير الكبير٢٨/ ١٣٣.



فقد ظلموا الآخرين بالاعتداء عليهم، وظلموا أنفسهم حين ارتضوا لها هذه المنزلة التي يسفل بها حال العاقل، فضلاً عن المسلم الذي ارتوى من معين القرآن والسنة، وظلموها إذ انشغلوا بعيوب الآخرين عن الانشغال بتفقد عيوبهم، والانصراف لما يصلح أحوالهم، ثم ظلموها في الآخرة حين ارتضوا لها عقاب الله تعالى. (١)

ثم تتوالى الآيات الكريمة وهي تبني المجتمع على الأسس الفاضلة، فتعالج ما يضمره، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾، يعود النداء ليؤكد أن المخاطبين قد ارتضوا هذا الدين، فعليهم أن يرتقوا لقمته، والمطلب رفيع ﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ أي: كلفوا أنفسكم أن تتركوا وتبعدوا وتجعلوا الظن في جانب بعيد عنكم (٢) والمراد بالظن: «التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله». (٣)

والنهي عن الظن أمر بعدم التمادي فيه، ثم تحقيق موجبه، وإلا فالظن الذي يهجم على الإنسان اضطراراً دون اختيار لا يؤاخذ عليه.

وقوله تعالى: ﴿ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ إخراج للظنون التي عليها تبنى الخيرات قال الله تعالى: ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور: ١٢]، وبالجملة كل أمر لا يكون بناؤه على اليقين فالظن فيه غير مجتنب. مثاله: حكم الحاكم على قول الشهود وبراءة الذمة عند عدم الشهود. إلى غير ذلك. (٤) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾، قد يشير إلى أن أكثر الظن ليس بإثم، بناء على أن الظن نوعان: ظن خير، وظن سوء، وظن السوء على نوعين: ما قامت قرينة على وجوده، وما لم تقم، ولا شك أن الأول ليس بأثم، (٥) وبذا يتحقق المراد من الآية

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٥٠.
(٢) نظم الدرر ٧/ ٢٣٤ بتصرف يسير.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٩.
(٤) التفسير الكبير ٢٨/ ١٣٤ بتصرف يسير.
(٥) انظر تفسير القرآن الكريم (الحجرات....)، ابن عثيمين/ ٥٠.

الكريمة، فلقد نهى القرآن عن كثير من الظن، من باب الاحتياط ـ كما مر ـ.

ولما كان الاسترسال في الظن قد يدعو صاحبه ليتحقق من الأمر، نهى الله عز وجل عن التجسس، ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ «ولا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره؛ يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فاحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره»(١) وفي الحديث: (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا تَحَسَّسُوا وَلا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا إِخْوَاناً...). (٢)

ثم نهى الله عز وجل عن الغيبة فقال: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ ﴾، وقد بين رسول الله ﷺ معنى الغيبة فقال: (أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخاك بما يكره. قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته. وإن لم يكن فيه، فقد بهته). (٣) وهذا الحديث الشريف جامع لكل ما قد يتساهل فيه بعض الناس مما لا يعدونه غيبة، فكل ذكر لأخيك في غيبته بما يكره فهو غيبة، سواء أكان ذلك مما له تعلق به أو بغيره، من ولد أو مال أو زوجة أو غير ذلك، فهو بيان من أوتي جوامع الكلم ﷺ، وبهذا يتبين مدى تساهل الناس في هذا الأمر، ولننظر في وصف الله تعالى للمغتاب، لقد وصف بصفات ينفُر عنها كل ذي نفس كريمة ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ ﴾ ولقد أجاد الزمخشري هنا في بيان ما تضمنته من التنفير فقال: «منها الاستفهام الذي معناه التقرير. ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة. [فلم يقل الله تعالى: أيتحمل، أو نحوها] ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم، والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك. ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعل الإنسان أخاً ومنها

(١) جامع البيان١١/ ٣٩٤.
(٢) صحيح البخاري برقم/ ٥١٤٣. وصحيح مسلم برقم/ ٢٥٦٣.
(٣) صحيح مسلم برقم/ ٢٥٨٩.

أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً». (١)

وقد أكد النبي ﷺ التحذير من خطورة الغيبة، فتوعد المغتابين المتتبعين عورات المسلمين فقال: (يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلْ الإِيمَانُ قَلْبَهُ لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعْ اللهُ عَوْرَتَهُ وَمَنْ يَتَّبِعْ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ)(٢)

وقد استثنيت من حرمة الغيبة أمور، ذكرها الإمام النووي، ولأهميتها، وكثرة السؤال عنها، نوردها بتمامها ـ سوى حذف يسير ـ:

«اعلم أن الغيبة تباح لغرضٍ صحيحٍ شرعي، لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو ستة أسباب:

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولايةٌ، أو قدرةٌ على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلانٌ بكذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلانٌ يعمل كذا، فازجره عنه. ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حراماً.

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي، أو أخي، أو زوجي، أو فلانٌ بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي، ودفع الظلم؟ ونحو ذلك، فهذا جائزٌ للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجلٍ أو شخصٍ، أو زوجٍ، كان من أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيينٍ، ومع ذلك، فالتعيين جائزٌ...

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوهٍ:

منها جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائزٌ بإجماع المسلمين، بل واجبٌ للحاجة.

(١) الكشاف ٤/ ٣٧٦. وزيد ما بين المعقوفين.

(٢) مسند أحمد برقم/ ١٨٩٤٠.



ومنها المشاورة في مصاهرة إنسانٍ، أو مشاركته، أو إيداعه، أو معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجب على المشاور أن لا يخفي حاله، بل يذكر المساويء التي فيه بنية النصيحة.

ومنها إذا رأى متفقهاً يتردد إلى مبتدع، أو فاسقٍ يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه. وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويلبس الشيطان عليه ذلك، ويخيل إليه أنه نصيحةٌ فليتفطن لذلك.

ومنها أن يكون له ولايةٌ لا يقوم بها على وجهها: إما بأن لا يكون صالحاً لها، وإما بأن يكون فاسقاً، أو مغفلاً، ونحو ذلك فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولايةٌ عامةٌ ليزيله، ويولي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون مجاهراً بفسقه أو بدعته، كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس وأخذ المكس؛ وجباية الأموال ظلماً، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به؛ ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سببٌ آخر مما ذكرناه.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفاً بلقبٍ؛ كالأعمش والأعرج والأصم والأعمى والأحول، وغيرهم جاز تعريفهم بذلك؛ ويحرم إطلاقه على جهة التنقص؛ ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

فهذه ستة أسبابٍ ذكرها العلماء وأكثرها مجمعٌ عليه؛ دلائلها من الأحاديث الصحيحة مشهورةٌ...»[(١)].

ثم قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ « فخافوا عقوبته بانتهائكم عما نهاكم عنه من ظنّ أحدكم بأخيه المؤمن ظنّ السوء، وتتبع عوراته، والتجسس عما ستر عنه من أمره، واغتيابه بما يكرهه،

(١) رياض الصالحين، النووي/ ٤٥٠ ـ٤٥١، بحذف يسير.

تريدون به شينه وعيبه، وغير ذلك من الأمور التي نهاكم عنها ربكم».[١] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ فمن رحمته قبل توبتكم ورجوعكم من هذا الذنب العظيم، وهذه دعوة من رب رحيم للإقلاع عن هذا الداء الذي ابتلي به كثيرون.

وقد ذكر العلماء ما ينبغي على المغتاب إذا أراد التوبة، قال ابن كثير: «قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس في توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود. وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع. وأن يتحلل من الذي اغتابه. وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يثني عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، لتكون تلك بتلك».[٢]

« وبعد هذه النداءات المتكررة للذين آمنوا؛ وأخذهم إلى ذلك الأفق السامي الوضيء من الآداب النفسية والاجتماعية؛ وإقامة تلك السياجات القوية من الضمانات، حول كرامتهم وحريتهم وحرماتهم، وضمان هذا كله بتلك الحساسية التي يثيرها في أرواحهم، بالتطلع إلى الله وتقواه... بعد هذه المدارج إلى ذلك الأفق السامق، يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها، ليردها إلى أصل واحد، وإلى ميزان واحد، هو الذي تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق»[٣] فيخاطبهم ربهم الذي خلقهم بهذا النداء العام ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم ﴾، وأصلكم واحد ﴿ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾، وقد يتساءل فلم جعلوا شعوباً وقبائل؟ هنا يبين خالقهم سبب ذلك فيقول عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ «ليعرف بعضكم بعضاً في قرب القرابة منه وبعده».[٤]

«والتعارف يحصل طبقة بعد طبقة متدرجاً إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون،

---

(١) جامع البيان١١/ ٣٩٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٤.

(٣) في ظلال القرآن٦/ ٣٣٤٨..

(٤) جامع البيان١١/ ٣٩٨.

والعشيرة متعارفون من عائلات، إذ لا يخلون عن انتساب ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون، والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب؛ لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها. فكان هذا التقسيم الذي ألهمهم الله إياه نظاماً محكماً لربط أواصرهم دون مشقة ولا تعذر، فإن تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل، ثم ببث عمله بين طوائف من ذلك العدد القليل، ثم بينه وبين جماعات أكثر. وهكذا حتى يعم أمة أو يعم الناس كلهم، وما انتشرت الحضارات المماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم»(١).

وقد ورد عن النبي ﷺ الحث على هذا التعارف، ففي الحديث: (تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر). (٢)

فبم إذن يتمايز الناس ويكرمون، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ هذا هو معيار التفاضل والتكريم عند العليم الخبير الذي خلق الناس، وبهذا التقرير يضع القرآن المبدأ الذي لم يكن العالم قد تنبَّه له بعد، أن الناس جميعاً متساوون في الخلق، لا فرق بين رجل وامرأة في هذه النسبة وفي هذه الأصالة، ولا فرق بين مشرق ومغرب، ولا بين أبيض وأسود وأحمر... ولا يمكن أن يسعد مجتمع تمزق نسيجه العنصريةُ الجنسية، أو القبلية، أو الطائفية، أو أعتبار اللون.... (٣).

وقد أكدت الأحاديث النبوية هذا المبدأ قولاً، وحققه رسولنا الكريم ﷺ سلوكاً عملياً، لا شعارات مجردة من مضمونها، تتشدق بها بعض المجتمعات التي تدعي التحضر، ثم هي تجعل للون أو العرق وزناً، (سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ...)(٤)،

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٥٩-٢٦٠.

(٢) أخرجه الترمذي برقم/ ١٩٧٩، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه. ومعنى قوله: (منسأة في الأثر) يعني: زيادة في العمر» إهـ. وقال الحاكم: « صحيح الإسناد». ووافقه الذهبي. المستدرك١/ ١٦٦.

(٣) انظر المجتمع المثالي كما تنظمه سورة النساء، محمد محمد المدني/ ٢٤.

(٤) صحيح البخاري برقم/ ٤٦٨٩.

وقال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ).[1]

تؤسس هذه الآية الكريمة مبدأ العالمية، ليحتضن الإسلام كل الأجناس، وكل الأعراق، وكل الألوان، وكل اللغات... يغمرهم الإسلام بنوره ويشملهم عدله، ويكون التفاضل لشيء واحد، هو التقوى، وهي عند الله، فقد نزدري أناساً ونسخر منهم، وهم خير عند الله ممن رفعناهم وأكرمناهم، وإذن حتى هذا الأمر الذي به يكون التفاضل، لم يُجعل أمره للبشر، إذ هم محجوبون عما تكنُّه القلوب، التي هي محل التقوى، وكما قال ﷺ، وهو يشير إلى صدره: (التقوى ههنا)[2] فلا مطمع إذن لمعرفة الأكرم، فليتسابق الناس في تحصليها، وليطلبوها من واهبها [فضلاً من الله ونعمة].

ثم تختتم هذه الآية الكريمة بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ عليم بظواهركم خبير ببواطنكم، لا تخفى عليه أسراركم.[3]

هدايات المقطع الأول

* اشتملت سورة الحجرات على أهم الأسس التي تبنى عليها أرقى المجتمعات، ولو تدبرنا هذا المقطع، فسنجد أنه قد حوى الكثير من هذه الأسس، من أهمها: (الإيمان، والأخوة والعدالة، والمساواة، والتوبة، وتعميق معنى الرقابة الذاتية، وهو ما يعبر عنها بالضمير أو الوازع الداخلي، من خلال ترسيخ العقيدة في الله تعالى وأسمائه وصفاته، بكونه عليماً سميعاً بصيراً. إلى غير ذلك.

* يحسن بالمرء أن يتخلق بالخلق الحسن، إذ فيه كمال عقله، فهؤلاء الأعراب لما رفعوا أصواتهم عند مناداة النبي ﷺ، ولم يتحلَّوا بالصبر، وصفوا بـ ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

---

(١) صحيح مسلم برقم/ ٢٥٦٤.

(٢) جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه برقم/ ٢٥٦٤.

(٣) انظر التفسير الكبير٢٨/ ، وإرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١١٩.

* ينبغي الدقة في إصدار الأحكام على الآخرين، فالله تعالى يقول ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فلم يعمم «لأن منهم من لم يناد النبي ﷺ مثل ندائهم...»(١) ولعل فيهم من كره ولم يصرح؛ لخجل أو خوف.... وكم سمعنا ذمَّ أهل بلد بأكمله، لإساءة حصلت من شخص أو اثنين، فما أحوجنا إلى ضبط ألسنتنا.

* لو أردنا تعميم هذا المبدأ في حياتنا، أعني: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ لأحرزنا نتائج باهرة، فالصبر على القراءة الجادة المفيدة، والصبر على العمل المثمر الشاق بغية الوصول للإبداع، (٢) والصبر على تربية الأبناء والطلاب، بل والمجتمع، كلها تدخل في مجال الصبر الذي يعقبه خير كثير.

* يتفرع من هذا الأمر، خلق ينبغي على أفراد المجتمع أن يتحلوا به، وهو خلق يحبه الله تعالى كما قال النبي ﷺ لِلأَشَجِّ أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ:(إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ). (٣) وقد ورد في هذه السورة الكريمة ما يدل على هذا الخلق الكريم أكثر من مرة، فالتقدم بين يدي الله ورسوله، ضرب من التعجل، ولو أن الأعراب الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات تأنوا لكان خيراً لهم، كما أن خبر الفاسق مما ينبغي أن يتأنى فيه، وأحسب أن الذين ادعوا منزلة الإيمان، تعجلوا الأمر، إذ إن هذه المنزلة تحتاج إلى بذل وصبر طويل.

* رحمة الله الواسعة، فمع ما فعله هؤلاء الأعراب مع الرسول الكريم ﷺ، لكن الله تعالى لم ييئسهم، بل هو مَن يدعوهم إلى التوبة، بل يغريهم بها ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وهي دعوة للدعاة الذين اتخذوا من مشرط الجراح وسيلة وحيدة للدعوة إلى الله تعالى، أن يكون المنهج القرآني رائدهم، لا التشنج والهوى.

* ينبغي على الناس أن لا يقتحموا على العلماء والدعاة أوقات راحتهم، بل يصبروا حتى

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٢٥.
(٢) انظر بناءالأجيال، أ. د عبد الكريم بكار/ ٤٢.
(٣) صحيح مسلم برقم/ ٢٥.

يخرجوا إليهم، فهم كغيرهم يحتاجون للراحة، وللخلوة بالأهل والأولاد، وليقضوا مصالحهم، ومصالح الآخرين.

* في قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ بيان لخطورة الإشاعة، التي أصبحت في وقتنا الحاضر سلاحاً فتاكاً، بعد هيمنة وسائل الإعلام على عقول الناس باعتبارها سلاحاً نفسياً، وفي التاريخ الإسلامي نماذج لهذا السلاح، منها: إشاعة مقتل النبي ﷺ في غزوة أحد، ومنها ما وقع بشأن حادثة الإفك، ومنها الشائعات الكاذبة التي صنعت ضد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﵁، والتي لم تقتصر آثارها السيئة على المجتمع في ذلك الوقت فحسب، بل على الأمة حتى وقتنا هذا. [١]، ولذا فإن هذه الآية تعد منهجاً يقتدى؛ للتثبت من الشائعات وعدم الإنجرار وراءها.

* المنهج المحكم الذي دعت إليه الآية الكريمة ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾، فلم تدع إلى إهمال خبر الفاسق وعدم الالتفات له، ولم تحث على المسارعة لقبوله، بل اختطت منهجاً وسطاً، يدعو للتريث؛ ليتبين، ويتثبت في أمره.

* " الواجب على المؤمن التثبت في الأمور، والتبين في صحة الأخبار التي تبلغه، وما ينقل إليه من كلام أو يسمعه من الوشاة، فكم أورث عدم التبين والتثبت فيها فساداً كبيراً، وشراً مستطيراً، وعداوات وشحناء... ". [٢] وهذه أمور من شأنها أن تفسد المجتمع.

* مما تدل عليه هذه الآية الكريمة، التثبت مما ينسب إلى بعض العلماء من أقوال، فكم ألصقت بهم تهم وهم منها براء، [٣] ومرد ذلك كله خطأ في النقل، أو سوء فهم لكلامه. أو

---

(١) انظر الإشاعة وأثرها على الفرد والمجتمع مقال على النت لعبد الله خليفة، موقع شبكة المشكاة الإسلامية، وللتوسع انظر: الحرب النفسية والشائعات، د. معتز سيد عبد الله/ ١٥٧ وما بعدها، ٣٣٩ وما بعدها ففيه بيان للتصور الإسلامي لمواجهة الشائعات.

(٢) حول تفسير سورة الحجرات/ ٧٣.

(٣) انظر سورة الحجرات، دراسة تحليلية وموضوعية، د. ناصر العمر/ ٢١٣.

إشاعة مغرضة.

* يدل قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ﴾، على أن المجتمع المسلم مهما بلغ من التقى ـ وقد مر أن هذه السورة نزلت في السنة التاسعة من الهجرة ـ فإنه لا يخلو من وجود بعض الفاسقين، وإن كان هذا ينبغي أن يكون نادراً، كما يشير التعبير إليه بـ ﴿إِن﴾ دون إذا.

* مع علم المؤمنين بأن الله تعالى حكيم، فإننا نجد أن كثيراً من الأوامر والنواهي القرآنية معللة، يقول تعالى بعد أن أمر بالتثبت من نبأ الفاسق ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾، وهي دعوة للمربين من آباء ومعلمين ومصلحين وحكام، إلى سلوك هذا السبيل، ففيه الخير الكثير، فهو يجعل المتلقي يعي أهمية ما يفعل، كما أنها وقفة للذين يأنفون من بيان علة ما يَطلبون.

* تتضح من قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ منة الله تعالى على الناس، إذ اختار من جنسهم من يكون واسطة لوحي الله تعالى، وليكون فيهم؛ لينقلهم هذه النقلة العظيمة، وليبني بهم مجتمعاً يعرف خالقه، ويحسن عبادته، كما يحسن العلاقة مع الآخرين، ولم يتركهم نهباً لتصورات ونظريات أرضية، أخص صفاتها الجهل والنقص والهوى.

* في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ما يشير إلى تواضع الرسول ﷺ، فهو الذي تسبب في هذا التنبيه، وإلا فلو عرف عنه ﷺ التميز عنهم، وفرض رأيه دون الرجوع إليهم لما غابت عنهم صفته. بيد أن هذا الإلف وهذا التعود، ينبغي أن لا ينسيهم هذه الحقيقة العظيمة، التي توجب عدم التقدم بين يديه، وعدم رفع الصوت بحضرته.

* شرف الصحابة وفضلهم العظيم، فهم مَن اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ﷺ وحمل الشريعة، ثم نقلها لمن بعدهم، يتضح هذا من قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فهو فيهم خاصة لا في غيرهم. كما يتضح من قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ فالعليم الحكيم بمن يستحق هذا الفضل وذلك الإنعام

هو الذي حبب إليهم الإيمان.... وفي هذا يقول ابن مسعود ﷺ: "إن اللهَ نَظَرَ في قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ... "(١)

* في قوله تعالى:﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ ما يدل على أن ما ورد في الشرع الحنيف من أوامر ونواه، هي خير لنا من اختيارنا لأنفسنا، فلو أن الشرع أطاعنا فيما نقترحه ونحبه لأصابنا العنت والمشقة، وهو ما يعني أن تنفيذ أوامر الشرع هي الخير المحض.

* في قوله تعالى:﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ ما يدل على أن الله تعالى هو الذي بيده هذه الأمور، فوجب على المسلم التطلع إليها وطلبها من واهبها. قال ابن القيم: " لم تكن محبتكم للإيمان، وإرادتكم له، وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك، فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر، فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم لولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان، فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم، ولا تقدمتم به إليها، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه، فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون لشق عليكم ذلك، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون، ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح، كما أردتم الإيمان فلولا أني حببته إليكم وزينته في قلوبكم وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم ولا سمحت به أنفسكم ". (٢)

* الأصل في المجتمع الذي يريد الإسلام بناءه أن يعيش أفراده بسلام، ولكن قد يقع القتال بين المؤمنين ـ وهو ما لا يرضاه ـ ولذلك، يدعو المسلمين جميعاً إلى إطفاء هذه النار، قبل

---

(١) قال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله موثقون». مجمع الزوائد١/ ١٧٧ـ١٧٨.

(٢) تهذيب مدارج السالكين، عبد المنعم صالح العلي ١/ ٣٥٠ـ٣٥١.

أن تتسع ويصعب إخمادها. يقول تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾.(١)

* استدل الإمام البخاري بقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ على أن المسلم لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت؛ فقال: «باب ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ فَسَمَّاهُمْ الْمُؤْمِنِين»(٢)، مع أنهم قد اقتتلوا. وفيه رد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة وغيرهم.(٣)

* «العدل من أهم الأركان التي يقوم عليها المجتمع الصالح، وكل مجتمع لا يقوم على أساس من العدل، هو مجتمع فاسد صائر إلى الانحلال ثم الزوال»(٤) وهذا الأمر قد أكدته سورة الحجرات، ودعت إلى إقامته، حتى مع الفئة الباغية التي نُصحت وما انتصحت، وما فاءت إلا بعد قتال جر ـ في الغالب ـ قتلاً وخراباً، ومع هذا كله يقول عز وجل: ﴿ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ والعدل في الإسلام قيمة مطلقة، يطبق حتى على الأعداء، يقول عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾ [المائدة: ٨]، وهذا بخلاف كثير من النظريات الأرضية التي تذهب إلى نسبية الأخلاق، ولذا فإن العدل عندهم متأرجح غير مستقر.

* ما تقدم يبين أهمية إشاعة العدل في حياة الناس، لينتظم أمور حياتهم كلها، فالعدل مع النفس، والعدل مع الأبناء، والعدل مع الزوجات، والعدل مع الطلاب، والعدل مع

(١) التفسير القرآني للقرآن ١٣/ ٤٤٥.
(٢) هذه ترجمة لحديث برقم/ ٣١.
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٦٧.
(٤) المجتمع المثالي/ ٧١.

الرعية.... ومتى سرى العدل في كيان المجتمع، أمكن أن يقال عنه أنه مجتمع معافى، وإلا فأنه ينقص من عافيته بمقدار ما انتقص فيه من عدل، ولا غرو أن كان الظلم من أسباب هلاك الأمم السابقة.

* قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ هذا الأساس من أهم الأسس التي حرص الإسلام على غرسها في المجتمع، ولقد عدت الأخوة من النعم التي أنعم الله بها على عباده المؤمنين، يقول تعالى: ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقد ضعف هذا الأمر في نفوس كثير من المسلمين، بعد أن جرفهم تيار المدنية، فضعفت صلة الأرحام، وبات الجار لا يعرف جاره،... فالهداية هنا أن نستشعر معنى الأخوة، ونعمل بما توجبه.

* في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ ما يدل على «أن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية، التي يوزن بها الناس. فهناك قيم أخرى، قد تكون خافية عليهم، يعلمها الله، ويزن بها العباد»[1].

* «من أفتك الآفات التي تغتال مشاعر الإخاء والمودة بين المجتمعات، استخفاف جماعة بجماعة، والنظر إليها نظراً ساخراً، فإن ذلك من شأنه أن يغري هؤلاء المستخفين المستهزئين بمن استخفوا بهم، ونظروا إليهم باستصغار واستهزاء، ثم هو من جهة أخرى يحمل الجماعة المستخَف بها، المستصغر لشأنها على أن تدافع عن نفسها، وأن ترد هذه السخرية وهذا الاستهزاء بالسخرية والاستهزاء ممن سخروا منهم وهزئوا بهم، وهذا أول قدح لشرارة الحرب..».[2]

* في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾، إشارة لآفة تهدد كيان المجتمع

(١) في ظلال القرآن٦/ ٣٣٤٤.
(٢) التفسير القرآني للقرآن١٣/ ٤٤٨.

وهي شيوع استخفاف الأفراد بأنفسهم، وذلك من خلال استخفافهم بالآخرين، ذلك أن الذي يعيب الناس، ويرميهم بما يسوء، لا يسوؤه كثيراً أن يعيبه الناس، وهذا ـ والله أعلم ـ هو بعض ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ بإيقاع الفعل عليهم، فكأنهم إذ يلمزون غيرهم يلمزون أنفسهم ضمناً[١].

* في قوله تعالى:﴿ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ "تأديب عظيم يبطل ما كان فاشياً في الجاهلية من الظنون السيئة والتهم الباطلة، وأن الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة والمكائد والاغتيالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذراً من اعتداء مظنون ظناً باطلاً". [٢]

* قوله تعالى:﴿ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ "يستوقف السامع ليتطلب البيان، فأُعلموا أن بعض الظن جرم، وهذا كناية عن وجوب التأمل في آثار الظنون؛ ليعرضوا ما تفضي إليه الظنون على ما يعلمونه من أحكام الشريعة، أو ليسألوا أهل العلم. على أن هذا البيان الاستئنافي يقتصر على التخويف من الوقوع في الإثم. وليس هذا البيان توضيحاً لأنواع الكثير من الظن المأمور باجتنابه؛ لأنها أنواع كثيرة، فنبه على عاقبتها وتُرك التفصيل لأن في إبهامه بعثاً على مزيد الاحتياط. [٣] ويقول الرازي عن هذا: « كما أن الطريق المخوفة لا يتفق كل مرة فيه قاطع طريق، لكنك لا تسلك لاتفاق ذلك فيه مرة ومرتين، إلا إذا تعين فتسلكه مع رفقة، كذلك الظن ينبغي بعد اجتهاد تام ووثوق بالغ»[٤].

* «معنى كون الظن إثماً أنه: إمّا أن ينشأ عليه عمل أو مجرد اعتقاد، فإن كان قد ينشأ عليه عمل من قول أو فعل، كالاغتياب والتجسس وغير ذلك، فليقدِّر الظانّ أن ظنه كاذب ثم لينظر بعدُ في عمله الذي بناه عليه، فيجده قد عامل به من لا يستحق تلك المعاملة من

---

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن١٣/ ٤٤٩.

(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٥١.

(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٥١.

(٤) التفسير الكبير٢٨/ ١٣٤.

اتهامه بالباطل، فيأثم مما طوى عليه قلبه لأخيه المسلم، وقد قال العلماء: إن الظن القبيح بمن ظاهره الخير لا يجوز. وإن لم ينشأ عليه إلا مجرد اعتقاد دون عمل، فليقدِّر أن ظنه كان مخطئاً، يجد نفسه قد اعتقد في أحد ما ليس به، فإن كان اعتقادا في صفات الله، فقد افترى على الله، وإن كان اعتقاداً في أحوال الناس فقد خسر الانتفاع بمن ظنه ضاراً، أو الاهتداء بمن ظنه ضالاً، أو تحصيل العلم ممن ظنه جاهلاً ونحو ذلك». (١)

* «الظن الباطل إذا تكررت ملاحظته ومعاودة جولانه في النفس قد يصير علماً راسخاً في النفس، فتترتب عليه الآثار بسهولة، فتصادف من هو حقيق بضدها». (٢)

* في قوله تعالى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ ما يدل دلالة واضحة على مدى قبح الغيبة، وازدراء عظيم لأهلها، إنهم أسوأ من كثير من الحيوانات، التي تعاف أن تأكل لحم حيوانات من جنسها، وليس هذا وحسب، بل إنهم يأكلون هذا اللحم ميتاً وكثير من الحيوانات تعاف أكل الميتة ولو ماتت جوعاً. (٣) بل إن هذا المغتاب يأكل لحم أخيه ميتاً. ولا أشنع من هذا الوصف، وبالرغم من هذا، فإنك تجد الكثير من الناس قد وقعوا في هذا المحذور.

* يستدل من قوله تعالى ﴿ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾، على أن من سئل عن شخص في مقام تجوز فيه الغيبة، فإنه ينبغي عليه أن يجيب عن ذلك بقدر، كما يتناول المضطر من لحم الميتة بمعنى أن لا يطنب في مقام يكفي فيه الإيجاز. وإذا استطاع، يدفع ذلك من غير غيبة، فعليه أن يفعل. (٤)

* عظمة الإسلام في تحضر المجتمع ونقلهم من كونهم يعدون القوة أقرب الوسائل تناولاً لحل

---

(١) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٥١، بتصرف يسير٢٥٢.
(٢) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٥٢.
(٣) انظر التفسير القرآني للقرآن١٣/ ٤٥٠.
(٤) انظر التفسير الكبير٢٨/ ١٣٥.

مشكلاتهم، إلى أن صاروا يتوقَّون قول كلمة قد تحسب عليهم غيبة أو تحقيراً لمسلم.[(١)].

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ دعوة مؤكدة من رحيم، لكل من انحرف عن الجادة، بالرجوع إليها، وضم جهوده لبناء المجتمع. وهذا الأساس، أعني التوبة من الأسس المهمة في بناء المجتمع، وقد تكرر وروده في هذه السورة، ليرد من شذوا عن الصف إليه، وهو من الأسس التي ينبغي على المربين أن يراعوها، فليس هناك أسوأ من اليأس، وما قصة الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم أكمل بمن قنَّطه المائة[(٢)] إلا دليل صادق لما نحن بصدده.

* قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ تضع أساساً مهماً من أسس بناء المجتمع وهو المساواة، فخالق الناس واحد، وقد بين عز وجل أنه خلقهم من ذكر وأنثى، إذن فلا مزية لأحد على آخر، ثم زاد الأمر توضيحاً ببيان علة جعل الناس شعوباً وقبائل، وأنه تعالى هو من جعل الناس كذلك، وأخيراً ذكر الأساس الذي به يسمو من أراد الارتقاء وأن ذلك الأساس هو التقوى، فعلى الناس أن يجتهدوا في تحصيل هذا المقام، وأن لا ينشغلوا عنه بأمور ليست من كدهم.

* إن هذه المساواة التي أسسها الإسلام قبل خمسة عشر قرناً، لم تأت بعد مطالبات وإعتصامات وإضرابات، بل جاءت من عند الخالق الحكيم، ولم تفرق بين الناس على أساس اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الوطن، أو أي انتماء أرضي، إذ إن هذه كلها ليست من عمل الناس، وليس بمقدورهم في الغالب تغييرها إن هم أرادوا ذلك، بيد أن الله تعالى، جعل ميدان التفاضل مقدوراً عليه لأي إنسان، بتوفيق الله تعالى، وببذل الأسباب، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ولذا فإننا نقول: إن هذه المساواة لم يبلغها أيُّ تشريع أرضي، وأنى له ذلك؟.

---

(١) انظر مدخل إلى التنمية المتكاملة، أ. د عبد الكريم بكار/ ٢٧١.

(٢) الحديث في صحيح البخاري، برقم(٣٤٧٠)، وفي صحيح مسلم، برقم ٢٧٦٦.

* في قوله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ ﴾، ما يدل على أنه ينبغي على الإنسان أن لا يفتخر بالأنساب، ذلك أن الجَعل هو: «إضافة جديدة تدخل على أصل الشيء، فهو من متعلقات الموجودات، وليس له هو وجود ذاتي، فتوزُّع الناس إلى شعوب وقبائل، ليس أمراً ذاتياً، تتغير به حقيقة الإنسانية في الناس...»[1].

* ينبغي أن تحقق العلة التي أرادها الخالق عز وجل من جعل الناس شعوباً وقبائل، وهي التعارف، لا أن يكون مدعاة للتفاخر والتناكر والتخالف، التي هي مدعاة للسخرية واللمز... ثم اقتتال أفراد المجتمع.

* في قوله عز وجل ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾، مع تصدير الآية الكريمة بـ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، دعوة للانفتاح المنضبط على الآخرين، إن في الناس حاجة ليتعرفوا على ما عند المسلمين من خير، وعلينا لزاماً أن نعرفهم بديننا، وأقول ماذا لو انغلق المسلمون على أنفسهم في الشِّعب؟، أو في دار الأرقم؟، ألم يذهب النبي ﷺ إلى الطائف؟، ألم يعرض نفسه على القبائل؟ لقد ازداد عدد الداخلين في الإسلام، وذاع صيته بعد صلح الحديبية، ثم أن بنا نحن حاجة لنتعرف على الآخر، كيف يفكر... كيف تقدم... ؟ وأنا هنا أدعو العلماء إلى تحديد مفهوم التعارف الذي تنشده الآية الكريمة، ومن ثَمَّ اتخاذ منهجية لحسن التواصل مع الآخرين. لقد أصبح العالم قرية صغيرة، فما لم نحسن التواصل مع الآخر، لا أقول فسَنُغزى في بيوتنا، إذ إن هذا قد حصل، ونحن ـ للأسف ـ لم نعد للأمر عدته.

* كل مجتمع يضع مقاييس للتفاضل غير المقياس الذي حدده الإسلام وهو التقوى «لا بد أن يشقى وأن يضطرب عليه أمره، وأن يعوق عن بلوغ غاياته، وإصابة أهدافه»[2].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ دعوة للارتقاء في سلم التقوى لنيل الأكرمية، فالعليم الخبير هو الله،

---

(١) التفسير القرآني للقرآن١٣/ ٣٥٤.

(٢) المجتمع المثالي/ ٢٤.

وفيه دعوة لتزكية النوايا في ما يأتي الإنسان ويدع.[١]

* ذهب بعض العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وبالأحاديث التي وردت بهذا المعنى وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه.[٢]

المقطع الثاني: الأساس الإيماني، نموذج وإرشاد

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

مناسبة هذا المقطع لما قبله:

لا شك أن موضوع الإيمان ينساب بين ثنايا هذه السورة، وذلك إذا استحضرنا الخطابات الخمسة التي نادى الله تعالى بها عباده ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ وبهذا تظهر مدى أهمية الإيمان في بناء المجتمع، فلولا الإيمان لما التزم الناس بالأخلاق، بل إننا بحاجة ـ حينها ـ لمن يحدد ماهية هذه الأخلاق وعلام تقوم؟ لقد وجدت نظريات تجعل المنفعة هي الأساس،[٣] وأخرى تقول: الغاية تبرر الوسيلة، ولأصبح الناس نهباً لنظريات أرضية مرقعة مهلهلة، لكن الإيمان يجعل الخالق هو الذي له الأمر ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أليس هو الذي خلق

---

(١) انظر التحرير والتنوير٢٦/ ٢٦٣.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٧.

(٣) انظر مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، / ٨٢ـ ٨٣.

الناس؟ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم ﴾ وإذا كان هذا الأمر حقيقة لم يدّع أحد خلافها، فليكن الأمر، كل الأمر لله عز وجل، ومن أخطر تلك الأمور بناء المجتمعات.

وإذن فإذا كان المقطع الأول قد ابتنى المجتمع الأخلاقي، وحماه من التصدع، فالمقطع الثاني يشده برباط الإيمان، وذلك بعرض مثال لمن دخل في الإسلام حديثاً، ولمّا يدخل الإيمان في قلبه بعد، فهو بحاجة إلى معرفة حقيقته، فجاء هذا الإرشاد الرباني؛ توجيهاً للأفراد كي يحققوا هذا المعنى، وللمجتمعات كي يشيع فيها الإيمان. ولا شيء غير الإيمان يبني المجتمعات.

كما أن هذا المقطع الذي ختم بالنهي عن التفاخر، بدأ بنموذج من التفاخر المذموم ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾ ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ﴾.

بيّن المقطع الأول أن الهداية بيد الله تعالى ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ ﴾، وفي المقطع الثاني: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾.

التفسير الإجمالي

يقول تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾[1]، يذكر القرآن ما حصل من هؤلاء الأعراب، حين ادعو منزلة أعلى من منزلتهم، وذلك أنهم قالوا آمنا، ولمّا يتمكن الإيمان في قلوبهم. فأنكر الله تعالى عليهم هذا القول، مبيناً لهم حقيقة حالهم ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ ﴾، بصيغة جازمة، وبدون كنايات، ثم أرشدهم إلى ما ينبغي أن يقال: ﴿ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾، مبيناً لهم أنهم لما يصلوا إلى هذا المقام بعد، [2] وهنا قد يُظن أنهم منافقون، وعلى هذا فأعمالهم الصالحة ستذهب سدىً، فأخبروا بأن إسلامهم هذا كاف لتحسب لهم أعمالهم الصالحة، ولا

(١) لم أذكر سبب نزول قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ... ﴾، لأني لم أجد من الروايات ما يمكن الاطمئنان إليه، وقد تشدد العلماء في أسباب انزول، كما هو معلوم، بيد أن أكثر المفسرين ذكروا أنها نزلت في بني أسد. والعلم عند الله، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٧٨.

تضيع. [(١)] فقال عز وجل: ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾، قال الطبري: «إن تطيعوا الله ورسوله أيها القوم، فتأتمروا لأمره وأمر رسوله، وتعملوا بها فرض عليكم، وتنتهوا عما نهاكم عنه، ﴿ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ ﴾ يقول: لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئاً، ولا ينقصكم من ثوابها شيئاً». [(٢)] ثم طمأنهم على ما سبق أن فرط منهم من ادعاء الإيمان، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾. فإذا هم أطاعوا الله ورسوله، تحقق لهم الأمران: نيل أجورهم كاملة، وغفران ما أسلفوا من ذنوب.

وماذا على المرء لو تطلع إلى منازل المؤمنين؛ ليسلك السبيل إليها، فلتبين لهم إذن «صفات المستحقين لإطلاق اسم الإيمان عليهم». [(٣)] ليرتق إليه من علم الله صدق عزمه وإخلاص قلبه، ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ أي: الكمَّل الراسخون في الإيمان[(٤)] ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ يعني: إيماناً صحيحاً خالصاً، عن مواطأة القلب واللسان»[(٥)] ﴿ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ ﴾ أي: «لم يشكوا ولا تزلزلوا، بل ثبتوا على حال واحدة، وهي التصديق المحض»[(٦)] وهنا لا بد من وقفة « تشير إلى ما قد يعتور النفس المؤمنة ـ تحت تأثير التجارب القاسية، والابتلاءات الشديدة ـ من ارتياب ومن اضطراب، وإن النفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل ونوازل تزعزع. والتي تثبت فلا تضطرب، وتثق فلا ترتاب، وتظل مستقيمة موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله.

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق، وأخطار الرحلة؛ لتعزم

(١) انظر في ظلال القرآن٦/ ٣٣٤٨. وما ذكر من أنهم لم يكونوا منافقين رجحه ابن القيم، انظر بدائع التفسير٤/ ١٨٣، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٨ بأدلة تنظر هناك، وهو الصواب، كما مر من توجيه الآية. والله أعلم.

(٢) جامع البيان١١/ ٤٠١.

(٣) فتح القدير٥/ ٧٣.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٨، ونظم الدرر٧/ ٢٣٨.

(٥) فتح القدير٥/ ٧٣.

(٦) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٨.

أمرها، وتحتسب، وتستقيم، ولا ترتاب عندما يدلهمّ الأفق، ويظلم الجو، وتناوحها العواصف والرياح». (١)

ويتواصل التوجيه الرباني ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾، تمكّن الإيمان في قلوبهم، وظهرت ثمرة ذلك عليهم، فانطلقوا ينشرونه، باذلين أموالهم وأرواحهم، في سبيل الله تعالى، لا يريدون إلا رضوانه. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ « في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون»(٢) «حيث طابقت ألسنتهم عقائدهم»(٣)، وفيه تعريض بهؤلاء الأعراب. كأنه تعالى يقول لهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾لا أنتم.

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أي: « أتخبرونه بما في ضمائركم». (٤) « وفي ذلك تجهيل لهم، حيث ظنوا أن ذلك يخفى على الله تعالى. ثم ذكر إحاطة علمه بما في السموات والأرض»(٥) فقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ ﴾ «والله الذي تعلّمونه أنكم مؤمنون، علام جميع ما في السموات السبع والأرضين السبع، لا يخفى عليه منه شيء، فكيف تعلمونه بدينكم، والذي أنتم عليه من الإيمان، وهو لا يخفى عليه خافية، في سماء ولا أرض، فيخفى عليه ما أنتم عليه من الدين. ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٞ ﴾ يقول: والله بكلّ ما كان، وما هو كائن، وبما يكون ذو علم». (٦)

ولما كان قولهم: آمنا، فيه معنى المنة، قال تعالى مستحضراً قولهم:(٧) ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ ﴾ والمنة: « النعمة الثقيلة، ويقال ذلك على وجهين:

---

(١) في ظلال القرآن٦/ ٣٣٥٠، وانظر نظم الدرر٧/ ٢٤٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٨.
(٣) البحر المحيط٨/ ١١٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٨.
(٥) البحر المحيط٨/ ١١٧.
(٦) جامع البيان١١/ ٤٠٣.
(٧) انظر نظم الدرر ٧/ ٢٤١.

أحدهما: أن يكون ذلك بالفعل، فيقال: منَّ فلان على فلان: إذا أثقله بالنعمة، وعلى ذلك قوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٩٤]... وذلك على الحقيقة لا يكون إلا لله تعالى.

والثاني: أن يكون ذلك بالقول، وذلك مستقبح فيما بين الناس، إلا عند كفران النعمة، ولقبح ذلك قيل: المنة تهدم الصنيعة، ولحسن ذكرها عند الكفران قيل: إذا كفرت النعمة حسنت المنة.

وقوله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ﴾ فالمنة منهم بالقول، ومنة الله عليهم بالفعل، وهو هدايته إياهم كما ذكر»[1].

﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ «وهم قالوا للنبي ﷺ: آمنَّا كما حكاه الله آنفاً، وسماه هنا إسلاماً لقوله:﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾، أي: أن الذي مَنُّوا به عليك إسلام لا إيمان، وأثبت بحرف ﴿ بَلِ ﴾ أن ما مَنُّوا به إن كان إسلاماً حقاً موافقاً للإيمان، فالمنّة لله لأن هداهم إليه، فأسلموا عن طواعية. وسماه الآن إيماناً مجاراة لزعمهم؛ لأن المقام مقام كون المنّة لله، فمناسبة مُسَايَرَة زعمهم أنهم آمنوا، أي: لو فرض أنكم آمنتم كما تزعمون فإن إيمانكم نعمة أنعم الله بها عليكم». [2]

وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ يعني: «إن كنتم صادقين في قولكم آمنا». [3]

هدايات المقطع الثاني

* يستفاد من قوله عز وجل: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ أن الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه

(١) مفردات ألفاظ القرآن(منن) بحذف يسير.
(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٦٩-٢٧٠.
(٣) جامع البيان١١/ ٤٠٤.

السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان،[١] فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه.[٢]

* منهج القرآن الرائع في معالجة النفوس، إذ إن قول الأعراب ﴿ ءَامَنَّا ﴾، لاحقيقة له، إذن كيف يعالج هذا الأمر؟ هل بالسكوت عنهم،؛ لكونهم حديثي عهد بإسلام، ولكن هذا يعني إقرارهم، أم بالرد عليهم بفضاضة وإغلاظ، لأنهم تجرؤوا وادعوا مقاماً سامياً، سار في الرجال أزمنة طويلة، وبذلوا فيه النفس والنفيس، ثم تنهال عليهم الخطب الرنانة موبخة مثبطة، القرآن يجيب عن ذلك، ويبين المنهج الأسمى والأوفق والأرفق.

* الذي ينبغي في إنكار المنكر، أن تبينه أولاً، فقد ينكر على شخص دون أن يدري علام هوجم، والآية ذكرت ما أنكر عليهم بإيجاز ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ ﴾، ثم لا بد من بيان ما ينبغي عليهم أن يفعلوا ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾ ثم زادت الأمر توضيحاً، مجيبة عما قد يدور بخلدهم: لم لا نقول آمنا؟ فيأتي الجواب: ﴿ وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾.

* لا بد من إشاعة ثقافة النقد عند الناس، وذلك من خلال التشجيع على نقد السلوكيات الخاطئة والتصرفات غير اللائقة.[٣] بيد أن هذا النقد ينبغي أن يكون بنّاء وبرفق.

* الإيمان ليس كلمة تقال، أو مقاماً يزعم «إنه عقيدة، وعمل يقوم في ظل هذه العقيدة وهديها».[٤] ولا يصار إليه إلا بعد مجاهدة.

* يستدل من قول الله تعالى:﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ ﴾ أهمية طاعة الله ورسوله، فعليهما يترتب الجزاء.

---

(١) متفق عليه: صحيح البخاري برقم/ ٥٠، وصحيح مسلم برقم/ ٨.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٧٧.

(٣) انظر مدخل إلى التنمية المتكاملة/ ٢٥٧.

(٤) التفسير القرآني للقرآن١٣/ ٤٥٦.

* أهمية السنة، وفيه رد على من ادعى الاكتفاء بالقرآن، مستنداً على حجج واهية، فيقال له: هذا القرآن الذي أردت الاكتفاء به يدعوك لاتباع السنة، ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾، والمقام هنا مقام بيان لهؤلاء الأعراب لما يجب عليهم فعله. بل إن المقام توضيح لمنزلة الإيمان.

* أهمية طاعة القيادة في بناء المجتمع، وهو ما سبق بيانه في الافتتاحية من وجوب عدم التقدم بين يديها، وقيادة المجتمع الإسلامي تستمد شرعيتها من طاعتها لله عز وجل ورسوله ﷺ وتنفيذ ما جاءا به.

* كرم الله تعالى، فإذا حقق المرء ما عليه، منحه ربه الجزاء الأوفى، وغفر له ذنبه.

* ما سبق أن بُين مراراً من ضرورة إيجاد السبل لعودة من ندَّ من أفراد المجتمع، وذلك من خلال إشاعة ما قد يسمى بثقافة التوبة، وبث الأمل في نفوس العصاة، فرحمة الله واسعة، وفي الحديث (للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِضَالَّتِهِ إِذَا وَجَدَهَا)[1]، يتضح هذا من خلال قول الله تعالى لهؤلاء الأعراب، مؤكداً لهم وعده ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾.

* الإسلام وهو يعالج الأخطاء التي يقع فيها المجتمع، يأخذ بأيديهم للكمال، وهو بذلك يحفز القوى الكامنة فيهم، فهو خالقهم، وبهم عليم، فمع أنه عز وجل أنكر عليهم إدعاء منزلة الإيمان، لكنه بين لهم صفات كاملي الإيمان:﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾.

* القرآن الكريم وهو يعرض صفات كاملي الإيمان، فإنه يسلك في ذلك أسلوباً غير مباشر ليرقى إليه كل من تاقت نفسه لتلك المدارج، في كل زمان ومكان. وهو لا شك أسلوب محبب، وأدعى للقبول.

* يستدل بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أن المؤمن من فعل الإيمان لا من قاله

---

(١) صحيح مسلم برقم/ ٢٦٧٥.

بلسانه فقط، والمقصود بالفعل: فعل القلب واللسان والجوارح.

* في قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ ما يبين أهمية الثبات للمؤمنين، وفيه إشارة إلى أن في هذا الطريق عقبات وفتن ومحن، وعلى المؤمن التيقظ لها، ودعاء الله تعالى بأن يوفقه لتجاوزها.

* عدم فهم كثير من الناس في وقتنا الحاضر لدينهم، وضمور الجانب الإيماني في حياتهم، هو الذي أصاب مجتمعات المسلمين بالتمزق والتيه.[1]

* لكل حق حقيقة، فحقيقة الإيمان أن يجاهد المؤمن بماله ونفسه، أما من ادعى هذا المقام ثم بخل بهما، أو أراد أن يكون ما ادعاه من الإيمان مغنماً، فلا أقل من أن يقال: إنه لم يفهم حقيقة الإيمان.

* يحتاج المجتمع لبذل المال والنفس كي يحافظ عليه، فإذا بخل أفراده بأموالهم وأنفسهم في بنائه والدفاع عنه، فما أسرع أن تمتد إليه أيد، همُّها هدم هذا الدين، وتقويض كيان المجتمع، وهم بالرغم من كفرهم، يبذلون في سبيله المال والنفس، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٦]، فإذا كان هذا حال الذين كفروا في تعاملهم مع المال ـ ومعلوم أنهم قد خرجوا للقتال بأنفسهم ـ فكيف ينبغي أن يكون حال الذين آمنوا.

* في تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، ما يبين أهمية هذا الأمر، وبخاصة من لم يستطع الجمع بينهما. وفي الحديث (مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِياً فِي سَبِيلِ اللهِ بِخَيرٍ فَقَدْ غَزَا)[2].

---

(١) انظر مدخل إلى التنمية المتكاملة / ٢٤٢.

(٢) صحيح البخاري برقم/ ٢٨٤٣، وصحيح مسلم برقم/ ١٨٩٥.

* في قوله عز وجل: ﴿ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ إثبات للملكية، نستنتج ذلك من نسبة الأموال للناس[1] لكن الإسلام نهج وسط، فقد أوردها في سياق البذل، فالإسلام وهو يقرها، يوصي أن لا تشغل المسلم عن الهدف الذي من أجله خلق، بل عليه أن يبذلها؛ صيانة للدين ونشراً للخير.

* ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ تطهر النفوس من معاني الأثرة والأنانية والجشع والحرص.... التي هي من أخطر عوامل تخريب المجتمعات. وتمنحها حباً وصفاء وإخاء.

* ﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ توظيف للمال في الخير، وما لم يوظف في ذلك، فإنه سيكون عامل تخريب اجتماعي، حيث يستخدم لاستفزاز الفقراء، وإشاعة نفسية التسلق الاجتماعي، ولذا لا بد من النهوض بأرباب الأمول نحو بث روح تحمل المسؤولية، والتوجه إلى نفع الناس، وإيجاد آليات للتواصل والتراحم والتعاون.[2]

* يبين قول الله عز وجل: ﴿ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ أهمية المال في رفد المجتمع بما يحتاجه من أنشطة أهمها الجهاد في سبيل الله، وإلا فلا وجود لمجتمع يتسول لمشاريعه ممن يخالفونه العقيدة. وعليه فلا معنى للزهد في المال، وقد قال تعالى:... ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢]، فلم يمنع صلاح الرجل من أن يكون له مال، ولذا فلا بد من تأهيل أفراد في المجتمع ممن يحسنون إدارة المال.

* الدين هو أنفس شيء للمسلم، فهو يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله عز وجل لإعلائه.

* أهمية الجهاد في سبيل الله لإعلاء هذا الدين، وأنه من أدلة صدق الإيمان.

* أهمية الإخلاص في قبول الأعمال، ولذا قيدت الآية فعل الصادقين بأنه ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾،

---

(١) انظر النظام الاقتصادي في الإسلام، مبادئه وأهدافه، د. أحمد العسال، د. فتحي أحمد عبد الكريم/ ٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر مدخل إلى التنمية المتكاملة/ ٢٤٧.



فوجب الانتباه لهذا، والحذر من حظوظ النفس، لسد منافذ الشرك الخفي، الذي هو أخوف ما يتخوف منه.

* التلازم الشديد بين الإيمان والصدق، وهما بلا شك عاملان أساسيان من عوامل بناء المجتمع، فمتى شاعا، دل ذلك على صفاء هذا المجتمع ونقائه، والصدق يحقق الاطمئنان بين أفراد المجتمع، فتشيع الثقة بين الناس، إذ يسري الصدق في كل تعاملاتهم: الاقتصادية، فلا غش ولا غرر... والاجتماعية، فيقضي على النفاق الاجتماعي الذي يهدم كثيراً من المجتمعات. والثقافية، ووو.

* الصدق لا يكون باللسان وحده، بل لا بد من صدق في النية وفي العمل.

* المنة لله وحده فيما يُوفق له العبد من الطاعات، ولذا فينبغي على المسلم أن يستشعر هذا المعنى، فلا ينبغي أن يُدِل بعمله ويعجب، بل يحمد الله عز وجل على أن وفقه لطاعته ومنحه الصحة لأدائها، داعياً الله تعالى أن يقبلها.

الخاتمـــة

الخاتمة ـ والله أعلم ـ هي قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

مناسبة خاتمة السورة لما قبلها

افتتحت سورة الحجرات ببيان الآداب التي تقدم ذكرها، وبُين هناك أن الله سميع عليم، فجاءت الخاتمة تؤكد هذا الأمر، وتذكر إحاطة علم الله تعالى، بما غاب في السموات والأرض، وأن ما يعمله الناس فإن الله يراه، فليكونوا على حذر، وهذا يستلزم التقوى مرتقياً بالإنسان إلى الإحسان، فافتتحت بـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، واختتمت بـ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

ثم نجد المقطع الأول يتحدث عن مجيء الأعراب في الهيئة التي سبق ذكرها، وقد علم الله فعلتهم، ولعلمه بأن ذلك لم يكن عن سوء قصد، فقد غفر لهم ورحمهم، وعليهم أن يتأدبوا

بالأدب الذي عُلموه...

ثم يأتي الحديث عن مجيء الفاسق، وكيفية التعامل مع خبره، بعلم لا بجهالة، وفيه تخويف للفساق بأن الله يسمع أقوالهم، ويبصر تحركاتهم، فليحذروا من إشاعة الأخبار الكاذبة..

وعلى الطائفتين المؤمنتين أن يتقيا الله تعالى، فما بالاقتتال أمروا، فهم أخوة، وإن حصل فليحذروا البغي، وليرجعوا إلى أمر الله تعالى...، كما أن الله عالم وبصير بنواياهم، وبنوايا من يتولى الصلح، فينبغي توخي العدل وإزالة الجور.

وعلى المؤمنين أن يتذكروا أوامر الله تعالى ونواهيه، وليبتعدوا عن السخرية والطعن في إخوانهم ونبزهم بالألقاب التي يكرهونها، وليكن ظنهم بإخوانهم الظن الحسن، فإن ما نهوا عنه يعكر صفو الأخوة، ولا ينبغي للأخ أن يأكل لحم أخيه، بل الظن به أن يوفر لحمه،....

ثم علام هذه السخرية، وخالقهم العليم بهم سوّى بينهم في الخلق، إذ خلقهم جميعاً من ذكر وأنثى... فعليهم بالتقوى، فالله بصير بما تعملون،، فلن يغيب عن الله تعالى ما تعملونه وستحاسبون عليه.

أما المقطع الثاني، فالمناسبة فيه ظاهرة، فعندما قالت الأعراب ﴿ ءَامَنَّا ﴾، فقد علم الله منهم ذلك، وعلى المسلم أن لا يدعي منزلة أعلى من منزلته، منّاً وافتخاراً، فالله يعلم غيب السموات والأرض، ومن ذلك ما تكنه قلوبهم، ولكن عليهم أن يرتقوا بإسلامهم ليصلوا إلى الإيمان، ثم إلى الإحسان، بعد أن يوقنوا أن الله بصير بما يعملون. قال الرازي: «وآخر السورة مع التئامه بما قبله، فيه تقرير ما في أول السورة، وهو قوله تعالى:﴿ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ الحجرات/ ١، فإنه لا يخفى عليه سر، فلا تتركوا خوفه في السر، ولا يخفى عليه علن، فلا تأمنوه في العلانية». [1] والله أعلم.

(١) التفسير الكبير٢٨/ ١٤٤.

التفسير الإجمالي للخاتمة

تؤكد الآية الكريمة بتصديرها لفظة ﴿ إِنَّ ﴾ على أن علم الله بغيب السموات والأرض أمر مؤكد، وقد جيء به مع أن السورة مدنية، والمؤمنون يعلمون ذلك؛ لبيان أهمية استحضار هذا الأمر وعدم الغفلة عنه، ثم زادت الأمر توضيحاً، بجعل كل ما يُعمل تحت نظر الله تعالى. يقول الطبري: «... إن الله يعلم ما تكنه ضمائر صدوركم، وتحدّثون به أنفسكم، ويعلم ما غاب عنكم، فاستسرّ في خبايا السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ يقول: والله ذو بصر بأعمالكم التي تعملونها، أجهراً تعملون أم سراً، طاعة تعملون أو معصية؟ وهو مجازيكم على جميع ذلك، إن خيراً فخير، وإن شرّا فشرّ»[1].

هدايات الخاتمة

* مراقبة الله تعالى في السر والعلن، أساس متين لحفظ المجتمع، وذلك بإحساس المسلم بأن الله تعالى يعلم غيب السموات والأرض، ويبصر كل ما يفعله، وبهذا تستقيم المجتمعات ويأمن الأفراد على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، وهذا أجدى من وضع أجهزة للمراقبة، وإشعار الآخرين بها؛ للحد من تجاوزاتهم، فسرعان ما يُكتشف ما يبطل عملها لأنها مهما بلغت من الدقة فهي من صنع إنسان. إن الإسلام برفع الإنسان إلى مقام الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[2] ليزرع في نفوس أتباعه رقابة ذاتية، وضميراً يقظاً، يتأبى على النزول من هذا الأفق الوضيء للذة عابرة، وهو يوقن بأن الله يراه وأن عليه كراماً كاتبين. وإذا ما سقط فإن التوبة تتلقفه؛ لترفع من كبوته، وتلحقه بركب المحسنين.
* في تقديم لفظ الجلالة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ ﴾ ما يدل على أن علم الغيب لله وحده، فلا ينبغي أن يطلب من غيره، وقد ابتليت كثير من المجتمعات بمن يدعى زوراً أن عنده علماً من

---

(١) جامع البيان١١/ ٤٠٤.

(٢) هو حديث جبريل عز وجل، وقد مر تخريجه.

الغيب، ومما يؤسف له أن بعض الناس يسمع لهم، بل يذهب إليهم باذلاً المال والجهد، وبعض وسائل الإعلام تفسح المجال لهم.

* في قوله تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ ﴾ الذي يقتضي تجدد علم الله تعالى بكل ما يحصل فيهما، رد على الفلاسفة الذين يقولون إن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات، وفي قوله عز وجل ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ ما يؤكد هذا.

* في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ ـ وهذا يعني ما ظهر من باب أولى ـ[1] ما يستدعى أن يطامن من غرور الإنسان فيما يتعلق بما حصل عليه من علم، يقال هذا لأن كثيراً من الناس بهروا بما وصل إليه الغرب من علوم، ولو أن المسلم سلك طريقاً إلى ربه، لعلمه....

* في هذه الآية الكريمة ذكر لفظ الجلالة ﴿ ٱللَّهَ ﴾ ثلاث مرات، وماذاك ـ والله أعلم ـ إلا لإدخال المهابة في نفوس المؤمنين، ليأخذوا الأمر على ما تقتضيه الهيبة من إحسان العمل والبعد عن الإساءة.

* في هذه الآية الكريمة صفة من صفات الله تعالى وهي البصر، كما مر في أثناء السورة صفات أخرى، والذي ينبغي تأكيده، أنه مع أهمية بيان المنهج الأسلم والأعلم والأحكم في هذه المسألة، فإنه ينبغي أن لا نغفل أثر هذه الصفات على الفرد والمجتمع. فالطالب في كثير من المعاهد والجامعات ينفق الوقت الكثير في بحث المسألة نظرياً، دون أن ينبه على أهمية أن يغير من سلوكياته الخاطئة وفقاً لهذا المعتقد.

* ختمت هذه السورة الكريمة بقول الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾، وكأنها ـ وقد حثت على الارتقاء إلى الإيمان ـ ها هي تدعو إلى مرتبة الإحسان.

* ونحن في خاتمة هذا الموضوع، بناء المجتمع، يستحسن أن يقال: إن هناك نوعاً من القطيعة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٩).

بين الدعاة وبين العلوم الإجتماعية، بحجة أنها علوم غربية، مع أن سنن الله تبارك وتعالى في الإجتماع كسننه في الفيزياء والفلك، يجدها من يبحث عنها، ولا نستطيع أن نزعم أننا أكثر جدية من القوم في البحث عنها، مع أن عمل الدعوة كله عبارة عن تغيير المجتمع وتوجيهه الوجهة النافعة.[1]

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، أ. د عبد الكريم بكار/ ٣٦ ـ ٣٧، بتصرف يسير.

سورة ق

بين يدي السورة

اسم السورة

جاء على ألسنة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم تسمية هذه السورة بـ (ق)، و﴿ قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ ﴾، وسيأتي في فضائل هذه السورة دليل ذلك. وذكر السيوطي أنها تسمى سورة الباسقات، ولم يعزه. (١)

مرحلة نزول السورة

قال الفيروز آبادي: «السورة مكية بالاتفاق»(٢)، وهي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب نزول السور، نزلت بعد سورة المرسلات، وقبل سورة ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ ﴾. (٣)

ومعلوم أن السور المكية عنيت بمعالجة فساد العقيدة في أمر الألوهية، وإنكار البعث، ومسألة الرسالة، فكانت هذه السورة شوطاً في ذلك الدرب الطويل الذي سلكه القرآن الكريم

---

(١) انظر التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٧٣، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ١/ ١٢١.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي١/ ٤٣٧. وقد استثنى بعض العلماء قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا .. ﴾ الآية، معتمدين على رواية لابن عباس رضي الله عنهما في المستدرك، وفيها «لما كان يوم السبت لم يكن فيه خلق فقالت اليهود فيه ما قالت، فأنزل الله عز وجل تكذيبها ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ۝٣٨ ﴾ «المستدرك ك/ التفسير، باب/ تفسير سورة حم الدخان. وفي سنده أبو سعد البقال، قال ابن حجر: «ضعيف مدلس» تقريب التهذيب١/ ٢١٢. وقال الذهبي: «رواه عبد الرزاق عن ابن عيينة عن أبي سعيد مرسلاً، لم يذكر ابن عباس» تلخيص المستدرك٢/ ٤٥٠ـ ٤٥١.

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن، الزركشي١/ ٢٨١، والتحرير والتنوير ٢٦/ ٢٧٤. أما في الإتقان فهي الثالثة والثلاثون، ويظهر أنها سقطت من الناسخ، فبتتبع ما أورده السيوطي يتضح أنه تابع الزركشي في كل ما ذكره، إلا في هذه السورة، فهي غير موجودة البتة في المكي، ولا في المدني.

وهو يقتلع جذور هذه العقيدة الفاسدة، وذلك بإيراد شبههتهم في البعث، والرد عليها بالحجج والبراهين البينة الدامغة.

فضائل السورة

وردت عدة أحاديث تبين مدى حرص النبي ﷺ على قراءة (سورة ق) في المجامع العامة، كالجُمع والأعياد، وقد ذكر ابن كثير علة ذلك فقال: « لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب»[1] ومما ورد في فضلها ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[2] عَنْ أُمِّ هِشَام بِنْتِ حَارِثَةَ بْنِ النُّعْمَانِ قَالَتْ: لَقَدْ كَانَ تَنُّورُنَا وَتَنُّورُ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاحِداً سَنَتَيْنِ أَوْ سَنَةً وَبَعْضَ سَنَةٍ، وَمَا أَخَذْتُ ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ إلا عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَقْرَؤُهَا كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ عَلَى الْمِنْبَرِ إِذَا خَطَبَ النَّاسَ) وفي رواية له عنها رضي الله عنها (ما حفظت ق...).[3]

و«عَنْ قُطْبَةَ بْنِ مَالِكٍ قال: صَلَّيْتُ وَصَلَّى بنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَرَأَ ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾ حَتَّى قَرَأَ ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ ﴾ قَال فَجَعَلْتُ أُرَدِّدُهَا وَلَا أَدْرِي مَا قَال».[4]

وفي صحيح مسلم ـ أيضاً ـ[5] أن عُمر بْنَ الْخَطَّاب رضي الله عنه سأل أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ رضي الله عنه مَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الأَضْحَى وَالْفِطْرِ؟ فَقَال: كَانَ يَقْرَأُ فِيهِمَا بِـ ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ ﴾، و﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾».

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٨٠.

(٢) برقم (٨٧٣).

(٣) بالرقم السابق نفسه.

(٤) صحيح مسلم، برقم (٤٥٧).

(٥) برقم (٨٩١).

عدد آيات السورة

عدد آيات (سورة ق) خمس وأربعون آية.[1]

محور السورة

احتوت (سورة ق)، على براهين البعث التي ذكرها العلماء، وهي: العلم والقدرة والحكمة، وبالتأمل في آياتها، نجد هذه البراهين واضحة جلية، فلقد افتتحت السورة بالقسم بالقرآن، وفي ذلك إرشاد للمصدر الأصيل لتلقي هذه البراهين، ثم وصف هذا القرآن بالمجيد الذي يعني: السعة في الكرم والجلال... لكثرة ما يتضمن من المكارم الدنيوية والأخروية[2]، ثم يزداد المحور اتضاحاً حين يذكر القرآن مصدرَ تعجبهم، ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ ﴾ إذن تعجبوا من أمرين، الأول: الإنذار، وهذا يقتضي إنكار البعث، إذ إن المنذر هو: المخبِر بما فيه تخويف[3]، والأمر الآخر: كون هذا المنذر من البشر، وتقديم﴿ مُّنذِرٌ ﴾ «ليدل على أن ما أنذرهم به هو الباعث الأصلي لتكذيبهم إياه، وأن كونه منهم إنما قوّى الاستبعاد والتعجّب....»[4] بدليل قولهم عقب هذا ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾. ثم يضرب المولى عز وجل عن كلامهم؛ ليبين سبب إنكارهم ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ فهم لم يُعمِلوا عقولهم في ما جاءهم، بل بادروا بالتكذيب، ولذا شرع القرآن ببيان براهين البعث، لحثهم على التعقل والتأمل والتفكر، فقال عز وجل:﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ومن هنا يبدأ المقطع الأول.. ثم يأتي المقطع الثاني: ليبدأ البرهان من خلال الإنسان نفسه، وليزاوج بين الدليل العقلي والعاطفي ترغيباً وترهيباً، وليربط القدرة بالعلم ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ ﴾، ويستمر الحديث عن العلم، بتوثيق

---

(١) انظر بصائر ذوي التمييز ١/ ٤٣٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (مجد).

(٣) انظر مفردات ألفاظ القرآن (نذر).

(٤) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٧٩.

المعلوم، ليذكر برهاناً من براهين البعث، وهو الحكمة، فليس من الحكمة أن يخلق الله عز وجل الإنسان هذا الخلق العجيب، ثم يتركه سدىً، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فكل ما يصدر منه فإنه محصىً ومسجَّل، ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾، ثم يأتي الحديث عن البعث بصيغة الماضي، وكأنه قد حصل، مبتدئاً بالموت الذي هو النقلة لدار الجزاء الذي ينكرونه، ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾، أي: « جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب، وهو الحق الذي أخبرت به الرسل»[1]، ثم تستمر الرحلة ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾... ثم مآل هذا الكافر، وهو أنه يؤمر به فيلقى في جهنم...، فما كنتم تنكرونه، ترونه الآن عياناً، وفي المقابل هناك أناس آمنوا بالبعث واستعدوا له، ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾ وهي موجودة الآن بل هي قريبة، ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ ﴾، ويأتي قبيل نهاية المقطعين تذكير بنهاية المكذبين لرسلهم، وقد حق ما أوعدهم الله به في الدنيا، وقد بلغت قريشاً أخبارُ تلك الأمم، قال عز وجل: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨]، وفيه تذكير بمصارع الأمم السابقة، ففي المقطع الأول {كذبت قبلهم... فحق وعيد}، وفي المقطع الثاني: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ ﴾، ثم تأتي الخاتمة، وفيها تسلية للرسول ﷺ ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ومن جملة ما قالوه، ما ذكر في افتتاحية السورة ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾، لقد سمع النبي ﷺ مقالتهم، وساءه ذلك، وقد علم الله عز وجل أن بعضهم لن يؤمن، على الرغم من وضوح البراهين التي سيقت لهم، ولذا تقدم الخاتمة بيان أن هذه البراهين لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وهي لمن يخاف وعيد الله عز وجل، ثم تتوالى الآيات موجهة النبي ﷺ لما ينبغي أن يفعله، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ

---

(١) التفسير الكامل، ابن تيمية/ ٢٨٣.

ﭐلشَّمۡسِ ﴾ حتى تختم بما بدأت به﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ فالقرآن المجيد هو مصدر البراهين، ومن جملته هذه السورة العظيمة.

مناسبات السورة

أولاً: المناسبة بين اسم السورة ومحورها

للعلماء في المراد بالحروف المقطعة ـ التي منها ما افتتحت به (سورة ق) ـ أقوال، لعل أرجحها أنها للتحدي والإعجاز، مثبتة بذلك أن هذا القرآن المجيد من عند الله تعالى، ولَمَّا كان الأمر كذلك، فينبغي على الجميع الإصغاء إليه وتلقي ما فيه، إذ هو كلام الخالق عز وجل، ومن ضمن ما فيه، ما ذكرته هذه السورة من براهين البعث.

وما دام الأمر متعلقاً بالتحدي، فعليهم أن يقبلوا هذا التحدي، فهم أهل اللسان، ولهم في التفنن فيه صولات وجولات، فإذا ما ثبت عجزهم، وجب عليهم أن يُقبِلوا على ما فيه، وحينئذ ينفعهم التذكير بآياته وعظاته وبراهينه.

ثانياً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

بين افتتاحية السورة وخاتمتها مناسبات عدة، منها:

التنويه بشأن القرآن، فلقد ابتدأت بالقسم به ﴿ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾وختمت بـ ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.(1)

ذكرت الافتتاحية قول الكافرين وتعجبهم ﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ ﴾، وختمت بأمر النبي ﷺ بالصبر على ما يقولون ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، كما توعدهم عز وجل على قولهم ذلك بقوله تعالى: ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ ﴾، ففيه تهديد للكافرين، وتسلية للنبي ﷺ.

(1) انظر التفسير الكبير، الرازي٢٨/ ١٩٢.



في الافتتاحية استبعد الكافرون البعث، وفيه ـ والعياذ بالله ـ إثبات العجز لله عز وجل وذلك في قولهم:﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾، فكانت الخاتمة ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾.

ثالثاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ماقبلها

ختمت سورة الحجرات ببيان إحاطة علم الله عز وجل، قال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحجرات: ١٨]، وجاء في افتتاحية سورة ق قوله تعالى: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾[ق: ٤]. ومناسبة قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ لقوله عز وجل: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾، واضحة، فالذي يعلم غيب السماوات والأرض، يعلم ما غاب من أجسادهم. والعلم كما لا يخفى أحد براهين البعث التي تضمنتها سورة ق. كما أنه قادر على إعادة ذلك خلقاً جديداً، وهو البرهان الثاني. وقد عُلم أن إثبات العلم في آية الحجرات التي مر ذكرها، مراد منه ما يترتب على هذا العلم، وهو الجزاء، وهو البرهان الثالث، أعني: الحكمة، التي تقتضي مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

رابعاً: المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

قد مر أن محور سورة الحجرات هو (أسس بناء المجتمع)، ولا يخفى أن أعظم هذه الأسس، هو الأساس الإيماني، فكان بيّناً أن على من يتولون الإصلاح وعملية البناء، أن يراعوا مجتمعاتهم، فإذا كانت سورة الحجرات قد تناولت المجتمع المدني، فسورة ق تعالج مجتمعاً مكياً، ولكل مجتمع ما يناسبه. والله أعلم.

يقول سعيد حوى: «فإذا كانت سورة الفتح قد بينت من جملة ما بينت خصائص الجماعة المسلمة، ووعدت بانتصارها، وجاءت سورة الحجرات لتبني هذه الجماعة بما يكافئ مهمتها، فإن سورة ق عالجت العقبتين الرئيسيتين اللتين يصادفهما صاحب الدعوة، وهما التكذيب،

والعجب من مضمون الرسالة».[1]

حذرت سورة الحجرات من أمور كثيرة تتعلق باللسان، منها التقدم بين يدي الله ورسوله...، ومنها رفع الصوت فوق صوته، والجهر له بالقول...، ومنها نبأ الفاسق، ومنها السخرية واللمز والتنابز بالألقاب، والغيبة، بل يدخل فيها ما قاله الأعراب ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ... ﴾ [الحجرات: ١٤]، وفي سورة ق، تحذير شديد من عدم التنبه للأقوال ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

مر في سورة الحجرات الوصية بالصبر، والحث على التأنِّي في مواضع كثيرة، منها: عند قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [الحجرات: ١]، وهذا التقدم سببه عدم التأني وانتظار ما يراه الرسول ﷺ، وفي قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [الحجرات: ٤-٥]، والدعوة للصبر هنا واضحة، وفي قوله عز وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات: ٦]، أمر بالتبين وعدم التعجل، وفي قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ ﴾ [الحجرات:١٤]، دعوة للتأني، وعدم ادعاء منزلة لمَّا يصلوا إليها بعد، هذا ما ورد في سورة الحجرات، أما في سورة ق، فإن سبب تكذيب الكافرين، هو: «أنهم بادروا بالتكذيب، دون تأمل ولا نظر فيما حواه من الحق، بل كذبوا به من أول وهلة».[2]

قال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [ق: ٥]. وهنا نلحظ التعجل، على الرغم من أهمية ما يُعرض عليهم، وأن فيه سعادة أو شقاء الدارين. والله تعالى أعلم.

---

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى ٩/ ٩٤٧٢.

(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٨٤، وانظر البحر المحيط، أبو حيان٨/ ١٢١.

عرض مقاطع السورة

افتتاحية السورة

﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥ ﴾.

المعنى الإجمالي

سورة (ق) إحدى السور التي افتتحت بما سمي بالحروف المقطعة، وقد تعددت أقوال العلماء في المراد بذلك، وفيما يأتي أبرز هذه الأقوال:

الأول: أنها للتحدي والإعجاز، وكأن الله عز وجل يقول للمشركين: هذه هي حروف لغتكم، التي قد نبغتم فيها، ولكم فيها القصائد الجياد والخطب الرائقة، وقد جاءت على لسان واحد منكم، ولم يدَّعِ قبل ذلك نبوغاً في الشعر أو النثر، ثم هو لم ينسبه لنفسه، بل نسبه لله عز وجل، وأنتم قد اصطلحتم على تسميته قبل أن يقول ذلك بالصادق الأمين، فإن كنتم مع هذا كله تكذبونه، فأتوا بسورة مثله.

الثاني: أن هذه الحروف للتنبيه، ذلكم أن المشركين قد تواصوا فيما بينهم على التشويش واللغو عندما يتلى القرآن الكريم، لئلا يؤثر فيمن يسمعه، وعَدُّوا ذلك نوعاً من الغلب، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦ ﴾ [فصلت: ٢٦]، فجاءت هذه الحروف على خلاف المألوف من كلامهم بغيةَ استنصاتهم.

الثالث: الله أعلم بمراده.

ولدى التمعن في هذه الأقوال، لا نجد تعارضاً بينها، أما الأول والثاني، فالمطلوب من المشركين اسماع آيات هذا القرآن المجيد؛ لتتحداهم، وليقفوا على مجده وعظمته، وليتوصلوا إلى أنه من عند الله عز وجل، وأما القول الثالث، فالجميع متفقون على أن أقوالهم محض اجتهاد،

أما العلم بالمراد فعند الله تعالى.

بعد ذكر هذ الحرف، يقسم الله عز وجل بالقرآن، «والقسم به كناية عن التنويه بشأنه؛ لأن القسم لا يكون إلا بعظيم عند المقسِم»[1]، ثم يصفه سبحانه عز وجل بالمجيد، وهو: «الكريم العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد».[2] والمراد بهذا التأكيد: التشويق لما سيأتي؛ لأن القسم لا يكون إلا لأمر مهم، «وجواب القسم محذوف؛ لتذهب نفس السامع في تقديره كل طريق ممكن في المقام، فيدل عليه ابتداءُ السورة بحرف ﴿ قٓ ﴾ المشعر بالنداء على عجزهم عنْ معارضة القرآن بعد تحدّيهم بذلك، أو يدل عليه الإضراب في قوله:﴿ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ ﴾. والتقدير: والقرآنِ المجيد إنك لرسول الله بالحق، كما صرح به في قوله:﴿ يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤ ﴾ [يس: ١-٤]. أو يقدر الجواب: إنه لتنزيل من ربّ العالمين، أو نحو ذلك كما صرح به في نحو ﴿ حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ ﴾ [الزخرف: ١ -٣]، ونحو ذلك. والإضراب الانتقالي يقتضي كلاماً منتقلاً منه والقَسم بدون جواب لا يعتبر كلاماً تاماً، فتعين أن يقدِّر السامع جواباً تتم به الفائدة، يدل عليه الكلام»[3]، وتعدُّد هذه الأقوال يمنح وفرة من المعاني. ثم يضرب المولى عز وجل عن ما تقدم ليبين أمراً عجباً، ذلكم أنه مع كون القرآن مجيداً حاز الكرم والشرف في مبناه ومعناه، إلا أنهم ـ وهم أهل الفصاحة الذين كان ينبغي أن يهشوا لاستقباله ـ كذبوه، ولم يصدقوا أنه من رب العالمين، فـ ﴿ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ ﴾، قال الراغب الأصفهاني: «العجب والتعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشئ... يقال عجبت عجباً، ويقال للشيء الذي يتعجب منه: عجب، ولما لم يعهد مثله عجيب، قال:﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ ﴾

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٧٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨١.
(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٧٧.

[يونس:٢]، تنبيهاً أنهم قد عهدوا مثل ذلك قبله، وقوله: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم ﴾»[1]، وقد عجبوا من أمرين، الأول: مجيء منذر، يخبرهم بيوم للبعث والجزاء، والثاني: من كونه بشراً وليس ملكاً، كما صرحت بذلك آيات، منها قوله عز وجل: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٨]، ثم لم يكتفوا بالتعجب، بل أعلنوا ذلك وتفوهوا به، وهذا أقبح، ﴿ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾، ولذا صرح القرآن بوصفهم بالكفر، وأنه سبب قولهم هذا،[2] وقد كان عجبهم من الأول أشد، ولذا بينوا وجهه[3] ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ﴾ أي: «أإذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب»[4]، فأنكروا علم الله تعالى وقدرته، فقالوا: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ [ق: ٣] « أي: مستبعد في الأوهام والفكر»[5] وقد بيّن الله عز وجل في مواضع من كتابه المجيد، أن تعجبهم هو ما ينبغي أن يُتعجب منه فقال عز وجل: ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد: ٥]، ثم رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [ق: ٤]، إنَّ علمنا بما تأكل الأرض من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم وما تفرق من ذلك واختلط بالتراب، محقق وثابت، وهو مثبت في كتاب حافظ لذلك كله.[6] « وسماه الله تعالى حفيظاً؛ لأنه لا يدرس ما كتب فيه، ولا يتغير ولا يتبدل»[7]، ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس

(١) مفردات ألفاظ القرآن (عجب).
(٢) انظر البحر المحيط ٨/ ١٢٠.
(٣) انظر التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٧٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨١.
(٥) البحر المحيط ٨/ ١٢١.
(٦) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨١-٢٨٢.
(٧) جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٠٧.

ببعيد فقال: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ والمعنى «أنهم بادروا بالتكذيب دون تأمل ولا نظر فيما حواه من الحق، بل كذبوا به من أول وهلة»[1]، ولذا ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾ «في أمر مختلط عليهم ملتبس، لا يعرفون حقه من باطله»[2]، ولذلك تخبطوا في وصف القرآن المجيد، فمرة يقولون: ﴿ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام: ٧]، ومرة يقولون: ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وثالثة: قول شاعر، وأحياناً: قول كاهن، وقد رد الله تعالى عليهم، فقال: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحاقة: ٤٢]، وقالوا: هذيان مجنون. وقد قال عز وجل: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الطور: ٢٩]، وهذا تحميق لهم بأنهم طاشت عقولهم، فلم يتقنوا التكذيب، ولم يرسوا على وصف الكلام الذي كذبوا به. [3]

الهدايات المستفادة من افتتاحية السورة

* وصف الله عز وجل القرآن بما وصف به نفسه، فقال: ﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾، ذلكم أن القرآن كلام الله عز وجل، وصفة من صفاته. [4]، وفسر المجيد بالكريم[5]، وهذا يدل على كثرة عطاءاته، ومن هنا وجب علينا أن نتدبره وأن نعمل به؛ ليغمرنا بكرمه، ولا غرو أن كان خلق النبي ﷺ القرآن.
* إقسام الله تعالى بالقرآن؛ ليلفتنا لعظمته، كما أن فيه تنبيهاً على أهمية ما يأتي بعده، والذي استدعى أن يؤكد. كما أن فيه تشويقاً. ومع هذا كله لم تعِ القلوب المغلقة هذا الأمر، فلم يعرفوا قدره، بل راحوا يتساءلون متعجبين من مجيئه من رجل منهم. [6]

---

(١) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٨٤، وانظر البحر المحيط٨/ ١٢١.
(٢) جامع البيان١١/ ٤٠٧-٤٠٨.
(٣) انظر التحرير والتنوير٢٦/ ٢٨٥، ونظم الدرر، البقاعي٧/ ٢٤٩.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب٢٦/ ٤٦٤.
(٥) جامع البيان١١/ ٤٠٥، وذكر أنه قول سعيد بن جبير.
(٦) انظر التفسير القرآني للقرآن٢٦/ ٤٦٥.

* وبال الكفر عظيم، فهؤلاء لم يلتفتوا لعظمة القرآن، بل لم يتدبروه، فلو أنهم نظروا في القرآن لتبينوا أنه من عند الله، ولآمنوا بما جاءهم به من الإخبار عن يوم القيامة. لكنهم أنكروا مجيئه على يد واحد منهم، وقاسوا الله عز وجل على خلقه، فاستبعدوا البعث، وهذه حجب كثيفة، ومما يؤكد سخف عقولهم أنهم أنكروا أن يكون الرسول بشراً، في حين ارتضوا أن يكون الإله حجراً. (١)

* علة كثير من الانحرافات في كل زمان ومكان: تقديم ما تمليه عليهم عقولهم المريضة على الوحي الرباني، فهؤلاء المشركون لم تحتمل عقولهم إمكانية البعث، فأنكروه بالرغم من مجيئه على لسان الصادق الأمين. وعلى الرغم من أن العقل السليم لا يحيل ذلك... بل يثبته. وعندما يقال: تقديم العقل فإنما يُعنى به عقولهم القاصرة، وهذه السورة قد تكفلت ببيان البراهين التي تبين للعقل السليم إمكانية ما استبعدوه.

* الكفار ما قدروا الله حق قدره عندما تعجبوا من البعث، وذلك لأنه يعني العجز، وما داموا قد آمنوا بربوبيته عز وجل وأنه الخالق الرازق... فكيف إذن يثبتون عجزه عن إعادة ما قد خلق.

* علم الله تعالى شامل لكل شيء، ومنه ما تفرق من أجساد الموتى، واختلط بتراب الأرض....

* في التعبير بـ ﴿ مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ ما يدل على أن الميت لايعدم بالكلية، بل يبقى منه شيء، (٢) وقد أكد الحديث الشريف هذا، ففي البخاري بسنده عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْماً، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْراً، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنْ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْماً وَاحِداً، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ

---

(١) نظم الدرر٧/ ٢٤٧.

(٢) ذكر هذا ابن عاشور، انظر التحرير والتنوير٢٦/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[١] ثم يأتي العلم الحديث ليؤكد ما سبق يقول الدكتور زغلول النجار، متحدثاً عن هذه الآية وأن فيها: «الإشارة إلى فضلة تبقى من رفات الأموات بعد تحللها (عجب الذنب)، وهذا ما أثبتته الدراسات العلمية أخيراً». [٢]

* من الآقات التي ابتلي بها كثير من الناس: العجلة، فهم لا يتأنون في إصدار أحكامهم على الأشياء، وهذا أمر معيب، وبخاصة الأمور الخطيرة، التي تخشى عواقبها في الدنيا والآخرة، وهذا ما فعله الكفار، فهم ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ دون أن يعملوا عقولهم، ليروا وضوح أدلته وقوة براهينه على ما يدعو إليه.

* « قال الحسن: ما ترك قوم الحق إلا مرج أمرهم، وكذا قال قتادة، وزاد: والتبس عليهم دينهم»[٣]، وهذه هداية عظيمة من هذين الإمامين الجليلين. فوجب على المسلمين التمسك بالحق، والدعوة إليه.

* أدب الحوار، يتجلى هذا في ذكر حجة الكافرين، ومن ثم الرد عليها، ببيان منشأ الشبهة، مع أسلوب يعتمد على عدم تجريح القائل، بل الرد على شبهته، وبهدوء. فمع أنهم ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، مرتكبين قبائح شتى، إلا أنك لا تجد كلمة نابية في توجيههم، وما أحوجنا إلى مثل هذا الأدب في تعاملنا مع المخالفين.

---

(١) متفق عليه صحيح البخاري برقم/ ٤٩٣٥، وصحيح مسلم برقم/ ٢٩٥٥.

(٢) الموقع الرسمي للدكتور زغلول النجار. ويقول أيضاً: «إن أحاديث عجب الذنب من معجزاته ﷺ. فقد أوضح علم الأجنة الحديث، أن الإنسان يتكون، وينشأ من عجب الذنب هذا (يدعونه الشريط الأولى Primitive Streak)، وهو الذي يحفز الخلايا على الانقسام، والتخصص، والتمايز، وعلى أثره مباشرة يظهر الجهاز العصبي في صورته الأولية (الميزاب العصبي، ثم الأنبوب العصبي ثم الجهاز العصبي بأكمله) ثم بقية الأعضاء، ويندثر هذا الشريط الأولى إلا جزءاً يسيراً منه يبقي في المنطقة العصعصية التي يتكون فيها عظم الذنب (عظم العصعص)، ومنه يعاد تركيب خلق الإنسان يوم القيامة كما أخبرنا بذلك الصادق المصدوق ﷺ».

(٣) انظر نظم الدرر ٧/ ٢٤٨.

المقطع الأول: التأمل في الآفاق

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا
لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ
وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ
بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾

مناسبة هذا المقطع لافتتاحية السورة

ذكر المولى عز وجل في افتتاحية السورة شبهة الكافرين في تكذيب الحق، وهي: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾، ولما كان منشأ هذه الشبهة، هو الشك في قدرة الله وفي علمه، رد عليهم بشمول علمه، فقال عز وجل: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ ﴾.

ذكر عز وجل في الافتتاحية قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾، ثم بين مآل الأمم المكذبة ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ فليعتبروا بالأمم السابقة، ليأخذوا العبرة والعظة منهم.

لما كان منشأ تكذيبهم استبعاد ذلك، وهذا يعني تحاكمهم إلى العقل، وإذن فليعملوا عقولهم، ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ﴾.

استبعد المشركون البعث، فقالوا: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾، وقال تعالى في هذا المقطع: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾.

التفسير الإجمالي

يقول تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ ﴾، يبتدأ هذا المقطع بسؤال لهؤلاء الذين أنكروا قدرة الله تعالى على البعث، يطلب منهم الإقرار؛ لأنهم لا يستطيعون التفلت من الإجابة، وأنهم قد نظروا، وهذه السماء فوقهم، أفلم يتأملوا كيف بنيناها، فسوّيناها سقفاً محفوظاً، وفي التعبير بـ ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ دلالة على سهولة ذلك عليهم، إذ لايكلفهم سوى رفع رؤوسهم.[1] ﴿ وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ بالنجوم، ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ يعني: «وما لها من صدوع وفُتوق»[2]، وهي على اتساعها لا يرى لها أعمدة، وليس لها تصدع منذ خلقها الله تعالى، ثم ينتقل إلى دليل يكتنفهم ويتقلبون عليه، وهي الأرض، فيقول عز وجل: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾، أي: بسطناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾وهي « الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب»[3]، ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ أي: وأنبتنا في الأرض أصنافاً من النباتات، حسنة كريمة تسر الناظر إليها.[4]، ﴿ تَبْصِرَةً ﴾ يقول: فعلنا ذلك تبصرة لكم أيها الناس، نبصركم بها قدرة ربكم على ما يشاء، ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾وتذكيراً من الله عظمته وسلطانه، وتنبيهاً على وحدانيته[5] وحذف متعلق ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ ﴾؛ ليَعُم كلَّ ما يصلح أن يتبصر في شأنه بدلائل خلق الأرض وما عليها، وأهم ذلك فيهم هو التوحيد والبعث،...[6] ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ لكل عبد خاضع لمولاه، منيب «راجع إلى الحق بطاعة الله، فإذا انحرف أو شغله شاغل، ابتدر الرجوع إلى ما كان فيه من الاستقامة والامتثال، فلا يفارقه حال الطاعة، وإذا فارقه قليلاً آب إليه وأناب».[7]

---

(١) انظر التحرير والتنوير٢٦/ ٢٨٦.
(٢) جامع البيان ١١/ ٤٠٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٢.
(٤) انظر جامع البيان١١/ ٤٠٩، ومعالم التنزيل، البغوي٧/ ٣٥٧.
(٥) جامع البيان١١/ ٤٠٩.
(٦) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٩٠.
(٧) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٩١. وانظر المفردات (نوب).

ثم انتقل الحديث إلى أمر طالما شاهده المشركون، ماء ينزل من السماء، بعد طول انتظار، فيسقي أرضاً قد أجدبت، فإذا بها تهتز وتربو، أليس الذي أحيا موات هذه الأرض قادراً على إحياء موتاكم؟» ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ ﴾، ونزلنا من السحاب ماء كثير المنافع[1] فأنبتنا بعظمتنا بسبب ذلك الماء بساتين كثيرة عظيمة، تحوي الأشجار ونحوها، ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾، وهو: الزرع الذي يراد لحبه وادخاره كالقمح والشعير. [2] ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾، أي: وأنبتنا بهذا الماء النخل الطوال، ﴿ لَّهَا طَلْعٌ ﴾ الطلع: « ثمر وحمل، سمي بذلك لأنه يطلع، والطلع أول ما يظهر قبل أن ينشق، ﴿ نَّضِيدٌ ﴾، متراكب منضود بعضه على بعض في أكمامه، فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد»[3].

وقد « خص النَخلُ بالذكر مع تناول جنات له؛ لأنه أهم الأشجار عندهم، وثمره أكثر أقواتهم، ولإتباعه بالأوصاف له ولِطلعه مما يثير تذكر بديع قوامه، وأنيق جماله». [4]

ثم قال تعالى:»﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾ أي: لنرزق العباد، وهذا فضلاً عن كونه إثباتاً لقدرة الله عز وجل فهو امتنان يمتنُّ الله عز وجل به على عباده، وقوله:﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾، أي: وأحيينا بهذا الماء، بلدة قد أجدبت وقحطت، فلا زرع فيها ولا نبت. [5] ﴿ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾«كما أنبتنا بهذا الماء هذه الأرض الميتة، فأحييناها به، فأخرجنا نباتها وزرعها، كذلك نخرجكم يوم القيامة أحياء من قبوركم من بعد بلائكم فيها، بما ينزل عليها من الماء». [6]

بعد ذكر هذه الأدلة التي لا يسع أحد إنكارها، انتقل إلى الحديث عن تكذيبهم الذي

(١) انظر فتح القدير، الشوكاني٥/ ٧٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٢. بتصرف يسير.
(٣) معالم التنزيل٧/ ٣٥٧، وانظر فتح القدير٧/ ٧٨.
(٤) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٩٢.
(٥) انظر جامع البيان١١/ ٤١٢.
(٦) جامع البيان١١/ ٤١٢. وانظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٢.

ورد في افتتاحية السورة في قوله تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ ق/ ٥، فبين الله عز وجل أنهم ليسوا أول من كذب رسوله، بل هناك أمم كثيرة فعلوا مثل فعلهم، ولكن عليهم أن ينظروا في عاقبة ذلك التكذيب، يقول الله عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ ﴾ « وقد ذُكر منهم أشهرهم في العالم، وأشهرهم بين العرب، فقوم نُوح أول قوم كذبوا رسولهم، وفرعون كذب موسى، وقوم لوط كذبوه، وهؤلاء معروفون عند أهل الكتاب، وأما أصحاب الرسّ وعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تُبّع، فهم من العرب»[١] ومن هؤلاء من يرون آثارهم عياناً كثمود في الحِجْر، وكالقرية التي أمطرت مطر السوء بحجارة من سجيل، وهم قوم لوط ﷺ، يمرون عليهم مصبحين وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك الأمم ليسوا شراً منهم، ورسلهم ليسوا خيراً من محمد ﷺ. [٢]

ثم يقول عز وجل: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذُكرت قصة قوم نوح مع نبيهم ﷺ في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وما واجهوه به، ثم ما أصابهم لما كذبوه، وأما أصحاب الرس فقد اختلف العلماء في المراد بهم، وقد رجح الطبري أنهم «قوم كانوا على بئر، وذلك أن الرّسّ في كلام العرب: كلّ محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك،... ولا أعلم قوماً كانت لهم قصة بسبب حفرة، ذكرهم الله في كتابه إلا أصحاب الأخدود»[٣] وقد قال الإمام ابن كثير عقب إيراده هذا القول وغيره: « فالله أعلم». [٤] وبها قال نقول؛ إذ لم يرد في القرآن، ولا في السنة

(١) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٩٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ابن سعدي/ ٥٣١. بتصرف يسير.
(٣) جامع البيان٩/ ٣٩٠، وينبغي الإشارة إلى أن الطبري لم يجزم بهذا الرأي، وإن قاله عقيب قوله: «والصواب من القول في ذلك» لأنه قال بعد ذلك: «فإن يكونوا هم المعنيين بقوله: ﴿ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ ﴾ فإنا سنذكر خبرهم إن شاء الله إذا انتهينا إلى سورة البروج، وإن يكونوا غيرهم فلا نعرف لهم خبراً، إلا ما جاء من جملة الخبر عنهم أنهم قوم رَسوا نبيهم في حفرة....» أوردت هذا الإيضاح؛لأن بعض الذين ذكروا ترجيح الطبري لم يشيروا إليه.
(٤) تفسير القرآن العظيم٣/ ٤٢٢.

ما يَفْصِل في المسألة. ثم ذكر الله تعالى بقية الأقوام المعذبين، فثمود قوم صالح عليه السلام، كذبوا رسولهم، فأخذتهم الصيحة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود: ٦٧-٦٨]، وقال عنهم أيضاً ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النمل: ٥١]، وأما عاد، فهم قوم هود عليه السلام وقد قص الله عز وجل نبأهم في أكثر من موضع، منها ما ورد في سورة الأحقاف، قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾ الآيات، [الأحقاف: ٢١-٢٦]، وذكر عاقبتهم أيضاً في آيات كثيرة منها قوله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الحاقة: ٦-٨]. وقد ذكر الله ما أصاب إخوان لوط لمّا انحرفوا عن الفطرة السوية، وكذبوا رسولهم، فقال عز وجل: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود: ٨٢]، وأما أصحاب الأيكة، فهم قوم شعيب عليه السلام[(١)]، وهؤلاء أخذتهم الرجفة، كما قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأعراف: ٩١]، وسماها تعالى في موطن آخر الصيحة، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [هود: ٩٤]، وكان عذاباً عظيماً كما وصفه الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وأما قوله تعالى: ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾، فـ (تُبّع هو الحميري، وقد كان رجلاً صالحاً، وقد ذم الله قومه ولم يذمه)[(٢)] «وقال كعب: ذم الله قومه ولم يذمه، وضرب بهم لقريش مثلاً؛ لقربهم من دارهم

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨٣.

(٢) ورد هذا في أثر عن عائشة رضي الله عنها، أخرجه الحاكم ك/ التفسير، باب/ تفسير سورة حم الدخان، وقال: « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ». وصححه الألباني في الصحيحة. ٥/ ٥٤٨.

وعظمهم في نفوسهم، فلما أهلكهم الله تعالى ومن قبلهم - لأنهم كانوا مجرمين - كان من أجرم مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك»[١] هؤلاء كلهم اشتركوا في أمر واحد، واستحقوا وعيداً واحداً، ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾، « فوجب لهم الوعيد الذي وعدناهم على كفرهم بالله، وحل بهم العذاب والنقمة. وإنما وصف ربنا جلّ ثناؤه ما وصف في هذه الآية من إحلاله عقوبته بهؤلاء المكذّبين للرسل؛ ترهيباً منه بذلك مشركي قريش، وإعلاماً منه لهم أنهم إن لم ينيبوا من تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ، أنه محلّ بهم من العذاب، مثل الذي أحلّ بهم». [٢]

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ قال الطبري: «ثم استدل عليهم بدليل عقلي، فقال عز وجل مستفهماً عن شيء لا يسعهم في الجواب عنه إلا الإقرار، تقريع من الله لمشركي قريش الذين قالوا:﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ يقول لهم جلّ ثناؤه: أفعيينا بابتداع الخلق الأول الذي خلقناه، ولم يكن شيئاً، فنعيا بإعادتهم خلقاً جديداً بعد بلائهم في التراب، وبعد فنائهم؟ يقول: ليس يعيينا ذلك، بل نحن عليه قادرون». [٣]، ومعنى ﴿ أَفَعَيِينَا ﴾: أفعجزنا. [٤]، وقد ذكر الله عز وجل هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس:٧٨-٧٩]، و﴿ بَلْ ﴾ في قوله:﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ للإضراب الإبطالي عن المستفهم عنه، أي: بل ما عيينا بالخلق الأول، أي: «وهم يعلمون ذلك، ويعلمون أن الخلق الأول للأشياء أعظم من إعادة خلق الأموات، ولكن تمكن منهم اللبس الشديد فأغشى إدراكهم عن دلائل الإمكان فأحالوه»[٥]، وإذن فهم في شكّ وحيرة من قدرة الله تعالى على

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٤٦.
(٢) جامع البيان١١/ ٤١٣-٤١٤.
(٣) جامع البيان ١١/ ٤١٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٣.
(٥) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٩٨.

خلقهم خلقاً جديداً بعد صيرورتهم تراباً. فالتبس عليهم، واختلط ما ألفوه واعتادوه على الحقيقة التي يقر بها العقل السليم، فهم إذا سئلوا مَن خلقهم؟ أجابوا: الله، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف:٨٧]، ثم بعد ذلك يقولون: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾، ثم يُسألون: فمن خلق السموات والأرض؟، فيجيبون الله! قال عز وجل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت:٦١]، وحقاً كيف يصرفون عن هذه الحقيقة الواضحة. بل إن خلق هذين الجرمين العظيمين أكبر من خلق الناس، فكيف إذن يستبعدون البعث، يقول عز وجل: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر:٥٧]، وفي تسمية البعث بالخلق في قوله عز وجل: ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ تحميق لهم من إحالتهم البعث، أي اجْعَلوه خلقاً جديداً كالخلق الأول، وأي فارق بينهما.[1]

مناسبة المقطع الأول لمحور السورة

مناسبة هذا المقطع للمحور واضحة، فهو يدور حول براهين البعث، فلما استبعد الكفار البعث، أُمروا أن يُعمِلوا عقولهم بالنظر في السموات والأرض والجبال... ثم إحياء موات الأرض، فبإمكان العقل أن يتوصل عن طريق التأمل في خلق الله لمعرفة شيء من قدرته عز وجل، ثم لم يُتركوا حتى نص على هذه القدرة من خلال استفهام يطلب منهم الإقرار بالحقيقة التي التبس عليهم أمرها ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ والإجابة لا بد أن تكون بالنفي، إذن فلا بد أن يصلوا إلى بدهية تقِرها عقولهم، إن تخلت عن تلك الحجب والموانع الكثيفة التي تعيق تفكيرهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول

* أدلة القرآن الكريم واضحة بينة لا التباس فيها ولا غموض، ولفت الأنظار لأمور متاحة للجميع، سموات وأرض وجبال، ونبات...، ومن عظمة هذه الأدلة أن الأمّي يفهمها،

(١) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٩٨. بتصرف يسير.

وتبهر في الوقت ذاته العالِم، فمن فلك، إلى علم طبقات الأرض، إلى علم النبات، إلى علم الأجنة....

* المشركون لم يعملوا عقولهم حينما أنكروا البعث، فخلق السموات والأرض أعظم من خلق الناس، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر:٥٧]، وهم يقرون أن الله خالقهم وخالقهما ابتداء من عدم، فلم إذن يتعجبون من إعادة الإنسان.

* ينبغي الاستفادة من براهين البعث التي ذكرت في هذه السورة - وفي غيرها - في زيادة الإيمان، فهي وإن ذُكرت للمشركين المنكرين، إلا أن تأمل ذلك له الأثر العظيم فيما ذكرنا، فلنتدبر بخشوع قول الله عز وجل ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾. قال الزمخشري: «وكم من آية أنزلت في شأن الكافرين، وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبراً لها، واعتباراً بموردها». [1]

* الإسلام دين العقل، فهو إذ يثبت لك أمراً من صميم العقيدة، يريد منك أن تستخدم عقلك كي تصدق به، وقد لفت أنظار الكفار للنظر في الآفاق، فإذا لم يتعظوا بالكتاب المقروء المجيد، فليتعظوا بالكتاب المنظور وهو الكون. وهي في الوقت نفسه دعوة للمسلمين أن يلتفتوا للكون ليتكشفوا أسراره، فقد طالت غيبتهم عن المشهد الحضاري.

* من الأمور التي تعرضت لها هذه السورة الزينة، وهي أمر لافت للنظر، مبهج للنفس، فحري أن يُتأمل ويتدبر، وقد ذكرت في هذا المقطع في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾، وفي قوله عز وجل ﴿ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾، بل إنك لتدرك ذلك في ثنايا ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾. وعلى من يتصدى لبيان قدرة الله عز وجل أن لا يغفل بيان هذه

---

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٠٨.

الجوانب. [١]

* الإعجاز العلمي في هذه السورة الكريمة، يتجلى هذا في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا... ﴾ قال د. زغلزل النجار: « استخدام تعبير مد الأرض لوصف كرويتها؛ لأن المد بلا نهاية هو قمة التكوير»[٢]، وهناك إعجاز علمي ـ أيضاً ـ في قوله عز وجل: ﴿ وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ ﴾ وأحيل في بيان الإشارة العلمية لـ ﴿ وَأَلۡقَيۡنَا ﴾ إلى ما كتبه الدكتور فوزي الشربيني، لطوله ونفاسته[٣] أما وصف الجبال بالرواسي فيقول د. زغلول النجار: « وصف الجبال بأنها رواسي للأرض وللألواح غلافها الصخري، وهي حقيقة لم يدركها الإنسان إلا في أواخر القرن العشرين». [٤]

* لعل في قوله تعالى:﴿ مُّنِيبٍ ﴾ ما يرغب من انحرف عن الصراط المستقيم، وابتعد عن الحق، أن يرجع إليه.

---

(١) يقول محمد العبدة: «فإذا كانت غاية الخلق العبودية التامة لله تعالى، فإن من كمال التربية انسجام الوسائل والغايات، فقيام العقل بوظيفته المقدرة له وسيلة، والتناغم مع الطبيعة المُسخّرة للإنسان وما فيها من إبداع وجمال وسيلة أيضاً، وقد أمر الله تعالى في كتابه بالنظر في آيات الأنفس والآفاق... كما نبه القرآن إلى هذا الكون وما فيه من جمال ﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ الحجر/ ١٦، ﴿ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ﴿٦﴾ ﴾ النحل/ ٥-٦. ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ النحل/ ٨.
وجاء العلم الحديث ليكشف أن الجمال من تركيبة هذا الكون، وأن ما قاله علماء القرن التاسع عشر من أن المادة ليس لها إلا خواص كمية كالوزن والحجم والعدد ليس صحيحاً، وجاء العلم الحديث ليقول: إن أي نظرية أو فرضية نرى فيها الجمال فإننا نتأكد أنها أقرب للصواب لأنها جزء من الكون. فالجمال في النظرة الجديدة: وسيلة من وسائل اكتشاف الحقيقة العلمية...» مجلة البيان، العدد/ ٩٠، ص/ ٢٦.

(٢) الموقع الرسمي للدكتور زغلول النجار.

(٣) في كتابه: الظواهر الجغرافية في القرآن الكريم/ ٤٥.

(٤) الموقع الرسمي للدكتور زغلول النجار.

* ذكرَ الله تعالى لإنبات الجنات والحب والحصيد والنخل الباسقات علتين، الأولى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ ﴾، والأخرى: ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ﴾، وفي تقديم التذكر والاستبصار، دلالة على أن اللائق بالعبد أن يكون انتفاعه بذلك أهم من تمتعه به من حيث كونه رزقاً.[1]. ولذلك فإن العقلاء هم من يحققون هذا، ولعل في تقييد التبصرة والتذكرة بالعبد المنيب، وإطلاقه في الرزق ما يشير لذلك.

المقطع الثاني: التأمل في الأنفس: خلقاً ومآلاً

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

(١) انظر إرشاد العقل السليم، أبو السعود٦/ ١٢٤، وروح المعاني، الآلوسي١٣/ ٣٢٧.

مناسبة هذا المقطع للمقطع الأول

ورد في ختام المقطع الأول قوله تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾، وابتدأ هذا المقطع بقوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾، فبعد أن ألزم القرآنُ المشركين بالإقرار بأن الله عز وجل لم يعي بالخلق الأول، ابتدأ ههنا بذكر الخلق الأول، وفي هذا يقول ابن عاشور: «هذا تفصيل لبعض الخلق الأول، بذكر خلق الإنسان وهو أهم في هذا المقام؛ للتنبيه على أنه المراد من الخلق الأول»[1].

نلحظ في كثير من آيات القرآن الكريم أن الحديث عن خلق الإنسان يسبقه ذكر ما أعد الله عز وجل له من مقومات حياته، ولذا نجد المقطع الأول تحدث عن خلق السموات والأرض... ثم إنزال الماء من السماء رزقاً للعباد...، أوجد الله عز وجل هذه الأمور وغيرها للإنسان قبل أن يوجده، وضمن له مقومات حياته المادية والمعنوية والروحية، المادية بالقوت طعاماً وشراباً وهواء، والروحية بالمنهج والقرآن. [2] وقد وردت الإشارة للمنهج في قوله عز وجل: ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ وقُدم ذكره لأهميته.

كان المقطع الأول في الاستدلال على البعث بالآفاق، وابتدأ هذا المقطع بالحديث عن الأنفس، وقد قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت:٥٣].

ذكر المقطع الأول برهانَي العلم والقدرة، ثم افتتح المقطع الثاني، ببيان خلق الإنسان، الذي يتضمن برهاني القدرة والعلم، ثم أُفرد الحديث بعدها عن برهان الحكمة، إذ ليس من الحكمة في شيء أن يُخلق الخلق، ويمدون بكل ما يحتاجونه لأبدانهم، ولا يغذوهم ربهم بما يسعدهم في الدنيا والآخرة، ثم يجازي بعد ذلك من امتثل وسار على هدي هذا المنهج، ومن

(١) التحرير والتنوير٢٦/ ٢٩٩.

(٢) انظر تفسير الشعراوي٢٠/ ١٢٤٤١/ ١٢٤٤٢ [عند سورة فاطر].

تنكبه، فجاء هذا المقطع لنقلنا إلى دار الجزاء، فإذا كان الكافرون قد عجبوا من البعث، فالقرآن يصوره وقد جاء بالفعل، ويبدأ بالموت، فهو أول مراحل الآخرة، وهم لا يشكون فيه.

بيد أن برهان العلم لا يزال يتلى، ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾، ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾، قال ابن عاشور: «وفائدة الإخبار بأن الله يعلم ما توسوس به نفس كل إنسان؛ التنبيه على سعة علم الله تعالى بأحوالهم كلها، فإذا كان يعلم حديث النفس فلا عجب أن يعلم ما تنقص الأرض منهم».[1] وبرهان العلم يقتضي محاسبة الناس على ما يصدر منهم، وهذا من الحكمة، وكل هذا يستلزم القدرة وإلا فمن يقدر على الإحاطة بكل الأقوال والأفعال وإحصائها؟ ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة:٦]. وإذن فهو علم وحكمة وقدرة.

ورد في المقطع الأول إجمال في قوله عز وجل ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾، وفصل في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم ﴾.[2]

التفسير الإجمالي

صُدِّر هذا المقطع بثلاثة مؤكدات، وهي القسم المقدر، واللام، وقد؛ وذلك لأهمية ما يأتي بعدها من بيان قدرة الله عز وجل، ولتنزيل من ينكر البعث منزلةَ من ينكر أن الله تعالى خالق الإنسان، إذ قد علم في عرف البشر أن الإعادة أهون من الابتداء، والمشركون يعترفون أنه عز وجل قد خلقهم، قال عز وجل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ يخبر تعالى، أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم[3]. ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾، أي: «لا يخفى علينا سرائره وضمائر قلبه. ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٩٩.
(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٩٦.
(٣) تيسير الكريم الرحمن/ ٧٤٨.

﴿ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ «الوريد: العرق الذي هو مجرى الدم، يجري فيه، ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن، والله أقرب من ذلك بعلمه؛ لأن العرق تحجبه أجزاء اللحم ويخفى عنه، وعلم الله تعالى لا يحجب عنه شيء»[١]، وقد اختلف في المراد بـ﴿ وَنَحۡنُ ﴾، فذهب جمهور العلماء إلى أنه الله عز وجل، فيؤول على معنى القدرة أو العلم. [٢] وذهب آخرون إلى أنهم الملائكة، قال ابن كثير: «ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فرَّ؛ لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ كما قال في المحتضر: ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ٨٥ ﴾ [الواقعة:٨٥]، يعني: ملائكته. وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر ـ وهو القرآن ـ بإذن الله، عز وجل وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله جل وعلا لهم على ذلك». [٣]، ولا مانع من الجمع بين هذين القولين، ويكون المراد قُرْب ذوات الملائكة وَقُرب عِلْمِ الله منه. [٤]

«ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به، وكَّل به ملكين يكتبان عمله ويحفظانه؛ إلزاماً للحجة، فقال: ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ ﴾»[٥] والمعنى: «ونحن أقرب إلى الإنسان من وريد حلقه، حين يتلقى المَلَكان»[٦] الموكلان به بغاية الاجتهاد والمراقبة والمراعاة ما يلفظ به، وما يعمل به، فيأخذان ذلك ويثبتانه، قال الراغب ـ وهو يفسر كلمة قعيد ـ: « أي: ملك يترصده، ويكتب له وعليه،

(١) التفسير الكبير٢٦/ ١٦٢ـ١٦٣.
(٢) انظر جامع البيان١١/ ٤١٥، وانظر التفسير الكبير٢٦/ ١٦٢ـ ١٦٣، والجامع لأحكام القرآن١٧/ ٩، والبحر المحيط٨/ ١٢٣، وإرشاد العقل السليم٦/ ١٢٥، وغيرها.
(٣) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٣ـ٢٨٤.
(٤) وهذا ما ذهب إليه ابن تيمية رحمه الله تعالى، انظر التفسير الكامل٦/ ٢٨٧.
(٥) فتح القدير٥/ ٨٠. وانظر أضواء البيان، الشنقيطي٧/ ٤٢٨.
(٦) جامع البيان١١/ ٤١٥.

ويقال ذلك للواحد والجمع[1]، وقد جعل الله تعالى لكل إنسان ملكين، يكتبان مايصدر منه، أحدهما عن اليمين، والآخر عن الشمال. ثم زيد الأمر تهويلاً، فقال عز وجل: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ ما يتكلم بكلام إلا لديه من يراقبه فيكتب قوله، و﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي: حاضر. [2]

«وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب، كما هو قول ابن عباس، على قولين، والراجح ـ والعلم عند الله عز وجل ـ القول الأول؛ لعموم قوله:﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾[3]، و«الجميع متفقون على إسقاط ما لا ثواب فيه ولا عقاب، إلا أن بعضهم يقولون: لا يكتب أصلاً، وبعضهم يقولون: يكتب أولاً ثم يمحى».[4]

ثم تتوالى الآيات منذرة محذرة من هول ما سيلقاهم عقيب موتهم، بل قبيل موتهم، وليس كالموت يفزع قلوب الكافرين، ذلك أنه « لما ذكر إنكارهم البعث، واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه، أعلمهم أن ما أنكروه وجحدوه، هم لاقوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي»[5]، قال عز وجل: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ والمراد بسكرة الموت: « شدّته وغمرته التي تغشى الإنسان، وتغلب على عقله». [6] ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾، أي: بالحقّ من أمر الآخرة، فتبينه الإنسان حتى تثبته وعرفه. أو: وجاءت سكرة الموت بحقيقة الموت. [7] ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ هذا الأمر المهول الذي كنت تحاول الفرار

---

(١) مفردات القرآن للراغب مادة (قعد).
(٢) الكشاف ٤/ ٣٨٨.
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨٣.
(٤) أضواء البيان ٧/ ٤٣٠.
(٥) الكشاف ٤/ ٣٨٩.
(٦) فتح القدير ٥/ ٨٠.
(٧) جامع البيان ١١/ ٤١٧، بتصرف يسير.

منه، مجتنباً أسبابه بكل الطرق؛ كراهية له. [١]

وللمفسرين أقوال في المخاطب بقوله: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ هل هو الإنسان عموماً، أو الكافر؟ والصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان، ويدخل فيه ابتداء الكفار؛[٢] لأن لهم النصيب الأكمل من كل وصف يأتي. والمؤمنون ليسوا على درجة واحدة في ذلك. ثم قال عز وجل: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ وإذا كان الكافر يقر بالموت لامحالة؛ لأنه يراه في الدنيا، فسيرتجف فؤاده من تيقن حصول هذه النفخة، والمراد: « نفخة البعث». [٣] وقد ورد بيان الصور عن النبي ﷺ، فقد جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال ﷺ:(قرن ينفخ فيه)[٤] وقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: (كَيْفَ أَنْعَمُ، وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا). [٥] ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾ ذلك وقت حصول ما توعدتم به في الدنيا[٦]، ويلاحظ أن الآية الكريمة اقتصرت على الوعيد، وذلك لتهويل الأمر، ولمناسبته لسياق السورة، فالحديث مع من ينكرون البعث، وإلا فهو يوم الوعد والوعيد. [٧]

﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ ﴾ أي: « معها سائق يسوقها إلى الله، وشهيد يشهد عليها بما عملت في الدنيا من خير أو شرّ»[٨]. ويقال لهذا الإنسان: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾، وقد اختلف في المخاطب هنا، هل هم المكلفون جميعاً مؤمنهم وكافرهم، أم الكافر

---

(١) انظر جامع البيان١١/ ٤١٨، وتفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٥.
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٥.
(٣) معالم التنزيل٧/ ٣٦٠.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه برقم/ ٢٤٣٠. وحسنه.
(٥) سنن الترمذي برقم/ ٢٤٣١، وحسنه.
(٦) انظر أنوار التنزيل٨/ ٥٧٧، والبحر المحيط٨/ ١٢٣.
(٧) انظر فتح القدير٥/ ٨١.
(٨) جامع البيان١١/ ٤١٨.

فقط، وكل يوجه الأقوال حسبما اختار، ومن ذلك ماقاله الطبري، وهو يرجح العموم: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: عُنِي بها البرّ والفاجر؛ لأنَّ الله أتبع هذه الآيات قوله:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾، والإنسان في هذا الموضع بمعنى: الناس كلهم، غير مخصوص منهم بعض دون بعض. فمعلوم إذا كان ذلك كذلك أن معنى قوله: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ وجاءتك أيها الإنسان سكرة الموت بالحقِّ ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾، وإذا كان ذلك كذلك كانت بينة صحة ما قلنا. وقوله:﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾، يقول تعالى ذكره: يقال له: لقد كنت في غفلة من هذا الذي عاينت اليوم أيها الإنسان من الأهوال والشدائد ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾، يقول: فجلينا ذلك لك، وأظهرناه لعينيك، حتى رأيته وعاينته، فزالت الغفلة عنك». [١]، وأما من يرى أن الخطاب للكافر، فيحتج بأن المؤمن لم يكن في غفلة عن الحشر والجزاء. ثم يوجه الغفلة على أنها من باب التهكم التوبيخي للنفس الكافرة؛ لأن المؤمن لم يكن في غفلة عن الحشر، والكافر لم يكن غافلاً، وإنما كان منكراً.[٢] والأول أرجح، والمؤمن مهما فعل من الصالحات، فسيكون ـ كما قال الرازي ـ «... بالنسبة إلى تلك الأحوال وشدة الأهوال كالغافل».[٣] والعلم عند الله تعالى، ثم قال عز وجل:﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾، أي: قوي نافذ في غاية الحدة. [٤]

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ اختلف في المعني بالقرين هنا، على أقوال:

الأول: أنه السائق والشهيد. [٥]

الثاني: أنه «الملك الموكل بعمل ابن آدم، أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل»[٦].

(١) جامع البيان١١/ ٤٢٠.
(٢) انظر التحرير والتنوير٢٦/٣٠٨ـ٣٠٩.
(٣) التفسير الكبير٢٦/ ١٦٥.
(٤) النظر جامع البيان١١/ ٤٢١. ونظم الدرر
(٥) جامع البيان١١/ ٤٢١.
(٦) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٦.

الثالث: الشيطان، الذي سلط على إغوائه واستدراجه إلى ما يريد». [١]

وقد يكون المراد بالقرين وبالسائق والشهيد الملكين اللذين وكلا به في الدنيا، [٢] وبهذا نجمع بين القولين الأولين، والله أعلم، وفي الحقيقة هما ملكان، كما مر في قوله عز وجل: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ وجاء به مفرداً في قوله تعالى:﴿ قَرِينٌ ﴾ مع أن لكل إنسان قرينين لأن المراد به الجنس[٣]. ﴿ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ «حاضر مهيأ معد. لا يحتاج إلى تهيئة أو إعداد».[٤] فيخاطب الله عز وجل الملكين: ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ ﴾وقد اختلف في توجيه ﴿ أَلْقِيَا ﴾ بالتثنية، مع قوله تعالى قبلها: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ «والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدَّى الشهيد ما عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير. ﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ أي: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿ عَنِيدٍ ﴾ معاند للحق، معارض له بالباطل، مع علمه بذلك».[٥] ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾، كثير المنع للخير، وهل المراد بالخير: المال[٦]، أو هو الإيمان، [٧] قولان، ولا مانع من الجمع بينهما، [٨] وقد كان المشركون يمنعون الحقوق من أن تصل إلى أهلها، وفي الوقت نفسه يصدون عن سبيل الله عز وجل. ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ «معتد على الناس بلسانه بالبذاء والفحش في المنطق، وبيده بالسطوة والبطش

---

(١) نظم الدرر٧/ ٢٥٨.

(٢) انظر في ظلال القرآن٦/ ٣٣٦٤.

(٣) انظر التفسير الوسيط، سيد طنطاوي١٣/ ٣٤٥، وأقول: لعل العلة في الإفراد أن الخطاب سيكون مع الملك الذي كتب السيئات؛ لأن الكافر هو من سيقذف في النار، ولا يتوقع أن تكون له حسنات. ولا يتنافي هذا مع القول بأن المراد بالإنسان العموم، لأن المقام للتهويل فناسب أن يقتصر على بيان حال الكافر، كما يقتصر أحيانا على الإنذار، في مقام بيان وظيفة الرسول مع أنه بشير ونذير. والعلم عند الله.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب٦/ ٣٣٦٤.

(٥) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٦٨.

(٦) إلى هذا ذهب الطبري، والبغوي، انظر جامع البيان١١/ ٤٢٢، ومعالم التنزيل٧/ ٣٦١.

(٧) انظر الكشاف٤/ ٣٩٠.

(٨) إلى الجمع ذهب أبو حيان، وابن عاشور، انظر التحرير والتنوير٢٦/ ٣١٢ـ٣١٣.

ظلماً»[١]. ﴿ مُّرِيبٍ ﴾ «داخل في الريب وهو الشك والتهمة في أمر الدين، وموقع غيره فيه».[٢] ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ «الذي أشرك بالله، فعبد معه معبوداً آخر من خلقه».[٣]

وبعد تعداد هذه الصفات القبيحة التي اتصف بها يصار إلى «توكيد الأمر الذي لا يحتاج إلى توكيد:﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾، بياناً لمكانه من جهنم، التي بدأ الأمر بإلقائه فيها».[٤]

ثم يقول تعالى: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ ﴾ أي: شيطانه، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور.[٥] وفي الكلام اختصار، تقديره: إن الإنسان يَدَّعي على قرينه من الشياطين أنه أضلَّه، فيقول: ﴿ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ ﴾، أي: لم يكن لي قُوَّة على إضلاله بالإكراه، وإنما طغى هو بضلاله.[٦] قال ابن كثير: « بل كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى في الآية الأخرى في قوله:﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.[٧] [إبراهيم: ٢٢]، فيختصمان عند المولى عز وجل، فيقول: ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾ « قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين»[٨] ومنها براهين البعث التي ذكرت في

---

(١) جامع البيان١١/ ٤٢٣.

(٢) نظم الدرر٧/ ٢٥٩، وانظر التفسير الكبير٢٨/ ١٦٦.

(٣) جامع البيان١١/ ٤٢٣.

(٤) في ظلال القرآن٦/ ٣٣٦٥.

(٥) وهو اختيار الطبري، والبغوي، وابن كثير، وأبي حيان، وقال بلا خلاف. انظر جامع البيان١١/ ٤٢٣، ومعالم التنزيل٧/ ٣٦١. وتفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٧. والبحر المحيط٨/ ١٢٥.

(٦) انظر زاد المسير، ابن الجوزي٧/ ٢٤١.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٨٧.

(٨) المرجع السابق.

القرآن، وتنوعت أساليبها. «ومعنى النهي: أن الخصام في ذلك لا جدوى له؛ لأن استواء الفريقين في الكفر كافٍ في مؤاخذة كليهما على السواء، كما قال تعالى:﴿ قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وذلك كناية عن أن حكم الله عليهم قد تقرر، فلا يفيدهم التخاصم لإلقاء التبعة على أحد الفريقين».[١] ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ «ما يغير القول الذي قلته لكم في الدنيا، وهو قوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩]، ولا قضائي الذي قضيته فيهم فيها».[٢] ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ «ولا أنا بمعاقب أحداً من خلقي بجرم غيره، ولا حامل على أحد منهم ذنب غيره فمعذّبه به».[٣]

« وقوله:﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ يقول: وما أنا بظلام للعبيد في ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ وذلك يوم القيامة، وسؤال الله تعالى النار: ﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾« لما سبق من وعده إياها بأنه يملؤها من الجِنَّة والناس أجمعين».[٤]، والسؤال سؤال «تقرير وتوقيف، لا سؤال استفهام حقيقة، لأنه تعالى عالم بأحوال جهنم»[٥] وهي تقول:﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾، أي: هل بقي شيء تزيدوني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث، ففي البخاري بسنده عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: (يُلقَى في النار، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه، فتقول قط قط)[٦]، وعلى هذا فإن النار ـ والعياذ بالله ـ تطلب الزيادة[٧]، وهناك قول آخر وهو «أنها تقول ذلك بعد

---

(١) التحرير والتنوير٢٦/ ٣١٥.
(٢) جامع البيان١١/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥.
(٣) جامع البيان١١/ ٤٢٥.
(٤) المرجع السابق.
(٥) البحر المحيط٨/ ١٢٦.
(٦) صحيح البخاري برقم/ ٤٨٤٨، وصحيح مسلم/ ٢٨٤٨.
(٧) هذا رأي الطبري، وابن كثير، وأبي حيان. انظر جامع البيان١١/ ٤٢٦. وتفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٧، والبحر المحيط٨/ ١٢٦.

امتلائها، فالمعنى: هل بقي فيَّ موضعٌ لم يمتلئ؟ أي: قد امتلأت». [١] بعد هذا الترهيب الشديد، يأتي الترغيب، فيقول عز وجل: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، أي: «وأُدنيت الجنة وقرّبت للذين اتقوا ربهم، فخافوا عقوبته بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه»[٢].، وفي كيفية إدنائها يقول ابن عاشور: « والجنة موجودة من قبل وُرود المتَّقين إليها، فإزلافها قد يكون بحشرهم للحساب بمقربةٍ منها؛ كرامةً لهم عن كلفة المسير إليها، وقد يكون عبارة عن تيسير وصولهم إليها بوسائل غير معروفة في عادة أهل الدنيا، وقوله: ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، يرجح الاحتمال الأول، أي غير بعيد منهم، وإلاّ صار تأكيداً لفظياً لـ﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾، كما يقال: عاجل غير آجل... والتأسيس أرجح من احتمال التأكيد». [٣] ولو قيل بالظاهر لما كان ذلك بعيداً، أعني: أن الجنة تقرب لهم، وبخاصة إذا استحضرنا أن النار يؤتى بها، فقد قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ، لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا)[٤] ويقال لهؤلاء المتقين: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ فهاهي الجنة شاخصةً يشار إليها، وهي قريبة، وإذا كان المشركون قد أوعدوا ناراً فكذبوا، فإن المتقين قد وعدوا الجنة فصدقوا، ويُتساءل لمن هذا الثواب الجزيل؟، فيأتي البيان: ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ «رجاع تائب مقلع، ﴿ حَفِيظٍ ﴾، أي: يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه».[٥] ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾، أي: خاف الله تعالى معظماً له، وهو لا يراه، وقيل: يخشى الله في حال غيبته عن الناس، [٦] ولا مانع من إرادة القولين، وهكذا ينبغي أن يكون حال المتقي، يخاف الله عز وجل محباً له معظماً، فيبعثه هذا على فعل ما أمره، والنهي عما زجره، وهو يعلم أن الله يراه وإن لم يره هو، وهذه مرتبة الإحسان، فيستوي عنده فعل ذلك، سواء أكان مع الناس أو

(١) زاد المسير٧/ ٢٤٣.
(٢) جامع البيان١١/ ٤٢٧.
(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٣١٨-٣١٩.
(٤) صحيح مسلم، برقم/ ٢٨٤٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٩.
(٦) انظر الكشاف٤/ ٣٩٣.

منفرداً، وقوله:﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ «وجاء الله بقلب تائب من ذنوبه، راجع مما يكرهه الله إلى ما يرضيه».(١)، فيقال لهم تكريماً:﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ مصحوبين «بسلامة من العذاب والهموم. وقيل: بسلام من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامة من زوال النعم»، (٢) ولا مانع من أن تكون السلامة من كل هذا، ومن غيره، فيسلمون من كل مخوف، كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام:٨٢]، ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾، «وذلك أنهم يسألون الله تعالى حتى تنتهي مسألتهم، فيعطون ما شاؤوا، ثم يزيدهم الله من عنده ما لم يسألوه، وهو قوله:﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾، يعني: الزيادة لهم في النعيم، ما لم يخطر ببالهم. وقال جابر وأنس: هو النظر إلى وجه الله الكريم»(٣)، وفي صحيح مسلم(٤) بسنده عن صهيب الرومي ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنها النظر إلى وجه الله الكريم، قال: ثم تلا هَذِهِ الآيَةَ ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦]، قال ابن كثير: «وقوله: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾، كقوله تعالى:﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾»(٥) ثم ذكر الحديث السابق.

بعد هذا الترغيب الذي قُصد به تثبيت المؤمنين، ودعوة ذوي العقول من الكافرين، لاختيار ما ينقذهم من عذاب جهنم، عقب بذكر عذاب عاجل يستأصلهم، كما حدث لأمم كثيرة، كانوا أشد من قريش قوة وبطشاً، فما أغنى ذلك عنهم شيئاً، ولم يستطيعوا الهروب والتفلت منه، يقول عز وجل:﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾، قرون كثيرة كذبت رسلها، وكانوا أشد من هؤلاء المشركين قوة وجبروتاً، فحق عليهم وعيد الله، والمشركون يعلمون ذلك بما سمعوا وما شاهدوا من آثارهم، قال تعالى:﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ

(١) جامع البيان١١/ ٤٢٩.
(٢) معالم التنزيل٧/ ٣٦٣ .
(٣) معالم التنزيل:٧/ ٣٦٢ «وقوله: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾». يونس/ ٢٦، وانظر جامع البيان ١١/ ٤٢٩، وتفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٩ ـ ٢٩.
(٤) برقم ٢٩٧ و ٢٩٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الصافات:١٣٧ـ١٣٨]. فإن لم يخافوا عذاب الآخرة، فليخشوا العذاب العاجل، ﴿ فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ «ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب، أكثر مما طفتم أنتم فيها،... وقوله:﴿ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾، أي: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه، ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟»[1] ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ « إن في إهلاكنا القرون التي أهلكناها من قبل قريش»[2]، « ويجوز أن يعود ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى جميع ما تقدم من استدلال وتهديد وتحذير من يوم الجزاء»[3] ﴿ لَذِكْرَىٰ ﴾، «التذكرة العقلية، أي: التفكر في تدبر الأحوال التي قضت عليهم بالإهلاك؛ ليقيسوا عليها أحوالهم، فيعلموا أن سينالهم ما نال أولئك»[4]، وإنما ينتفع بهذه التذكرة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ يعني: لمن كان له عقل، يتفكر به، ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾، أو استمع مصغياً لآيات الله وسنة رسوله ﷺ، [5] ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ « متفهم لما يخبرُ به عنهم، شاهد له بقلبه، غير غافل عنه ولا ساه».[6]، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾،[7] يؤكد الله تعالى بأكثر من مؤكد[8] «بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٩١، بحذف يسير.

(٢) جامع البيان١١/ ٤٣٢.

(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٢٣.

(٤) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٢٣.

(٥) انظر جامع البيان١١/ ٤٣٣، والتحرير والتنوير٢٦/ ٣٢٤.

(٦) جامع البيان١١/ ٤٣٣.

(٧) ذكر أكثر العلماء ههنا سبباً للنزول مروياً عن قتادة والحسن، لم أذكره لضعفه، والآية تفهم بدونه، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ينظر أسباب النزول للواحدي/ ٢٧٣، ولباب النقول للسيوطي/ ١٩٩ـ ٢٠٠، وقد أضرب عنه من التزم ذكر الصحيح من الأسباب مثل: مقبل الوادعي، وإبراهيم العلي، وغيرهما.

(٨) سبق بيان أن [لقد] فيها ثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، وقد التي للتحقيق، وكأن القرآن ينزِّل المشركين منزلة من أنكر هذا الأمر، مع أنهم يقرون به، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ =

أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة -وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عز وجل. واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كألف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع». [١]

والواو هنا « واو الحال؛ لأن لمعنى الحال هنا موقعاً عظيماً، من تقييد ذلك الخلق العظيم في تلك المدة القصيرة، بأنه لا ينصب خالقه»[٢] «وحقيقة المسِّ: اللَّمسُ، أي: وضع اليد على شيء وضعاً غير شديد، بخلاف الدفع واللطم. فعبر عن نفي أقل الإصابة بنفي المسّ لنفي أضعف أحوال الإصابة»[٣]، ومعلوم أن خلق السموات الأرض أكبر من خلق الناس، قال عز وجل: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر:٥٧]، فإذا لم يعي الله تعالى بخلق السموات والأرض، فهو على إعادة خلق الإنسان أقدر، وهذا كله من باب التقريب، ومخاطبة الناس بما يفهمون، وإلا فإن الشأن في خلق الله تعالى أن يقول للشيء كن فيكون، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾[النحل:٤٠].

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني

* اشتمل قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾، وكذا قوله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ ق/ ٣٨، على

=وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ العنكبوت/ ٦١.

(١) تفسير القرآن العظيم٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦.

(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٢٥.

(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.

براهين البعث الثلاثة، فالخلق يحتاج ابتداء إلى علم، لأن الذي يريد أن يصنع شيئاً لا بد أن يكون عالماً بتفاصيله قبل صنعه، وأن يكون عالماً بكيفية صنعه، إلى غير ذلك من أمور، ثم لا بد أن يكون قادراً على الخلق، ثم البرهان الأخير، وهو الحكمة فلا يمكن أن يتصور أن الخالق الحكيم، يخلق الإنسان،.. لمجرد أن يأكل ويشرب.. ثم يموت، فالذي خلقه هيأ له كل ما يحتاج إليه، وكل ما يصلح بدنه وقلبه. ومن ذلك المنهج الذي يسير عليه ليحيا حياة طيبة، ثم يُسأل عن هذا المنهج....

* في قوله عز وجل: ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ « ما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه، حيث نهاه، أو يفقده، حيث أمره...»[1] قال ابن عاشور: «ومن لطائف هذا التمثيل أن حبل الوريد مع قربه لا يشعر الإنسان بقربه لخفائه، وكذلك قرب الله من الإنسان بِعلمه قرب لا يشعر به الإنسان فلذلك اختير تمثيل هذا القرب بقرب حبل الوريد»[2].

* من عدل الله عز وجل أنه مع علمه بأحوال الإنسان، ولا تخفى عليه خافية، إلا أنه عز وجل وكل به ملكين يكتبان، ويحفظان عليه عمله إلزاماً للحجة.

* سكرة الموت آتية لا محالة، والعاقل من استعد لها. كما ينبغي أن لا يغيب عن باله ذكر الحساب، ولذا فهو يحاسب نفسه على ما يصدر منه، وفي الحديث (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات،. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم). [3]

* جلَّ الرحمن الرحيم لعباده في هذا المقطع صفات أهل النار، وصفات أهل الجنة، بقوله عز وجل: ﴿ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا

(١) تيسر الكريم الرحمن/ ٧٤٨.
(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٠١.
(٣) صحيح البخاري برقم/ ٦٤٧٧.

ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾. ويقول عز وجل: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾، وينبغي أن يلاحظ ما أعد الله عز وجل للفريقين، فقد جمع لأصحاب النار بين العذاب الجسدي والعذاب النفسي، ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾، أما أهل الجنة فنجد « التكريم في كل كلمة، وفي كل حركة. فالجنة تقرب وتزلف، فلا يكلفون مشقة السير إليها، بل هي التي تجيء إليهم ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ فيوصفون هذه الصفة من الملأ الأعلى، ويعلمون أنهم في ميزان الله أوابون، حفيظون، يخشون الرحمن ولم يشهدوه، منيبون إلى ربهم طائعون». [١]

فوجب على العاقل أن يختار.

* في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ بيان لأهمية مخاطبة القلوب؛ كي تؤوب إلى خالقها. [٢] وأحسب أن كثيراً من دعاتنا أهملوا هذا الجانب، فلا غرو أن قست القلوب، وطغت الجوانب المادية على حياة كثير من الناس، فصارت عباداتهم جسداً لا روح له. وغشيت كثيراً من الناس غفلة شديدة، ناسين أن هناك يوماً للحساب، ولا بد من تدارك الأمر قبل فوات الأوان. قبل أن يقال: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾.

* تقريب الجنة إنما يكون للذين بلغوا منزلة عظيمة في التقوى، وهي دعوة للارتقاء في منازلها، وبخاصة أنها في سياق سورة تحذر من التلفظ بما يغضب الله، فكل ذلك معلوم ومحفوظ. [٣]

---

(١) في ظلال القرآن٦/ ٣٣٦٥.

(٢) الأساس في التفسير٩/ ٥٤٧٣.

(٣) عندما يقرأ القارئ قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ... ﴾، ويقارنه بما في سورة الزمر ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ... ﴾ الزمر/ ٧٣، قد يتوهم أن هناك تعارضاً، والرد على هذا: إن هناك فرقاً بين=

* في قوله عز وجل: ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ ما يلفت النظر، إذ كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ فيقال: إن هذا الخاشي مع علمه بسعة رحمة الله تعالى إلا أنه يخشاه،[1] فصفة الرحمة لا تجعله يتجرأ على المعاصي، كما يفعل بعض الناس.

* أهمية الثبات في حياة المسلم، يتجلى ذلك في قول الحق عز وجل: ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ «حضر يوم الحشر، مصاحباً قلبه المنيب إلى الله، أي: مات موصوفاً بالإنابة، ولم يُبطل عمله الصالح في آخر عمره».[2]

* في قوله عز وجل: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ بعد من ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ ما يؤكد حقيقة أن الجزاء من جنس العمل، فالله تعالى لا يجمع على عبدٍ أمنَين ولا خوفَين، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الطور:٢٦- ٢٧].

* يبين الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ أن المستفيد من الآيات القرآنية والكونية، هو إما صاحب عقل يستطيع به الوصول للتذكر والاتعاظ، أو مصغٍ لمن يبين له ذلك، والأخير مرده أيضاً للعقل، إذ إنه بعد أن يستمع لما يقال، سيحكِّم عقله، وستهديه فطرته إلى أن ما جاء به الرسل حق لا مرية فيه.

* في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ « تنويه بشأن المؤمنين، وتعريض بالمشركين بأنهم بعداء عن الانتفاع بالذكريات

=الذين اتقوا، والمتقين، فالذين اتقوا هم الذين أحدثوا الفعل، وهو التقوى، أما المتقون، فهم العريقون في ذلك، فهم أعلى منزلة من الذين اتقوا. ولذا فقد اختلف الجزاء. انظر نظم الدرر٧/ ٢٦٢.

(١) انظر الكشاف٤/ ٣٩٢.

(٢) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٢٠.

والعبر». [1] كما أن فيه دلالة على أنهم لا قلوب لهم...، يقول تعالى مبيناً حالهم يوم القيامة: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الملك: ١٠].

* عظمة الله عز وجل، وقدرته، فخلق هذه السموات العظيمة التي لا يدرك مداها، وكذلك الأرض الفسيحة، وما بينهما، كل ذلك يخلقه الله تعالى في ستة أيام، لم يمسها فيها لغوب قال سيد قطب: «وهي توحي بيسر الخلق والإنشاء في هذا الخلق الهائل. فكيف بإحياء الموتى، وهو بالقياس إلى السماوات والأرض أمر هين صغير»[2]. وقال ابن كثير: «فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى».[3]

* في الترغيب بعد الترهيب فتح باب الأمل، وهذا أمر حري بالدعاة والخطباء أن يولوه عنايتهم، فالعصاة يحتاجون مثل هذا البلسم الشافي.

الخاتمـــة

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

(١) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٢٤.
(٢) في ظلال القرآن٦/ ٣٣٦٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٩١.

مناسبة الخاتمة للمقطع الثاني

لما ذُكر في المقطع الثاني خلق الإنسان، وما سيؤول إليه حاله في رحلته للبعث، وكان في ذلك ما يقنع مَن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، جاءت الخاتمة لتسلي النبي ﷺ وتوجهه إلى ما ينبغي عليه أن يفعله إزاء ما يقوله المشركون، يقول عز وجل:﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، الصبر أولاً، ثم الجأ إلى الله تعالى، منزهاً له عن كل صفة نقص، مثبتاً له كل صفة كمال، متلبساً بحمده عز وجل، وعليك بالصلاة فإنها خير معين. ولتستغرق هذه التسبيحات والتحميدات والصلوات أوقاتك كلها، لتكون موصولاً بالله عز وجل دائماً، أما فيما يتعلق بهم، فانتظر ما سيحصل لهم.. واجتهد أنت في تذكير من يخاف وعيد الله، تالياً عليه القرآن، فهم من سيستفيد من مواعظه.

التفسير الإجمالي

يقول تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، وحقاً إن ما يقوله المشركون ليُحزن القلب وبخاصة قلب النبي الصادق الأمين ﷺ، إذ يواجَه ـ وهو الرحمة المهداة ـ بذلك التكذيب الآثم يقول الله عز وجل: ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣ ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وهنا يأمره بالصبر، ثم يرشده إلى ما يعينه عليه، ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾، ذهب أكثر العلماء إلى أن المراد بالتسبيح هنا: الصلاة، أي: وصلّ منزها ربك مُثنياً عليه، [1]، وذهب آخرون إلى أنه التنزيه، أي: « نزّه الله عما لا يليق بجنابه العالي، ملتبساً بحمده»[2]، ولا مانع من إرادة القولين، فكلاهما مطلوب. والمراد بـ ﴿ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ صلاة الصبح، وفي قوله تعالى:﴿ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾، قولان: «أحدهما: صلاة الظهر والعصر،

---

(١) انظر زاد المسير٧/ ٢٤٥.

(٢) ممن ذهب إلى أن التسبيح قد يراد منه الظاهر الزمخشري، فقد قال: «والتسبيح محمول على ظاهره أو على الصلاة» الكشاف٤/ ٣٩٥، وانظر إرشاد العقل السليم٦/ ١٣١، وفتح القدير٥/ ٨٦.

قاله ابن عباس. والثاني: صلاة العصر، قاله قتادة.[١] وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما[٢] من حديث جرير بن عبد الله ﷺ، قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَظَرَ إلى الْقَمَرِ لَيْلَةً يَعْنِي الْبَدْرَ فَقَالَ: (إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا) ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠][٣]. وفي قوله عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ ثلاثة أقوال:

« **أحدها:** أنها صلاة الليل كلِّه. قاله مجاهد.

والثاني: صلاة العشاء، قاله ابن زيد.

والثالث: صلاة المغرب والعشاء، قاله مقاتل»[٤]، وللمفسرين في ﴿ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ «ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الرَّكعتان بعد صلاة المغرب، روي عن عمر، وعليّ، والحسن بن علي، وأبي هريرة عز وجل، والحسن، ومجاهد، والشعبي، والنخعي، وقتادة، في آخرين، وهو رواية العوفي عن ابن عباس.[٥]

---

(١) ورجحه الطبري، في جامع البيان١١/ ٤٣٥، والبغوي في معالم التنزيل٧/ ٣٦٤، وأبو حيان، وقال: «قاله قتادة وابن زيد والجمهور». البحر الميط٨/ ١٢٨.

(٢) صحيح البخاري برقم/ ٥٥٤، وصحيح مسلم برقم/ ٢١١، وفيه: « ثم قرأ جرير»، ثم ذكر الآية.

(٣) انظر زاد المسير٧/ ٢٤٥.

(٤) زاد المسير، قال الطبري: «والقول الذي قاله مجاهد في ذلك أقرب إلى الصواب، وذلك أن الله جلّ ثناؤه قال: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ فلم يَحُدَّ وقتاً من الليل دون وقت. وإذا كان ذلك كذلك كان على جميع ساعات الليل. وإذا كان الأمر في ذلك على ما وصفنا، فهو بأن يكون أمراً بصلاة المغرب والعشاء، أشبه منه بأن يكون أمراً بصلاة العَتَمة، لأنهما يصلَّيان ليلا». ويظهر من صنيع الطبري أنه جمع بين قولي مجاهد ومقاتل، والله أعلم.

(٥) رجحه الطبري، انظر جامع البيان١١/ ٤٣٨والبغوي وقال: «هذا قول أكثر المفسرين». معالم التنزيل٧/ ٣٦٥.

والثاني: أنه النوافل بعد المفروضات، قاله ابن زيد.

والثالث: أنه التسبيح باللسان في أدبار الصلوات المكتوبات، [١] رواه مجاهد عن ابن عباس». [٢]

ويجدر بنا ذكر قول ابن كثير، فهو حسن، وبخاصة إذا استحضرنا مرحلة نزول السورة، يقول ـ رحمه الله تعالى ـ: «كانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات ولكن منهن، صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب... وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ ﴾، أي: فصل له، كقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾، [الإسراء: ٧٩]، ﴿ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾، قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة....»[٣].

ثم قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ ﴾، أي: استمع «يا محمد صيحة يوم القيامة، يوم ينادي بها منادينا من موضع قريب». [٤] والتعبير بـ ﴿ قَرِيبٖ ﴾[٥] « للإشارة إلى سرعة حضور المنادين، وهو الذي فسرته جملة ﴿ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾؛ لأن المعروف أن النداء من مكان قريب لا يخفى على السامعين بخلاف النداء من كان بعيد»[٦]، ولذا قال

(١) ممن رجحه النسفي انظر مدارك التنزيل٣/ ١٦٩٤.

(٢) زاد المسير٧/ ٢٤٦، وممن رجح القول الثالث الشوكاني، انظر فتح القدير٥/ ٨٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم٤/ ٢٩١.

(٤) جامع البيان١١/ ٤٣٨.

(٥) ذكر بعض المفسرين، ومنهم الإمام والطبري وابن كثير أنه على صخرة بيت المقدس، وهو مروي عن كعب الأحبار، فالله أعلم بصحته. انظر جامع البيان١١/ ٤٣٩ وتفسير القرآن العظيم٤/ ٢٩٢.

(٦) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٣٠ ـ ٣٣١.

أبو السعود: «بحيث يصل نداؤه إلى الكل على سواء». [١] والمراد بالصيحة هنا: النفخة الثانية[٢] و﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾، يعني: بالصدق، وهو هنا الحشر، وفيه إبطال لزعم المشركين أنه اختلاق. [٣] وردٌّ على استبعادهم ذلك، بقولهم: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾. ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾، أي: «يوم خروج أهل القبور من قبورهم»[٤] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾، أي: « إنا نحن نُحيي الموتى ونميت الأحياء، وإلينا مصير جميعهم يوم القيامة»[٥] وقوله:﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾، أي: تتشق الأرض وتتصدع عنهم، فيخرجون مسرعين.[٦] وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الإسراء:٥٢]، وقد ورد في الحديث قوله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع)[٧]، ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، أي: «الإخراج العظيم جداً»[٨] ﴿ حَشْرٌ ﴾ « بعث وجمعٌ وسوقٌ»[٩] ﴿ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ «وتقديم الجار والمجرور لتخصيص اليُسر به عز وجل، فإنه سبحانه العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن»[١٠]، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القمر:٥٠]، وقال تعالى:﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان:٢٨]، قال ابن عطية: «وله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾كلام معادل

(١) إرشاد العقل السليم٦/ ١٣١.
(٢) مدارك التنزيل٣/ ١٦٩٥.
(٣) التحرير والتنوير٢٦/ ٣٣١. بتصرف يسير
(٤) جامع البيان١١/ ٤٣٩.
(٥) جامع البيان١١/ ٤٣٩.
(٦) جامع البيان١١/ ٤٣٩.
(٧) صحيح مسلم، برقم(٢٢٧٨).
(٨) نظم الدرر٧/ ٢٦٨.
(٩) إرشاد العقل السليم٦/ ١٣٢.
(١٠) روح المعاني١٣/ ٣٤٤.

لقول الكفرة:﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ [ق:٣]. وقوله تعالى:﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ ﴾»[1]، ثم قال تعالى، مهدداً لهم، ومسلياً النبي ﷺ: ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ ﴾، أي: « نحن يا محمد أعلم بما يقول هؤلاء المشركون بالله من فريتهم على الله، وتكذيبهم بآياته، وإنكارهم قُدرة الله على البعث بعد الموت»[2]. ثم يبين الله عز وجل مهمة نبيه ومصطفاه ﷺ، ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ ﴾، أي: لست بمسلط عليهم، فتجبرهم على الإيمان، إنما أنت منذر. [3]، ولذا قال له ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ ﴾، ذكر الرازي في المراد بالتذكير بالقرآن ههنا وجوهاً، فقال: «الأول: فذكر بما في القرآن، واتل عليهم القرآن، يحصل لهم بسبب ما فيه المنفعة. الثاني: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ أي: بيّن به أنك رسول لكونه معجزاً، وإذا ثبت كونك رسولا لزمهم قبول قولك في جميع ما تقول به. الثالث: المراد فذكر بمقتضى ما في القرآن من الأوامر الواردة بالتبليغ والتذكير، وحينئذ يكون ذكر القرآن لانتفاع النبي ﷺ به، أي: اجعل القرآن إمامك وذكرهم بما أخبرت فيه بأن تذكرهم، وعلى الأول معناه: اتل عليهم القرآن ليتذكروا بسببه والاقتصار على من يخاف وعيد؛ لأن من لا يخاف الوعيد لكونه غير مصدّق بوقوعه لا يذكَّر إذ لا تنفع فيه الذكرى، كما قال: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾»[4] [الذاريات:٥٥] وقد وجهها البقاعي توجيهاً جيداً حيث قال: « أي: يمكن خوفه، وهو كل عاقل، ولكنه ساقه هكذا؛ إعلاماً بأن الذي يخاف بالفعل فيكشف الحال عن إسلامه هو المقصود بالذات، وغيره إنما يقصد لإقامة الحجة عليه لا لدده ولا يؤسف عليه ولا يتأثر بتكذيبه، بل يعتقد أنه عدم، لا تضر عداوته ولا تنفع ولايته، وما آذى إلا نفسه وكل من والاه في الدنيا والآخرة».[5]

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية٥/ ١٧٠.
(٢) جامع البيان١١/ ٤٣٩.
(٣) انظر جامع البيان١١/ ٤٣٩، وتفسير القرآن العظيم٤/ ٢٩٣.
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٢٩.
(٥) نظم الدرر٧/ ٢٦٨.

هدايات الخاتمة

* بينت الخاتمة ما ينبغي أن يفعله من يتصدى لتوجيه الناس، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

* قلة عقول المشركين، وضعف إدراكهم، فهم يعترفون بأن الله خالقهم وخالق السموات والأرض، وقد مر الرد عليهم، بأن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، ونورد ههنا قول الله عز وجل: ﴿ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩٩] فلم يستبعدون البعث؟، ولو تفكروا لعلموا أن الإعادة أيسر وأهون، وأن من قدر على خلق الأكبر قادرعلى ما هو دونه، وهذا كله في مفهوم البشر، فإن لم يقروا بطلاقة القدرة الربانية، وأنه يقول للشيء كن فيكون، فليقيسوا على ما يشاهدونه.

« تقرير الحشر، وذلك لأن الله عز وجل لما بين أن الحشر عليه يسير لكمال قدرته ونفوذ إرادته، ولكن تمام ذلك بالعلم الشامل، حتى يميز بين جزء بدنين، جزء بدن زيد، وجزء بدن عمرو، فقال:﴿ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴾ لكمال قدرتنا، ولا يخفى علينا الأجزاء لمكان علمنا...».

* في قوله عز وجل:﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ ﴾ تهديد للمشركين، بأن ما يقولونه قد علمه الله عز وجل، وإخبار الله تعالى بذلك، تهديد بالعقاب، وإلا فإن مجرد الإخبار لا يخيف المنكرين وفيه تسلية للنبي ﷺ، فإذا كان النبي ﷺ قد علم ما يقولونه، فإن الله تعالى أعلم بذلك، فإنه عز وجل سميع بصير.

* أثر القرآن وأهميته في الدعوة إلى الله عز وجل، يتجلى هذا من قول الله عز وجل ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾، ولذا كان النبي ﷺ ينهج هذا النهج، ونكتفي هنا بما ورد في

فضل هذه السورة، فقد كان ﷺ يقرؤها على المنبر يوم الجمعة والعيدين. [1] ولكن على من يريد الانتفاع به أن يكون أهلاً لذلك، قال تعالى ﴿ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

* في قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾، تعريض بالمشركين، الذين لم ينزهوا الله تعالى عن النقص، فضلاً عن أن يثبتوا له كمالاً. وذلك حينما أنكروا البعث، استبعاداً له.

* على الدعاة أن يخُصوا أنفسهم بساعات يلقون بها ربهم عز وجل، مسبحين مصلين؛ ليمدهم بأسباب القوة، ليتمكنوا من احتمال هذا العبء الثقيل. وأن لا ينجروا وراء العصاة، فيصرفوا جُل أوقاتهم في الجدل معهم. [2]

* عظمة الله وسلطانه المطلق في ملكه، يتجلى ذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ ﴾. [3]

* في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ ﴾ ما يؤكد محور السورة، فالخطاب هنا للرسول ﷺ بأنك لم تبعث لكي تكرههم على هذا الدين، إنما عليك أن تبلغهم الحجج التي تخاطب عقولهم، وتقودهم إلى الصراط المستقيم. [4] وفيه أن هذا الدين لم يُبن على الإكراه، فإذا كان الرسول ﷺ يطالب بهذا، فغيره من باب أولى، وقد قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة:٢٥٦].

---

(١) راجع ما سبق في قصة عتبة بن الوليد وقراءة النبي ﷺ من سورة فصلت، وكذا سماع الوليد بن المغيرة للقرآن وتأثره بذلك، وما إلى ذلك....

(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن٢٦/ ٤٩٤.

(٣) المصدر السابق ٢٦/ ٤٩٦-٤٩٧.

(٤) انظر المصدر السابق ٢٦/ ٤٩٨.


مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies
تفسير

سورة الذاريات

(الفرار إلى الله طريق العبودية الصادقة)

أولاً: بَيْنَ يَدَي السورة:

أ. تسمية السورة:

سميت هذه السورة (الذاريات) لورود قوله تعالى في مطلعها: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾.

ب. فضائل السورة:

تندرج هذه السورة تحت قسم المُفَصَّل، وقد اختُلف في أوله، فقيل: هو من أول سورة (ق)، وقيل: من أول الحجرات، وقيل غير ذلك[1]، وينتهي بآخر سورة من القرآن الكريم كما ذكر العلماء، وقد وردت في فضائل المُفَصَّل أحاديث أقواها ما رواه واثلة بن الأسقع ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (أُعطيت مكان التوراة السبع الطوال، ومكان الزبور المِئِين، ومكان الإنجيل المَثَاني، وفُضِّلت بالمفَصَّل)[2].

ج. مكان نزول السورة:

سورة (الذاريات) مكية، قال القرطبي: في قول الجميع[3].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي ١/ ١٨٠.

(٢) فضائل القرآن، أبو عبيد ١١٩، المسند، أحمد بن حنبل ٤/ ١٠٧، المعجم الكبير، الطبراني، ٢٢/ ٧٦، مجمع الزوائد، الهيثمي ٧/ ٤٦، الأحاديث والآثار الواردة في فضائل سور القرآن الكريم دراسة ونقد، د/ إبراهيم علي السيد ٢٢٤، ٢٢٥. وقال في الحكم على هذا الحديث: إسناده حسن، فيه عمران القطان صدوق يَهِم، وقد تابعه عند أبي عبيد والطبراني سعيد بن بشير الأزدي، وهو صدوق، وبقية رجاله ثقات.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٢٩.



د. عدد آيات السورة:

عدد آيات سورة (الذاريات) ستون آية في جميع العدد، ليس فيها اختلاف[1].

هـ. محور السورة:

سورة (الذاريات) كغيرها من السور المكية تعنى بإثبات أصول العقيدة؛ التوحيد والنبوة، والبعث والجزاء.

فكل ما تطرقت لذكره من قضايا يستهدف تزكية النفس البشرية، وإطلاقها من أسر الشهوات والشرور، ويفتح أبواب الخير أمامها لتفِرَّ إلى الله تعالى، وتُحَقِّق العبودية الخالصة فترقى في معراج الخير والقبول، وتتخلص من الارتهان للمعبودات الزائفة.

وكل ما ورد في السورة من صيغ تعبيرية وصور بيانية وظلال يسعى إلى تحقيق تلك الغاية وهي ربط القلب البشري بالله ليخافه ثم يتجه إليه بكليته، ومن أدلة ذلك:

أولاً: افتتاح السورة بالحديث عن عظمة الله تعالى من خلال القسم بمخلوقاته العظيمة من: الرياح، والسحب، والسفن، والملائكة على وقوع اليوم الآخر، وهذا يثمر الاستعداد للوقوف بين يديه تعالى، والتجرد له.

ثانياً: تكرار القسم في السورة بالسماء ذات الحُبُك، والتحذير من مسالك أهل الكذب والانحراف، كل ذلك يدفع إلى التوجه إليه تعالى والانخلاغ من كل الجواذب التي تحول دون الخلوص له عزَّ وجل.

ثالثاً: في بيان السورة لجزاء المتقين، وصفتهم من القيام في عبادته تعالى بالليل، والتوجه إليه بالأسحار، مع بذلهم المال للسائل والمحروم حثٌّ للمؤمنين وإلهاب لهم للفرار إليه تعالى والتزود بالتقوى، لأنَّه خير زاد للفارِّين إليه جلَّ شأنه.

---

(١) البيان في عد آي القرآن، الداني ٢٣٢.

رابعاً: ما ذُكر في السورة من قَصَص الأمم الغابرة وما حلَّ بهم من النكال فيه تحذيرٌ للمؤمنين من سلوك طريق الغاوين، (وتجريد القلب للعبادة، وتخليصه من جميع العوائق ووصله بالسماء. بالإيمان واليقين. ثم برفع الحواجز والشواغل دون الرفرفة والانطلاق إلى ذلك الأفق الكريم)[1].

خامساً: ما ذُكر في السورة من آثار القدرة الإلهية، وسَعة الخلق، وتصريف الأمر في السماوات والأرض فيه استثارة للمؤمنين واستجاشة لمشاعرهم للإيمان بالله الخالق القادر العظيم؛ لأنَّه الحق فيسارعون بالفرار إليه.

سادساً: ما ورد في تضاعيف السورة من تسلية للنبي ﷺ لتثبيت فؤاده في طريق الدعوة والبلاغ، يوحي من ضمن ما يوحي بأنَّ طريق الدعوة محفوف بالمخاطر والعقبات، وهذا يقوي عزيمة المؤمنين على الثبات، ويدفعهم إلى أن يسارعوا إلى أسباب مغفرته، ويفروا من موجبات عقابه.

سابعاً: اختتام السورة ببيان الحكمة من خلق العالمين، وتطمينهم على أرزاقهم فيه إشارة إلى أن الفرار إلى الله هو الطريق القويم لتحقيق العبودية.

وبناء على ما سبق يمكننا القول إنَّ محور هذه السورة الجامع لكل مواضيعها الرئيسة والفرعية ومفرداتها وظلالها هو: (**الفرار إلى الله طريق العبودية الصادقة**).

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

لاسم هذه السورة علاقة وطيدة بمحورها؛ فالقَسَم من الله تعالى بالذاريات (الرياح) وغيرها من مخلوقاته على وقوع البعث والجزاء فيه تعظيم لشأنها، وتوجيه للقلب البشري نحوها ليتدبر ما وراءها من دلالات القدرة والتدبير والتربية، فيرى يد الله وهي تنشئها

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٧٤. بتصرف يسير.

وتصرفها، وتحقّق بها قدره المرسوم.

كما أنَّ ذكرها على هذا النحو يوجه القلب إلى تعَرُّف أسرارها المكنونة، ويعلقه بمبدع هذه الخلائق، فينصرف إليه بالطاعة، ويَفِرّ إلى رضوانه بالعبادة الخالصة.

قال البقاعي: (مقصودها الدلالة على صدق ما أنذرت به سورة (ق) تصريحاً، وبشَّرت به تلويحاً، ولا سيما آخرها من مصاب الدنيا وعذاب الآخرة، واسمها (الذاريات) ظاهر في ذلك بملاحظة جواب القسم فإنه مع القسم لشدة الارتباط كالآية الواحدة، وإن كان خمساً، والتعبير عن الرياح بالذاريات أتم إشارة إلى ذلك)[1].

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

ثمَّة علاقة وطيدة لمطلع هذه السورة بخاتمتها؛ فقد افتتحت بالقسم والوعيد على وقوع البعث والجزاء، قال تعالى:﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦ ﴾ [الذاريات: ١ - ٦].

وختمت كذلك بالوعيد لمَن لم يستعد لهذا اليوم، قال تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠ ﴾[الذاريات: ٦٠]، وهذا من باب رد العجز على الصدر، (فانطبق آخرها على أولها بصدق الوعيد، وثبت بالدليل القطعي ذلك القسم الأكيد)[2].

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة (الذاريات وخاتمة سورة ق):

افتتحت سورة (ق) بالقسم على إثبات البعث والجزاء، وإقامة الدلائل والبراهين على وقوعه، وختمت ببيان أنَّ حشر الناس وجمعهم في موقف الحساب سهلٌ لا صعوبة فيه، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤ ﴾ [ق: ٤٤]، وافتتحت هذه السورة بالقسم بأربع من الأمور العظيمة؛ وهي الرياح، والسحب، والسفن، والملائكة

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٨/ ٤٤٤.

(٢) المرجع السابق.



على أنَّ ما وعد الله به الخلق من البعث والجزاء أمر واقع لا محالة، قال تعالى:﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴿٦﴾ ﴾[الذاريات: ١ - ٦].

قال البقاعي: (لما ختم سبحانه (ق) بالتذكير والوعيد، افتتح هذه بالقسم البالغ على صدقه، فقال مناسباً بين القَسَم والمُقْسَم عليه: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ﴾ أي: الرياح التي من شأنها الإطارة والرمي والتفريق والإذهاب)[1].

٤. المناسبة بين مضمون سورتيْ (الذاريات و ق):

بين مضمون هاتين السورتين تناسب من وجوه كثيرة أظهرها وأجلاها:

الأول: أنَّهما نزلتا بمكة، وموضوعهما واحد، وهو إثبات أصول العقيدة.

الثاني: أنَّهما افتُتِحتا بالقسم على إمكان البعث والجزاء وإقامة الدلائل على ذلك، وانتهتا إلى تقرير البعث، قال تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٥﴾ ﴾[ق: ١٥] وقال:﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ﴿٦﴾ ﴾[الذاريات: ٥-٦]، قال أبو جعفر بن الزبير: (سورة (والذاريات) تقدمها في سورة (ق) إخباره سبحانه بالعودة الأخراوية وإقامة البرهان على ذلك لمن وفق لاعتباره فقال تعالى:﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ ﴾، إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ [ق: ٦ - ١١] ثم أعقب بذكر مكذبي الأمم وما حق عليهم من الوعيد الأخراوي بعد أخذ كل منهم في الدنيا بذنبه، ثم استمرت آي السورة على هذا المنهج من ذكر البعث وحصر أعمال المكلفين وكتبها عليهم، مع علمه سبحانه بما توسوس به نفوسهم ووقوع الجزاء على ذلك، وغفلة المكذب عن ذلك كله... فلما اشتملت السورة على أوعاد وجزاء أُعقبت بالقسم على ذلك، من صدق وعده سبحانه ووعيده، ووقوع الحساب على الأعمال فقال الله تعالى:﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ﴿١﴾ ﴾، إلى قوله:﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ﴿٥﴾

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ١٨/ ٤٨٣.

وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الذاريات: ١ - ٦]، وتناسب النظم في ذلك كله أبين تناسب[1].

الثالث: ذكر الله عز وجل في سورة (ق) سنته في إهلاك الأقوام والأمم الماضية على جهة الإجمال، وفي سورة (الذاريات) ذكر ذلك بشيء من التفصيل.

الرابع: اشتملت السورتان على أمر النبي ﷺ بالتذكير لما فيه من منافع للمؤمنين؛ قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق: ٤٥]، وقال: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

الخامس: دعت السورتان إلى النظر في ملكوت الله تعالى، من بناء السماء، ومد الأرض وخلق الأزواج، وكل ذلك ليبصر الناس آثار قدرته تعالى وجلائل آلائه فيتذكرونه وينيبون إليه قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق: ٦ - ٨]، وقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٧ - ٤٩].

الخامس: اشتملت السورتان على بيان صفة أهل التقوى، قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ق: ٣١ - ٣٥]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٩].

---

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل ٢/ ١٠٣١، ١٠٣٢.

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

وقوع البعث والجزاء

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾
قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ
﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا
آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ
﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ
﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾
[الذاريات: ١ - ٢٣].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

لهذا المقطع علاقة واضحة بمحور السورة فقد افتُتِحت السورة بالقسم العظيم على وقوع البعث والجزاء من ثواب وعقاب، وبيَّنت أن ما وعدوا صادق غير كاذب، وأنه كائن لا محالة، وتكرير القسم بالسماء ذات الجمال والبنيان والبهاء ثم التعقيب على ذلك ببيان لعْن الله للمكذبين، وبيان جزاء المتقين المتصدقين كل ذلك يدفع النفس البشرية إلى عمل الصالحات رجاء للثواب من الله تعالى، والابتعاد عن كل ما نهى عنه خوفاً من سوء العاقبة؛ لأنَّ الله الذي بيده القدرة على كل شيء هو الجدير باللجوء إليه وحده، والفرار من معصيته إلى طاعته.

ثانياً: المعنى الإجمالي للمقطع:

تعالج آيات هذا المقطع ثلاث قضايا مترابطة ومتشابكة:

الأولى: القسم من الله تعالى بأمور عظيمة على إمكان البعث والجزاء.

الثانية: ذكر أحوال المكذبين بالقرآن وبالبعث والجزاء.

والثالثة: بيان صفات المتقين وما أعد الله لهم من النعيم في اليوم الآخر.

افتتحت هذه السورة بالقسم بأربعة أشياء ضخمة وشريفة لها دلالات لا تعد ولا تحصى وكلها تدل على عجيب صنعه وعظيم قدرته:

* أُقسم بالرياح التي تذروا التراب وغيره من الأشياء في هبوبها، كما قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ [الكهف: ٤٥].
* وأُقسم بالسحب التي تحمل ثقلاً من الماء، ينتفع به العباد والبلاد؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾[الرعد: ١٢].
* وأُقسم بالسفن التي تجري على سطح الماء جرياً ذا يسر وسهولة، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ ﴾[الشورى: ٣٢].
* وأُقسم بالملائكة التي تقسّم الأمر وتدبِّره؛ من الأرزاق والأمطار، وكتابة الأعمال، وقبض الأرواح، وإهلاك الأمم المكذبة، قال تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾[النازعات: ٥][(١)].

---

(١) قال ابن عاشور: (ومن المفسرين من جعل هذه الصفات الأربع وصفاً للرياح، فحمل الذرو في قوله: ﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ ﴾ على نشر الرياح قطع السحاب نشراً يشبه الذرو، وأصله: ذرو الرياح التراب، فشبه بدفع الريح قطع السحاب حتى تجتمع فتصير سحابا كاملا، فالذاريات تنشر السحاب ابتداء، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾[الروم: ٤٨]...
و﴿ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ ﴾ هي الرياح حين تجمع السحاب، وقد ثقل بالماء، شبه جمعها إياه بالحمل؛ لأن شأن الشيء الثقيل أن يحمله الحامل، وهذا في معنى قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾[النور: ٤٣]، وقال:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ الرياح تجري بالسحاب بعد تراكمه، وقد صار ثقيلا بماء المطر، فالتقدير: فالجاري بذلك الوقر يسراً، ومعنى اليسر: اللين والهُون، أي الجاريات جريا لينا هينا شأن السير بالثقيل. =

* إنَّ الذي توعدون من البعث والجزاء؛ بالنعيم المقيم أو بالعذاب الأليم لصدق لا كذب فيه، وحق لا مرية فيه، وإن الجزاء العادل لكائن لا محالة.

ثم يأتي قسم آخر لتحقيق اضطراب أقوال منكري البعث الطاعنين في وقوع الجزاء.

* وأُقسم بالسماء ذات الطرائق والخلق المحكم المتقن، والحسن والبهاء والزينة والجمال والشدة والاستواء !!

* إنكم معشر الكفار لفي قول مضطرب متناقض في شأن النبي محمد وما جاء به، من القرآن؛ بين قائل إنه شاعر، وساحر، وكاهن، ومجنون، ومفتر، وقائل: إن القرآن شعر، وسحر، وكهانة، وأساطير الأولين.

* وإنما يُصْرَفُ عن الإيمان بالنبي والقرآن والبعث والجزاء مَن صُرِفَ عن الحق، وسبقت له الشقاوة فحُرِم الهدى وأُفِك عنه؛ لأنَّ هذا القول المختلف يكذِّب بعضُه بعضاً.

* لُعِنَ أصحاب القول المختلف المرتابون في وعد الله ووعيده، القائلون: لن نبعث، الذين كذبوا على الله وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وقالوا إن محمداً ﷺ ساحر وكاذب وشاعر تخرُّصاً وكذباً وظناً.

* الذين هم في ضلال وجهل يغمرهم، غافلون تائهون في ظلمات الكفر والشك عما أمروا

= و﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ ﴾ الرياح التي تنتهي بالسحاب إلى الموضع الذي يبلغ عنده نزول ما في السحاب من الماء، أو هي السحب التي تنزل ما فيها من المطر على مواضع مختلفة...

ومن رشاقة هذا التفسير أن فيه مناسبة بين المقسم به والمقسم عليه وهو قوله:)﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ ﴾ (٥)﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦ ﴾ فإن أحوال الرياح المذكورة هنا مبدؤها: نفخ، فتكوين، فإحياء، وكذلك البعث مبدؤه: نفخ في الصور، فالتئام أجساد الناس التي كانت معدومة ومتفرقة، فبث الأرواح فيها فإذا هم قيام ينظرون، وقد يكون قوله: ﴿ أَمْرًا ﴾ إشارة إلى ما يقابله في المثال من أسباب الحياة، وهو الروح، لقوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥]. التحرير والتنوير ٢٧/ ٧، ٨، بتصرف.

به، وعما هم قادمون عليه.

* فيسألون تعنتاً وشكاً واستبعاداً: متى قيام الساعة، ووقوع يوم الجزاء ؟... فيعاجلهم الله سبحانه بمشهدهم في هذا اليوم الذي يستبعدونه وينكرونه.

* يوم الجزاء يقع يوم هم يعذبون على نار جهنم، ويحرقون كما يفتن الذهب بالنار.

* وتقول لهم خزنة جهنم: ذوقوا عذابكم وجزاء تكذيبكم ! ذلك العذاب الذي كنتم به تستعجلون في الدنيا، وتسألون عنه استهزاء وكفرا بوقوعه.

* أما المتقون فهم في يوم معادهم يكونون في حال آخر يختلف عن حال أولئك الأشقياء الذين كان مصيرهم العذاب والنكال والأغلال:

* إنَّ الذين اتقوا ربهم فلم يشركوا به، ولم يعصوه بترك الواجبات ولا بفعل المحرمات هؤلاء هم يوم القيامة في بساتين، وعيون تجري تحت أشجار تلك البساتين.

* قابلين ما أعطاهم ربهم من الخير والكرامة، ويقال لهم: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٤].

* لأنهم كانوا في الدار الدنيا من أهل الإحسان في أعمالهم الصالحة فكانوا يفعلون ما أُمِروا به، ويتركون ما نُهوا عنه، ومن إحسانهم:

* ولأنهم تركوا راحتهم في وقت اشتداد النفوس إلى الراحة؛ وهو الليل فكانوا لا ينامون إلا زمناً قليلاً منه، وأما أكثره فإنهم فيه قانتون لربهم ما بين صلاة وقراءة القرآن وذكر ودعاء وتضرع واستغفار.

* وفي الجزء الأخير حين يأذن الليل بالانصراف كانوا يسألون الله، ويستغفرونه استغفار المذنب لربه الراغب فيما عنده، بعد أنْ قدموا من التهجد ما يرجون أنْ يزلفهم إلى رضاه كما وصفهم سبحانه بقوله:﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧].

* وبذلوا المال الذي تشح به النفوس في الغالب، فجعلوا جزءاً مقسوماً من أموالهم للمبتدئ

بالسؤال المظهر لحاجته، كما خصَّوا المتعفِّف عن إظهار حاجته الصابر على شدة الاحتياج منه بنصيب.

* وفيها خلق الله في هذه الأرض من صنوف النباتات والحيوانات والجبال والقفار والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه وغيرها من المخلوقات دلائل على عظمة الخالق وقدرته الباهرة لا يدركها إلا أهل القلوب العامرة باليقين الذين انتفعوا بدلالتها فأكسبتهم الإيقان.

* فلمسة اليقين هي التي تحيي القلب فيرى ويدرك، وتحيي مشاهد الأرض فتنطق للقلب بأسرارها المكنونة، وتحدثه عما وراءها من تدبير وإبداع.

* وفي نفسك أيها الإنسان وتركيبك الجسماني من الدلائل والبراهين آيات لا يأتي عليها الحصر؛ فالإنسان إحدى عجائب الأرض في تكوينه، وفي أسرار جسده، وفي أسرار نفسه، عجيب في ظاهره عجيب في باطنه، عجيب في أطوار خلقه أفلا تبصرون.

* وفي السماء أسباب أرزاقكم ومعاشكم وأقواتكم؛ وهو المطر الذي به حياة البلاد والعباد.

* وفيها ما توعدون من الثواب والعقاب مكتوب كذلك في السماء، فينزل كسائر الأقدار.

* أُقسم برب السماء والأرض أنَّ ما وُعدتم به من البعث والجزاء كائن لا محالة، وأنَّه حق لا مرية فيه فهو مثل نطقكم؛ فكما أنَّه لا شك لكم في أنكم تنطقون ينبغي أن لا تشكوا في أنَّ ذلك حق.

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* قسم الله عز وجل بالأمور العظيمة فيه تأكيد على وقوع المقسم عليه، ويسره وسهولته، وهو البعث والجزاء.

* في القسم بمخلوقات الله تشريف لها لما فيها من دلائل على الهدى والصلاح، وتذكير بنعمه تعالى فيما أوجده فيها.
* إصرار الكفرة على إنكار البعث والجزاء بعد إقامة الدلائل والبراهين عليه دليل على ضلالهم وفساد معتقداتهم.
* الله جل جلاله القادر على تصريف هذه المخلوقات وتسخيرها كيفما يشاء قادر بلا شك على إعادة الخلق بعد مماتهم مرة أخرى يوم القيامة.
* أدلة قدرة الله تعالى على البعث والنشور في الأرض لا تحصى ومنها: عود النبات بعد أن صار هشيما، ومنها: أنه قدر الأقوات فيها قواما، ومنها: ما يشاهده الخلق فيها من آثار الهلاك النازل بالأمم المكذبة، ولا يدرك مقاصد ذلك إلا الموقنون العارفون بوحدانية ربهم، وصدق نبوة نبيهم، ولذلك خصهم الله بالذكر لأنهم المتفعون بتلك الآيات وتدبرها.
* المتقون في الدار الآخرة لهم نعيم مقيم جزاء أعمالهم وإحسانهم.
* إنزال الله تعالى الرزق من السماء من أعظم آياته الدالة على عظمته، وأنه المعبود وحده.
* الرزق لا يطلب إلا من الله تعالى، وما يوعده الإنسان من خير أو شر أمره في السماء، وفي ذلك تعليم للخلق أن يطلبوا الخير من الله دائماً، ويتركوا الشر.
* مدح الله المتقين بتركهم النوم في الليل فيه إشارة إلى أفضلية التطوع بالصلاة في الليل عن التطوع في النهار وذلك لفراغ القلب بالليل وضمان إجابة الدعاء.

المقطع الثاني

دلائل القدرة الإلهية

قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ
قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ
مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ
عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ
يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ
أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾
مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٤٦].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع يسرد سنة الله تعالى في إهلاك وتدمير الأمم الماضية التي كذبت الرسل وتنكبت طريق الحق والخير والعدل، وهم قوم: إبراهيم ولوط وموسى وصالح وهود ونوح وإهلاك هؤلاء بأنواع العذاب فيه دلالة على أنه تعالى قادر كذلك على أخذ المكذبين من غيرهم في أي زمان ومكان فالأولى للنفس البشرية أن تعود إليه تعالى، وترتبط به دون سواه من الآلهة المزعومة؛ لأن طاعته تعالى هي طريق الأمان في يوم العرض عليه.

المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

توعدت آيات المقطع السابق مشركي مكة على تكذيبهم، وانتقلت آيات هذا المقطع

من الوعيد والإنذار إلى الاعتبار بأحوال الأمم الماضية المماثلة للمخاطبين في الكفر وتكذيب الرسل، والمناسبة أن مشركي مكة كانوا في غمرة ساهون أشبه بقوم لوط الذين قال الله فيهم: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر: ٧٢]، وفي ذلك تسلية للرسول وعبرة لأولي الأبصار، يعتبر بها كل مَن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يتناول هذا المقطع سنة من سنن الله تعالى في إنزال العذاب بالأقوام المكذبة به وبرسله، وقد تسلسل في فقرتين:

الأولى: قصة ضيف إبراهيم عليه السلام.

الثانية: قصص بقية الأمم المكذبة بدعوة الأنبياء، واستحقت العذاب الوبيل، وهانت على الله فلم يبال بها، وأنزل عليها صنوفا من العذاب.

* هل بلغك – أيها الرسول – حديث ضيف إبراهيم عليه السلام الذين أكرمهم، وكانوا من الملائكة الكرام عند الله.

* حين دخلوا عليه في بيته، وهم في صور بني آدم، فحيَّوه قائلين له: سلامًا، فردَّ عليهم التحية قائلا: سلام عليكم، أنتم قوم لا نعرفكم، فمن أنتم؟ كما قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود:٦٩].

* فعَدَلَ ومال خفية إلى أهله، فعمد إلى عجل سمين فذبحه، وشواه بالنار.

* ثم أدناه منهم ووضعه أمامهم، وتلَّطف في دعوتهم إلى الطعام قائلا ألا تأكلون؟.

* فلما رآهم لا يأكلون أحسَّ في نفسه خوفًا منهم، قالوا له:﴿ لَا تَخَفْ ﴾ إنا رسل الله، كما قال تعالى:﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود: ٧٠].

* وبشروه بأن زوجه (سَارَة) ستلد له ولدًا، سيكون من أهل العلم بالله وبدينه، وهو

إسحاق عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ ﴾[هود: ٧١].

* فأخذت امرأته الفرحة فأقبلت مستبشرةً تصيح ولطمت وجهها، وتقول: كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت في حال الصبا عقيماً لا أحبل ؟ !﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ ﴾ [هود: ٧٢].

* فردوا عليها قائلين:﴿ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ ﴾ [هود: ٧٣] فالله هو الذي قدر ذلك وأمضاه فلا عجب من قدرته، فهو تعالى حكيم في أقواله وأفعاله عليم بما تستحقون من الكرامة وما يصلح لكم وما لا يصلح.

ثم سألهم إبراهيم عليه السلام:

* ما شأنكم أيها المرسلون ؟ وأي حدث عظيم وأمر جسيم أرسلتم لأجله ؟

* قالت الرسل: إن الله جل شأنه أرسلنا لإهلاك قوم لوط أجرموا بكفرهم وارتكبوا الفواحش (اللواط)، وعصوا وتجبروا.

* لننزل عليهم العذاب فنهلكهم بحجارة من طين متحجر مطبوخ بالنار.

* حجارة معلَّمة على كل حجر اسم صاحبه؛ لأنهم أسرفوا وتجاوزوا حدود الله، وأتوا من الفواحش ما لم يسبقهم إليه أحد من العالمين.

* وحين أهلكنا قوم لوط عليه السلام أخرجنا مَن كان في تلك القرية من المؤمنين بالله، فلم نجد فيها إلا أهل بيت واحد ممَّن أسلم لله تعالى وانقاد لطاعته وأمره، وهم أهل بيت لوط سوى امرأته.

* وأبقينا في تلك القرية التي أهلكناها علامة ليكون ما فيها من آثار الخراب آية للذين يخافون عذاب الله، ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون.

* وفي قصة موسى وفرعون آية للذين يخافون العذاب الأليم:

* فقد أرسلناه إلى فرعون بأدلة قاطعة وحجج واضحة وبراهين ساطعة.

* فلما أتى موسى فرعونَ بذلك السلطان المبين أعرض فرعونُ عن الإيمان عناداً وتكبراً متعززاً بأصحابه وجموعه.

* وقال لموسى عليه السلام: لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٤]، وقال: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٧].

* فألقاه الله تعالى هو وجنوده في البحر، وهو كافر جاحد فاجر معاند مستوجب للعذاب، وجعله آية باقية لمَن جاء بعده، كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩٢].

* وفي عاد قوم هود آيات وعظات للذين يخافون العذاب الأليم:

فقد عذَّبهم الله فأرسل عليهم الريح المفسدة التي لا تنتج شيئاً، فهي خالية من المنافع.

تلك الريح العاتية لا تدع شيئا مما تفسده الريح إلا جعلته كالرمم البالية، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٤- ٢٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (نُصِرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور)[1].

* وفي ثمود قوم صالح عليه السلام عبر وعظات للذين يخافون العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (١٠٣٥).

ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت: ١٧].

* فقد كذبوا أخاهم صالحا، وطلبوا منه آية تدل على صدق رسالته إليهم، فأعطاهم الناقة آية فكذبوه وخالفوا أمر ربهم وعقروها، كما قال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ [هود: ٦٤].

* فقيل لهم عيشوا متمتعين في الدنيا حتى يأتيكم العذاب والهلاك، كما قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾[هود: ٦٥].

* فانتظَروا العذاب فأتتهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار الصاعقة وهي نار من السماء وهم ينظرون إلى عقوبتهم بأعينهم.

* فأصبحوا في دارهم جاثمين، وما استطاعوا من هرب ولا نهوض من شدة الصيحة، قال تعالى: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود: ٦٧].

* وما كانوا ليقدروا على أن ينتصروا لأنفسهم ويدفعوا عنها ما هم فيه من العذاب، ولم ينصرهم أحد.

* وتركنا في قوم نوح الذين كانوا قبل هؤلاء آية للذين يخافون العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ ﴾[النجم: ٥٠ - ٥٢].

* فقد كذبوا نوحا وفسقوا عن أمر ربهم فأرسل الله عليهم الطوفان، فأغرق المكذبين عن بكرة أبيهم، ولم يبق من الكافرين دياراً، قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾[القمر: ١٠ - ١٥].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* مشروعية التحية من القادم على غيره، وهي السلام، والرد بما هو أتم وأكمل.
* الضيافة من سنن إبراهيم عليه السلام التي أمر الله أمة محمد باتباعها.
* مشروعية التعرف إلى الناس، وملاطفة الضيف في الكلام للتدليل على الأنس به.
* المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، وتقديم الأجود من الطعام.
* مشروعية خدمة الضيف ولو كان المضيف سيد الأضياف، فإبراهيم عليه السلام هو الذي خدم أضيافه وهو خليل الرحمن.
* ملاطفة الضيف في الكلام خصوصاً عند تقديم الطعام، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ فينبغي استعمال الألفاظ الحسنة والكلام اللطيف.
* المؤمنون بالبعث والجزاء هم المنتفعون بما قصه القرآن من أحوال الأمم الكافرة، ويتجنبون أسباب الهلاك، والذين لا يخافون العذاب الأليم ولا يؤمنون بالبعث والجزاء لا يتعظون بذلك؛ لأنهم لا يصدقون بالسنن الإلهية، ولا يتدبرون دعوة الحق.
* إهلاك الطغاة على قوتهم وبطشهم دليل على كمال قوة الله واقتداره فهو سبحانه لا يعجزه شيء، ينتقم ممن عصاه مهما بلغت قوته وسطوته.
* قوة الله فوق كل ذي قوة.
* كل مؤمن صادق الإيمان فهو مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً حتى يحسن إسلامه بانبنائه على أركان الإيمان الستة.
* الخروج عن طاعة الله والعتو عن أمره من أسباب التعرض للهلاك والعقوبة.

المقطع الثالث

الفرار إلى الله طريق النجاة

قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الذاريات: ٤٧ -٦٠].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع هو محور السورة وجوهرها؛ فبعد ما قررت الآيات في المقطعين السابقين أنَّ شأن الآخرة صدق وأنَّ الحساب واقع، وأنَّ الغافلين المستبعدين لليوم الآخر لهم العذاب الأليم، وأنَّ المتقين لهم الخير الجزيل عرضت آيات هذا المقطع دلائل الوحدانية، وعظيم القدرة الإلهية، ومظاهر الإبداع الرباني في خلق السموات والأرض، ثم رتبت على ذلك نتيجة مهمة وهي الدعوة إلى الفرار إلى الله تعالى، وإخلاص العبودية له؛ فهي غاية الوجود ووظيفة الإنسان الأولى، وهذا يقتضي التوجه إليه تعالى بكل حركة في الضمير، وفي الجوارح، وفي الحياة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣].

المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لمَّا كانت شبهة نفاة البعث من سائر الأمم قائمة على تَوَهُّم استحالة إعادة الأجساد بعد فنائها، وكانت آيات المقطع السابق قد أثبتت ذلك وأقامت عليه الأدلة، أعقبت هنا بتهديدهم

بما يقوض تَوَهُّمَهُم فوجهت إليهم الخطاب لتذكيرهم بأنَّ الله خلق أعظم المخلوقات ولم تكن شيئاً مذكوراً فلا تُعَد إعادة الأشياء الفانية بالنسبة إلى الخلق الأول إلا شيئاً يسيراً، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر: ٥٧][1].

التفسير الإجمالي للمقطع:

يتكون هذا المقطع من فقرتين:

الأولى: الاستدلال على وقوع البعث ببيان آثار القدرة الإلهية في السموات والأرض والمخلوقات.

الثانية: الدعوة إلى الرجوع إلى الله بعد ثبوت البعث بالأدلة المحسوسة والمشاهدة، والتسليم بقدرته وقوته والخضوع له والرغبة فيما عنده.

* هذه السماء العظيمة مَن بناها وشيدها ؟ إنه الله عز وجل بقوته وقدرته، كما قال تعالى: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾[النازعات: ٢٧- ٢٨]، وقال: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾[النبأ: ١٢]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾[ق: ٦].
* وهي دائماً في توسع في نفسها وأرزاقها[2].
* وكذلك الأرض بسطها الله ومهَّدها وجعلها فراشاً للمخلوقات صالحةً لسكنى الإنسان

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٥، ٣٦.

(٢) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الذاريات: ٤٧]، الملاحظ أنه قد استعمل فيه اسم الفاعل (مُوسِع)، واسم الفاعل في اللغة العربية يفيد في بعض الحالات الاستمرار، ومن ثَم فإنَّ الآية هنا تشير إلى سعة الكون من ناحية، كما تشير إلى موضوع تمدُّد الكون وتوسعه المطَّرد، وهذا ما كشفته المجاهر الضخمة التي صنعت لرصد حركة الكون، فأكدت ذلك... وعليه ففي هذه الآية ما فيها من إعجاز وسع به القرآن الزمان والمكان... الأساس في التفسير، سعيد حوى ١٠/ ٥٥٣٠.

والحيوان، وجعل فيها الأرزاق، والأقوات من الحيوان والنبات، والمعادن، كما قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ ﴾ [الرعد: ٣]، وقال:﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾[ق: ٧].

* فنِعْمَ ما فعلنا وما أجملَ ما خلقنا !!.

* ومن كل شيء من المخلوقات خلقنا صنفين: سماء وأرض، ليل ونهار، شمس وقمر، بر وبحر، ضياء وظلام، إيمان وكفر، موت وحياة، شقاء وسعادة، جنة ونار، حتى الحيوانات والنبات، والجمادات(١).

* خلقنا ذلك على هذا النحو من الإتقان والتقدير لتعلموا وتتعظوا وتتذكروا عظمة الخالق وأنه واحد لا شريك له، وأنَّ من حقه عليكم بعد أنْ شاهدتم دلائل قدرته، وبراهين وحدانيته في السماء والأرض وخلق أنفسكم وسائر المخلوقات من زوجين أنْ تلجأوا إليه وتعتمدوا عليه.

* ففروا إلى الله وسارعوا إلى توحيده، واتبعوا أوامره(٢).

* إني نذير لكم من عذابه وعقابه، ومخوف لكم من انتقامه الذي صبَّه على الأمم التي قصَّ

---

(١) قال الشيخ سعيد حوى معلقاً على قوله تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات:٤٩]، في عصرنا اتضح معنى الزوجية بشكل أوسع حتى شمل الحيوان والنبات والمجرات، فما من ذرة إلا وعنصر الزوجية فيها موجود، والآية قالت:﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ ﴾فكان فيما اكتشفه الإنسان حتى الآن في هذا الموضوع معجزة من معجزات القرآن. الأساس في التفسير، ١٠/ ٥٥٣٠.

(٢) في قوله:﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ ﴾[الذاريات: ٥٠] الفاء للتفريع؛ فإنَّه تعالى بعد أن بيَّن للمشركين ضلالهم وخطأهم في الشرك والكفر وإنكار البعث بما ساق من الأدلة وأبرز عن البراهين القطعية قال لرسوله: قل لهم أيها الناس ففروا إلى الله، أي: اهربوا إليه لينجيكم من الخسران، فإنَّه ليس لكم إلا هو، فآمنوا به ووحدوه واعبدوه، وعلل ذلك بقوله لهم: ﴿ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.. أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٥/ ١٦٩.

عليكم خبرها[١].

* ولا تشركوا مع الله إلهاً آخر فإن العبادة لا تصرف لغيره، ولا تنبغي لسواه.

* إني نذير ومخوف لكم من عقابه تعالى على عبادتكم غيره، قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[الكهف: ١١٠].

* كما كذَّبك قومُك أيها الرسول، وقالوا: ساحر أو مجنون كذلك فعلت الأمم التي كذبت رسلها من قبلهم، فلا تحزن لما يقول هؤلاء المكذبون.

* هل أوصى أوَّلُهم آخِرَهم بالتكذيب وتواطؤا عليه ؟

* كلا، بل جمعهم الطغيان، وتشابهت قلوبهم، فهم قوم معتدون طغاة عن أمر ربهم لا يأتمرون لأمره ولا ينتهون عما نهاهم عنه،، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ ﴾[البقرة :١١٨].

* فأعرض عنهم أيها الرسول، وكف عن الإلحاح في جدالهم ودعوتهم إلى الحق، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[النحل: ١٢٧].

* ولا لوم عليك ولا عتاب؛ لأنَّك قد بلغت الرسالة وأدَّيت الأمانة، وكرَّرت عليهم الإنذار وبذلتَ الجهد في البلاغ: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾[الرعد: ٤٠].

* ولا يمنعك هذا التولي والإعراض عن هؤلاء أنْ تعظ بالقرآن مَن يخاف وعيدنا، فَدُم على

(١) سَمَّى الله تعالى الرجوع إليه فراراً فقال: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[الذاريات: ٥٠]؛ لأنَّ في الرجوع إلى غيره تعالى أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه سبحانه أنواع المحاب والأمن والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي ٧٧٨.

الذكرى فإنَّها تنفع مَن في قلوبهم استعداد للهداية والرشاد(١).

* وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتي، وأبتليهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر(٢)، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

---

(١) إنما كانت الذكرى نافعة للمؤمنين؛ لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعها، كما قال تعالى:﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ﴾ [الأعلى: ٩ - ١١]، وأما مَن ليس معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير فهذا لا ينفع تذكيره، فهو بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف، قال الله فيهم:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾[يونس: ٩٦- ٩٧]. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي ٧٧٩.

(٢) يظهر للناظر في هذه الآية:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[الذاريات: ٥٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[هود: ١١٨- ١١٩] أنَّ ثمة تعارضاً بينهما، وهو تعارض ظاهري أزاله العلماء وكشفوا عن المراد بكل منهما، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي: (وإذا تقرر أنَّ قوله تعالى:﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ معناه أنَّه خلقهم لسعادة بعض وشقاوة بعض، كما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ ﴾[الأعراف:١٧٩] الآية، وقال:﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ ﴾[التغابن:٢]، فلا يخفى ظهور التعارض بين هذه الآيات مع قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[الذاريات:٥٦]. والجواب عن هذا من ثلاثة وجوه:

الأول: ونقله ابن جرير عن زيد بن أسلم وسفيان: أنَّ معنى الآية: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي يعبدني السعداء منهم ويعصيني الأشقياء، فالحكمة المقصودة من إيجاد الخلق التي هي عبادة الله حاصلة بفعل السعداء منهم، كما أشار له قوله تعالى:﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾[الأنعام:٨٩]. وغاية ما يلزم على هذا القول أنه أطلق المجموع وأراد بعضهم....

الوجه الثاني: هو ما رواه ابن جرير عن ابن عباس، واختاره أنَّ معنى قوله:﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾أي إلا ليقروا إليَّ بالعبودية طوعاً أو كرها؛ لأنَّ المؤمن يطيع باختياره، والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه جبراً عليه.

الوجه الثالث: ويظهر لي أنه هو الحق؛ لدلالة القرآن عليه أن الإرادة في قوله:﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾إرادة كونية قدرية، والإرادة في قوله:﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ إرادة شرعية دينية، فبيَّن في قوله:﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾، وقوله:﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ ﴾أنه أراد بإرادته=

﴿أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢]، وقال﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾[الكهف: ٧].

* أنا الرزاق والمعطي فما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها، وما أريد منهم أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[العنكبوت :١٧].

* الله تعالى هو ذو القدرة والقوة الغالب على أمره، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

* فإنَّ للذين أشركوا من قريش وغيرهم وظلموا أنفسهم بانشغالهم بغير ما خُلِقوا له من العبادة، وكذبوا الله ورسوله نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة التي كذبت رسلها، كما قال تعالى:﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوٓاْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥١﴾ [الزمر: ٥١][1].

* فلا يطلبوا منى أنْ أُعجل بالإتيان به، فإنِّي لا أخاف الفوت، ولا يلحقني عجز، وهذا جواب عن قولهم:﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧٠﴾ [الأعراف: ٧٠].

=الكونية القدرية صيرورة قوم إلى السعادة، وآخرين إلى الشقاوة.
وبيَّن بقوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أنه يريد العبادة بإرادته الشرعية الدينية من الجن والإنس، فيوفق من شاء بإرادته الكونية فيعبده، ويخذل من شاء فيمتنع من العبادة.
ووجه دلالة القرآن على هذا أنه تعالى بينه بقوله:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء/ ٦٤]، فعمَّم الإرادة الشرعية بقوله:﴿ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ وبيَّن التخصيص في الطاعة بالإرادة الكونية بقوله:﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ فالدعوة عامة والتوفيق خاص..). أضواء البيان ٦/ ٢٨٨، ٢٨٩.

(١) عبَّر سبحانه في قوله: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩﴾بالذَّنوب، التي هي الدلو الملأى بالماء عن العذاب؛ لأنَّ العذاب يُصب عليهم كما يُصب الماء من الدلو، ولأنَّ الدِّلاء تأتي واحداً بعد واحد فكذلك الهلاك يتم لأمة بعد أمة حتى يسقوا كلهم مرّ العذاب. أيسر التفاسير لكلام العلي القدير، أبو بكر الجزائري ٥/ ١٧٢.

* فويل لهم من حلول ذلك العذاب الذي وعدوه يوم القيامة، حين لا تغني نفس عن نفس شيئا، ولا هم ينصرون.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* في خلق السموات وتوسيعها ومد الأرض وجعلها مهداً لمَنْ عليها دلالة على قدرة الله تعالى وحكمته، وأن البعث والجزاء أمر واقع، وتذكير بعظمته ونعمته، وتنبيه على الثناء على مننه.

* الزوجية سنة من سنن الله تعالى في الكون وفي الذرة انبهر لها العقل الإنساني، وهي مما سبق إليه القرآن الكريم وقرره في غير موضع منه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس: ٣٦]، فدل هذا قطعا على أن القرآن وحي الله، وأن محمداً لن يكون إلا رسول الله[1].

* دَحْو الأرض وبسطها كان بعد خلق السماء؛ لأن بناء البيت يكون في العادة قبل الفرش، وهذه حقيقة علمية تضمنها قوله تعالى:﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النازعات: ٣٠][2].

* الأمر بالفرار إلى الله تعالى أمر بالدخول في الإيمان وطاعة الرحمن.

* المسارعة بالتوبة وقاية من الوقوع في العذاب.

* تقرير سنة بشرية وهي أن الملأ من الذين كفروا في كل عصر ومصر دأبهم التكذيب بكل مَن جاء يدعوهم إلى خلاف مألوفهم واعتيادهم.

* حقيقة العبادة تتمثل في أمرين رئيسين:

الأول: هو استقرار معنى العبودية لله في النفس، أي استقرار الشعور على أن هناك عبداً

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، أبو بكر الجزائري ٥/ ١٦٩، ١٧٠ بتصرف يسير.

(٢) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي ١٤/ ١٠.

ورباً. عبداً يعبُد. ورباً يُعبَد. وأن ليس وراء ذلك شيء؛ وأنْ ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار. ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود؛ وإلا رب واحد والكل عبيد.

الثاني: هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير، وكل حركة في الجوارح، وكل حركة في الحياة. التوجه بها إلى الله خالصة، والتجرد من كل شعور آخر؛ ومن كل معنى غير معنى التعبد لله.

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ويصبح كل عمل وسلوك عبادة... وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها.. "[1].

* نفي الله تعالى اللوم عن نبيه يدل على أنه ﷺ قد أدى الأمانة ونصح الأمة.

* مشروعية التذكير والاستمرار عليه لتحصل به الزيادة في إقامة الحجة على المعرضين ولئلا يزدادوا طغياناً، ولما فيه من فوائد لأهل الإيمان منها؛ رسوخ العلم بإعادة التذكير لما سمعوه، واستفادة علم جديد لم يسمعوه أو غفلوا عنه[2].

* الله تعالى غني عن خلقه متعال عن أن يكون كسائر السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم، وتهيئة أرزاقهم، ونفع العباد إنما يعود عليهم.

* وعد الله الكافرين بالعذاب واقع لا محالة.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٨٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٣ بتصرف..

سورة الطور

(مطاردة الباطل وأهله)

أولاً: بين يدي السورة:

أ. تسمية السورة:

سُمِّيت هذه السورة (الطور) لورود قوله تعالى في مطلعها:﴿ وَٱلطُّورِ ﴾.

ب. فضائل السورة:

عن جبير بن مطعم ﷺ قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور)[1]، وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: (شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي فقال: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة، فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بـ﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ۝٢ ﴾)[2].

ج. مكان نزول السورة:

سورة الطور مكية، قال القرطبي في قول الجميع[3].

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات هذه السورة سبع وأربعون في المدنييْن والمكي، وثمان وأربعون في العد البصري، وتسع وأربعون آية في العد الشامي والكوفي.

واختلافها آيتان:

---

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٧٦٥)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٤٦٣).

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٥٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٥٨.

الأولى: قوله تعالى:﴿ وَٱلطُّورِ ۝١ ﴾[الطور:١] لم يعدها المدنيان والمكي، وعدَّها الباقون.

والثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾[الطور:١٣] عدَّها الكوفي والشامي، ولم يعدها الباقون(١).

هـ. محور السورة:

سورة (الطور) كغيرها من السور المكية التي تعنى بموضوع العقيدة الإسلامية وبيان أصولها؛ من الوحدانية، وإثبات الرسالة، والبعث والجزاء، والمحور الرئيس الذي تتسلسل أفكار السورة ومواضيعها لإبرازه هو مطاردة الباطل ودحض شبه المبطلين، ودليل ذلك:

أولاً: افتتاحية السورة، وما صُدرت به من إقسام بأمور جليلة تهدف إلى إثبات فساد تصورات المشركين وبطلان معتقداتهم وأن العذاب واقع بهم.

ثانياً: ما ورد في السورة من مقابلة وعيد المكذبين بوعد المؤمنين وإطماعهم فيما عند الله تعالى من الجنات، وبيان صفة نعيمهم، وحالهم في الدنيا تجاه أمر الله ونهيه.

ثالثاً: توجيه الأمر إلى النبي ﷺ لمتابعة التذكير، وإنذار المبطلين، والإعراض عن سفاهتهم، وافتراءاتهم غير عابئ بما يقوله المشركون ويفتريه المفترون.

رابعاً: الحملة على الشرك وأهله، وإنكار مزاعمهم الباطلة، والرد عليهم بالأدلة الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل وتدمغ مزاعم أهله.

خامساً: ما خُتِمت به السورة من أمر النبي ﷺ بترك الكفار في ضلالهم، وأن للظالمين عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة.

وإضافة إلى ما تقدم فإن مطاردة الباطل والحملة عليه في هذه السورة (يشترك فيها اللفظ

---

(١) البيان في عد آي القرآن، الداني ٢٣٣.



والعبارة، والمعنى والمدلول، والصور والظلال، والإيقاعات ومقاطع السورة وفواصلها على السواء. ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لو كانت قذائف، وإيقاعاتها كما لو كانت صواعق، وصورها وظلالها كما لو كانت سياطاً لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام)[1].

بناء على الدلائل والحيثيات السابقة يمكننا تسمية محور سورة الطور: (مطاردة الباطل وأهله).

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

بين المحور واسمها علاقة وطيدة؛ فـ(الطور) جبل كريم وعظيم عند الله تعالى؛ كلم الله فيه كليمه موسى عليه السلام، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول شريعة التوراة، فأقسم الله به تشريفا وتذكيرا بما فيه من الآيات، فهو رمز لظهور الحق وبزوغ فجره رسالة سماوية جديدة، والرسالات السماوية قوامها الدعوة إلى الحق واجتثاث الضلال من جذوره، وتسفيه الضالين.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

افتتحت سورة الطور بالوعيد بتحقيق حلول العذاب يوم القيامة بالمكذبين بالنبي ﷺ فيما جاء به من إثبات البعث وبالقرآن المتضمن لذلك، قال تعالى:﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾[الطور:٧، ٨]، وختمت بأمر النبي ﷺ بتركهم وأن لا يحزن عليهم، فإن الوعيد حال بهم في الدنيا والآخرة، ووعده بالتأييد عليهم، قال تعالى:﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الطور:٤٥].

(١) في ظلال القرآن، سيِّد قطب ٦/ ٣٣٩١.

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة الطور وخاتمة سورة الذاريات:

قال أبو حيان: (مناسبتها لآخر ما قبلها ظاهرة؛ إذ في آخر تلك: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾[الذاريات:٥٩]، وقال هنا: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ [الطور:٧])[1].

(فلما توعد تعالى كفار قريش ومَن كان على طريقتهم من سائر مَن كذب رسول الله ﷺ أنهم سيصيبهم ما أصاب غيرهم من مكذبي الأمم، المنبَّه على ذكرهم في السورة قبل، ثم أشار سبحانه إلى عظيم ما ينالهم من الخزي وأليم العذاب بقوله:﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الذاريات:٦٠]، أقسم سبحانه على صحة ذلك ووقوعه فقال تعالى:﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ ﴾[الطور:١] إلى قوله:﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾[الطور:٧])[2].

٤. المناسبة بين مضمون سورتيْ الطور والذاريات:

تتآخى سورتا الذاريات والطور في جوانب كثير، وتمتد الوشائج والصِّلات بينهما من بداية كل منهما إلى الختام، وتبرز مناسبتهما من وجوه كثيرة، أبرزها:

أولا: أنهما مكيتان.

ثانياً: ابتداؤهما بالقسم بمخلوقات الله عزَّ وجلَّ، وآياته في الكون والآفاق، وما يتعلق بمعاش الخلق ومعادهم.

ثالثاً: اختتامهما بالوعيد لمَنْ كَفَرَ بالله تعالى وجحد آياته، وظلم نفسه؛ قال الله تعالى: ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الذاريات:٥٩، ٦٠]، وقال: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الطور:٤٧].

(١) البحر المحيط، ٨/ ١٥٤، وينظر: ملاك التأويل، أبو جعفر بن الزبير ٢/ ١٠٣٢.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٨.

رابعاً: في كلتيهما أمر للنبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين، والمداومة على التذكير؛ قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾[الذاريات:٥٤ ٥٥] وقال:﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الطور:٤٥]، وقوله: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾[الطور:٢٩].

خامساً: أنهما تحدثتا عن صفات عباد الله المتقين الذين إذا أُمِروا فعلوا وإذا نُهُوا انتهوا؛ ومن بديع هذا التناسب أن حكاية القرآن الكريم لهذه الصفات في موضع متقارب في كلتيهما، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ﴾[الذاريات:١٥]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾[الطور:١٧ - ٢٠].

قال الإمام أبو جعفر بن الزبير: (إنَّ هاتين السورتين اتحدتا في القصد من وعيد كفار قريش والعرب ذوي العناد والتكذيب والإخبار بجزائهم الأخراوي، فعلى هذا مبنى السورتين، ولهذا افتتحتا بالقسم على ذلك، والموعود به فيهما جزاء فريقي السعادة والشقاء والإشارة إليه بقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ ﴾[الذاريات:٦]. وهو حساب الكل وجزاؤهم بما سلف من جميعهم من خير أو شر، والإخبار بحال الفريقين على ما هو الجاري المطرد في الكتاب العزيز، أعني أنه إذا ذكر حال المكذبين أتبع بحال المصدقين... فنصَّ في (الذاريات) على أسنى أعمالهم، وأمعن في (الطور) بذكر الجزاء وضروب النعم... فارتبطت الآيتان، وتبين أنه لا اختلاف بينهما..)[1].

سادساً: أنهما تضمنتا إقامة الحجج والدلائل على البعث والجزاء، وبيان موقف الكفار من رسلهم ونسبتهم إلى السحر والجنون، قال تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾[الذاريات:٥٢]، وقال: ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الطور:١٥]، وقال:﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾[الطور:٢٩، ٣٠].

---

(١) ملاك التأويل ٢/ ١٠٣٣ - ١٠٣٥.

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

تحقيق وقوع العذاب

﴿ وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ
۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا
۝٩ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠ فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ۝١٢ يَوۡمَ
يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ
لَا تُبۡصِرُونَ ۝١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦ ﴾
[الطور: ١ - ١٦].

أ. المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

يرتبط هذا المقطع بمحور السورة من حيث كونه قد اشتمل على القسم بمخلوقات الله العظيمة الدالة على قدرته وبديع صنعته على أنَّ العذاب يوم القيامة نازل بأعدائه الذين يخوضون في الباطل، ويتخذون دين الله هزواً ولعباً، وهذا المقطع يمثل المشهد الأول من مشاهد مطاردة الضلال ودفع شبه المبطلين، ويبين أن عنادهم واستكبارهم وإنكارهم البعث انتهى إلى الدفع بهم في نار جهنم التي طالما أنكروها وكذبوا بها.

ب. المعنى الإجمالي للمقطع:

تدور أحداث هذا المقطع حول أمرين:

الأول: القسم على وقوع يوم القيامة، وذكر بعض ملامح الانقلاب الكوني في ذلك اليوم.

والثاني: وصف عذاب النار الذي يزج فيه المكذبون، ويدفعون إليه دفعاً.

يقسم تعالى بخمس من مخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم:

* أُقسم بـ(الطور) الجبل العظيم الشأن الذي كلمت عليه موسى، وأنزلت عليه التوراة، قال تعالى:﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ ﴾[التين:٢].

* وأُقسم بالقرآن الكريم المكتوب المنشور المبسوط الذي يقرؤه المؤمنون من المصاحف ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ، كما قال تعالى:﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[الواقعة:٧٧ - ٧٩][1].

* وأُقسم بالبيت المعمور بكثرة الواردين عليه للطواف من الملائكة؛ ذلك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، قال ﷺ في حديث الإسراء: (ثم رُفع إليَّ البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم)[2].

* وأُقسم بالسماء المرفوعة السقف، قال تعالى:﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الأنبياء:٣٢][3]، وقال:﴿ ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ ﴾[النازعات:٢٧، ٢٨].

* وأُقسم بالبحر الذي يوقد يوم القيامة ناراً، كما قال تعالى:﴿ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ ﴾[التكوير:٦]، أي: أُضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف[4].

---

(١) وقيل: جميع الكتب المنزلة، وقيل: ألواح موسى، وقيل: صحائف الأعمال، ومثله: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ﴾[الإسراء:١٣]، وقوله:﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ ﴾[التكوير:١٠]، وقيل: ما تكتبه الحفظة... فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٩٤.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٢٠٧).

(٣) وقيل المراد بالسقف المرفوع هو: العرش، قال ابن كثير: يعنى أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو مراد مع غيره كما قاله الجمهور... تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٥٧.

(٤) وقيل: إن المراد بـ(البحر المسجور) المملوء ماء، وقيل: إنَّ هذا البحر المسجور الذي أقسم به ربنا تبارك=

ثم يأتي جواب القسم:

* إن عذاب ربك لواقع بالكافرين.
* وليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك.

وتعرض الآيات طرفا من مشاهد القيامة:

* يوم تتحرك السماء وتضطرب اضطراباً شديدا من هول ذلك اليوم.
* وتذهب الجبال فتصير هباءً منبثاً وتنسف نسفاً، كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾[طه:١٠٥][1].
* فويل للمكذبين في ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم.
* فقد كانوا في الدنيا يخوضون في الباطل ويتخذون دينهم هزواً ولعباً، كما قال تعالى:﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[الأنعام:٦٨]، وقال:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾[التوبة:٦٥].
* بل لهم يوم يدفعون إلى نار جهنم دفعاً، كما قال تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ﴾[الدخان:٤٧]، وقال تعالى:﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرحمن:٤١].

=وتعالى بحر في السماء تحت العرش... تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٥٧.

(١) في قوله تعالى:﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾[الطور:٩، ١٠] تظهر الحكمة من مور السماء، وسير الجبال وهي الإعلام والإنذار بأن لا رجوع ولا عودة إلى الدنيا لخرابها... وتأكيد الفعلين بمصدريها للإيذان بغرابتها، وخروجها عن الحدود المعهودة، أي: موراً عجيباً، وسيراً عجيباً، لا يدرك كنههما. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين الهرري ٢٨/ ٥٠.

* وتقول لهم الزبانية ذلك تقريعاً وتوبيخاً: هذه النار التي كنتم بها تكذبون !!. كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة:٢٠]، وقال: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾[القمر:٤٨].

* لقد كنتم تقولون عن القرآن في الدنيا إنه سحر. فأخبرونا: هل هذا العذاب الذي ترونه بأعينكم سحر ؟ أم سُدت أبصاركم كما سدت في الدنيا، فعميتم عن الخير والحق والإيمان والهدى ؟.

* ادخلوا جهنم وقاسوا شدة عذابها فاصبروا أو لا تصبروا، سواء تساوى عليكم الصبر والجزع، فلا خلاص لكم ولا مناص، كما قال تعالى:﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾[إبراهيم:٢١].

* إنما تنالون جزاء أعمالكم القبيحة وأفعالكم الشنيعة من الكفر والتكذيب...

ج. الهدايات المستنبطة من المقطع:

* لله أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم بغيره تعالى.

* في القسم بالطور، وبالكتاب المسطور، وبالبيت المعمور، وبالسماء ذات السقف المرفوع وبالبحر الموقد دلائل لا تحصى على قدرة الله على البعث والجزاء، ولا يدركها إلا الموقنون بذلك اليوم.

* في قوله تعالى:﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ ﴾ إثبات البعث بعد كون الكلام وعيداً لهم على إنكاره، وإنكار أنْ يكونوا معذبين.

* وعد الله لا يخلف أبداً.

* على العبد المسلم أن يبتعد عن أسباب العذاب، ويستعد للحياة الآخرة، ويترك اللهو والخوض في الباطل، وكل ما لا فائدة فيه.

* الجزاء من جنس العمل.

المقطع الثاني

صفات أهل التقوى

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ١٧ - ٢٨].

أ. المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تقدم أن محور هذه السورة هو مطاردة الضلال ودحض شبه المبطلين حول البعث والجزاء، وهذا المقطع يعرض مشهداً لحال المصدقين بالبعث، فيذكر ما أكرمهم الله به من النعم في الجنة، ويعود بنا إلى استقراء أحوالهم في الدنيا التي استحقوا بموجبها هذا الجزاء الحسن الذي منَّ الله تعالى به عليهم، ترغيبا لهم في المزيد من الثبات على الحق، والعمل الصالح، فقد كانوا في الدنيا حذرين مشفقين معظمين لربهم.

ب. المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لما فرغ سبحانه وتعالى من تقرير وقوع البعث، ووصْف حال المجرمين المكذبين باليوم الآخر، وما يلاقونه من الشدائد في ذلك اليوم، استأنف في هذا المقطع ببيان حال ضدهم، وهم المؤمنون المتقون الذين خافوا ربهم وأخلصوا له العبادة في السر والعلن، وأدوا فرائضه، وتحلوا بآداب دينه، وانتهوا عن معاصيه، ولم يدنسوا أنفسهم بالمعاصي والآثام، ولم يدسوها بالذنوب فجازاهم ربهم في الآخرة جزاء حسناً.

وذلك جرياً على الموازنة وعادة القرآن في إيراد الأضداد، والجمع بين الترغيب والترهيب حتى يتأمل الإنسان في المصير، فيرغب في الرحمة، ويرهب النقمة والعذاب(١).

ج. المعنى الإجمالي للمقطع:

يحتوي هذا المقطع على فقرتين:

الأولى: العدل الإلهي والفضل الرباني.

الثانية: عود على بعض ذكريات أهل الإيمان في الدنيا.

* إنَّ الذين اتقوا الشرك والمعاصي، وأطاعوا ربهم باتباع أوامره واجتناب نواهيه هم في الحياة الآخرة في بساتين ونعيم مقيم فيه كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

* ناعمين متلذذين بما أعطاهم ربهم الكريم وأفاضه من الخير والكرامة وصنوف النعيم من مآكل ومشارب وملابس ومراكب.

* وقد نجّاهم ربهم من عذاب جهنم وصرف عنهم أهوالها.

* ويقال لهم: كلوا واشربوا هنيئا لكم - فلا تنغيص فيه ولا كدر - بسبب ما كنتم تعملون من الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحاقة:٢٤].

* وهم في نعيمهم في الجنة جالسون بتمكن وطمأنينة وراحة على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت، مصطفة أسرَّتهم بعضها إلى جانب بعض، يقابل بعضهم بعضاً، وينظر بعضهم إلى بعض، في صفاء سرائر، وعشرة حسنة، كما قال تعالى:﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الحجر:٤٧]، وقال: ﴿ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[الصافات:٤٣-٤٤].

(١) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٢٧/ ٦٤ بتصرف يسير.

* وقَرَنَّاهم في الجنة بزوجاتٍ صالحاتٍ من الحور العين، شديدات سواد العيون شديدات بياضها، واسعات الأعين في غاية الحسن والجمال، كأنهن لؤلؤ مصون عما يكدر صفاءه، مستور لم تمسه الأيدي أو تراه الأعين، كما قال تعالى:﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات:٤٩].

* والذين آمنوا حق الإيمان ولحقتهم ذرياتهم بإيمان شامل كامل صحيح نلحقهم بآبائهم في نفس المنزلة في الجنة، وإن لم يبلغوا بأعمالهم درجات آبائهم فضلا منا وإكراماً لآبائهم حتى تقر أعينهم.

* وما نقصنا الآباء بإلحاق ذريتهم بهم من ثواب أعمالهم.

* كل نفس مرتهنة في يوم القيامة بعملها إلا أصحاب اليمين، كما قال تعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ﴾[المدثر:٣٨-٣٩].

* وزدناهم على ما تقدم من النعيم بفاكهة متنوعة، ولحم مما تشتهيه نفوسهم.

* ويتعاطون في الجنَّة كؤوساً من خمرها، يتجاذبونها مع جلسائهم، وحين يشربون خمر الجنة لا ينفد شرابهم، ولا يصيبهم صداعٌ في رؤوسهم، ولا تذهب عقولهم بشربها؛ فهي منزهة عن الآفات التي في خمر الدنيا، قال تعالى:﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الصافات:٤٥-٤٧]، وقال: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[الواقعة:١٩].

* ويدور حولهم للخدمة بالطعام والشراب والفواكه غلمان في سن واحدة، هيأهم الله لخدمتهم؛ كأنهم في البهاء والحسن لؤلؤ مكنون، قال تعالى:﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾[الواقعة:١٧-١٨]، وقال:﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[الصافات:٤٥-٤٦].

* وأقبل أهل الجنة يسأل بعضهم بعضاً عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا:

* قالوا: إنا كنا في الدنيا ونحن بين أهلنا وجلين خائفين من سوء المصير.
* فأكرمنا الله وتفضل علينا برحمته وتوفيقه في الدنيا، ووقانا في الآخرة، وأجارنا من عذاب النار ولفحها ووهجها.
* وقالوا: إنَّا كنَّا في الدنيا نعبد الله ونتضرع إليه، فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا.
* إنَّه تعالى هو المتفضل على عباده بالرحمة والمغفرة والرضوان.

د. الهدايات المستنبطة من المقطع:

* فضل التقوى وكرامة أهله.
* مشروعية الدعاء بكلمة (هنيئا) لمن أكل أو شرب ائتساء بأهل الجنة[1].
* الله سبحانه يرفع ذرية المؤمنين إليهم في الجنة، وإن كانوا دونهم في العمل، لتقرّ عيونهم وتطيب نفوسهم، بشرط كونهم مؤمنين.
* يجمع الله للمؤمنين في الجنة كل أنواع السرور؛ بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم[2].
* الإيمان والأعمال الصالحة سبب في دخول الجنة، وليست ثمنا لها؛ لأن الجنة أغلى من عمل الإنسان، وإنما العمل الصالح يزكي النفس، فيؤهل صاحبها لدخول الجنة[3].
* الخوف الشديد من الله تعالى في الدنيا سبب للسلامة في الآخرة.
* أهل الجنة يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا، فتزداد لذة المؤمن حيث يرى نفسه انتقلت من الضيق إلى السعة، ومن

---

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٥/ ١٧٦.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٤/ ١١٩٢.

(٣) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٥/ ١٧٦، ١٧٧.

السجن إلى الجنة، ويزداد الكافر ألماً حيث يرى نفسه انتقلت من النعيم إلى الجحيم(١).

* المرء يوم القيامة يكون رهين كسبه لا يفكه إلا الله، فمَن استطاع أن يفك رقبته فليفعل، وذلك بالإيمان والإسلام والإحسان.

* الدعاء إلى الله تعالى والتضرع إليه طريق إلى الجنة، والفوز بالرحمة والغفران.

* الله تعالى هو البر الواسع الجود؛ الذي عطاؤه حكمة ومنعه رحمة؛ لأنه لا ينقصه إعطاء ولا يزيده منع، فهو يبر عبده المؤمن بما يوافق نفسه فربما بره بالنعمة وربما بره بالبؤس فهو يختار له من الأحوال ما هو خير له ليوسع له في العقبى، فعلى المؤمن أن لا يتهم ربه في شيء من قضائه(٢).

---

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي ٢٨/ ٢١٩.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٩/ ٢٠.

المقطع الثالث

مزاعم باطلة

قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ
﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ
بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾
أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ
يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ
﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ
يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الطور:٢٩ – ٤٦].

أ. المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تظهر علاقة هذا المقطع بمحور السورة بصورة جلية في كون هذا المقطع يشن حملة قوية على معتقدات المبطلين، ويرد بالحجج الدامغة على مزاعمهم، وكل ما يدور في أذهانهم من شبهات، وما يحملونه من تصورات حول حقيقة الألوهية، وقد شرعت آياته في تتبع أقوالهم والكشف عن فسادها بأسلوب الإضراب والانتقال من قول إلى قول، حتى لكأنها تطاردهم وتحاصرهم، وتسد عليهم كل منفذ للفرار، وتكر على طعونهم قولا بعد قول، وتجردهم من كل شبهة يحتجون بها[1].

ب. المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

افتتح الأول من هذه بالقسم على وقوع العذاب بالكافرين، ثم ذكرت بعضاً من أحوال المعذَّبين وفي المقطع الثاني بينت الآيات ما أعده الله للمتقين في جنات النعيم، وفي هذا المقطع

(١) من موضوعات القرآن الكريم، عبد الحميد طهماز ٩ بتصرف.

أتبعت الآيات بأمر رسوله ﷺ بالتذكير، إنذاراً للكافرين وتبشيراً للمؤمنين، وختمت السورة الكريمة ببيان عاقبة المكذبين، وحفظ الله ورعايته لرسوله الكريم ﷺ[1].

ج. المعنى الإجمالي للمقطع:

تضمن هذا المقطع ثلاث فقرات تسلسلت في تناغم بديع:

الأولى: الأمر بمتابعة التذكير والموعظة، وعدم الاكتراث بمكائد المبطلين، والرد على شبههم حول الرسول ومصدر القرآن.

الثانية: الرد على شبه المبطلين في إنكار البعث، وإثبات وجود الخالق وتوحيده في الأنفس والآفاق.

الثالثة: الدعوة إلى الإعراض عن الكفار المكابرين.

* فذكر أيها النبي قومك بالقرآن وعظهم به فلست بإنعام الله عليك بالنبوة والرسالة كاهنا تخبر بالغيب بضرب من الظن، ولا مجنونا تخلط القول وتقول بها لا يفهم عنك ولا يعقل، إنها تنطق بالوحي.

ثم تنكر الآيات على المشركين المبطلين مزاعمهم الباطلة تجاه الرسول:

* بل أيقولون هو شاعر ننتظر به حوادث الدهر وصروفه حتى يهلك كما هلك مَنْ تقدمه من الشعراء.

* قل لهم أيها الرسول: انتظروا بي الموت فإني منتظر هلاككم كما تنتظرون هلاكي، وستعلمون لمن تكون العاقبة الحسنة، والظفر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[التوبة:٥٢].

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٢٤٨.

* كيف تأمرهم عقولهم السخيفة السفيهة بهذا المقال المتناقض في حق الرسول فيقولون هو كاهن ومجنون وشاعر ؟ كيف يقولون هذا القول وهم يدعون أنهم أهل عقول لا تلتبس عليهم أحوال الناس ؟.

* بل هم قوم تجاوزوا الحد في الطغيان والعناد والمكابرة مع ظهور الحق، فطغيانهم هو الذي يأمرهم بما يقولون؛ لأنَّه قد تأصل فيهم وخالط نفوسهم فدفعهم إلى تلك الأقوال.

* أتقولون إن محمداً ﷺ اختلق القرآن وافتراه من عند نفسه ؟.

* بل إن كفركم وعدم إيمانكم بالله وتصديقكم بما جاء به رسوله ﷺ هو الذي حملكم على هذه الأقوال المتناقضة، والمطاعن المفتراة، فالقرآن وحيٌ من عند الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾[الحاقة:٤٤-٤٥].

* إنْ صدقوا في قولهم: إنَّ محمداً ﷺ تقوَّل القرآن وافتراه من عند نفسه، فليأتوا بمثل هذا القرآن في نظمه وجودة سبكه وبديع أسلوبه وجمال بيانه، فهو كلام عربي، وهم أساطين البيان، وأرباب البلاغة، وفرسان الفصاحة، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود:١٣-١٤].

* كيف ينكرون الخالق الموجد !! فهل وُجد هؤلاء من غير موجد، وخلقوا من غير خالق أم هم أوجدوا أنفسهم ؟.

* لم يخلقوا من غير خالق، ولا هم خلقوا أنفسهم.

* بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، فمَن قدر على البدء فهو قادر على الإعادة[1].

---

(١) العقل والمنطق ينفيان أنهم خلقوا من غير شيء كما ينفيان أنهم خلقوا أنفسهم، ويؤكدان وجود الخالق=

* ما خلقوا السموات والأرض، بل لا يوقنون بأن الله واحد لا شريك له، فإذا سئلوا: مَن خلقكم وخلق السموات والأرض ؟ قالوا: الله، وهم غير موقنين بها قالوا، وإلا لما أعرضوا عن عبادته تعالى وأنكروا البعث وكذبوا بنبوة محمد.

* هل بيدهم مفاتيح الخزائن فيحاسبون الخلائق؛ فيعطون من شاؤوا ويحرمون مَن شاؤوا !! بل أهم الأرباب الغالبون حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على مشيئتهم ويتصرفوا في الملك ؟ ليس الأمر كذلك بل الله هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

* ألهم مصعد ممدود إلى السماء يصعدون به إلى الملأ الأعلى حتى يعلموا خبر السماء، وما هو كائن من الأمور التي يتقولون فيها رجما بالغيب، ويعلقون بها أمانيهم وأطماعهم الباطلة؟

* فإن كانوا كما يدعون ذلك فليأت كل مستمع منهم بحجة تبين أنهم على الحق، وأنَّ محمداً ﷺ ما أتى بالبرهان الدال على صدق قوله فيما جاءهم به من عند ربه، أو تبين أنه على وشك الهلاك.

* أتجعلون لله تعالى البنات مع أنفتكم منهن وتخصون أنفسكم بالبنين ؟، كما قال تعالى:﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[النحل:٥٧]، وقال:﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾[النجم:٢١-٢٢].

* فمن كان هذا عقله ورأيه فلا يعد من العقلاء ولا يستبعد منه إنكار البعث.

* هل تسألهم أجراً أيها الرسول على تبليغ الرسالة ؟، فهم بسبب ذلك الأجر والغرم الثقيل

=العظيم خلقهم وأنشأهم من العدم، ولا بد لكل عاقل يسمع هذه الحجج الواضحة أن يستجيب لداعي الإيمان، ويقر بوجود الخالق الواحد الأحد الديان؛ عن جبير بن مطعم عن أبيه ﷺ قال: (سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية:﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾كاد قلبي أن يطير). صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٥٤).

الذي أوجبته عليهم مجهدون ومتعبون فلذلك يزهدون في اتباعك، ولا يسلمون، فما كلفتهم شيئا يعطونه إياك فيكون ذلك سببا لإعراضهم عنك تخلصا من أداء ما يطلب منهم.

* أيدعون أنَّ عندهم علم الغيب وما في اللوح المحفوظ حتى يعلموا أن ما يخبرهم به الرسول من أمور الآخرة باطل ؟ فلذلك يكتبون ما يجدونه ويروونه للناس عن معرفة ويقين.

* ليس الأمر كذلك فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله.

* أيريدون مكراً برسول الله ﷺ فيهلكونه بذلك المكر ؟ فالذين كفروا هم الممكور بهم المجزيون بكيدهم، فضرر كيدهم يعود عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[فاطر:٤٣]، وقد قتلهم الله في يوم بدر وأذلهم في غير موطن، ومكر سبحانه بهم.

* أيدعون أن لهم إلهاً غير الله يعبدونه ويحفظهم ويرزقهم وينصرهم ؟، فيا لها من مقالة شنعاء !! تنزه الله وتقدس عن شركهم به، وعن الذين يجعلونهم شركاء له من أصنام وأوثان لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر.

ثم يخبر تعالى عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للمحسوس.

* وإنْ يرى هؤلاء قطعة من نار السماء تسقط عليهم ويعذبون بها لما صدقوا، ولما أيقنوا بل يقولون: هذا سحاب متراكم، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر:١٤-١٥].

* فدعهم أيها الرسول يجحدون ويعاندون ويتمادون في غيهم وضلالهم حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب - يوم القيامة - الذي يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم ويسلب ألبابهم(١).

---

(١) قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الطور:٤٥] في هذا اليوم ثلاثة أقوال: =

* يوم لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا، ولا يدفع عنهم شيئا من العذاب في الآخرة لا قليلاً ولا كثيراً، ولا ناصر ينصرهم، كقوله تعالى:﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾[المرسلات:٣٨-٣٩].

* وإنَّ للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي وكيد النبي عذاباً في الدار الدنيا قبل عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[السجدة:٢١]، وقال:﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[التوبة:١٤].

* غير أنَّ الكثير من هؤلاء لا علم لهم أنا سنعذبهم في الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، فأقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب بل إذا جُلِّي عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

* فاصبر أيها الرسول على أذاهم ولا تبال بهم إلى أن يحكم الله بينك وبينهم، ويقع بهم العذاب الذي وعدناهم به، فإنك بمرأى منا وفي حفظنا وتحت كلاءتنا.

* ونزِّه ربك عما لا يليق به؛ تنزيها مصحوبا بالحمد حين تقوم من كل مجلس جلسته وحين تقوم إلى الصلاة في الليل.

* واذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، وفي وقت إدبار النجوم، كما قال تعالى:﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾[الإسراء:٧٩].

= الأول: أنه يوم موتهم.

والثاني: يوم النفخة الأولى.

والثالث: يوم القيامة. وقد زعم بعضهم: أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، وإذا كان معنى:﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ الوعيد لم يقع النسخ. نواسخ القرآن، ٢٠٠.

د. الهدايات المستنبطة من المقطع:

* في دوام التذكير حكمة ربانية فقد يشرح الله به صدور بعض المكذبين للإيمان فيرجعون عن غيهم وتكذيبهم، ويزداد المصدِّقون إيماناً مع إيمانهم.
* وصف المشركين الرسول ﷺ بأوصاف متناقضة دليل على سفاهتهم وذهاب عقولهم؛ لأن العقل السليم لا يوقع صاحبه في التناقض.
* الكهانة محرمة لأنها من عمل الشيطان.
* عجز المشركين عن الإتيان بمثل القرآن دليل على أنه من عند الله، وأن محمداً ﷺ مرسل من عند الله.
* الطغيان والاستكبار هما أصل كل شر ومصدر كل بلاء وضلال وفتنة.
* إنفراده تعالى بالخلق دليل على وحدانيته وألوهيته.
* لا يعلم الغيب إلا الله.
* عدم مشروعية أخذ الأجر على إبلاغ الدعوة.
* تسلية النبي ﷺ في القرآن هي زاد للدعاة من بعده.
* على العبد أن يتجنب الظلم فإن له عواقب وخيمة، فصاحبه يلقى العذاب في الدنيا قبل الآخرة.
* الصبر دأب الأنبياء وهو زاد الدعاة إلى الله تعالى.
* المكر السيئ لا يعود إلا على أهله.
* الله عز وجل حارس نبيه ﷺ وحافظه، ولن يصل إليه أذى أحد من البشر.
* على المسلم أن يغتنم أوقات الرغائب بالطاعات، من ذكر وصلاة ودعاء.
* مشروعية الذكر والتسبيح في كل الأوقات، آناء الليل وأطراف النهار، وفي كل وقت وموطن ومجلس.

سورة النَّجم

إثبات الوحي والرسالة

أولاً: بين يدي السورة:

أ. تسمية السورة:

سميت هذه السورة (النجم) لورود قوله تعالى في مطلعها:﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ ﴾.

ب. فضائل السورة:

عن ابن مسعود ﷺ قال: (أول سورة أنزلت فيها سجدة:﴿ وَٱلنَّجۡمِ ﴾ فسجد رسول الله ﷺ، وسجد مَن خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيتُه بعد ذلك قُتل كافراً، وهو أُمَيَّة بن خلف)[1].

ج. مكان نزول السورة:

سورة (النَّجم) مكية، قال القرطبي في قول الجميع[2].

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات هذه السورة اثنتان وستون آية في العد الكوفي، وإحدى وستون في عدد الباقين.

---

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٨٦٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٨١. وقال السيوطي: ومثال ما يشبه تنزيل المدني في السور المكية قوله في النجم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ ﴾[النجم/ ٣٢]؛ فإن الفواحش: كل ذنب فيه حد، والكبائر: كل ذنب عاقبته النار، واللَّمَم: ما بين الحدين من الذنوب، ولم يكن بمكة حد ولا نحوه. الإتقان في علوم القرآن ١/ ٤٩، ٥٠.

اختلافها ثلاث آيات:

الأولى: ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾[النجم/ ٢٨] للكوفي.

الثانية: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾[النجم/ ٢٩] للشامي.

الثالثة: ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾[النجم/ ٢٩] أسقطها الشامي وحده[1].

هـ. محور السورة:

موضوع سورة (النَّجم) هو موضوع السور المكية المرتكز على العقيدة بيان بموضوعاتها الرئيسة: الوحي، والوحدانية، والآخرة.

وتتناول السورة هذا الموضوع من زاوية معينة تتجه فيها إلى بيان صدق الوحي بهذه العقيدة ووثاقته، ووهن عقيدة الشرك وتهافت أساسها الموهون، وهذا هو محور هذه السورة وموضوعها الرئيس، ويؤيد ذلك ما يلي:

أولاً: مقدمة السورة التي استهدفت بيان حقيقة الوحي وطبيعته، ووصفت مشهدين من مشاهده، بما يثبت صحته وواقعيته، ويؤكد تلقي الرسول ﷺ عن جبريل عليه السلام تلقي رؤية وتمكن ودقة، واطلاعه على آيات ربه الكبرى.

ثانياً: حديث السورة عن آلهة المشركين المُدَّعَاة: اللات والعزى ومناة، والشِّعْرَى، وأوهامهم عن الملائكة، وأساطيرهم حول بنوتها لله، واعتمادهم في هذا كله على الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، بينما الرسول ﷺ يدعوهم إلى ما دعاهم إليه عن تثبت ورؤية ويقين.

ثالثاً: ما ورد في السورة من آيات تلقِّن الرسول ﷺ الإعراض عمَّن يتولى عن ذكر الله ويشغل نفسه بالدنيا وحدها، ويشير إلى الآخرة وما فيها من جزاء يقوم على عمل الخلق.

رابعاً: خاتمة السورة التي تستعرض أصول العقيدة الإسلامية منذ أقدم الرسالات.

(١) البيان في عد آي القرآن، الداني ٢٣٣.

وكل ما تقدم يعطي دلالة واضحة أن هذا التشابك والتناغم بين آيات السورة ومقاطعها يفيد أن محورها هو: (إثبـات الوحي والرسـالة).

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

تقدم معنا أن محور هذه السورة هو إثبات الوحي والرسالة المحمدية، واسم هذه السورة يتناسب مع هذا المحور تناسبا عجيبا، ويبرز ذلك من خلال ملاحظة افتتاحية السورة بالقسم بالنجم؛ لأن هذا القسم مسوق لإثبات الوحي بالقرآن، وأنه منزل من السماء، فشابه حال نزوله الاعتباري حال النَّجم في حالة هويِّه مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منير إنارة معنوية نازل من محل رفعة معنوية، شبه بحالة نزول نجم من أعلى الأفق إلى أسفله، وهو من تمثيل المعقول بالمحسوس... [(١)].

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

تتناسب فاتحة هذه السورة مع خاتمتها من كون هذه السورة فتحت بإثبات الوحي والرسالة، وختمت ببيان الأصول التي تبنى عليه تلك الرسالة.

٣. المناسبة بين خاتمة سورة الطور وافتتاحية سورة النجم:

تتناسب خاتمة سورة الطور مع فاتحة سورة النجم من وجهين:

الوجه الأول: ختمت سورة (الطور) بالحديث عن النجوم، قال الله تعالى:﴿ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾[الطور:٤٩]، وبدئت سورة (النجم) بالقسم بالنجم، قال الله تعالى:﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ١ ﴾[النجم:١].

الوجه الثاني: أنه تعالى حكى في آخر سورة (الطور) شبهة للكافرين، وهي قولهم: إنه ﷺ

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٩٩.

اختلق القرآن، ونسبوه إلى الشعر، وقالوا عنه ﷺ بأنه كاهن ومجنون، وأقسم الله في أول (النجم) مزكيا رسوله أنه ما ضلَّ، وأن ما يأتي به ﷺ هو وحي يوحى من عند الله تعالى.

٤. المناسبة بين مضمون سورتيْ النجم والطور:

تتشابك هاتان السورتان وتتشابهان في قضايا كثيرة بحيث تبدوان كأنهما سورة واحدة مع احتفاظ كل منها بشخصيتها وسماتها المميزة لها عن غيرها، ومن أهم الجوانب التي ظهرت لنا، ونراها جديرة بالكتابة هنا:

أولاً: أنهما مكيتان، وتحويان خصائص القرآن المكي الفنية والأسلوبية وضوابطه الموضوعية.

ثانيا: افتتاح كل منهما بالقسم بإثبات أصل من أصول الإيمان، ففي (الطور) إثبات البعث والجزاء وأنَّ القرآن من عند الله، ورد مطاعن المشركين حول الرسول ﷺ، وفي (النجم) إثبات الوحي وتزكية الرسول ﷺ الذي جاء به فزكت الآيات فؤاد النبي ﷺ، وسمعه، وبصره، وعقله.

ثالثاً: في كلتيْهما حديث عن موقف أهل الشرك والرد على بعض شبهاتهم؛ وبخاصة في تصورهم الفاسد حول الملائكة، وجعلهم بنات الله تعالى، وقد أفاضت سورة (النجم) في تسفيه هذا الادعاء وبيان بطلانه، قال تعالى:﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾[النجم:٢١].

رابعاً: أوضحت سورة (الطور) أن المؤمن الصالح تلحقه ذريته في نفس النعيم، كما قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الطور:٢١] مع نفعهم بعمل آبائهم، وفي حق الكفار أوضحت آيات سورة (النجم) فردية التبعة، ودقة الحساب والجزاء، قال تعالى:﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[النجم: ٣٩ – ٤١].

خامساً: ورد في سورة (الطور) ذكر بعض صفات أهل التقوى التي تحلوا بها في الدنيا

وأهلتهم لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الطور:١٧ - ٢٠]، وورد في سورة (النجم) بعض صفات أهل الإحسان التي أهلتهم لنيل الحسنى وهي الجنة، قال تعالى:﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾[النجم:٣١ - ٣٢].

سادساً: في سورة (الطور) بيان لوظيفة الرسول ﷺ وهي الإنذار، قال تعالى:﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾[الطور:٢٩]، وفي (النجم) بيان أن الإنذار النبوي كسابقه من النذر، قال تعالى:﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ﴾[النجم:٦٥].

سابعاً: في سورتي الطور والنجم نقاش طويل وحجاج بليغ للكافرين، ودحض لجملة كبيرة من ضلالاتهم وشبههم، وفي (الطور) في معرض حجاج المشركين قال تعالى:﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[الطور:٣٥]، وفي (النجم) ذكر الخالق، ومادة الخلق، قال تعالى:﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾[النجم:٤٥- ٤٦].

ثامناً: في (الطور) أمر النبي ﷺ بالصبر على ما يلحقه من أذى المشركين، قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور:٤٨]، وفي (النجم) أمره بالإعراض عنهم، قال تعالى:﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾ [النجم:٢٩].

تاسعاً: وصف الله تعالى القرآنَ في السورتين بالحديث؛ قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:٣٤]، وقال تعالى: ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النجم:٥٩].

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

إثبات الوحي وتزكية مَن أنزل عليه

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾[النجم/ ١ - ١٨].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تقدم معنا أن محور هذه السورة هو إثبات الوحي والرسالة، وهذا المقطع الافتتاحي من السورة يتحدث عن صدق الرسول ﷺ فيما بلغه عن ربه تعالى، وأنه منزه عما ادعاه المشركون من أنَّ محمداً ﷺ اختلق القرآن، ويثبت أن القرآن وحي من عند الله بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وتفيض الآيات في بيان قرب نزول جبريل عليه السلام بالوحي من محمد ﷺ زيادةً في تقرير أن القرآن موحى من عنده تعالى، وأن الوحي واقع لا محالة.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يتضمن هذا المقطع ثلاث فقرات:

الأولى: تأكيد استقامة النبي ﷺ على الحق.

والثانية: لقاء أمين الوحي عليه السلام بالنبي ﷺ.

والثالثة: تحقيق الوحي وتأكيد ثبوته.

* أُقسم بالنجم إذا سقط من علو عندما يميل للغروب[(١)].

ثم يأتي جواب القسم:

* ما مال صاحبكم محمد ﷺ عن طريق الهداية والحق، بل هو راشد غير ضال، مهتد غير غاوٍ، مبلغ عن الحق غير واهم ولا مفترٍ ولا مبتدعٍ، بل هو عالم به متبع له[(٢)].

* ولا ينطق عن هواه فيما يبلغكم به من الرسالة.

* إنما ينطق ﷺ بوحي من الله عز وجل أوحاه إليه، واصطفاه الله لتبليغه، ويبلغ ما أمر به كاملا من غير زيادة ولا نقصان.

* لم يعلِّم صاحبَكم محمداً أحدٌ من الناس بل علَّمه جبريل عليه السلام الشديد القوي، فهو الذي نزل بالقرآن على قلبه، وقرأه عليه، وبيَّنه له، ثم بلَّغه ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

* وجبريل عليه السلام عليه السلام أمين الوحي صاحب عقل ورأي، ومتانة دين، ومنظر حسن

---

(١) اختلف المفسرون في المراد بالنجم في قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ على أقوال أهمها: **الأول**: أنها النجوم والتعريف للجنس. **والثاني**: أنه الثريا. **والثالث**: أنه النبت الذي لا ساق له كما في قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾﴾[الرحمن/ ٦]. **والرابع**: أنه القرآن، وسمي نجماً لكونه نزل منجماً مفرقاً، والعرب تسمي التفريق تنجيماً، والمفرق: المنجم. **والخامس**: أنها نجوم السماء إذا سقطت يوم القيامة. **والسادس**: النجوم التي ترجم بها الشياطين.

ويبدو أن المعنى المناسب لمقام الآية هو القول الأول؛ وذلك لمناسبة القسم بالنجم لما سيقت له الآية، فالقرآن وحي الله النازل من السماء فشابه حال نزوله الاعتباري حال النجم في حالة هويه مشابهة تمثيلية... التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٩٩..

(٢) في إيثار التعبير عنه ﷺ بوصف: ﴿صَاحِبُكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾[النجم/ ٢] تعريض بأنهم أهل بهتان؛ إذ نسبوا إليه ما ليس منه في شيء مع شدة اطلاعهم على أحواله وشؤونه، إذ هو بينهم في بلد لا تتعذر فيه إحاطة علم أهله بحال واحد معين مقصود بينهم. التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١٠٠.

استوى في مكانه في السماء وظهر في صورته التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق.

* ثم اقترب جبريل ﷺ من محمد ﷺ، وزاد في القرب منه، فكان على مقدار قوسين أو أقل.
* فأوحى الله بواسطة جبريل ﷺ إلى عبده ورسوله محمد ﷺ الذي أوحاه إليه من أوامره تعالى، والشرع المبين.
* ما كذب قلب محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل ﷺ الحقيقية[(١)].
* أتكذبونه وتجادلونه - يا معشر قريش - على ما رأى في ليلة الإسراء والمعراج.
* ولقد رأى محمدٌ جبريل ﷺ في صورته الملائكية مرةً أخرى - غير تلك التي كانت ما بين

---

(١) يثور خلاف قوي بين العلماء عند تفسير قوله: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾[النجم/ ١١]، حول رؤية محمد ربه، فقال بعض العلماء إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء، فأثبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا.. والصحيح أن المراد به جبريل ﷺ، كما يدل عليه السياق، وأن محمدا ﷺ رأى جبريل ﷺ في صورته الأصلية التي هو عليها مرتين: مرة في الأفق الأعلى تحت السماء الدنيا، ومرة ثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ.
قال ابن القيم: (وأما قوله في سورة النجم: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [النجم/ ٨]، فهو غير الدُّنو والتَّدلي في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود، والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾[النجم/ ٥]، وهو جبريل ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [النجم/ ٦ - ٨]، فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلِّم الشديد القوي، وهو ذو المِرَّة، أي القوة، وهو الذي استوى بالأفق الأعلى، وهو الذي دنا فتدلى، فكان من محمد ﷺ قدر قوسين أو أدنى، فأما الدُّنو والتدلي الذي في حديث الإسراء، فذلك صريح في أنه دنو الرب تبارك وتدليه، ولا تعرُّض في سورة النجم لذلك، بل فيها أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، وهذا هو جبريل، رآه محمد ﷺ على صورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى. والله أعلم). زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، ٣/ ٣١، ٣٢.

السماء والأرض - ليلة الإسراء عند سدرة المنتهى في السماء السابعة، التي ينتهي إليها علم الخلائق وجميع الملائكة، ولا يعلم أحد ما وراءها إلا الله عز وجل، كما قال ﷺ: (ثم رفعت إليَّ سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا أوراقها كآذان الفيلة)[1].

* وعند سدرة المنتهى جنة المأوى التي تأوي إليها الملائكة وأرواح الشهداء والمتقين.
* رآه حين يغشى سدرة المنتهى من أمر الله شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عزَّ وجلَّ.
* ما مال بصر محمد ﷺ يمنة ولا يسره، ولا ارتفع فوق الحد الذي حدد له.
* لقد رأى محمد ﷺ آياتٍ عظاماً، وعجائب من ملكوت الله تبارك وتعالى.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* للخالق تعالى أن يقسم بما شاء، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق.
* ظهور النجوم وغيابها في وقت معين يدل على أنها مخلوقة مقهورة محكومة لنظام معين، لا تستحق أن تعبد وتعظم[2].
* بيان فضل النبي ﷺ حيث إن الله تعالى قال في حق أبينا آدم عليه السلام: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه:١٢١]، وقال في حق محمد ﷺ: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ ﴾[النجم:٢].
* استدل علماء الأصول بقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾[النجم:٤] على أن النبي ﷺ لم يكن يجتهد، والذين قالوا إنه قد يقع منه الاجتهاد استدلوا بقوله تعالى:﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الأنفال: ٦٧].

ولا منافاة بين هذه الآيات. قال الشنقيطي رحمه الله: والجواب عن هذا من وجهين:

---

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٨٨٧).

(٢) من موضوعات سور القرآن الكريم، عبد الحميد طهماز ١٥.

الأول: أن معنى قوله:﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾[النجم:٣] أي في كل ما يبلغه عن الله،﴿ إِلَّا وَحْىٌ ﴾ أي كل ما يبلغه عن الله ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ من الله؛ لأنه ﷺ لا يقول على الله شيئًا إلا بوحي منه، فالآية رد على الكفار حيث قالوا: إن النبي ﷺ افترى هذا القرآن..

الوجه الثاني: أنه ﷺ إن اجتهد فإنه إنما يجتهد بوحي من الله يأذن له به في ذلك الاجتهاد، وعليه فاجتهاده ﷺ بوحي فلا منافاة.

ويدل لهذا الوجه أن اجتهاده ﷺ في الإذن للمتخلفين عن غزوة تبوك أذِن الله له فيه حيث قال: ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢]، فلما أذن ﷺ للمنافقين عاتبه الله بقوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣]، فالاجتهاد في الحقيقة إنما هو الإذن قبل التبين، لا في مطلق الإذن للنص عليه...

والتحقيق في هذه المسألة أنه ﷺ ربما فعل بعض المسائل من غير وحي في خصوصه، كإذنه للمتخلفين عن غزوة تبوك قبل أن يتبين صادقهم من كاذبهم، وكأسره لأسرى بدر، وكأمره بترك تأبير النخل... إلى غير ذلك.

وأن معنى قوله تعالى:﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ لا إشكال فيه، لأن النبي ﷺ لا ينطق بشيء من أجل الهوى، ولا يتكلم بالهوى.

وقوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ يعني أن كل ما يبلغه ﷺ عن الله فهو وحي من الله لا بهوى ولا بكذب ولا افتراء. والعلم عند الله تعالى[1].

* السنة المقبولة كالوحي المنزَل في وجوب العمل.
* في قوله تعالى:﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾[النجم: ٨] دليل على كمال مباشرة جبريل عليه السلام

(١) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ملحق بكتاب: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ٥/ ٣٤٨. بتصرف.

للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينهما.

* وصف الله تعالى وثناؤه على رسوله ﷺ بقوله: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [النجم: ٧١] دليل على أنه ﷺ كان في غاية الأدب مع ربه، فما جاوز ما أمره الله به، ولا سأل فوق ما أعطي.

* الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة، وتأوي إليها أرواح الملائكة والشهداء المتقين.

المقطع الثاني

الظن لا يغني من الحق شيئاً

قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ
﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ
إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾
فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن
يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم
بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ
يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ
ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟
بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ
إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ
﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم: ١٩ – ٣٢].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع يشن هجوما شديداً على معبودات المشركين، ويندد بالشرك، ويسفه أحلام المشركين لعبادتهم أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، وأنَّ هؤلاء لا يتبعون في عبادة غير الله إلا ظنونهم الباطلة، وهذا له صلة كبيرة بمحور السورة الذي يقرر ثبوت النبوة والرسالة.

المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى مظاهر قدرته وعظمته وعلمه وحكمته في الملكوت الأعلى وجبريل ﷺ، وسدرة المنتهى، وما غشاها من نور الله، وما أرى رسوله ﷺ من الآيات الكبرى التي تدل على ثبوت الوحي والرسالة المحمدية، خاطب تعالى المشركين، فانتقل من تقرير النبوة إلى تقرير الربانية والألوهية.

المعنى الإجمالي للمقطع:

تضمن هذا المقطع ثلاث فقرات:

الأولى: بيان عدم جدوى عبادة الأصنام؛ اللات والعزى ومناة(١).

---

(١) قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، كانت اللات صخرة بيضاء منقوشة وعليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وفسرت بأنها رجل كان يلت للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. وكذا العزى اشتقوها من العزيز، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، وكانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد: (لنا العزى ولا عزى لكم)، فقال رسول الله ﷺ: (قولوا الله مولانا ولا مولى لكم) صحيح البخاري، الحديث رقم (٤٠٤٣). وأما مناة فكانت بالمشلّل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة، وقد كان بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة، غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٧١.

الثانية: توبيخ المشركين لتسميتهم الملائكة بنات الله.

الثالثة: جزاء المحسنين وبيان أوصافهم.

* أخبروني هل هذه الأصنام صالحة لأن تعبد ؟ وهل وجدتم فيها من صفات الألوهية من الإيجاد والإعدام والنفع والضر ؟.

* أتجعلون له تعالى ولدا، وتجعلون هذا الولد أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكران؟ على علم منكم أن البنات ناقصات والبنين كاملون، والله كامل العظمة، فكيف تنسبون إليه النقص، وأنتم على نقصكم تنسبون إلى أنفسكم الكامل.

* لك قسمة جائرة غير مستوية ناقصة غير تامة؛ لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم، وآثرتم أنفسكم بما ترضون لها، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ [مريم: ٨٩- ٩٠].

* ما اللات والعزى ومناة إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ولم ينزل الله بها وحيا يأذن بعبادتها، وهي لا تعدو كونها أسماء لآلهة لا وجود لها، ولا حقيقة في الواقع، فلا معبود بحق في الوجود إلا إله هو الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾[يوسف: ٤٠].

* هؤلاء المشركون ما يتبعون في عبادة هذه الأوثان إلا الظنون والأوهام، وما تشتهيه أنفسهم مما زينه لهم الشيطان.

* كيف يصنعون ذلك ؟ وقد جاءهم من ربهم البيان الساطع والبرهان القاطع على أن تلك الأصنام ليست بآلهة، وأنَّ العبادة لا تصلح إلا لله الواحد القهار.

* ليس للإنسان كل ما يشتهي حتى يطمع في شفاعة الأصنام.

* فالملك كله لله يعطي مَن يشاء ويمنع مَن يشاء؛ لأنه مالك الدنيا والآخرة، وليس الأمر كما يشتهون، فهو يعطي مَن اتبع هداه وترك هواه.

* وكثير من الملائكة الأبرار الأطهار المنبثين في السموات لا تغنى شفاعتهم، مع علو منزلتهم، ورفعة شأنهم.

* ولا يشفعون لأحد إلا من بعد أن يأذن الله تعالى في الشفاعة لمن يشاء من أهل التوحيد والإيمان ويرضى عنه، كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فإذا كان هذا في حق الملائكة الكرام المقربين، فكيف ترجون أيها الجهلة السفهاء شفاعة الأصنام عند الله تعالى.

* إنَّ الذين لا يصدقون بالبعث والجزاء ليزعمون أنَّ الملائكة إناث، وأنَّهم بنات الله، قال تعالى:﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٠].

* هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة لا علم لهم بما يقولون، فلم يشهدوا خلق الملائكة، ولا جاءهم من الله حجة ولا برهان، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف: ١٩].

* ما يتبع هؤلاء في أقوالهم الباطلة إلا الظنون والأوهام، وإن الظن لا يجدي شيئا، ولا يقوم مقام الحق، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ ﴾ [يونس:٣٦].

* فأعرض أيها الرسول عن هؤلاء المستكبرين عن الإيمان واتباع القرآن واهجرهم، وإنما أكثر همهم ومبلغ علمهم الدنيا، وما فيها من المتع الزائل واللذة الفانية، بحيث صارت الدنيا منتهى همتهم وقصارى سعيهم، ولا تزيدهم الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل قال تعالى: ﴿ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾[الرعد: ٢٦].

* ذلك ما انتهى إليه علمهم وبلغه إدراكهم أن يؤثروا الحياة الدنيا على الآخرة، قال تعالى:

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

* فلا تتعب نفسك في دعوة هؤلاء وسلِّم الأمر لله تعالى، فهو العليم بأحوال الفريقين؛ المصرين على الضلال، والمتمسكين بالهدى، وهو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عباده، وهو الذي يهدي مَن يشاء ويضل مَن يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته وهو العادل الذي لا يجور أبداً لا في شرعه ولا في قدره.

* كل ما في السماوات والأرض ملك لله وحده، وتحت قبضته وسلطانه، وله التصرف فيه خلقاً وملكاً وتدبيراً، فهو العليم الذي لا تخفى عليه خافية، وسيجزي ـ بحسب علمه المحيط بكل شيء ـ كلا بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر؛ فالمسيء بما صنعه واقترفه، والمحسن بالإحسان ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، ويمتعه بنعيم لا يخطر على قلب بشر، قال تعالى:﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[الجاثية: ٢٢].

* المحسنون الذين يجزيهم الله بالحسنى هم الذين يبتعدون عما عظُم شأنه من كبائر الذنوب والمعاصي؛ كالشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والزنى وغيرها من الكبائر ولا تقع منهم إلا صغائرها، فيتوبون إلى ربهم ويندمون على ما فرطوا في جنب الله، كما قال تعالى:﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾[النساء: ٣١].

* وربكم رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها؛ فيغفر الصغائر ما اجتنبت الكبائر، ويغفر ما يشاء من الذنوب لَمن تاب توبة صادقة، وندم على ذنوبه والإخبات إلى الله وتجافي عن الذنوب، قال تعالى:﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٨٢].

* الله تعالى هو البصير بأحوالكم، العليم بأقوالكم وأفعالكم قبل خلقكم؛ مذ أنشأ أباكم

من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر قسمهم فريقين: فريقاً للجنة، وفريقاً للسعير. وحين كنتم أجنة في بطون أمهاتكم كتبت الملائكة الموكلة بكم أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم وأشقياء أَمْ سعداء.

* فإذا علمتم هذا فلا تثنوا على أنفسكم وتصفوها بالطهارة من المعاصي، أو بزكاة العمل وزيادة الخير، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته، فهو العليم بمَن اتقى المعاصي، وبمَن اجترح السيئات، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٩]، وعن زينب بنت أبي سلمة أنها سُمِّيت (برة) فقال ﷺ: (لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم، فقالوا بم نسميها ؟ قال: سمُّوها زينب)[١].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الله تعالى هو وحده الأحق بالعبادة، فهو السميع البصير الضار النافع، أما اللات والعُزَّى ومَنَاة فهي أسماء فارغة من المعنى، سمَّاها المشركون هم وآباؤهم الضُّلال فلا تستحق العبادة.

* كل أمر ما أنزل الله به من سلطان فهو باطل فاسد لا يُتَّخَذ ديناً.

* إذا كان ما عليه المشركون من العبادة مبنياً على اتباع الظن الفاسد والأماني الباطلة، فإن البقاء عليه من أظلم الظلم للنفس.

* الملائكة الكرام المقربون منه تعالى لا تنفع شفاعتهم إلا بشرطين:

الأول: أن يأذن الله تعالى لهم في الشفاعة.

والثاني: رضى الله تعالى عن المشفوع له.

* قول المشركين: (الملائكة بنات الله) لا يدل عليه علم مأخوذ عن الله أو عن رسوله، ولم تدل عليه الفِطَر والعقول.

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم (٢٦٤٢)، سنن أبي داود، الحديث رقم (٤٩٥٣).

* الله تعالى منزَّه عن الولد والصاحبة، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

* خلق الله الملائكة الكرام لخدمته، وهم كما قال تعالى عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم: ٦].

* الظن لا يغني من الحق شيئا، والحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة والبراهين الساطعة.

* المؤمنون بالآخرة هممهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم يأخذونها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

* الله تعالى مالك السماوات والأرض، وهو الغني عما سواه يحكم بين خلقه بالعدل.

* الله تعالى هو العليم بمن ضل عن سبيله، وبمن اهتدى فيجازي كلا بما يستحقه.

* المحسنون هم الذين لا يرتكبون كبائر الإثم - وهو الشرك - والفواحش، كالزنى، وكل ذنب فيه الحد.

* صغائر الذنوب التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا مَن عصمه الله وحفظه تكفر بالصلاة وغيرها من الحسنات، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[هود: ١١٤]، وقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[النساء: ٣١][1].

---

(١) اختلف المفسرون في الاستثناء المذكور في قوله ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢] على قولين:
الأول: أنه منقطع، وهو قول جمهور المفسرين، ولكن أقوالهم تباينت في المراد باللَّمم على هذا التفسير: فقيل: اللَّمم هي صغائر الذنوب. وقيل: اللَّمم كل ما دون الزنى، من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة، عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: " إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدركه ذلك لا محالة؛ فزنى العينين النظر، وزنى اللسان المنطق، والنفس تتمنى =

* الله تعالى واسع المغفرة من الكبائر والصغائر لمن تاب من ذنبه واستغفر.

* الله تعالى عليم بجميع أحوال خلقه وأقوالهم وأفعالهم، فليس لأحد أن يزكي نفسه بل الله هو المزكي.

* النهي عن تزكية النفس إنما يكون إذا أريد بذلك الرياء والإعجاب بالعمل، وإلا فلا بأس بها، ولا تكون منهياً عنها.

=وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه". صحيح البخاري، الحديث رقم (٦٦١٢)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٢٦٥٧).

وقيل: اللَّمم أن يذنب الرجل الذنب ثم يتوب منه ولا يعود إليه، قال الشاعر:

إنْ تغفرِ اللهم تغفر جماً		وأي عبدٍ لك لا ألَمَّا

وقيل: اللَّمم الذنب بين الحدين وهو ما لم يأت عليه حد في الدنيا ولا توعد عليه بعذاب في الآخرة، وتكفره الصلوات الخمس. وقيل: هو ما سلف في الجاهلية فلا يؤاخذهم الله به...

ثانياً: أن الاستثناء متصل، واللمم هو أن يزني ثم يتوب فلا يعود، وأن يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود، ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦]، فضمن لهم المغفرة كما قال عقيب اللَّمم: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم:٣٢] فعلى هذا التأويل يكون ﴿ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ استثناء متصلا. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي ٩/١٠٦-١٠٨.

المقطع الثالث

ذم المشركين، وبيان وحدة رسالة التوحيد

قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾
أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ
لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ
ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ
﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ
﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾
وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾
أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ
﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾[النجم: ٣٣ - ٦٢].

المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

هذا المقطع له مناسبة مع محور هذه السورة المتعلق بإثبات الوحي والرسالة؛ فهو يبين أن وحي الله إلى رسوله ﷺ كوحيه إلى سائر الرسل، وأنَّ القرآن من جنس ما أنزل على تلك الرسل، ثم أنذر بقرب الساعة، وأنكر على الكافرين تعجبهم من القرآن واستهزاءهم به، وعدم خشوعهم وإعراضهم وغفلتهم، ثم أمر بالسجود لله تعالى والعبادة التي تبعد الإنسان عن غوائل الشرك وتوصله إلى الله تعالى.

المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لَمَّا ذكر الله سبحانه تعالى في المقطع السابق سفاهات المشركين وضلالاتهم في عبادتهم للأصنام، وميز بين المؤمنين والمجرمين، ذكر هنا نوعاً خاصاً من أهل الإجرام، وختم السورة الكريمة ببيان ما حل بالمكذبين من أنواع العذاب والدمار، تذكيراً للمشركين بانتقام الله من

أعدائه المكذبين لرسوله(١).

المعنى الإجمالي للمقطع:

يتضمن هذا المقطع ثلاث فقرات:

الأولى: التحذير من حال المعطي المكدي.

الثانية: بيان ما اشتملت عليه صحف إبراهيم وموسى من العلم.

الثالثة: التحذير من التكذيب بآيات الله ونعمه والدعوة إلى الخضوع والسجود له تعالى اعترافا بربوبيته وألوهيته وآلائه.

* أعلمت أيها الرسول شأنَ هذا الكافر الذي أدبر عن الإيمان بالله وعن طاعته، وعن دينه وأعطى صاحبه قليلا من ماله ثم منعه فلم يعطه فبخل عليه(٢).

* أعند هذا الذي أعرض عن الإيمان، وأمسك يده خشية الإنفاق علم الغيب أنه سينفد ما في يده حتى أمسك عن معروفه فهو يرى ذلك عياناً ؟ ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً، قال تعالى:﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ ﴾[النمل: ٦٥].

* أم لم يخبر هذا المتولي عن طاعة الله المعطي قليلا المكدي بما في التوراة المنزلة على موسى عليه السلام، ولا بما في صحف إبراهيم عليه السلام، قال تعالى:﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٣/ ٢٥٩.

(٢) قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة من أجل أنه عاتبه بعض المشركين وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه فضمن له الذي عاتبه إن هو أعطاه شيئا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الآخرة ففعل فأعطى الذي عاتبه على ذلك بعض ما كان ضمن له ثم بخل عليه ومنعه تمام ما ضمن له. جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٧١، أسباب النزول، الواحدي ٣١٥، ولم يذكر هذا السبب ابن كثير في تفسيره.

﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

* إبراهيم عليه السلام الذي تمَّم ما أُمر به من طاعة الله وتبليغ رسالته، كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

في تلك الصحف المنزلة:

* لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى، ولا يؤخذ أحد بجريرة غيره، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [العنكبوت: ١٢].

* ليس للإنسان إلا عمله وسعيه، فكما لا يحمل عليه وزر غيره، كذلك لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه، قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

* إن عمل الإنسان سيعرض عليه يوم القيامة، ويراه في ميزانه، فيجزى بعمله الجزاء الأكمل الأتم، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾[الزلزلة: ٧- ٨]، وقال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥].

* والله تعالى إليه المرجع والمآب فيعاقب مَن يشاء ويرحم مَن يشاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾﴾[العلق: ٨].

* والله تعالى هو الذي خلق الفرح والحزن، والسرور والغم، فأضحك في الدنيا والآخرة مَن أضحك وأبكى مَن أبكى.

* وهو سبحانه خالق الموت والحياة، فبيده الإحياء والإماتة، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

* وهو سبحانه بقوته وقدرته أوجد الصنفين من المخلوقات، قال تعالى:﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الذاريات: ٤٩].

* وهو سبحانه الذي خلق النوعين الذكر والأنثى، كما قال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾ [الليل: ٣]، من نطفة تتدفق من صلب الرجل، وتصب في رحم المرأة، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾[القيامة: ٣٧].

* وعليه تعالى إعادة خلق الناس للحساب والجزاء بعد موتهم، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

* وهو تعالى الوهاب يغني مَن يشاء ويفقر مَن يشاء، قال تعالى:﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾[الرعد: ٢٦][1].

* وإن ربك أيها الرسول هو رب الشِّعْرَى، النجم الذي كان بعض أهل الجاهلية يتخذونه إلها ويعبدونه من دون الله.

(١) قال ابن كثير: قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾[النجم/ ٤٨] أي ملك عباده المال وجعله لهم قنية مقيماً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه، فهذا تمام النعمة عليهم، وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين، منهم أبو صالح وابن جرير وغيرهما، وعن مجاهد ﴿ أَغْنَىٰ ﴾ موّل، ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ أخدم، وكذا قال قتادة، وقال ابن عباس ومجاهد أيضاً ﴿ أَغْنَىٰ ﴾ أعطى، ﴿ وَأَقْنَىٰ ﴾ أرضى. وقيل: معناه أغنى نفسه وأفقر الخلائق إليه، قاله الحضرمي بن لاحق، وقيل: أغنى مَن شاء من خلقه، وأقنى أي أفقر مَن شاء منهم، قال ابن زيد، حكاهما ابن جرير وهما بعيدان من حيث اللفظ. تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٧٧.
وقال الراغب الأصفهاني: قوله تعالى: ﴿ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ أي أعطى ما فيه الغنى وما فيه القنية، أي المال المدخر، وقيل: أقنى: أرضى، وتحقيق ذلك أنه جعل له قنية من الرضا والطاعة، وذلك أعظم الغنائين... (. المفردات في غريب القرآن ٤١٤.
وإنما أثبتنا المعنى المذكور في المتن لدلالة السياق عليه؛ وذلك لمناسبته لسياق الجملة التي حوت عدداً من المتطابقات، ولدلالة القرآن عليه. والله تعالى أعلم.

* وأنه تعالى أهلك قوم عاد القدماء، الذين بعث إليهم نبيه هودا ﷺ، وقد كانوا من أشد الناس وأقواهم، وأطغاهم فأهلكهم بريح صرصر عاتية، كما قال تعالى:﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فصلت: ١٦].

* وأنه تعالى أهلك ثمودَ قوم صالح ﷺ، فأرسل عليهم الصاعقة، ودمرهم ولم يبق أحدا منهم، كما قال تعالى:﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾[فصلت: ١٧].

* وأنه تعالى أهلك قوم نوح ﷺ الذين كانوا قبل هؤلاء.

* وكانوا أظلم الفريقين ومن قومك الذين كذبوك وأشدهم طغياناً، قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾[نوح: ٥ - ٧].

* وقرى قوم لوط أهلكها الله، فألقاها تهوى إلى الأرض منقلبة أعلاها أسفلها، كما قال تعالى:﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾[هود: ٢٨]، وقال:﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾[الحجر: ٧٣-٧٤].

* فغطَّاها من ألوان العذاب ما غطى، وأمطرت عليهم حجارة من سجيل منضود.

* فبأي نعم الله تعالى وآلائه الدالة على وحدانيته وقدرته تتشكك أيها الإنسان أو تكذب بعد أن عرضنا عليك من مظاهر النعم والنقم التي لا تقدر على إنكارها وإخفائها بحال.

* هذا الرسول نذير لكم كسائر الرسل، وهو من جنس المنذرين الأولين[1]، كموسى وإبراهيم اللذيْن أرسلا بالصحف الأولى، وقد علمتم ما حل بالمكذبين، قال تعالى: ﴿ قُلْ

(١) وقيل: إن المراد بالنذير القرآن الكريم. الكشاف، الزمخشري ٤/ ١١٩٩.

﴿ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[الأحقاف: ٩]، وقال:﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[الأنعام: ١٩].

* لقد دنت القيامة واقترب الوعد الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾[غافر: ١٨].

* ولا يقدر على ردها وكشفها إذا غشيت الخلق بأهوالها إلا الله، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾[الأعراف: ١٨٧].

* أفمن هذا القرآن الذي يحدثكم عن مصائر المكذبين، وينذركم تعجبون يا معشر المشركين وتسخرون وتستهزئون ؟ قال تعالى:﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ ﴾[الواقعة: ٨١].

* أفتضحكون عند سماعه، ولا تبكون من آياته وزواجره ؟ كان الأجدر بكم أن تبكوا دماً بدل الدمع حزناً على تفريطكم.

* وأنتم لاهون غافلون.

* فاسجدوا لله الذي خلقكم ووحدوه، ولا تعبدوا غيره؛ لا تعبدوا اللات، ولا العزى، ولا مناة، ولا الشِّعْرَى، توجهوا إلى الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا يليق الخضوع والسجود والعبادة إلا له جل شأنه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* لا يعلم الغيبَ أحدٌ إلا الله.

* تضمنت صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام من وجوه العلم ما يلي:

أ. لا تحمل نفس ذنب نفس أخرى.

ب. ليس للإنسان من ثواب يوم القيامة إلا ما سعى في تحصيله بنفسه[1].

---

(١) لا تعارض بين قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النجم/ ٣٩]، وبين قوله: إذا مات=

ج. ما عمله الإنسان في الدنيا من خير وشر سوف يراه علانية، ويجزى به في الآخرة خيراً كان أو شراً.

د. إلى الله تعالى تصير كل أمور الخلق بعد الموت فيحكم فيها ويجزي بها.

هـ. الله تعالى هو الذي خلق الضحك والبكاء، فأفرح من شاء فضحك فرحاً، وأحزن من شاء فبكى حزناً.

و. الله تعالى هو الذي خلق الموت والحياة.

ز. الله تعالى هو خلق الصنفين الذكر والأنثى من قطرة المني.

ح. الله تعالى هو القادر على إحياء الخلائق بعد موتهم.

ط. الله تعالى هو الذي مَلَّكَ عباده المال وجعله لهم قُنْيَةً مقيماً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه وهذا من تمام نعمه عليهم.

ي. الله تعالى هو رب الشِّعْرَى ذلك الكوكب الضخم الذي يطلع بعد الجوزاء، وهو سبحانه خالقه ومالكه ومسخره، فلا ينبغي أن يتخذ رباً من دونه تعالى.

ك. الله تعالى هو الذي أهلك عاداً، وثمود، وقوم نوح، وقوم لوط، فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

* في قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾[النجم: ٣٩] دليل على أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أُمَّته، ولا حثَّهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنصٍ ولا إيماء، ولم يُنقل ذلك عن أحد

= الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية). صحيح مسلم الحديث رقم (١٦٣١) فهذه الثلاثة أمور من عمل الإنسان وسعيه؛ فالولد أنجبه ورباه، والعلم تعلمه وبثه في الناس وعلمه، والصدقة الجارية أوقفها بنفسه.... فالجميع من سعيه وكسبه. أيسر التفاسير، الجزائري ٥/ ٢٠٠.

من الصحابة رضي الله عنهم، ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما، وهذا هو قول الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ ومَن اتبعه من العلماء[1].

* لمَّا قام إبراهيم عليه السلام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي وبلغ الرسالة على التمام والكمال استحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله.

* الله تعالى عدل في حكمه وقضائه، وهو سبحانه قدير عليم وقوي.

* تحذير الطغاة من أهل الكفر أن يصيبهم ما أصاب غيرهم من العذاب الماحق.

* الترغيب في البكاء من خشية الله، والتحذير من أسباب البعد عنه كاللهو واللعب.

* مشروعية سجدة التلاوة عند ختام سورة النجم وهي من عزائم السجدات في القرآن الكريم، وقد سجدها المشركون مع رسول الله ﷺ.

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٧٦.

سورة القمر

أولا: بين يدي السورة

أ. اسم السورة:

سميت هذه السورة بسورة القمر لابتدائها بمعجزة انشقاق القمر، قال تعالى ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر: ١].

ب. فضائل السورة.

مما يدلُّ على فضلِ هذه السورة الكريمة ما في الصحيح عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهم أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ: سَأَلَ أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ: مَا كَانَ يَقْرَأُ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ ؟ فَقَالَ كَانَ يَقْرَأُ بِـ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [ق: ١] و﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾[(١)].

ج. مكية السورة.

هذه السورة نزلت في مكة، قال القرطبي: «سورة القمر مكية كلها في قول الجمهور»[(٢)].

د. عدد آيات السورة.

عدد آيها: خمسون وخمس آيات في عدِّ الجميع، ليس فيها اختلاف[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم - كِتَاب صَلَاةِ الْعِيدَيْنِ - بَاب مَا يُقْرَأُ بِهِ فِي صَلَاةِ الْعِيدَيْنِ حديث ١٤ - (٨٩١) وموطأ مالك كتاب النِّداءِ لِلصَّلاةِ - بَاب مَا جَاءَ فِي التَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ الْعِيدَيْنِ حديث ٤٣٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٢٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧ / ٤٧٠، ومعالم التنزيل للبغوي ٧ / ٤٢٥.

(٣) يراجع في ذلك: «أقوى العُدَد في معرفة العَدد» للشيخ علم الدين أبي الحسن: علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي، المتوفى: سنة ٦٤٣ هـ وهو ضمن كتابه جمال القراء وكمال الإقراء ١ / ٢١٧، وكتاب البيان في عدِّ آيِ القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ، ص ٢٣٦ ومرشد الخلان إلى معرفة=

هـ. محور السورة.

محورها الرئيسي الذي تدور حوله هو التذكير بالآيات والنُّذُر، وبيان مصير المكذبين بها.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

سميت بسورة القمر؛ حيث استُهِلَّت بالحديث عن انشقاقه؛ آيةً للنبي ﷺ، وإيذانا بقرب قيام الساعة، وهذا يتَّسِقُ مع مِحْوَرِ السورةِ حول الآيات والنذر.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* في مطلع السورة الكريمةِ: إنذارٌ وآيةٌ، إنذارٌ بقرب الساعة ووجوب الاستعداد لها، وآيةٌ كبرى وهي انشقاق القمر معجزةً للنبي ﷺ، قال تعالى ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾، وفي ختام السورة الكريمة تذكيرٌ بالساعة وأهوالها، ودعوة إلى الاعتبار من مصير المكذبين، مع الإشارة إلى جزاء المتقين، قال تعالى ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾[القمر: ٤٣ – ٥٥]

* في مطلع السورة:﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾: فهذه النذر عبرةٌ لكلِّ معتبرٍ ومصير المكذبين واحد.

=عد آي القرآن للشيخ عبد الرازق علي إبراهيم موسى - شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ١٦٩.

المناسبة بين اسم السورة وسابقتها

الصلة بين سورة القمر، وسورة النجم: صلة واضحة جلية، حيث جاءت سورة القمر مقررةً لما جاء في سورة النجم من بيانٍ لأصول العقيدة وردٍّ على شبهات المشركين: وهناك تناسبٌ من جهة التسمية؛ لما بين النجم والقمر من تلازمٍ، ونظير ذلك: توالى سورُ الشمس والليل والضحى.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسبُ بين موضوعِ السورتينِ يتجلى في وجوهٍ عديدة منها:

* فأول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة: قال تعالى ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨]، وقال تعالى ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ [القمر: ١ - ٣]

* وفي سورة النجم حديث عن رحلة المعراج وهو آية كبرى، وفي مطلع سورة القمر حديث عن انشقاق القمر، وهو أيضا من الآيات الباهرة والمعجزاتِ الظاهرة.

قَالَ تَعَالَى:﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [النجم: ١ - ١٨]

* وفي السورتين: بيان لموقف المشركين من الآيات والنذر، حيث الكذب والمراء والإعراض والافتراء: قال تعالى في سورة النجم منكراً على الكفار مراءهم وإنكارهم:﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ

مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [النجم: ١١ - ١٢].

وقال تعالى في سورة القمر ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ [القمر: ١ - ٣].

* في السورتين الكريمتين: حديث عن هلاك المكذبين بالآيات والنذر قال تعالى في سورة النجم ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النجم: ٥٠ - ٥٦].

* وجاءت سورة القمر، مفصِّلةً ومقررة لما جاء في سورة النجم من حديثٍ عن هلاك قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط.

بين مقدمة السورة ومحورها.

لما دارت السورةُ حول الآيات والنذر: جاءت الآية الأولى متضمنة، آيةً عجيبةً، ونذارةً عظيمةً: الإيذانُ بقربِ الساعةِ، وبيانُ انشقاقِ القمرِ.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، وتفصِّلُ في مصير المكذبين، كما سيأتي بيانُ ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث عن الآيات والنذر، وسوف يتجلَّى ذلك من خلال تأملاتنا في السورة الكريمة.

ثانيا: في رحاب السورة الكريمة

-١-

المقدمة

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ ﴾ القمر: ١ – ٥

سبب النزول

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: " أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمْ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ حَتَّى رَأَوْا حِرَاءً بَيْنَهُمَا» [(١)].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: « انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شِقَّتَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ اشْهَدُوا» [(٢)].

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: « انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، حَتَّى صَارَ فِرْقَتَيْنِ عَلَى هَذَا الْجَبَلِ، وَعَلَى هَذَا الْجَبَلِ فَقَالُوا: سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لَئِنْ كَانَ سَحَرَنَا فَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ» [(٣)].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: « انْشَقَّ الْقَمَرُ بمكة حتى صار فرقتين، فقال كفار أهل

---

(١) صحيح البخاري – كِتَاب الْمَنَاقِبِ – بَاب انْشِقَاقُ الْقَمَرِ حديث ٣٦٥٥

(٢) صحيح البخاري – كِتَاب الْمَنَاقِبِ – بَاب سُؤَالِ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُرِيَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةً فَأَرَاهُمْ انْشِقَاقَ الْقَمَرِ، حديث ٣٤٣٧ وصحيح مسلم – كِتَاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ – بَاب انْشِقَاقِ الْقَمَرِ حديث ١٨٢ – (١٢٣٠).

(٣) سنن الترمذي –كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَاب وَمِنْ سُورَةِ الْقَمَرِ حديث ٣٣٤٣، قال الشيخ الألباني: صحيح الإسناد – سنن الترمذي ٥ / ٣٩٨، ورواه الإمام أحمد في مسنده عنه ٤/ ٨١ ودلائل النبوة للبيهقي ٢ / ١٥١ حديث ٥٧٠.

مكة: هذا سحرٌ يسحرُكُم به ابنُ أبي كبشة، انظروا السُّفَّارَ، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدقَ، وإن كانوا لم يروا ما رأيتم فهو سِحْرٌ سحرَكم به. قال: فسئل السفَّارُ قال: وقدموا من كل وجهٍ فقالوا: رأينا»(١).

التفسير الإجمالي

بدأت السورة بهذه النِّذارةِ الجليلةِ حيث أنذرت باقتراب الساعة ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ فهي قريبةٌ جدًّا، بل قد ظهر كثيرٌ من علاماتها، ومنها بعثةُ نبينا محمدٍ ﷺ، كما في الصحيحين عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ)(٢).

﴿ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾: وذلك حين طلب كفارُ قريشٍ آيةً فأيَّد الله نبيه بهذه المعجزة الظاهرة الباهرة، التي شهد لها التاريخ والعلم.

وقد يتساءل القارئُ فيقولُ: لقد مضى على بعثة النبي ﷺ أربعة عشر قرنا وزيادة، ولا تزال الدنيا باقيةً إلى يومنا هذا ؟ وأقول: إن تحديد ما بقي من عمر الدنيا مرتبط بما مضى منها، فهي بالنسبة لما مضى، ولقد مضى منها قرونٌ مديدةٌ وأحقابٌ بعيدة، فما بقي إنما هو بالنسبة لما مضى كما في حديث رسول الله ﷺ (إِنَّمَا بَقَاؤُكُم فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ...)(٣).

﴿ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ ﴾

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ١٤٦ حديث ٥٦٥. والفرق: الشق والجانب، والسفار: المراد القوافل التجارية العائدة إلى مكة.

(٢) صحيح البخاري كِتَاب الرِّقَاقِ بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ (وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) حديث ٦١٤٠، وصحيح مسلم - كِتَاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ - بَاب قُرْبِ السَّاعَةِ حديث ٤٣ - (٨٦٧).

(٣) رواه البخاري في صحيحه بسنده عن سالم بن عبد الله، عن أبيه - صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب: من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب حديث: ٥٣٢.

ومع اقتراب الساعة وانجلاء الآيات فإن الكفار أعرضوا وعاندوا وزعموا أن هذه الآية الباهرة سحر مستمر، أي متتابع؛ لأن الآيات كانت كثيرة متتابعة، وقيل مستمر: مارٌّ ذاهب زائلٌ عن قريب.

وهذا هو ردُّ الكفار، الذي يتجدد ويتكرر كلما رأوا آيةً فهو ردٌّ مسبَقٌ، يصرفُهم عن التفكر والنظر بصدق وتجردٍ.

﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾

تلك معاذيرهم الواهية ومزاعمهم الباطلة، وما وقعوا في ذلك التكذيب ونسجوا تلك الأكاذيب إلا اتباعاً للأهواء.

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾: لكلِّ أمرٍ غايةٌ ولكلِّ عهدٍ نهايةٌ، ونهاية تكذيبهم قريبة وعاقبتهم وخيمة، وفي هذا تسليةٌ وتثبيتٌ للنبيِّ ﷺ وللمؤمنين.

وقيل:﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾: « أي يستقرُّ بكل عامل عمله، فالخير مستقر بأهله في الجنة، والشر مستقر بأهله في النار» [(١)].

وفي الكشاف: ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾: «أي كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقرّ عليها، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق، وسيظهر لهم عاقبته» [(٢)].

ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[الأنعام: ٦٦ – ٦٧]: أي كل نبأ وان طالت مدته، فلا بد أن ينتهي إلى غايته وتنكشف حقيقته من حق وباطل.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٢٨

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري المعتزلي ٤ / ٣٦



فالآيةُ تهديدٌ لهم بعاقبةِ ونهايةِ تكذيبهم وإعراضهم، كما يقال: لكلِّ ظالمٍ نهايةٌ، ونهايتُهم أليمةٌ وعاقبتهم وخيمةٌ.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ ﴾

وإلى جانب الآيات القاطعة والحجج الساطعة، فلقد جاءهم من العظات والعبر بأخبار من غبر، ما فيه مزدجر، ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ﴾: حكمة بالغة، بلغت الغايةُ في الترهيبِ والزجر والحكمة: تنزيل الشيء منزلته التي تليق به، وما في القرآن من آياتٍ ونُذُرٍ وقَصصٍ وعبرٍ إنما جاء لحكمةٍ بالغةٍ ومقاصدَ كريمةٍ،﴿ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ ولكن ماذا تغني الآيات والنُّذُرُ ! وهذه الآيات تمهيدٌ لما يليها من حديثِ عن المكذبين وعاقبتهم، فليس لهم حجةٌ ولا عذرٌ أمام الله تعالى؛ فالعبرُ جليةٌ والحجج قويةٌ.

إنذارٌ ووعيدٌ

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ﴾ [القمر: ٦ – ٨]

المناسبة

هذه الآيات من باب التفصيل بعد الإجمال، وفيها تسليةٌ للنبي ﷺ وتسريةٌ عن فؤاده الذي ضاق بتكذيبهم وإعراضهم، فمن لا يرعوي ولا يتعظ بغيره، ولا يصدق بالحجج الباهرة، فلينتظرْ مصيره المحتوم، يوم الوقت المعلوم:﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ ﴾:

أي: إلى أمر منكر فظيع، تنكره النفوس؛ لأنها لم تعهد مثلَه، وهو موقف الحشر وما فيه من الأهوال العظام والخطوب الجسام.

والداعي هو إسرافيل عليه السلام، وذلك حين ينفخ في الصور.

خشوع وخنوع

﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾

﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾: خشوع المذلة والهوان والحسرة والندامة، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأنها تفضحُ عن حال صاحبها وتُفْصِحُ عن المكنونِ، فيُرى أثرُ الذلِّ في العيون، كما يُرى أثره على الوجوه، وقد قيل: والصَّبُّ تفضحه عيونُه.

ومصدر هذا الخشوع أيضا الخوفُ والقلقُ مما ينتظرهم، قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ [النازعات: ٦ – ٩]، وقال تعالى ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الغاشية: ١ – ٢].

وقال تعالى ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المعارج: ٤٢ – ٤٤].

وفي الآية تصويرٌ لحال خروجهم من القبور التي طُمِرَتْ، وأبصارهم خاشعة من الذل والهوان والخزي والعار والخوف، وتمثيلٌ لانتشارهم وكثرتهم وتزاحمهم: بالجراد المنتشر.

ونظير هذا قوله تعالى﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ [القارعة: ٤ – ٥]، فتارة يسيرون بلا وجهة كالفراش، وتارة يسيرون بوجهة كالجراد المنتشر.

قال الألوسي: « وقيل: يكونون أولاً كالفراش حين يموجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون لأن الفراش لا جهة لها تقصدها، ثم كالجراد المنتشر إذا توجهوا إلى المحشر فهما تشبيهان باعتبار وقتين»[1].

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الألوسي ١٧ / ٨٠

﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ﴾: يسيرون مسرعين ملبين لدعوة الداعي، مادِّين أعناقهم، قد صوَّبُوا مسامعَهُمْ، وأشخصوا أبصارَهم نحو هذا الداعي، في مذلَّةٍ واستكانة.

﴿ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ﴾: يقول بعضُهم لبعضٍ هذا يومٌ عسرٌ، وهو عليهم كذلك لما يشاهدونه من مقدماتٍ وما يكابدونه من عقباتٍ وما يقاسونه من أهوال.

الهدايات المستنبطة

* الإيذان بقرب قيام الساعة، ووجوبِ الاستعداد لها.
* معجزة انشقاق القمر هي من المعجزات الحسية التي أيَّد الله تعالى بها نبيَّه، حيث انشقَّ نصفين، ثم عاد كما كان، وهناك قصةٌ عجيبة تشهد بذلك: هذه القصة حدثت لرجل إنجليزي اسمه داوود موسى بيتكوك وقد أسلم وحسن إسلامه وصار من الدعاة في بريطانيا، ففي رحلته للبحث عن الحقيقة أهداه صديقٌ له ترجمة لمعاني القرآن بالانجليزية فلما فتحها وجد سورة القمر فقرأ ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ ﴾

فقال: ما هذا الكلام العجيب ؟ هل ينشق القمر ! ثم انصرف عن القراءة وعزف عنها.

وبعدها بوقتٍ ضئيل وبينما هو جالس أمام التلفاز البريطاني ليشاهد برنامجاً، شاهد المذيع يحاور ثلاثة من العلماء الأمريكان وكان يعتب عليهم أن أمريكا تنفق الملايين بل المليارات في مشاريع غزو الفضاء في الوقت الذي يتضور فيه الملايين من الفقر فظل العلماء يبررون ذلك أنه أفاد كثيراً في بعض المجالات الزراعية والصناعية... الخ

ثم جاء ذكر أحد أكبر الرحلات تكلفة فقد كانت على سطح القمر وكلفت مليارات الدولارات فسألهم المذيع أمن أجل أن تضعوا علم أمريكا على سطح القمر تنفقون هذا المبلغ؟ رد العلماء: أنهم كانوا يدرسون التركيب الداخلي لهذا التابع لكي يروا مدى تشابهه مع الأرض ثم قال أحدهم: فوجئنا بأمر عجيب هو حزام من الصخور المتحولة يقطع القمر من سطحه إلى جوفه إلى سطحه فأعطينا هذه المعلومات إلى [الجيولوجيين] فتعجبوا

وقرروا أنه لا يمكن أن يحدث ذلك إلا أن يكون القمر قد انشق في يوم من الأيام ثم التحم، وأن تكون هذه الصخور المتحولة ناتجة من الاصطدام لحظة الالتحام.

يقول داوود موسى بيتكوك: قفزت من على المقعد وهتفت: معجزة حدثت لمحمد عليه الصلاة والسلام من أكثر من ١٤٠٠ سنة في قلب البادية يسخِّر الله الأمريكان لكي ينفقوا عليها مليارات الدولارات حتى يثبتوها للمسلمين ! لا بد أن هذا الدين حق، وكانت سورة القمر سببا لإسلامه [(١)].

* قرب الساعة يستدعي من الإنسان أن يتقرب من مولاه ويقبل على طاعته ورضاه، ويتزود من التقوى والعمل الصالح ما ينفعه في هذا اليوم العصيب.

* مع قرب القيامة وظهور عديدٍ من أشراطها ومع ظهور الآيات وكثرة النذر وتكرر المواعظ إلا أن الكفار معرضون مكذبون، ولأهوائهمُ الجامحةُ منقادون.

* من أسباب الهلاكِ: الكذب والإعراض واتباع الهوى والغفلة عن سنن الله وأقداره والتولي عن الآيات والنذر.

* لكلِّ أمرٍ مستقرٌّ، ولكلِّ فعلٍ عاقبتُه ونتيجتُه، فمهما طال الليل فلا بد من طلوع الفجر، وسيزولُ عهدُ الظالمين مهما طال.

* تصويرُ حالِهم وهم حفاةٌ عراةٌ إلا من ثوب المذلة والهوان وفي حالة الخنوع والخضوع والترقب والانسياق لهذا الداعي الذي يوجههم إلى ما ينتظرهم وهم مسرعون مُثقلون، يهمسُ بعضهم في أُذُنِ بعضٍ: هذا يومٌ عسر.

* في قوله تعالى ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ﴾: دلالة على يسر هذا اليوم على المؤمنين فهو يوم البشائرِ والأفراح، قال تعالى﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾

(١) ذكر هذه القصة الدكتور زغلول النجار في ندوةٍ له بإحدى جامعات بريطانيا، وسمعتها منه في ندوته بعنيزة - القصيم ١٤٢٦ هـ سنة ٢٠٠٦ م

فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الانشقاق: ٧ – ٩]، وقال تعالى﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقال جلَّ وعلا﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٤].

-٢-

عاقبة قوم نوح

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر: ٩ – ١٧].

المناسبة

هذه الآيات من باب التفصيل بعد الإجمال، إذ تذكِّر بعاقبة قوم نوح ونهاية تكذيبهم وإعراضهم، فهي تفصيلٌ لما أجمله قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ ﴾: «بدأت الآياتُ بقصة نوحٍ عليه السلام مع قومه؛ إذ هو أول الرُّسل، ومع ذلك كذَّب به قومه وأصرُّوا على

الكذب والضلال، واتهموه ﷺ بالجنونِ، وزجروه عن دعوته، بألوان الأذى وصنوف الكيدِ، فضيَّقوا عليه وطاردوه، ولا حقوه من مكانٍ إلى مكانٍ ليصرفوا الناس عنه، وسخروا منه، ولم يزدهم انجلاءُ الآياتِ، وانطواءُ السنواتِ، وتتابع النذر، إلا صدوداً وإعراضاً، وجحوداً وعنوداً.

جاء نوحٌ ﷺ قومَه وهم على التكذيب والضلال، فلما دعاهم إلى الله تعالى بالحجج الساطعات والآيات البينات، ما زداهم هذا إلا تكذيباً وإعراضاً.

وفي نهاية المطاف: يتوجه نوحٌ إلى ربِّه أن ينصره وينجِّيه قَالَ تَعَـالَىٰ: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ ﴾: لا حيلةَ ولا سلطان لي عليهم؛ فانتصر لدينك ولنبيِّك.

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾: حانت ساعةُ الانتقامِ وحلَّ العذابُ الذي لا مهربَ منه ولا محيص عنه، ماءٌ ينهمرُ من أبواب السماء المفتَّحةِ فينصبُّ عليهم انصبابا، ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾: صارت الأرضُ كلُّها عيونا تنفجرُ بالماء ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾: فالتقى ماء السماء وماء الأرض على ما قدره الله عز وجل من إهلاك قوم نوح بالطوفان العظيم الذي بلغ قمم الجبال.

﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾: حملنَا نُوحاً ومَنْ آمَنَ مَعَهُ في سَفِينَةٍ من الألواح الخشبية والمسامير الصلبة والحبال المتينة التي تشدُّها، صنعها نوحٌ ﷺ بأمر وتوجيه من الله تعالى، فَكَانَتِ السَّفِينَةُ تَجْرِي برعايةِ الرحمنِ وحفظهِ ولطفه، بينما المكذبون غارقون في سخط الله وغضبه وعقابه، لطفٌ ورفقٌ هنا وشِدةٌ وعذابٌ هناك !

﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾جزاء لنوح ﷺ الذي كُفِرَ به، حيث كفر قومه برسالته كفر اعتقادٍ، كما كفروا به كفر نعمةٍ لأنه نعمةٌ أهداها الله إليهم، فنجاه الله بإيمانه وصبره وثباته.

وقيل﴿ جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي لكفرهم بالله تعالى فإغراقهم انتقامٌ منهم لكفرهم بالله تعالى « قال ابن عباس ومجاهد: ﴿ لِّمَن ﴾ يُراد به الله تعالى، كأنه قال: غضباً وانتصاراً

لله تعالى، أي انتصر لنفسه، فأغرق الكافرين، وأنجى المؤمنين».[1] كما قال سبحانه في هلاك فرعون وقومه ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٥ - ٥٦].

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾: أي تركنا هذه القصة آية فهل من متعظٍ ؟ وقيل تركنا السفينةَ آيةً وفي هذا إشارةٌ إلى بقائها، لتكون عبرةً لمن يعتبر ؟ والله أعلم بمكانها.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾: استفهامٌ تقريريٌّ للتنويه بقدر ذلك العذاب وعظمة تلك النذر.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾: يسَّر الله تعالى تلاوته وحفظه وفهمه، كما يسر العمل به والدعوة إليه، فكل من أقبل عليه بصدقٍ وعزم يسَّر الله أمره، وسهَّل عليه مطلوبَهُ، وهذا التيسيرُ إنما هو بهدفِ الذكرِ والاعتبارِ، ولا يتمُّ هذا إلا بتدبرٍ، ولذا قال تعالى ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

الهدايات المستنبطة

تأمَّل قولَه تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ ولم يقل «فجرنا عيون الأرض»، كأن الأرض كلها صارت عيوناً متفجرة، حتى التنور الذي تُضْرَمُ فيه النارُ ويتصاعدُ منه الدخان أضحى يفورُ بالماء، كما قال الله عز وجل ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود: ٤٠]، وفي هذا من الدلالة على قدرة الله تبارك وتعالى ما لا يخفى.

* الحكمة من تكرير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾.

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ١٧٩.

«هي أن يجدّدوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأوّلين ادكاراً واتعاظاً، وأن يستأنفوا تنبهاً واستيقاظاً، إذا سمعوا الحثَّ على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشنَّ تارات؛ لئلا يغلبهم السهو ولا تستولي عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكرير عند كل نعمة عدَّها في سورة الرحمن وقوله: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾، عند كل آية أوردها في سورة المرسلات وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب. مصورة للأذهان مذكورة غير منسية في كل أوان»[(١)].

* عاقبة المكذبين وهي العذاب في الدنيا مع ما ينتظرهم من عذاب الآخرة.

* عاقبة المؤمنين، وهي الصلاح والفلاح في الدارين، والنجاة من المكائد والمحن والنصر على الأعداء، والتمكين في الأرض، قال صاحب لطائف الإشارات « ثم إن الله – سبحانه – لما نَجّى نوحاً متَّعه بعد هلاك قومه ومتع أولادَه، فكلُّ مَنْ على وجه الأرض من أولا د نوح عليه السلام، وفي هذا قوةٌ لرجاء أهل الدين، وإذا لقوا في دين الله محنةً؛ فإنَّ الله يُهلِكُ – عن قريب– عَدوَّهم، ويُمكِّنُهم من ديارهم وبلادهم، ويورثهم ما كان إليهم، وكذلك كانت قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، وسنةُ اللَّهِ في جميع أهل الضلال أن يُعِزَّ أولياءَه بعد أن يزهق أعداءَه»[(٢)].

* من تيسير الله تعالى كتابه للادكار والاعتبار أن صرَّفه هذا التصريفَ العجيبَ وجعله بهذا الأسلوب الفريد الذي لا مثيل له لا في الكتب السابقة ولا في كلام البشر، لأنه كتاب ذكر وموعظة قال تعالى﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: ١١٣]، وقال سبحانه﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النور: ٣٤].

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤ / ٤٠.
(٢) لطائف الإشارات للقشيري ٧ / ٣٣٠.



-٣-

عاقبة عاد

قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القمر: ١٨ - ٢٢].

المناسبة

بعد الحديث عن عاقبة المكذبين من قوم نوح عليه السلام يأتي الحديثُ عن عاد، الذين كذبوا نبي الله هود عليه السلام وبيان عاقبة تكذيبهم.

التفسير الإجمالي

قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾

فانظر كيف كان عاقبة تكذيبهم وجحودهم؛ حيث أرسل الله تعالى عليهم ريحا عاتية باردة في يوم عصيبٍ رهيبٍ في يوم نحس مستمر عليهم، انتقلوا فيه من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة فهو نحس متواصل، فكانت الريح تنزع الناس مع تشبثهم ولجوئهم لديارهم الحصينة فتقذف بهم رأسا على عقب.

قال مجاهد: يُلْقَى الرَّجلُ على رأسِهِ، فتفتت رأسه وعنقه وما يلي ذلك من بدنه. وقيل: كانوا يصطفون آخذي بعضهم بأيدي بعض، ويدخلون في الشعاب، ويحفرون الحفر فيندسون فيها، فتنزعهم وتدق رقابهم[1].

والأعجاز: الأصول بلا فروع قد انقلعت من مغارسها. وقيل: كانت الريح تقطع

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٨/ ١٧٩.

رؤوسَهم، فتبقى أجساداً بلا رؤوس، تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيِّبه عن الأبصار، ثم تنكِّسه على أمِّ رأسه، فيسقط على الأرض جثةً بلا رأسٍ، فأشبهت أعجاز النخل التي انقلعت من مغارسها.(١)

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾: كيف كان عاقبة التكذيب والإعراض ؟ وهذا الاستفهام كما أسلفنا تقريريٌّ وفيه لفتُ الأنظار إلى شدَّة هذا العذاب الذي جعله الله نذيراً وعبراً، ثم ذكر تعالى بنعمة تيسيره الكتاب للذكر والاعتبار فيسَّر تلاوته وفهمه للناس جميعاً، على تفاوت علمهم ومداركهم، فضلا عن تفسير النبي ﷺ وتفسير الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم من العلماء الراسخين.

الهدايات المستنبطة

* سُنَنُ اللهِ تعالى لا تتبدَّلُ ولا تتحوَّلُ، فهي سننٌ ثابتةٌ مطَّرِدَةٌ، من ذلك سنة إهلاك المكذبين مهما طال بهم الزمان.
* الريحُ جندٌ من جنود الله يُرسِلُها بالخيرات والمبشرات، كما تُرسَلُ بالعذابِ والدمارِ.
* التحذير من عقاب الله تعالى وغضبه وشدة بأسه وتنكيله بالظلمةِ والفسقة، قال تعالى ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾ [النساء: ٨٤] وقال تعالى﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [البروج: ١٢].
* رحمةُ الله بأوليائه ونُصرتِه لهم، مهما طال ليلُ الظُّلمِ، وتمادى الظالمون.

(١) يراجع: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ٤٧٩.

-٤-

عاقبة ثمود

قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾
أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ
ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ
فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القمر: ٢٣ - ٣٢].

المناسبة

بعد الحديث عن تكذيب عادٍ وعاقبتهم، يأتي الحديثُ عن عاقبة ثمودٍ، وهذا إنذارٌ للمكذبين ووعيدٌ لهم.

التفسير الإجمالي

لم تعتبر ثمود من قوم عاد، كما لم تعتبر عادٌ من قوم نوح، بل كذبوا جميعا مع كثرةِ النُّذُر وتجلِّي العبر، ومن العجيب أنهم تعللوا بهذا الاعتراضِ الغريبِ ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؟ سخروا من نبيِّهم وازدروه، وقلبوا الحقائق؛ فزعموا أن اتباعهم له سلوكٌ لطريق الضلال والعذاب، وقد كَذَبوا في زعمهم، فكان اعتراضهم على أنه بشرٌ وعلى كونه واحداً، وعلى أنه منهم، فاعتبروا اتباعه ضرباً من الضلال والخسران! فأيُّ ضلالٍ أشدُّ مما هم عليه؛ رضوا بالإله أن يكون حجراً أو شجراً! واعترضوا على كون النبيِّ بشراً! إنه الكبرُ والاغترار والعُجبُ والحسد وغيرُ ذلك من أمراضِ النفوس، مع غفلتهم وجهلهم بسنن الله وأقداره وحِكَمِه وشؤونه في خلقه، فالفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ويختص برحمته من يشاء ويصطفي بحملِ رسالته من يشاء.

ثم عبَّر قومُ صالحٍ عن خبث طويتهم، وأعربوا عما يختلج في صدورهم ويدبُّ في قلوبهم

من كِبْرٍ وحَسَد، فقالوا معترضين على اختيار الله تعالى واصطفائه ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾، أي: كيف خصّه الله من بيننا بالوحي والنبوّة، وفينا من هو أحقّ بذلك منه ؟

ونظير هذا قول كفار قريش﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[الزخرف: ٣١ – ٣٢].

ثم عادوا إلى إلصاق التُّهم بصالح ﷺ فاتهموه بالكذب ورمَوهُ بحُبِّ الظهور والشهرة والاستعلاء والسيطرة عليهم ﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وهم في الحقيقة كاذبون متكبِّرون، حسدوا نبيَّهم على هذه المنزلة، فكان لا بدَّ من كشف خباياهم وفضح نواياهم كما أخبر تعالى بقوله ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

آيةٌ ونهايةٌ

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾.

وحتى لا تبقى لهم حجةٌ أرسل الله لهم آيةً واضحةً جليةً وهي الناقةُ فتنةً لهم وحجةً عليهم وتلبيةً لإلحاحهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[الشعراء: ١٥٣ – ١٥٨].

وقال سبحانه ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾[هود: ٦٤ – ٦٥].

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ أي: ابتلاء وامتحاناً، ﴿ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾ أي: انتظر ما يصنعون، واصطبر على ما يصيبك من أذاهم، وعبر باصطبر لأن الخطب قد اشتد فصار الأمرُ يحتاجُ إلى مزيدٍ من الصبرِ في هذه المرحلةِ الأخيرةِ الحاسمة ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾، لها يوم ولهم يوم، كما في قوله: ﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ لكلٍّ قدرٌ ونوبةٌ يحضرُها، فالناقة تحضره يوماً، وهم يحضرونه يوماً فإذا كان يوم نوبتهم حلبوها فانتفع الجميع بلبنها.

﴿ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ تآمر المجرمون على عقر الناقةِ وحرَّضوا على ذلك أشقاهم، وأعانوه على هذه الجريمة المنكرة ﴿ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ والتعاطي: تناول الشيء بتكلف والمعنى: تناول الناقة بالعقر فعقرها، أو اجترأ على تعاطي أسباب العقر فعقر.

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ ﴾ تنبيهٌ ولفتٌ إلى عذابه الذي حلَّ بهم: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ صاح جبريل بهم صيحةً شديدةً، ﴿ فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ والهشيم: حطام الشجر ويابسه، والمحتظر: صاحب الحظيرة، وهو الذي يتخذ لغنمه حظيرة تمنعها عن برد الرِّيح، يقال: احتظر على غنمه: إذا جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض، أو كهشيم الحظيرة ومعنى الآية: أنهم صاروا كالشجر إذا يبس في الحظيرة، وداسته الغنم بعد سقوطه، وقال سعيد بن جبير: هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح.(١)

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ تذكيرٌ بهذه النعمةِ العظيمة، نعمة تيسير القرآن، للتلاوة والتدبر والعظة والاعتبار.

الهدايات المستنبطة

* ديدنُ أهل الكفر والضلال: الاعتراضُ على دعاة الحق وغمزهم وتشويه صورتهم، دون

---

(١) يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٤٢، وفتح القدير للشوكاني ٥/ ١٨٠.

أن يكلفوا أنفسهم عناء النظر في دعوة الحق، مع صدودهم عن الآيات وعدائهم لها.

* صبر الأنبياء عليهم السلام وثباتهم على الحق وامتثالهم لأوامر ربهم واطمئنانهم ورضاهم بأقداره تعالى.

* من أسباب الصدود عن الحق: الغرور والعجب والكبر والأثرة وحب الظهور والتعالي على الآخرين.

* انقلاب موازين الكفرة والطغاة: فالهدايةُ عندهم ضلال، واتباع الرسل في نظرهم جحيمٌ ووبالٌ.

* تعلُّقُ أهل الكفر والضلال بالشبه الواهية والحجج الداحضة، وتعلُّلُهم بالأعذارِ المتناقضةِ.

* أعداء الحق لا يراعون لله حرمة ولا يحفظون عهداً ولا ذمة، شأن ثمود الذين علَّقوا إيمانهم بآية فلما جاءتهم كفروا بها وعقروها، فدلَّ على ما في صدورهم من غلٍّ وحقدٍ على الآيات والنذر.

* أصحابُ النوايا الخبيثة والنفوس المريضة لا بد وأن يبتليهم الله تعالى ليكشف طويتهم ويهتك أسرارهم، ويخرج أضغانهم، ويفضحَ خباياهم، كما فعل الله بقوم ثمود إذ كشف الله تعالى كذبهم وأشرهم حين ابتلاهم بالناقة قال تعالى﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾ وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾[سورة محمد: ٢٩].

-٥-

عاقبة قوم لوط

قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾القمر: ٣٣ - ٤٠

المناسبة

كما كذبت ثمود كذَّب قوم لوطٍ فكانت النهاية واحدة وإن اختلفت تفاصيلُها.

التفسير الإجمالي

لا يزالُ السياقُ حولَ مصيرِ المكذبينَ من الأممِ الغابرةِ، وتقفُ بنا الآياتُ عند عاقبةِ قومِ لوطٍ الذين اقترفوا كثيرا من الجرائم والموبقات معٍ كفرهم وإعراضهم، كذَّبوا بنبيِّ الله لوطٍ عليه السلام وصدوا عن دعوته وجاهروا بالمعاصي مستحلين لها، واجتمعت كلمتُهم على إخراج لوطٍ وبناتِه لأنهم متطهرون، وكأن التطهرَ جُرْمٌ يعاقَبُ صاحبُهُ بالطردِ والإبعادِ، ولا عجبَ فهذا منطقُ أهلِ الكفرِ والضلالِ في كل زمان.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ ﴾: «والحصباء بالمد الحصى، والحاصب الريح الشديد تثير الحصباء»[(١)].

فعذَّب الله قوم لوط بأنواع شتى من العذاب، طُمِسَتْ أعينُهم، وقُلِبَتْ قُراهم، وأُمطروا بحجارة من سجيل منضود، كما أُخذوا بالصيحة المخيفة المرعبة التي تدوي في الآذان فيهتز

(١) مختار الصحاح للإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ص ١٣٩ ٠ مادة ح ص ب، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٧ / ١٤٣، والبحر المحيط لأبي حيان ٨/ ١٨١، وروح المعاني للألوسي ٢٧/ ٩٠.

منها الكيان، ويشيب من هولها الولدان.

قال تعالى﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ ﴾ « قال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه في الدار وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب وهم يعالجون تسوُّر الجدران، أو كسر الباب أو دفعه بالقوة، فلما رأت الملائكة ما لقي من الجهد والكرب والنصَب بسببهم، قالوا: يا لوط إن ركنك لشديد، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود، وإنا رسل ربك، فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه... وقيل أخذ جبريل قبضة من تراب فأذراها في وجوههم، وقال الضحاك: طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا ؟ فرجعوا ولم يروهم»(١).

وعن قلب قراهم بجعل عاليها سافلها يقول جل جلاله ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨٢ – ٨٣].

و نحوُ هذا قول الله عز وجل ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النجم: ٥٣ –٥٤].

والمؤتفكة هي: قرى قوم لوط، سدوم وما حولها: وسميت بالمؤتفكة لأنها انقلبت رأساً على عقب، والإفك هو صرف الشيء عن وجهه.

قال الحافظ ابن حجر: «أهلكهم الله عز وجل على يد جبريل فقلب مدائنهم بعد أن خرج عنهم لوط بأهل بيته إلا امرأته فإنها تأخرت مع قومها، أو خرجت مع لوط فأدركها العذاب

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/ ٧٨، ٨٠ بتصرف، ويراجع قصص الأنبياء لابن كثير ص ١٩٦، ١٩٧.



فقلب جبريل المدائن بطرف جناحه، فصار عاليها سافلها...»[(١)].

و الصحيح هو ما صرح به القرآن من أنها خرجت مع لوط وبناته ثم التفتت في الطريق فهلكت قال تعالى في سورة هود ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود: ٨١] فالاستثناء هنا من الالتفات والهلاك، لا من الخروج.

والسجيل: هو الحجارة الصلبة، والسجيل عند العرب كل شديد صلب.

والمنضود: هو المتواصل المتتابع كطلقات المدافع، قد أعد لعذابهم، والمسومة: هي مالها علامة مميزة، وقيل مكتوب على كل حجر اسم من يرمى به، فهي مصَوَّبةٌ موجَّهةٌ بدقةٍ متناهية.

الهدايات المستنبطة

* كما يعاقب الكافر على جميع جرائمه، وفي مقدمتها الكفر وهو أكبر الذنوب، فإنه يعاقب على سائر الذنوب كبيرها وصغيرها.
* **التناسب بين الجريمة والعقاب؛** فقوم لوط كانوا يقذفون عابري السبيل بالحجارة فأيُّهم أصابه استأثر به واعتدى عليه، وقد انقلبوا وتمردوا على الفطرة السليمة والطبيعة المستقيمة فصار الشذوذُ عندهم معروفاً ومألوفاً وصارت الفاحشةُ عندهم حقًّا مشروعاً، وصار الطهرُ والعفافُ جريمةً يؤاخذُ بها أصحابُها، فكان الجزاءُ من جنس العمل، قلَبَ اللهُ قُرَاهُم فجعل عاليَها سافلَها، وأمطر عليهم حجارة من جهنم، وسلَّط عليهم الريحَ ترجُمُهم بالحجارة، وأخذتهم الصيحةُ وغير ذلك من ألوان العذاب التي كثرت لكثرة جرائمهم.

---

(١) فتح الباري لابن حجر ٦/ ٤٧٨ .

* وصف الله لوطا ومن آمن به من أهل بيته بالشكر، قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾ وقد يتساءلُ البعض ويقول: أيُّ شكرٍ وقد ابتلوا بأرذلِ قوم، قوم لوطٍ الذينَ جمعوا بين الكفر والفسوق والعصيان والانحلال والتبجح والدناءة وسائر ما يُعدُّ من مساوئ الأخلاق؟ لكن أقول: إن أمر المؤمن كلَّه خير فهو بين الصبر والشكر، يحمد الله تعالى على الضراء، كما يحمده على السراء، يشكره تعالى في زمان الفتن وأوقات المحن كما يشكره في سائر الأوقات، يستنشقُ نسيم النعم ويتذوق حلاوة الهداية ويعتزُّ بالحق ويستعصم بالعفاف والطهر، سيَّما إذا رأى المجتمع من حوله يتردَّى في ظلمات الكفر، أو يتمرغ في أوحال الرذيلة، أو يكتوي بلهيبِ المعاصي، ويتقلب على جمرِها الحارّ، فيحمد الله تعالى على أن هداه وعصمه وطهَّره ونجَّاه من حمأة الرذيلة، فيشعرُ بجنة الرضا وبرد اليقين وحلاوة الإيمان، ولذة الطاعات.

* هلاك الظالمين ونجاة المتقين نعمة من الله تعالى تستوجب الشكر.

-٦-

عاقبة المكذبين من آل فرعون

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ القمر: ٤١ – ٤٢

المناسبة

ما زال الحديث حول مواقف الكفار من الآيات والنذر حيث الجحود والإعراض والتمرُّد والعنادُ، والغفلة عن عاقبة من سبقهم إلى الهلاك والخسران.

التفسير الإجمالي

كذب آلُ فرعون كما كذَّب من سبقهم وكفروا بأنعم الله وجحدوا آياته فأخذهم الله تعالى أخذة شديدة عاتية، وجعل منهم عبرةً لكلِّ معتبر: قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠١ - ١٠٣].

من هذه الآيات التي أيد الله بها موسى عليه السلام وكذب بها فرعون وآله: إخراج موسى عليه السلام يدَه بيضاء للناظرين، ومنها إلقاؤه عصاه فإذا هي ثُعبان مبين، ومنها أَخْذُ آلِ فِرعون بالسِّنِينَ وهو الجَدْب والقحط، ومنها إرسال الطُّوفان والجَراد والقُمَّل والضَّفادعَ والدَّمَ.

الهدايات المستنبطة

* عاقبةُ الكفرِ ونهايةُ التكذيب واحدةٌ، وهي الهلاك والدمار، وإن اختلفت الطُرُقُ وتنوعت الخواتيم، كما قال تعالى﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].
* الاعتبار والادِّكار من عاقبة المكذبين، وسنن الله في الأولين مهما طال بهم العهدُ.

-٧-

تعقيب وختام

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٣ - ٥٥].

المناسبة

جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ معقِّبةً على ما سبق من نُذُرٍ بمصيرِ المكذبينَ: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، وأن الإنذار بهم موجَّهٌ لكلِّ مكذِّب، وعاقبة المكذبين ومصيرهم واحد، وإن اختلفت العقوبةُ.

التفسير الإجمالي

مصيرُ المكذبينَ واحدٌ

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾.

المناسبة

بعد الحديث عن مصير من سبق من المكذبين بالآيات والنذر، يلتفت السياق إلى المكذبين بدعوة النبي ﷺ من كفار قريش وسائر من كفر بدعوة الإسلام، ليقرر وحدةَ مصيرِ المكذبين جميعاً، ونظير هذه الآيات قوله تعالى﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ

إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الدخان: ٣٤ - ٣٧].

التفسير الإجمالي

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾: أيظنُّ كفارُ قريشٍ أنهم في منأى عن هذه العقوبات الإلهية، فهل هم خيرٌ من هذه الأمم الهالكة ؟ أم أن براءتهم ثابتةٌ في علم الله مسجَّلةٌ في اللوح المحفوظ ؟ أو في الكتب المنزلة على الأنبياء ؟ أم أن حشدَهم واجتماع كلمتهم سوف تنصرُهم، احتمالاتٌ ثلاثٌ، أولها مبنيٌّ على عُجب الإنسان بنفسه وكأنها فوق المحاسبةِ والمساءلة، والثاني مبنيٌّ على اغتراره بحاله ورضاهُ واطمئنانه لكفره وكأنه قد ضمن النجاة ؟ والثالثة اغتراره بالقوة واجتماع الكلمة ؟ وكأنها تعصمُهُ من قدر الله ! وكلُّها احتمالاتٌ باطلةٌ واهيةٌ.

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾: وعيدٌ شديدٌ بهزيمةٍ عاجلةٍ لحشودِ الكفر وجموعه وفرارهم أمام جندِ الحقِّ، وقد تحقق هذا في غزوة بدرٍ، فَقُتِلَ صناديدُ الكفرِ وأساطينُ الضلال وتفرَّقَ جمعهم ولاذ من نجا منهم بالفرارِ.

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾: وعيدٌ لهم بما يتنظرهم يوم القيامة من الويل والثبور وعظائم الأمور التي لا مفرَّ منها، والداهية الأمر الفظيع، الذي لا سبيل للخلاص منه.

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾: إبانةٌ وإفصاحٌ عن مصيرهم في الآخرة، حيرةٌ وذهولٌ، ونارٌ تضرمُ بهم، كما كانوا في الدنيا في حيرة الضلال وجحيم الكفر، ولأنهم زعموا أن إتباع الرسل سيدفعهم إلى الضلال ويحوِّل حياتهم إلى جحيم، كما أخبر القرآنُ عن ثمود ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

وكما قال كفار قريش للنبي ﷺ: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا

يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص: ٥٧].

﴿ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾: وهذا من أشد أنواع العذاب الحسيِّ والمعنوي، حيث تمرَّغُ الوجوه وترغمُ الأنوف في قعر نار جهنم، ويقال لهم توبيخاً وتبكيتاً ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾.

الهدايات المستنبطة

* سنن الله تعالى ثابتة لا تتبدل ولا تتحول ومصير المكذبين واحدٌ لا محيص عنه.
* لن تغني عن المشركين قوتهم، ولن تعصمهم وحدتهم من عذاب الله الذي يحيق بهم.
* عذاب الآخرة: أدهى وأمر وأخزى وأكبر من عذاب الدنيا.

ختام السورة

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر: ٤٩ - ٥٥].

المناسبة

تأتي هذه الآيات في ختام السورة الكريمة لتقرر ما تقدم من بيان سنن الله تعالى الثابتة وأقداره النافذة، ومنها ما قدره تعالى من إهلاك المكذبين بعد إقامة الحجج عليهم وإمهالهم وفي هذا دعوةٌ للاعتبار بحال من سبق، والزجر عن المعاصي فهي مكتوبةٌ صغيرُها وكبيرُها، ثم مسك الختام مع عاقبة المتقين.

التفسير الإجمالي

كلُّ ما في هذا الكون من تصريف وأقدار إنما هو بتقدير وتدبير من رب العالمين، وأقداره

تعالى نافذة وأوامره عاجلةٌ فهي أسرع من لمح البصر، فهل من مُعْتَبِرٍ بمصيرِ الهالكينَ ؟ الذين أحصى الله تعالى عليهم أعمالهم، وعدَّ عليهم كلَّ صغيرٍ وكبيرٍ.

ثم التفت السياق إلى مسك الختام وهو مصير المتقين في الآخرة بعد الإشارة إلى نجاتهم ونُصرتهم في الدنيا، قال تعالى﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ ﴾: جنات كثيرةٍ، وسعةٍ وضياء وأنهار جارية مطردة، أنهار الماء والخمر والعسل واللبن.

﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

منازل الصادقين ومجالسهم وما أطيبَها﴿ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾: «في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، عِنْدَ المَلِيكِ المُقْتَدِرِ: أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلِّها ومقدِّرِها، وهو مقتدرٌ على ما يشاءُ مما يطلبونَ ويريدونَ»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لأن القربة من الملوك لذيذة كلما كان الملك أشد اقتداراً كان المتقرب منه أشد التذاذاً « وفيه إشارة إلى مخالفة معنى القرب منه من معنى القرب من الملوك، فإن الملوك يقربون من يكون ممن يحبونه وممن يرهبونه، مخافة أن يعصوا عليه وينحازوا إلى عدوه فيغلبونه، والله تعالى قال: ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لا يقرب أحداً إلا بفضله»[(٢)].

وهو أحلى جوار وأطيب مقام بجوار الرحمن، وقد قيل الجارُ قبل الدارِ، فنعم الدار ونعم الجوار:

إني لأحْسُد جارَكم لجواركم	طُوبى لِمَن أضحى لدارِكَ جاراً
يا ليت جارَك باعني من دارِهِ	شِبْراً لأُعْطِيهِ بِشِبْرٍ داراً

الهدايات المستنبطة

* الذي عليه أهل السنة أن الله سبحانه قدر الأشياء، أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/ ٨١، ٨٢ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٧ / ٤٨٧.

قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته.[(١)] والآياتُ ردٌّ على القدرية في كفرهم بالقدر، فكلُّ شيء بتقدير الله تعالى، والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان كما في حديث جبريل وفيه قال ﷺ للنبي ﷺ (... فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ قَالَ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ صَدَقْتَ)[(٢)].

وعَنْ نَافِعٍ قَالَ كَانَ لِابْنِ عُمَرَ ﷺ صَدِيقٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ يُكَاتِبُهُ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَكَلَّمْتَ فِي شَيْءٍ مِنْ الْقَدَرِ فَإِيَّاكَ أَنْ تَكْتُبَ إِلَيَّ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِنَّهُ (سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ)[(٣)].

* لهذا الكون نظامٌ دقيقٌ وتدبيرٌ حكيمٌ، فكل شيء فيه بتقدير الله تعالى وتصريفه وتدبيره

* التوازن الدقيق في هذا الكون فكل شيء خلقه تعالى بتقدير محكم وحساب دقيق، قال تعالى﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾[الرعد: ٨].

* ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ ﴾[الحجر: ١٩ - ٢١].

* هلاك المكذبين إنما هو بتقدير وتدبيرٍ من الله.

* التحذير من الذنوب صغيرها وكبيرها فهي مسطَّرةٌ معدودةٌ على مقارفِها: فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ

---

(١) التفسير الكبير للرازي ١٥ / ٤٧

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٤٨.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٩٠) رقم (٥٦٣٩)، والحاكم (١/ ١٥٨) رقم (٢٨٥) وقال: صحيح على شرط مسلم.

بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ»، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا: « كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا فَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا» (١).

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاكَ التُّقى
واصنعْ كماشٍ فوقَ أرْضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ ما يرَى
لا تحقِرَنَّ صغيرةً إنَّ الجبالَ مِنَ الحَصى

*****

لا تحِقرَنَّ من الذنوبِ صغيرا إن الصغير غداً يعودُ كبيرا
إنّ الصغير وإن تقادم عهدُه عند الإله مسطّرٌ تسطيرا
فازجُرْ هواك عن البطالة لا تكنْ صعبَ القيادِ وشمِّرنْ تشميرا
إنّ المحبَّ إذا أحبَّ إلههُ طار الفؤادُ وأُلهم التفكيرا
فاسأل هدايتك الإله بنيّةٍ فكفى بربّك هادياً ونصيرا

* رفعة مكانة وعلو منزلة المتقين الصادقين فهم في مقعد صدق درجة لا يصل إليها إلا الصادقون، ومجتمع لا يضمُّ غير الصادقين، ومنزلٍ طيبٍ يتسم بالصدق، والصدق من أصول الأخلاق وأعظم القربات وأسنى المقامات، الصدق مع الله ومع الناس ومع النفس. اللهم اجعلنا من الصادقين.

(١) سنن أبي داود كِتَاب السُّنَّةِ - بَاب لُزُومِ السُّنَّةِ حديث ٤٦١٣، ومسند أحمد ٢/ ٩٠ حديث ٥٦٣٩، والإبانة الكبرى لابن بطة ٣/ ٤٠٣ حديث ١٣٦٣

سورة الرحمن

أولا: بين يدي السورة

أ. اسم السورة:

سميت هذه السورة بسورة الرحمن حيثُ استهلت بهذا الاسم الجليلِ، كما ظهرتْ في جميع آياتِها آثارُ الرحمةِ وظلالُها.

ب. فضائل السورة.

عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الرَّحْمَنِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، فَسَكَتُوا، فَقَالَ: (لَقَدْ قَرَأْتُهَا عَلَى الْجِنِّ لَيْلَةَ الْجِنِّ فَكَانُوا أَحْسَنَ مَرْدُوداً مِنْكُمْ؛ كُنْتُ كُلَّمَا أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾: قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ، فَلَكَ الْحَمْدُ).[1]

وعن ابن عمرﷺ قال: إن رسول الله ﷺ قرأ سُورَةَ الرَّحْمَنِ، أو قُرِئَتْ عِنْدَهُ، فقال (ما لِيَ أَسْمَعُ الجِنَّ أَحْسَنَ جَوَابا لِرَبِّها مِنْكُمْ) ؟ قالوا: ماذا يا رسولَ الله ؟ قال: (ما أَتَيْتُ على قَوْلِ اللهِ:﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ؟ إلا قالت الجِنُّ: لا بِشَيْءٍ مِنْ نِعْمَةِ رَبِّنا نُكَذِّبُ).[2]

---

(١) حديث حسن: رواه الترمذي في السنن كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - بَاب وَمِنْ سُورَةِ الرحمن - حديث ٣٢١٣، ورواه الحاكم في المستدرك كتاب التفسير باب سورة الرحمن ٢/ ٤٧٣، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في شعب الإيمان باب في تعظيم القرآن، فصل في فضائل السور والآيات ٢/ ٤٨٩ حديث ٢٤٩٣، وفي دلائل النبوة باب ذكر إسلام الجن وما ظهر في ذلك من آيات... ٢/ ٢٣٢.

(٢) حديث حسن: رواه البزار في مسنده كما في كشف الأستار - كتاب التفسير باب سورة الرحمن ٣/ ٧٤ حديث ٢٢٦٩، والخطيب في تاريخ بغداد ٤/ ٣٠١، وابن جرير في جامع البيان ٢٢/ ٢٣ ولهذا الحديث شاهد من الحديث السابق، وأورده السيوطي في الدر المنثور في تفسير سورة الرحمن ٦/ ١٥٥ وقال أخرجه البزار وابن جرير وابن المنذر والدارقطني في الأفراد وابن مردويه والخطيب في تاريخه بسند=

ج. مكية السورة.

هذه السورة مكيةٌ كلُّها، في قول الجمهور كما ذكر القرطبيُّ، ويشهدُ لذلك ما ورد من جهر ابن مسعودٍ بها أمام الكعبة، فعن عُروةَ بن الزُّبَير ﷺ قال: كَانَ أَوّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِمَكّةَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ اجْتَمَعَ يَوْماً أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: وَاللّهِ مَا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ هَذَا الْقُرْآنَ يُجْهَرُ لَهَا بِهِ قَطّ، فَمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمْ ! فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: أَنَا؛ قَالُوا: إِنّا نَخْشَاهُمْ عَلَيْك، إِنّمَا نُرِيدُ رَجُلاً لَهُ عَشِيرَةٌ يَمْنَعُونَهُ مِنْ الْقَوْمِ إِنْ أَرَادُوهُ، قَالَ دَعُونِي فَإِنّ اللّهَ سَيَمْنَعُنِي، قَالَ فَغَدَا ابْنُ مَسْعُودٍ حَتّى أَتَى الْمَقَامَ فِي الضّحَى، وَقُرَيْشٌ فِي أَنْدِيَتِهَا، حَتّى قَامَ عِنْدَ الْمَقَامِ ثُمّ قَرَأَ « بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ» رَافِعاً بِهَا صَوْتَه﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ ﴾ قَالَ ثُمّ اسْتَقْبَلَهَا يَقْرَؤُهَا، قَالَ فَتَأَمّلُوهُ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ مَاذَا قَالَ ؟ قَالَ ثُمّ قَالُوا: إنّهُ لَيَتْلُو بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمّدٌ، فَقَامُوا إلَيْهِ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ فِي وَجْهِهِ، وَجَعَلَ يَقْرَأُ حَتّى بَلَغَ مِنْهَا مَا شَاءَ اللّهُ أَنّ يَبْلُغَ، ثُمّ انْصَرَفَ إلَى أَصْحَابِهِ وَقَدْ أَثّرُوا فِي وَجْهِهِ فَقَالُوا لَهُ هَذَا الّذِي خَشِينَا عَلَيْك ! فَقَالَ مَا كَانَ أَعْدَاءُ اللّهِ أَهْوَنَ عَلَيّ مِنْهُمْ الْآنَ وَلَئِنْ شِئْتُمْ لَأُغَادِيَنّهُمْ بِمِثْلِهَا غَداً؛ قَالُوا: لَا، حَسْبُك، قَدْ أَسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ».(1)

د. عدد آيات السورة.

عدد آيِها سبعونَ وستٌّ: بصريٌّ، وسبعٌ مدنيان ومكي، وثمانٍ كوفيٌّ وشاميٌّ، اختلافها خمس آيات:

=صحيح، وأروده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال رواه البزار عن شيخه عمرو بن مالك الراسبي، وثَّقه ابن حبان وضعَّفه غيرُه وبقية رجاله رجال الصحيح». مجمع الزوائد كتاب التفسير باب تفسير سورة الرحمن ٧/ ١١٧.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧ / ١٥١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧ / ٤٨٨، ومعالم التنزيل للبغوي ٧ / ٤٣٨ سيرة ابن هشام ١ / ٣١٤ فصل [أَوّلُ مَنْ جَهَرَ بِالْقُرْآنِ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَمَا نَالَهُ مِنْ قُرَيْشٍ فِي سَبِيلِ جَهْرِهِ بِالْقُرْآنِ].

١ - ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ ﴾ عَدَّهَا الكوفيُّ والشاميُّ، ولم يَعُدَّهَا الباقون آية.

٢ - ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ ﴾ لم يَعُدَّهَا المدنيان وعَدَّهَا الباقون.

٣ - ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ ﴾ لم يَعُدَّهَا المكي وعَدَّهَا الباقون.

٤ - ﴿ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ [آية ٣٥] عَدَّهَا المدنيان والمكي، ولم يَعُدَّهَا الباقون.

٥ - ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٤٣ ﴾: لم يَعُدَّهَا البصريُّ، وعَدَّهَا الباقون.[1]

هـ. محور السورة.

تدور هذه السورة الكريمة حول بيان نعم الله تعالى في الدنيا والآخرة، والحث على شكرها، والتحذير من تكذيبها، أو الغفلة عنها.

و. المناسبات.

المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

اسم السورة الكريمة هي: سورة الرحمن، ومناسبتها لمحورها واضحةٌ جليةٌ فهذه النعم التي بيَّنتها السورة هي فضلٌ وعطاءٌ مِنَ الرَّحمنِ جلَّ وعلا.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

* في مطلع السورةِ الكريمةِ تمجيدٌ لله تعالى وتعظيمٌ له حيث استُهِلَّت باسمه «الرحمن»، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ ﴾ [الرحمن: ١]، كذلك خُتِمَتِ السورةُ بتمجيد الله تعالى وتعظيمه قال تعالى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨ ﴾ [الرحمن: ٧٨].

(١) يراجع في ذلك: « أقوى العُدَد في معرفة العَدد » للشيخ علم الدين أبي الحسن: علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي، المتوفى: سنة ٦٤٣ هـ ضمن كتابه جمال القراء وكمال الإقراء ١/ ٢٢٤، وكتاب البيان في عدِّ آي القرآن لأبي عمرو الداني الأندلسي ت٤٤٤هـ ص ٢٣٧ ومرشد الخلان إلى معرفة عد آي القرآن للشيخ عبد الرازق علي إبراهيم موسى - شرح وتوجيه نظم الفرائد الحسان للشيخ عبد الفتاح القاضي ص ١٦٩.

* ولما كانت نِعَمُ الله الجليلةُ رحمةً وإكراماً مِنَ اللهِ تعالى بدأت السورةُ باسم الله ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ ﴾، وخُتِمَتْ بوصفه تعالى ﴿ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨ ﴾.

* وحيث بدأتِ السورةُ باسم الله ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ ﴾، فقد خُتِمتْ ببيان رحمة الله تعالى بأوليائه وأصفيائه في الآخرة بدخولِ الجنة!

* ولما بدأت السورة بأجلِّ النعم نعمة القرآن: كان مسك الختام بأوفى النعم، نعمة دخول الجنة.

المناسبة بين السورة وسابقتها

بين سورة الرحمن، وبين سورة القمر: تناسبٌ جليٌّ وترابطٌ قويٌّ:

* فسورة القمر مفتتحةٌ بمعجزة انشقاق القمر، بينما استُهلت سورة الرحمن بالمعجزة الكبرى التي أيّد الله عز وجل بها نبيَّه ﷺ: معجزة القرآن الكريم.

* التناسب بين خاتمة سورة القمر مع مطلع سورة الرحمن ﴿ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾[القمر: ٥٥]، ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ ﴾[الرحمن: ١]: فالمليك المقتدر هو الرحمن عز وجل، وبين اتصافه تعالى بالملك والاقتدار والرحمة، مناسبةٌ واضحةٌ؛ لأنه لا يملك الرحمة ولا يقدر عليها إلا المليك المقتدر.

* ختامُ السورتين بالثناء على الله تعالى ففي نهاية سورة القمر وصفه تعالى بالملك والقدرة، قال تعالى﴿ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ﴾، وفي نهاية سورة الرحمن تنزيه وتقديس وتمجيد، وبيان اتصافه تعالى بذي الجلال والإكرام قال تعالى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٧٨ ﴾ [الرحمن: ٧٨].

* ختمت السورتان بنعيم المتقين في الجنان، ففي ختام سورة القمر يقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِى مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥ ﴾[القمر: ٥٤ – ٥٥]، كما ختمت سورة الرحمن بذلك.

* لما بينت سورة القمر إعراض الكفار عن الآيات والنذر وتكذيبهم بها، ذكرت سورة الرحمن تكذيبهم بآلاء الله تعالى وغفلتهم عنها: قال تعالى في مطلع سورة القمر ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ ﴾ [القمر: ١ - ٥]، كما بيَّنت السورةُ عاقبةَ بعضِ الأمم المكذبة: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون..

* في سورة الرحمن تكرر قوله تعالى﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾: إحدى وثلاثين مرة. وفي سورة القمر دعوةٌ إلى النظر والاعتبار بالآيات والنذر، وفي سورة الرحمن دعوةٌ للنظر في نعم الله تعالى والتفكر فيها وأداء شكرها والتحذير من نكرانها.

* أتت سورة الرحمن مفصِّلَةً لما ورد في سورة القمر من أحوال القيامة وأهوالها ووصف الجنة والنار.

تحدثت السورتان عن نعمة القرآن، فبينت سورة القمر تيسير الله تعالى لكتابه حيث تكرر قوله تعالى ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ ﴾[القمر: ١٧] أربع مرات في السورة تذكيرا وتقريرا ولفتا لهذا المعنى، بينما استهلت سورة الرحمن بنعمة تعليم القرآن قال تعالى﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ [الرحمن: ١ - ٢].

* في سورة القمر ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القمر: ٤٩-٥٠]، وفي سورة الرحمن﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ ﴿ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٩ - ٣٠].

والصلة بين هذه الآيات لا تخفى: فلهذا الكون خالق رازق مدبر مقدر، ولهذا الكون نظامٌ محكمٌ، وتصريفٌ عجيبٌ، وتناسقٌ بديعٌ، وميزانٌ دقيقٌ.

* في سورة القمر ﴿ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [القمر: ١٣-١٥].

وفي سورة الرحمن ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

وتلك مقابلةٌ لطيفة ومناسبةٌ دقيقةٌ حيث ذكر الله تعالى في سورة القمر نعمته على نبيه نوح عليه السلام ومن آمن معه بسفينة النجاة، وفي سورة الرحمن ذكر امتنانه على عباده بالجوار المنشئات، ويُقالُ إن أولَ من صنع السفينةَ نوحٌ عليه السلام، ولقد بيَّن القرآن الكريم أن صناعة نوح للسفينة كانت بتوجيه وإرشاد وعناية ورعاية من الله تعالى قال سبحانه: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود: ٣٧].

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتناسبُ مقاطع السورة الكريمة مع المحور العام لها، إذ تمضي السورةُ الكريمةُ بما يتواكبُ مع محورِ السورةِ ومقاصدِها، حيث تنتظمُ آياتُ السورة مع محورها انتظام حبَّات اللؤلؤ في عقدها النضيد، فتدورُ الآياتُ جميعها حول نعم الرحمن جلَّ وعلا، كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله.

المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

مقاطع السورة كما بيَّنا تنتظمُ في سلكٍ واحد وتدورُ في فلَكٍ واحد، وهو الحديث عن نعم الله تعالى، ولسوف يتجلى ذلك من خلال تأملاتنا في هذه السورة الكريمة.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

التناسبُ بين موضوعِ السورتينِ يتجلى في وجوه عديدة منها:

* حديث السورتين عن القيامة وأهوالها، وعن الجنة والنار، ولقد فصلت سورة الرحمن ما أجملته سورة القمر.

* حديث السورتين عن نعمة تيسير القرآن وتعليمه.

* حديث السورتين عن أقدار الله تعالى وتدبيره لهذا الكون وتصريفه لشؤونه.

* حديث سورة القمر عن جزاء الشاكرين، قال تعالى في قصة لوط مع قومه﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾، وقد فصَّلت سورة الرحمن في نعم الله تعالى، وحذَّرت من التكذيب بها.

بين مقدمة السورة ومحورها.

لما دارت السورةُ حول تعداد النعم كان استفتاح السورة باسم الله﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ ﴾ واهب النعم، كما بدأت السورة الكريمة بأجلِّ النعم وأسناها نعمة إنزال القرآن، قال تعالى﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ «بُدِىءَ بتعليم القُرآنِ فقيلَ:﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ ﴾ لأَنَّها أعظمُ النعم شأناً وأرفعُها مكاناً كيفَ لَا وهُو مدارٌ للسعادةِ الدينيةِ والدنيويةِ، معيارٌ على سائرِ الكتبِ السماويةِ، ما منْ مرصدٍ يرنُو إليه أحداقُ الأمم إلا وهُو منشؤُه ومناطُه، ولا مقصدٍ يمتدُّ إليه أعناقُ الهممِ إلا وهُو منهجُه وصراطُه، وإسنادُ تعليمِه إلى اسم الرَّحمنِ للإيذانِ بأنَّه من آثارِ الرحمةِ الواسعةِ وأحكامِها، وقد اقتُصرَ على ذكرِه تنبيهاً على أصالتِه وجلالةِ قدرِه»[1].

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود ٨ / ١٧٦.

ثانيا: في رحاب السورة الكريمة

بعد وقفة متأنية ونظرة شاملة لهذه السورة الكريمة بدا لي تقسيمها إلى سبعة مقاطع، تدور كلها حول نعم الرحمن:

المقطع الأول: من نعم الله الظاهرة

قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن: ١ - ١٣]

مناسبة المقطع مع المحور

تستهل السورة الكريمة بهذا الاسم الجليل: اسم الله تعالى الذي يحملُ لنا بشائر الرحمات ونسائم الخيرات، يأتي هذا الاسمُ في مستهلِّ السورة الكريمة ليكون دليلا لها وعنوانا عليها وإشارةً لمضمونها، ومحورا لآياتها، فتدورُ السورة الكريمة حول آثار رحمة الله تعالى، وآلائه التي لا تعدُّ ولا تحصى.

التفسير الإجمالي

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ ﴾

تستهل السورة الكريمة باسم جليل تفرَّد به ربُّ العزة فلا يطلق على أحدٍ سواه: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ ﴾، وهو من الرحمة بل هو الرحمة في أجلِّ معانيها وأعظم آثارها، ومن رحمة الله تعالى بعباده وإحسانه إليهم إنزاله القرآن وتيسير تعلمه تلاوةً وتدبُّراً وحفظاً، قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ ﴾، فكما استهلت السورة بهذا الاسم الجليل فقد بدأت بأجلِّ النعم وأسناها:

نعمةُ القرآن، وهذا من براعة الاستهلال وحسن المطلع.

فالقرآن رحمة ربانية ونعمة إلهية، حكمةٌ بالغةٌ ونعمةٌ سابغةٌ، وحجةٌ قاطعةٌ، أنزله الله هداية ورحمة، ونوراً وحكمة، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال جل وعلا ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وقال سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال عز وجل ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ٨٩].

فلما كانت السورة الكريمة تهدفُ إلى تعداد نعم الرحمن في الدارين ناسب ذلك افتتاحُها بهذا الاسم الجليل ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ ﴾، وبدأ بأوفر النعم وأجلِّها وهو القرآن؛ أساسُ الدين ومصدرُه الثرُّ، وأصلُ الشرع ومنبعُهُ الصافي، وأقومُ الهدي، وأعزُّ الكتب، وأشملُها، وأصدقُ الحديث وأعذبُهُ.

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾

تذكِّرُنا السورةُ الكريمةُ بنعم الله تعالى الجليلة وآلائه الجزيلة ومن أهمها نعمة خلق الإنسان، فهل أدى الإنسان شكر هذه النعمة ؟ وهل تفكَّر في هذه الآية العجيبة ؟ وهل نَظَرَ نظرَةَ تأمُّلٍ واعتبارٍ في أطوار خلقه ؟ وهل تأمَّل في نعمة البيانِ التي تميَّز بها عن كثيرٍ من الخلق ! فتمكن من الفهم والإفهام، والتعبير عن مطالبه، والإعراب عن مشاعره.

قال الآلوسي: والمراد به «المنطق الفصيح المُعْرِبُ عما في الضمير»[(١)].

واختار الطبري عموم البيان هنا لكل ما يحتاجه الإنسان في دينه ودنياه: وفي ذلك يقول: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: معنى ذلك: أن الله علَّم الإنسان ما به الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه من الحلال والحرام، والمعايش والمنطق، وغير ذلك مما به الحاجة إليه، لأن الله جلّ ثناؤه لم يخصص بخبره ذلك، أنه علَّمه من البيان بعضا دون بعض، بل عمّ فقال: علَّمه البيان، فهو كما عمّ جلّ ثناؤه»[(٢)].

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ ﴾

انتقل السياق من خلق الإنسان إلى خلق الأكوان، فبين تعالى انسجام هذا الكون وتناسقه، واتساقه عبرَ نظام محكم وحساب دقيق، قال تعالى﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ ﴾ أي يجريانِ بحسابٍ دقيقٍ ونِظامٍ مُحكمٍ لا يتبدلُ ولا يتحوَّلُ.

ومن دقة هذا الحساب أن به تعرف الأوقات والليالي والأيام والشهور والفصول والسنين.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: قَالَ: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ ﴾: « بِحِسَابٍ وَمَنَازِلَ»[(٣)].

وعن مجاهد قال:﴿ بِحُسۡبَانٖ ﴾ قال: « كحسبان الرحا»[(٤)]، لأنهما يدوران في الفلك كما تدور الرحا، فلا تخرجُ عن مدارها.

ونظيرُ هذا قوله تعالى: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠ ﴾ [يس: ٣٨ - ٤٠].

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي ٢٠ / ١١٣.
(٢) جامع البيان للطبري ٢٢ / ٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ٣٣٢٢.
(٤) جامع البيان للطبري ٢٢ / ١٠.

وقوله جل وعلا ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

فهل انتبهُ الإنسان إلى هذه النعم الظاهرة، نعمة الشمس والقمر وما يتفرع عنهما من نعمٍ لا تُحصى ؟ أم أن وضوحَهما وإلفَهُما كانا مدعاةً للغفلةِ والنسيانِ ؟

﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾

النجم والشجر يسجدان لله تعالى في خشوع وخُضوع وامتثالٍ وإجلالٍ لمقام الرحمن، ونظير هذا قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرعد: ١٥]، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾[النحل: ٤٩ - ٥٠].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج: ١٨].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ:﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾، قَالَ: «النَّجْم مَا انْبَسَطَ عَلَى الْأَرْضِ، وَالشَّجَرُ مَا كَانَ عَلَى سَاقٍ».[1]

وعن مجاهدٍ في قولِهِ: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾: قال: نجوم السماء، وأشجار الأرض، يسجدان بكرة وعشياً[2].

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا ﴾: رفع السماء بغير عمد نراها، وبالإحكام والإتقان أبدعها وبناها

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٢، وبحر العلوم للسمرقندي ٤ / ٢٢٦.

(٢) معالم التنزيل للبغوي ٧/ ٤٤٢.



وبالنجوم والكواكب رصَّعها وحلَّاها.

﴿ وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾، قال مجاهد: أراد بالميزان العدل. المعنى: أنه أمر بالعدل يدل عليه قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ ﴾، أي لا تجاوزوا العدل، وقال الحسن وقتادة والضحاك: أراد به الذي يوزن به ليوصل به إلى الإنصاف والانتصاف، وأصل الوزن التقدير «ألا تطغوا» يعني لئلا تميلوا وتظلموا وتجاوزوا الحق في الميزان.

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾، بالعدل، وقال أبو الدرداء وعطاء: معناه أقيموا لسان الميزان بالعدل،﴿ وَلَا تُخۡسِرُواْ ﴾، ولا تنقصوا ﴿ ٱلۡمِيزَانَ ﴾، ولا تطففوا في الكيل والوزن.

وقال ابن كثير: « وقوله:﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ ﴾ يعني: العدل، كما قال:﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال ها هنا:﴿ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ ﴾ أي: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ ﴾ أي: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال تعالى ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ۝١٨٢ ﴾ [الشعراء:١٨١ - ١٨٢]». (١)

وأما وضع الميزان فإشارة إلى العدل، وفيه لطيفة « وهي أنه تعالى بدأ أولاً بالعلم ثم ذكر ما فيه أشرف أنواع العلوم وهو القرآن، ثم ذكر العدل وذكر أخصَّ الأمور له وهو الميزان، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾ [الحديد: ٢٥] ليعمل الناس بالكتاب ويفعلوا بالميزان ما يأمرهم به الكتاب». (٢)

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/ ٤٩٠.

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٥/ ٦٠.



والميزان ذكره الله تعالى ثلاث مرات كل مرة بمعنى آخر، فالأول هو الآلة﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٧]، والثاني بمعنى المصدر ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾ [الرحمن: ٨] أي الوزن، والثالث للمفعول: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ أي الموزون، وذكر الكل بلفظ الميزان لَما بيَّنا أن الميزان أشمل للفائدة وهو كالقرآن ذكره الله تعالى بمعنى المصدر في قوله تعالى:﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾[القيامة:١٨] وبمعنى المقروء في قوله:﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ [القيامة:١٧ - ١٩].

وبمعنى الكتاب الذي فيه المقروء في قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد: ٣١].[1]

وبالميزان يتحقق العدلُ والإنصافُ ويرتفع الجَورُ، ويضمنُ الناسُ حقوقهم.

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ بسطها ومهدها ويسَّرها وسلكها سبلا وجعل فيها معايش وقدَّر فيها أقواتها، وأنبت أشجارَها وأزهارها، وأجرى أنهارها، وأغطش ليلها، وأوضح نهارَها، مراعاة لمصالح الأنام.

هذه الأرض التي منها وعليها نشأنا، وبها درجنا، ومن خيراتها أكلنا وشربنا ونعمنا، هل توقفنا مرةً أمام هذه النعمة التي تحوينا وتضمُّنا ؟ هل أدينا شكرها ؟ هل وفينا حقها ؟ هل تدبرنا أمرها ؟ هل استشعرنا عظمةَ خالقها الذي يسرها وبسطها ومهدها وقدر فيها الأقوات والخيرات وأودع فيها الكنوز والأسرار؟ فإذ بها نعمةٌ للناسِ جميعاً.

آياتٌ كثيرةٌ تذكرُنا بهذه النعمة الجليلة، منها قولُهُ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٩].

(١) نفس المرجع ١٥ / ٥٧.



﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ ﴾ [النازعات: ٣٠ - ٣١].

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الذاريات:٤٧ – ٤٨].

﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الجاثية: ٣].

﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾: أي: كما رفع السماء وضع الأرض ومهّدها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقرَّ بها على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم، في سائر أقطارها وأرجائها.

ولقد يسَّر لهم فيها الحياة، وقدَّر فيها أقواتها ومن أشهاها الفاكهة، ومن أكثرها منافع: النخيل، وفي الآية إشارةٌ إلى جمال هيئتها، فضلا عن حلاوةِ ثمرتها، مما يزيد الناظرَ بهجةً ومتعةً، كما قال تعالى عن جمالها وشموخها﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾[ق: ١٠].

والأكمام هي أَوْعِيَةُ الطَّلْعِ التي ينبثق عنها الثمرُ.

ولقد ضرب النبي ﷺ المثل بالنخلة، حيث لا يسقُطُ ورقُها، ولا ينقطِعُ نفعُها، فكلُّ ما فيها نافعٌ مفيدٌ، فضلا عن ثمرها الطيِّب: ففي الصحيحين عن عَبْدَ اللهِ بن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ «إنّ مِنَ الشّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا. وَإِنّهَا مَثَلُ الْمُسْلِم. فَحَدّثُونِي مَا هِيَ ؟» فَوَقَعَ النّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللّهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنّهَا النّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمّ قَالُوا: حَدّثْنَا مَا هِيَ ؟ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: فَقَالَ «هِيَ النّخْلَةُ»، قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، قَالَ: لأَنْ تَكُونَ قُلْتَ: هِيَ النّخْلَةُ، أَحَبّ إِلَيّ مِنْ كَذَا وَكَذَا»[(١)].

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: الحياء في العلم الحديث رقم١٣١ : ورواه مسلم في صحيحه عنه صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنّة والنّار. باب=



وعن شموخ هذه الشجرة الأصيلةِ، وعطائِها الدائم، وتساميها يقول الشاعر:

كُــنْ كالنَّخيلِ عنِ الأحقَادِ مُرْتَفِعاً		يُرْمَـى بِصَخْـرٍ فيَرْمِـي أَحْسَنَ الثَّمَرِ

ثم ذكر الحب ذا الورق والسيقان التي تعصف وتصير طعاماً للماشية، وذكر منها الريحان.

﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾

ثم ذكر تعالى من تمام مِنَنِهِ على عباده ومن كريم عطائه أن أمدَّ الخلق بما يتقوَّتون به وما يدَّخرونه، وأتحفهم بطعامهم وأتمَّ المنةَ عليهم بطعام أنعامهم وماشيتهم، فضلا عما ينبت في الأرض من ورودٍ ورياحين، وهذا من فضلِ الكريم ومن بديع صنعِهِ، أن جمع لهم بين ما يتقوَّتون به وبين ما يتفكَّهون مما يُمتعُ الأنظار ويخلبُ الأفكار، فتقرُّ العيونُ بآنِقِ مرآه، في الحقول والبساتين، وعلى الموائد، وتفعَمُ الأنوفُ بعبق شذاه، وتلذُّ الأفواهُ بطيب جناه.

والعصف: سيقانُ النبات وأوراقه التي ينتفعُ بها في غذاء الأنعام والماشيةِ وفي غير ذلك من المنافع.

وبدأ بالفاكهة وختم بالريحان ليجمع بين اللذة بالغذاء والتمتُّعِ بالروائحِ الطيبةِ، والمناظر المبهجة.

ووصفُ الحَبّ بأنه ﴿ ذُو ٱلْعَصْفِ ﴾ للتذكير بمنَّةِ جمال الزرع حين ظهوره في سنبله في حقوله وبيادره، ونظير ذلك وصف النخل بذات الأكمام.

الهدايات المستنبطة

* بدأت السورة الكريمة باسم الله الرحمن وهو مشتقٌّ من الرحمةِ، والرحمةُ من أعظم وأجلِّ وأجملِ الصفاتِ، وأحبِّها إلى النفوس، قال تعالى ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى

=مثل المؤمن مثل النخلة ٦٣ - (٢٨١١).

ﭐلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال جلَّ وعلا﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إِنَّ للهِ مِائَةَ رَحْمَة، أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعاً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[١].

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب ﷺ أن رسول الله ﷺ رأى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ قد فُرِّقَ بينها وبين ولدها، فجعلت كُلَّما وَجَدَتْ صَبِيّاً من السَّبي أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بصدرها وهي تدورُ على ولدها، فلما وجدته ضمَّتْهُ وألقمتْهُ ثديَها، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: « أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ» ؟ قالوا: لا يا رسولَ الله، قال: « فو اللهِ: للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»[٢].

وحظ العبد من هذا الاسم: أن يرجو رحمة ربه ويطمعَ في مغفرته ورضوانه، وأن يكون رحيماً بالضعفاء، فيعينهم، وبالغافلين فيبصِّرهم، وبالمعرضينَ فيقبلُ عليهم، ويذكرهم.

ولو تراحم الناسُ فيما بينهم لما أمسى بينَهم فقيرٌ ولا مظلومٌ، ولا بات فيهم جائعٌ ولا محرومٌ.

---

(١) رواه البخاري فى صحيحه كتاب الأدب جعل الله الرحمة في مائة جزء، حديث ٦٠٠، ورواه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الرقاق باب سعة رحمة الله، حديث ٢٥٨٥ صحيح مسلم بشرح النووي ١٧/ ٦٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺ: صحيح البخاري كتاب الأدب باب: رحمة الولد وتقبيله ومعانقته. في الحديث ٥٦٥٣، ورواه مسلم في صحيحه عنه ﷺ صحيح مسلم كتاب التوبة باب في سعة رحمة اللهِ تعالى، وأنها سبقت غضبه حديث ٢٢- (٢٧٤٥).

فالرحمة خلق كريم من أخلاق المؤمن، وسمةٌ من سماتِ المجتمع المسلم.

قال تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [الفتح: ٢٩].

وعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[1].

* أشارت المقدمة إلى نعمة من أجل النعم، نعمة العلم الذي تحيا به الأرواح والقلوب وتنهض به الأمم والشعوب، قال تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ﴾، فالعلم رتبةٌ جليلة، ومنزلة أثيلة، ومزيَّةٌ وفضيلةٌ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٥ ﴾ [النمل: ١٥].

وواجب العالم أن يحمد الله تعالى على هذه النعمة، وأن يعمل بها علم ولا يبخل بعلمه على أحد ولا يكتمه، وأن يوظِّفه في نفع الناس.

هذا ومما يؤسف له في هذا العالم الذي نكابد هُمومَه ونعايش مشكلاته ونكتوي بنار أزماته أن يُوَجَّه العلمُ عن غير مساره الصحيح ويوظَّف في كثير من الأحيان إلى الإضرار بالإنسانية من قِبَلِ من لا خلاق لهم ولا ذمة من الكفرة والملاحدة الذين فرحوا بما عندهم من علم وحرموا الإنسانية من اقتطاف ثمار العلم النافعة، بل صار العلم وبالا ونقمة، حتى أنفقت «المليارات» في مشاريع مفسدةٍ للبيئةِ والفطرةِ، وفي تطوير أسلحة الإبادة الشاملة، حتى

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه عن النعمان بن بشير رضي عنهما كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين حديث ٢٥٨٦، ورواه الإمام أحمد في مسنده عنه ٤٠/ ٢٧٠، والبيهقي في السنن ٣/ ٣٥٣.

غدا تقدم العلم نذيراً ومؤشراً على تفاقم خطر التلوث البيئي، وكم والله تُبدد الميزانيات وتُهدر الطاقات وتضيع الأوقات ! بينما يعيش أغلب البشر في فقرٍ وحرمانٍ، وإنني لأكتب هذه السطور بينما نقف على أبواب كارثة – إن لم نكن قد أقحمنا فيها بالفعل – وهي أزمة الغذاء العالمية، بسبب نقصٍ حادٍّ في المحاصيل الزراعية، وغلاء فاحش واستغلال بشع ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أهذا جَنَى العلم الذي قد غرستَهُ		وهذا الذي قد كنتَ ترجوهُ وتعلمُ
وهـذا هو الحـظُّ الـذي قد رضيتَه		لنفسِكَ في الدارينِ لو كنتَ تفهمُ
وهـذا هـو الـربحُ الـذي كسبتَهُ		لعمرك لا ربحٌ ولا الأصـلُ يسلَمُ
بـخلـتَ بـشيء لا يـضُّرك بـذلُـهُ		وجـدتَ بـشيء مـثلُهُ لا يـُقَـوَّمُ
وبـعـتَ نـعيـماً لا انـقـضـاءَ له		بـبـخسٍ عـن قـليـلٍ سيـعـدمُ
وتهـدمُ مـا تبنى بكفَّيكَ جاهداً		فأنت مـدى الأيـامِ تبني وتـهدمُ
وتـزعُـمُ مـع هـذا بـأنـك عـارفٌ		كذبتَ يقيناً في الـذي أنـتَ تزعُمُ
ومـا أنـتَ إلا جـاهـلٌ ثـم ظـالمٌ		وإنَّـكَ بـين الجـاهـلـينَ مـقـدمُ

* المتأمل في آيات السورة الكريمة يجد آيات باهرات ودلائل نيرات على ذلك الجمال الرباني الذي أودعه الخالق جل وعلا في هذا الكون الفسيح: سماء ذات أبراج قد زينتها كواكب نيرات، وأرض ذات فجاج لو تأملتها في جناتها الباسقة وروضاتها الباسمة لمتَّعتَ ناظريكَ بسحرها وجمالها وروعتها، فضلا عن تلك البحار وما فيها من آيات الجمال وما حوته من لآلئ ومرجان في غايةِ الإبداع، وبشتى الألوان وغاية الإتقان فسبحان مبدع الأكوان:

تِلكَ الطَبيعَةُ قِف بِنا يا ساري ... حَتّى أُريكَ بَديعَ صُنعِ الباري
الأَرضُ حَولَكَ وَالسَماءُ اهتَزَّتا ... لِرَوائِعِ الآياتِ وَالآثارِ
مِن كُلِّ ناطِقَةِ الجَلالِ كَأَنَّها ... أُمُّ الكِتابِ عَلى لِسانِ القاري
دَلَّت عَلى مَلِكِ المُلوكِ فَلَم تَدَع ... لِأَدِلَّةِ الفُقَهاءِ وَالأَحبارِ
مَن شَكَّ فيهِ فَنَظرَةٌ في صُنعِهِ ... تَمحو أَثيمَ الشَكِّ وَالإِنكارِ (١)

******

تأمَّلْ في خلالِ الأرضِ وانظُرْ ... إلى آثارِ ما صَنَعَ المليكُ
عيونٌ مِنْ لُجَينٍ شاخِصَاتٌ ... بأحداقٍ هي الذهبُ السبيكُ
على قُضُبِ الزبرجدِ شاهِداتٌ ... بأن الله ليس له شريكُ (٢)

المقطع الثاني: نعمة الخلق

قَالَ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله

تأتي نعمة الخلق في مقدمة النعم الربانية فهي أصلُ النعم وأساسها من هنا كان الحديث عنها في هذه السورة الجليلة.

---

(١) الأبيات لأمير الشعراء أحمد شوقي.
(٢) الأبيات للعالم المحدث الواعظ عبد الغني النابلسي ت ١١٤٣ هـ.

التفسير الإجمالي

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ ﴾

والصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة، أي صوتٌ إذا قرع بشيء، وقيل الصلصال الذي تغيرت رائحته بطول بقائه، والفخار الطين الذي تعرض لشمس أو أدخل نارا شبه به الصلصال لشدة يبسه، وفي هذه الآية بيان لطور من أطوار خلق آدم، حيث خلقه الله من تراب قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [الحج: ٥].

والمراد هنا خلق أبيهم آدم، لأنه أصلهم وهم فروعه، ثم إن هذا التراب اختلط بالماء فصار طيناً، ولذا قال تعالى ﴿ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ [ص: ٧١] ثم خُمِّرَ هذا الطين فصار حمأً مسنوناً، أي طيناً مصوَّرا كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر: ٢٦] الآية. وقال تعالى: ﴿ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨]، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالاً. كما قال هنا: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن: ١٤].

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾

وخلق الجانّ من مارج من نار، وهو ما اختلط بعضه ببعض، وقيل لسان النار الذي يكون في طرفها إذا التهبت، وقيل: مارج من نار لا دخان لها.[1]

﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾

{ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ }، أيها الثقلان، يريد من هذه الأشياء المذكورة.

وتكرار هذه الآية الكريمة التي تعدُّ تذييلاً لما سبقها من نعم؛ نظرا لتعدد هذه النعم

---

(١) جامع البيان للطبري ١٨ / ٤٠.

وتنوعها، « وكرَّر هذه الآية في هذه السورة تقريراً للنعمة وتأكيداً في التذكير بها على عادة العرب في الإبلاغ والإشباع، يعدد على الخلق آلاءه ويفصِّل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها كقول الرجل لمن أحسن إليه وتابع عليه بالأيادي وهو ينكِرُها ويكفرها: ألم تكن فقيراً، فأغنيتك أفتنكر هذا؟ ألم تكن عرياناً، فكسوتك أفتنكر هذا؟ ألم تك خاملا، فعززتك أفتنكر هذا؟ ومثل هذا التكرار شائع في كلام العرب حَسَنٌ تقريراً»[(١)].

وعن ابن قتيبة « أن الله عدَّد في هذه السورة نعماءه، وذكَّر خلقه آلاءه، ونبههم على قدرته ولطفه بخلقه، ثم أتبع كل خلة وَصَفها بهذه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ليفهمهم النعم ويقررهم بها». وقال الحسينُ بنُ الفضلِ: التكريرُ طردٌ للغفلةِ وتأكيدٌ للحُجةِ.[(٢)]

ومن لطائف هذا التكرار: ما ذكره النسفي في تفسيره: حيث قال رحمه الله: « وكررت هذه الآية في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، ذكر ثمانية منها عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلهما على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما»[(٣)].

الهدايات المستنبطة من المقطع

* إعجاز القرآن الكريم في حديثه عن خلق الإنسان حيث بيَّن أصل مادة تكوينه وهي التراب الذي صار طينا لزجا ثم تشكَّل وتحددت معالمه وهو المسنون ومنه سنة الوجه أي هيئته وملامحه، ثم يَبِسَ فصار صلصالا كالفخار، فصار الإنسان بهذا الشكل حتى نفخ الله فيه الروح كما قال سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٢٩].

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٤ / ٢٨٤.
(٢) معالم التنزيل للبغوي ٧ / ٤٤٣، ومشكل القرآن لابن قتيبة ص ٢٣٩ .
(٣) مدارك التنزيل للنسفي ٤ / ٢٠٦.

هذا « وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي من العناصر ما تحتويه الأرض. فهو يتكون من الكربون، والأوكسجين، والأيدروجين، والفسفور، والكبريت والآزوت والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والكلور، والمغنسيوم، والحديد، والمنجنيز والنحاس، واليود، والفلورين، والكوبالت، والزنك، والسلكون، والألمنيوم. وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتراب. وإن اختلفت نسبها من إنسان لآخر »[1].

* تثيرُ الآياتُ الكريمةُ فينا تساؤلات عديدة: هل نحمَد الله تعالى على أن خلقنا في أحسن تقويم ؟ وهل نؤدي شكر هذه النعمة ؟ وهل تفكرنا في غاية وجودنا في هذا الكون، وهو عبادة الله تعالى حق العبادة كما قال سبحانه ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

بين المقطع ومحور السورة

* الصلة واضحةٌ جليةٌ حيثُ التذكيرُ بنعمِ اللهِ تعالى التي لا تُحْصَى والتي من أهمِّها نعمة الخلق، فهي أصل النعم.

المقطع الثالث: من نعم الله في الآفاق

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما سبقه

لما تحدث سبحانه عن خلق الثقلين الإنس والجان، ناسب ذلك ذكر الخافقين المشرق

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٥١ بتصرف.

والمغرب، فكما خلق الله الإنس والجان مع ما بينهم من تنافر واختلاف، فكذلك خلق سبحانه المشرق والمغرب مع ما بينهما من بعدٍ واختلاف، حتى يضرب بهما المثل في البعد كما ورد في قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وكما قال الشاعر:

سـارَت مشرِّقةً وَسِـرتُ مغرِّبـا		شتـانَ بين مشـرِّقٍ ومُغـرِّبِ

وكذلك خلق الله البحرين مختلفينِ فلا امتزاج بينهما، وفي هذا التنوع والاختلاف فوائد ومنافع لا تحصى، فقد ناسب الحديثُ عن المشرقينِ والمغربينِ الحديثَ عن عالم البحار والأنهار حيث الآفاق الرحيبة والعوالم العجيبة.

بين المقطع ومحور السورة

تنتظم آيات هذا المقطع مع محور السورة الذي يدور حول نعمِ الله تعالى على الأنام.

التفسير الإجمالي

من نعم الله تعالى الجزيلة وآلائه الجليلة ربوبيتُه سبحانه للمشرقينِ والمغربينِ خلقاً وملكاً وتقديراً وتصريفاً وعنايةً ولطفا.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ فِي قَوْلِهِ:﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾، قَالَ: «لِلشَّمْسِ مَطْلَعٌ فِي الشِّتَاءِ، وَمَغْرِبٌ فِي الشِّتَاءِ، وَمَطْلَعٌ فِي الصَّيْفِ، وَمَغْرِبٌ فِي الصَّيْفِ، غَيْرُ مَطَلِعِهَا فِي الشِّتَاءِ وَغَيْرُ مَغْرِبِهَا فِي الشِّتَاءِ»[(١)].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾ مما في ذلك من فوائد لا تحصى كاعتدال الهواء، وانتظام الأوقات، واختلاف الفصول، مما يتلاءم مع منافع الأنام ويتواكب مع مصالحهم.

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ٣٣٢٣.

ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ ﴾: ومناسبة ذكره عقب ما قبله أنه لما ذُكر أنه سبحانه رب المشرقين ورب المغربين وكانت الأبحر والأنهار في جهات الأرض ناسب الانتقال إلى الاعتبار بخلقهما والامتنان بما أودعهما من منافع الناس.

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي حاجز من قدرة الله تعالى، أو من أجرام الأرض لا يبغي أحدهما على صاحبه، وقيل لا يختلطان ولا يمتزجان ولا يتغيران وقيل لا يطغيان على الناس بالغرق.

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾: اللؤلؤ معروف ويتكون في الأصداف، والمرجان كائنٌ بحري ذو أطرافٍ دقيقة ينشأ ليّناً ثُمَّ يتحجّر ويتصلب كلما طال مكثه في البحر فيستخرج منه كالعروق تتخذ منه حلية، وألوانه بديعةٌ.

وفي ذكر اللؤلؤ والمرجان لفت الأنظار إلى لطائف وجماليات النعم التي أودعها الله في هذا الكون، فلا تقع العينُ إلا على جمالٍ.

فاللؤلؤ والمرجان من تمام نعمه تعالى على عباده ومن لطائف جوده، وفي التفكر فيهما ما يزيدُ المؤمن تعظيماً وإجلالاً للخالق جل وعلا.

﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾: الجواري: جمع جارية وهي السفينة، ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ أي المرفوعات المصنوعات، ﴿ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ كالجبال الشاهقة جمع علم وهو الجبل الطويل.

وخصها سبحانه بأنها له وهو تعالى له ملك السموات والأرض وما فيهن للإشارة إلى أن كونهم هم منشِئُوها لا يخرجها من ملكه عز وجل حيث كان تمام منفعتها إنما هو منه عز وجل.

الهدايات المستنبطة

* في كل يوم تشرق الشمس علينا ثم تغرب آخر النهار، وفي هذا من النعم ما لا يحصى، وفي

اختلاف المشارق والمغارب باختلاف فصول السنة وأيامها نعمٌ جليلةٌ وفوائدُ عظيمةٌ لا يدركها إلا العالِمون.

* البحار والأنهار من أجل النعم ومن لطف الله تعالى وحكمته أن جعل لماء النهر والبحر مزايا وخصائص تتناسب مع طبيعةِ الحياة وحاجات الكائنات، فللبحر العذب خصائصه ومزاياه وفيه كائناته وعوالِمه، وكذلك البحر المالح له مزايا لا تنحصر وله خصائصه وله أحياؤه وعوالمه، وهذا التنوع العجيب في عالم البحار والأنهار ينصبُّ في صالح الإنسانِ كما يستفيد منه الجان؛ ولذا جاء الخطاب موجها إلى الثقلين معا مذكرا بهذه النعمة التي تشملهما.

والبحران المشار إليهما هما البحرُ المالحُ والبحرُ العذبُ، ويشملُ الأولُ البحارَ والمحيطات، ويشمل الثاني الأنهار، ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان، ولكنهما لا يبغيان، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر، ووظيفته المقسومة، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله، وتقسيم الماء على هذا النحو في الكرة الأرضية لم يأت مصادفة ولا جزافاً، فهو مقدر تقديراً عجيباً، الماء الملح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض؛ ويشغل اليابس الربع، وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائماً صالحاً للحياة.

وفي قلب البحار اكتشف الناس ينابيع الماء العذب، وهذا من عجيب لطف الله وبديع صنعه.

وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور - ومعظمها سام - فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع - ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان.. وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء - أي المحيط -.

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس؛ وهي التي تعود فتسقط أمطاراً يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله. وأعظمها الأنهار. والتوافق بين سعة

المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا، والعوامل الفلكية الأخرى هو الذي ينشأ عنه المطر الذي تتكون منه كتلة الماء العذب.

وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة، من نبات وحيوان وإنسان..

وتصب جميع الأنهار - تقريباً - في البحار. هي التي تنقل إليها أملاح الأرض، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغي عليها. ومستوى سطوح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر، ومن ثم لا يبغي البحر على الأنهار التي تصب فيه، ولا يغمر مجاريها بمائه الملح، فيحولها عن وظيفتها ويبغي على طبيعتها! وبينهما دائماً هذا البرزخ من صنع الله. فلا يبغيان، فلا عجب يذكر البحرين، وما بينهما من برزخ، في مجال الآلاء ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾. ثم يذكر من آلاء الله في البحرين بعض ما هو قريب منهم في حياتهم[(١)].

من لطائف النعم

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ ﴾

المناسبة

بعد الحديث عن تلك النعم العاجلة ذكَّر تعالى بنعمةٍ هي السبيلُ أو الوسيلةُ إلى تحققِ النعمِ الآجلةِ، نعمِ الآخرةِ، نعمة الموت حيث الانتقال من دار الدنيا إلى دار الآخرة، وقد قيل:

لا تظنوا الموتَ موتاً		إنَّه لحياةٌ وهْوَ غاياتُ الْمُنَى
لا ترعكُمْ هجمةُ الموتِ		فما هُوَ إلا الانتقالُ من هُنا

---

(١) يراجع: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٤٥٣.

كما تناولت الآياتُ طائفةً من دقائقِ النعم ولطائف الكرمِ، ومنها نعمة تدبير هذا الكون وتصريفه ونعمة الحساب والجزاء في الآخرة.

بين المقطع ومحور السورة

الفناء من نعم الله تعالى على عباده وهو سنةُ الوجودُ، وقنطرة إلى دار الخلود.

ولولا الموتُ لاستحالت الحياةُ، ولولا الفناء ما كان البقاء، والموت كما أسلفنا راحةٌ للمؤمن وراحةٌ من الكافر والمنافق، من هنا تنتظمُ الآيات مع أخواتها في عِقدِ النعم.

التفسير الإجمالي

جاءت هذه الآياتُ حدا فاصلا بين نعم الدنيا والآخرة، فهي تتحدث عن الموت وهو القنطرةُ والممرُّ إلى نعيمِ الآخرة، وكلُّ ما في الوجودِ من مخلوقاتٍ، لا بدَّ لها من تجرُّع كأسِ الموتِ، فلا يبقى إلا الحيُّ تبارك وتعالى ذو الجلال والهيبة والعظمة والسلطان، وصاحب العطاء والجودِ والإكرام.

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ فكل من على هذه البسيطة من كائناتٍ ستنقضي أيامها، وتذبُلُ براعمُها، وتذوي أغصانُها، وتتساقطُ أوراقُها، وينطفئ بريقُها وتنطوي صفحاتُها، قال تعالى ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال جلَّ وعلا﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

يمضي الصغيرُ إذا انقضتْ أيامُهُ		إثْرَ الكبيرِ ويولدُ المولودُ
والناسُ في قَسَمِ المنيَّةِ بينَهُمْ		كالزرعِ منْهُ قائمٌ وحصيدُ

وقال قس بن ساعدة:

في الذاهبينَ الأَوَّلي ... نَ منَ القُرونِ لَنا بَصائِر
لَمّا رَأَيتُ مَوارِداً ... لِلمَوتِ لَيسَ لَها مَصادِر
وَرَأَيتُ قَومي نَحوَها ... تَمضي الأَصاغِرُ وَالأَكابِر
لا يَرجِعُ الماضي وَلا ... يَبقى مِنَ الباقينَ غابِر
أَيقَنتُ أَنّي لا مَحا ... لَةَ حَيثُ صارَ القَومُ صائِر

﴿ يَسْأَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾

فالله سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، وهو الذي تقصده الخلائق في قضاء حوائجها وهو الغنيُّ وكلُّ الخلق مفتقرٌ إليه، وكل يوم هو في شأن، مِنْ إحياء وإماتة، وقبض وبَسْطِ، وغير ذلك من تصريفه وتدبيره لشؤون خلقه بما تقتضيه الحكمةُ، وهذا من تمام إنعامه.

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾

أي للحسابِ، وفي هذا وعيدٌ للمسيء ووعدٌ للمحسنِ، « ولما كان تخويفه لعباده نعمةً منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب، امتن عليهم فقال ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ »[1]

الهدايات المستنبطة

الموت نعمةٌ من الله: في قوله تعالى﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾: [الرحمن: ٢٦-٢٨] ما يفيد أن الموت من آلاء الله عز وجل أي من نعمه التي لا يكذبُ بها إلا جاحدٌ معاندٌ، فإن الموتَ بوابةٌ إلى الآخرة، وقنطرةٌ لا بدَّ من عبورها، فالموت نعمة من الله لأنه يذكرنا بالحياة وما يذكر بالنعمة فهو نعمة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ص ٨٣٠.

والموت نعمة من الله لأنه من أعظم العظات وأبلغ العبر.

والموت نعمة من الله لأن الصبر والاحتساب عند فقد الأحباب يفضي إلى جزيل الثواب.

والموت نعمة من الله لأنه انتقال من دار العمل إلى دار الجزاء، ليجزي المؤمن بإيمانه وإحسانه، ويجازي الكافر بكفره وعصيانه.

والموت نعمة من الله تعالى؛ فكم قصم الله بالموت أعناق جبابرة فأراح منهم العباد والبلاد، ونقلهم من القصور إلى أعماق القبور، ومن بين الحشود والجنود إلى بيت بابه مسدود، ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الدخان: ٢٩]، ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

والموت نعمة من الله: فبالموت يستريح المؤمن من هموم الدنيا ونكدها ومحنها وفتنها وآفاتها، فعَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْن رِبْعِيٍّ ﷺ أَنَّهُ: « كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِجَنَازَةٍ فَقَالَ مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ ؟ قَالَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابّ» [1].

ولولا أن الله كتب الموت على الأحياء لأصبحت الدنيا متحفاً مفتوحاً للمعمرين فهذا عمره خمسمائة عام، وهذا عمره ألفان، وهذا عمره سبعة، وهكذا تمتلئ الدنيا بالمعمِّرين.

« فلو أن ذبابتين تتوالدان بلا موت لمدة خمس سنوات لشكل ذلك الذباب طبقة حول

(١) الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب الرقاق باب سكرات الموت حديث ٦٥١٢، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الجنائز بَاب مَا جَاءَ فِي مُسْتَرِيحٍ وَمُسْتَرَاحٍ مِنْهُ، حديث ٦١ - (٩٥٠) والنسائي في السنن عنه كتاب الجنائز باب اسْتِرَاحَةُ الْمُؤْمِنِ بِالْمَوْتِ حديث ١٩٠٤. والإمام مالك في الموطأ كِتَاب الْجَنَائِزِ بَاب جَامِعِ الْجَنَائِزِ ٢ / ١٦٨.



الكرة الأرضية سمكها خمس سنتيمترات من الذباب»[(١)].

ومن هنا فإن الموت نعمة من الله، به يتحقق التوازن في هذا الكون.

* وفي الآية ردٌّ على اليهود حيث قالوا: إنَّ اللَّهَ يستريح يومَ السبت لا يفعل شيئاً، فأخبر أنه كل يوم هو في شأن، ولو أُخْلِيَ العالَم لحظةً من حِفْظِه لتلاشى وبَطُلَ.

* ومن شأنه أن يغفرَ ذنباً، ويَسْتُرَ عيباً، ويُذْهِبَ كرباً، ويُطَيِّبُ قلباً، ويُقْصِي عَبْداً ويُدْنِي عبداً... إلى غير ذلك من فنون الأفعال. وله مع عباده كلَّ ساعَةٍ بِرٌّ جديدٌ، وسِرٌّ بينه وبين عبده - عن البقاء - بعيد، ويقال: كل يوم هو في شأنِ سَوْقِ المقادير إلى أوقاتها، ويقال: كل يوم هو في شأنِ إظهارِ مستورٍ وسَتْرِ ظاهرٍ، وإحضارِ غائبٍ وتغييبِ حاضرٍ. سأل بعض الملوك وزيره عنها فاستمهله إلى الغد وذهب كئيباً يفكر فيها، فقال غلام له أسود: يا مولاي، أخبرني ما أصابك لعل الله يسهل لك على يدي، فأخبره فقال له: أنا أفسرها للملك فأعلمه، فقال: أيها الملك شأن الله أن يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيماً ويسقم سليماً، ويبتلى معافاً ويعافى مبتلى، ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً ويفقر غنياً ويغني فقيراً؛ فقال الملك: أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة فقال: يا مولاي هذا من شأن الله.[(٢)]

* الحساب والجزاء من أجل النعم التي بها تستقيم أمور الدنيا وموازين الآخرة، ليجزى المحسن بإحسانه ويجازى المسيء بإساءته، ويُقتصُّ للمظلوم من ظالمه.

---

(١) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى رحمه الله ١٠ / ٥٦٥٢.

(٢) الكشاف للزمخشري ٤/ ٤٦.



المقطع الخامس: تحدٍّ وإعجازٌ

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾[الرحمن ٣٣- ٣٦]

المناسبة

بعد الإشارةِ إلى حسابِ الثقلين في الآخرة بين تعالى أن هذا الموعد المرتقب لن يتفلَّت منه أحدٌ، فلا مفرَّ من الله إلا إليه، ثم انتقل بنا السياقُ إلى جملةٍ من أهوالِ يومِ الفَزَعِ الأَكْبَرِ.

بين المقطع ومحور السورة

نعم الله في هذه الآيات واضحةٌ وآلاؤهُ ظاهرةٌ وهي منتظمةٌ مع سياقِ السورةِ ومحورِها الذي يدورُ حولَ نعمِ الرحمنِ في الدارينِ.

التفسير الإجمالي

قيل هذا النداءُ يوم القيامة حيث لا مفرَّ ولا مهرب من قَدَرِ الله تعالى، وهو الذي أرجِّحُهُ مراعاةً لسياق الآيات، وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ ﴾: توبيخٌ في الآخرة للمكذبين، وتأنيبٌ لما وقع منهم في الدنيا من تكذيبٍ.

وقيل الآيةُ: تحدٍّ لهم في الدنيا، بأنه لا سبيل إلى النفوذ من أقطار السموات والأرض إلا بسلطانٍ، قال بعض المعاصرين هو سلطان العلم، واعتبروا ذلك من إعجاز القرآن حيث أشار إلى صعود الفضاء، وعلى هذا فقوله تعالى﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ ﴾: تنويهٌ وتذكيرٌ بنعمةِ العلمِ ونعمةِ التوفيقِ والهداية والسداد تلك النعم التي ظَهَرَ أثرُها في تمكّن الإنسان من ارتياد الفضاء والهبوط على سطح القمر، فهل شَكَرَ روّادُ الفضاءِ ومَنْ وَرَاءَهُم هذه النعم ؟ لا والله بل كفر الكثير منهم وأعرضوا وفرحوا بما عندهم من العلم واغتروا وركنوا لما يتملّكونه من تقنيات كما هو حال الغرب الآن، إلا من عصم الرحمن.

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾: وذلك في الآخرة، وهذا تهديدٌ ووعيدٌ لهم؛ أنهم في قبضةِ الجبار، فلا تفلُّتَ ولا فرار، ولا نصير ولا مُخَلِّص، فالنار تلاحقهم أينما حلُّوا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاث طَرَائِقَ: رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَان عَلَى بَعِير، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِير، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِير، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِير، وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمْ النَّارُ تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا)[1].

والشُّواظُ: وهو اللهيبُ الذي لا دخانَ فيه، والنحاس: المذابُ الذي يُصَبُّ على رؤوسهم.[2]

ويؤيد هذا قوله تعالى ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المرسلات: ٢٩ - ٣٤].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فإن التخويفَ لطفٌ أيُّ لطف، وتكرارُ الإنذار نعمةٌ بعدَ نعمةٍ، والتقديمُ بالوعيد إنصافٌ ورحمةٌ، وإذا حملنا الخطاب على ما يكون في الآخرة: فهذا تقريعٌ بعد تقريعٍ.

الهدايات المستنبطة

* من رحمة الله بعباده ولطفه بهم أن أنذرهم وحذَّرهم من سخطه وعذابه، وأنذرهم من شديد عقابه.
* الحساب والجزاء نعمةٌ من أتمِّ النعم فهو رحمةٌ للمحسنين وعدلٌ بالمسيئين.
* في الآيات إشارةٌ علميةٌ – كما ذكر بعض العلماء – وهي التنويه على ارتياد الفضاء بسلطان العلم.
* لا مفرَّ يوم القيامة من قضاء الله ولا عاصمَ من أمر الله، ولا ناصرَ لأعداء الله.

---

(١) صحيح البخاري - كِتَاب الرِّقَاقِ - بَاب كَيْفَ الْحَشْرُ - حديث ٦٠٤١.

(٢) معالم التنزيل للإمام البغوي ٧ / ٤٤٨.

المقطع السادس: عاقبة المجرمين

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الرحمن: ٣٧ – ٤٥]

المناسبة

ما زال الحديثُ موصولا حولَ أهوالِ هذا اليوم العظام، وَوَقْعِهِ عَلَى الْمُكَذِّبينَ المجرمين وهذا من نعمه تعالى أن انتقم من العصاة، وأذلَّهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد، كما أنَّ من نعمه تعالى: أن قدَّم إلينا بالوعيدِ.

بين المقطع ومحور السورة

لا يزال السياق حول نعم الله تعالى، ومنها نعم الآخرة، بمحاسبة الخلائق، وجزائهم.

التفسير الإجمالي

تذكيرٌ بهذا اليوم العصيب، يوم تشقَّق السماءُ تلك القبةُ الزرقاءُ التي تُحيطُ بنا، يتبدلُ هذا اللونُ الذي يدعو إلى الطمأنينة ويجلبُ الراحة، إلى اللونِ الأحمر مما يثير الرعبَ والفزَعَ، عندئذٍ يوبِّخُ الْمُكذِّبُ على تكذيبه، والغافل على غفلته، فيقال للجاحدين الغافلين المكذبين بنعم الله تعالى﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ مواطن مختلفة، ومواقف متباينة تزيدهم حيرةً واضطراباً، وقلقاً ورعباً، فتارةً يسألون وتارة لا يسألون، أو يسألون سؤال التوبيخ والتقرير والتقريع، لا سؤال الاستعلام، لأن الله تعالى عليم بكل شيء.

وقال الحسن ومجاهد: لا يسأل الملائكة عنهم، لأنهم يعرفونهم بالسِّيمَا، والسِّيما التي

يعرف بها المجرمون هي سواد الوجوه وزرق العيون في الكفرة، قاله الحسن.[(١)]

ويحتمل أن يكون لكل طائفةٍ سيماها التي تميِّزها وهيئتُها التي تفضحُ حالَها.

كما قال سبحانه ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [مريم: ٨٥ – ٨٦].

﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الصافات: ٢٢].

عَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَجُلاً قَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ: يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ: (أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِراً عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟)[(٢)]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمْ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)[(٣)].

﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ يعرفون بعلاماتٍ تميِّزهُم، من ذلك سوادُ الوجوه، وزُرْقةُ العيون، ثم يسحبون تارةً من نواصيهم وتارةً من أقدامهم أو: يجمع بين ناصيته وقدمه في سلسلة من وراء ظهره.

فيعرف الملائكة هؤلاء فيأخذون بنواصيهم ويَجُرُّونهم من أقدامهم ثم يلقونَهم في النار.

﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴾: فمن نعم الله تعالى أن ذكرهم وأنذرهم وأمهلهم حتى يتوبوا ويرجعوا، كما أن يوم القيامة من كمال نعمه تعالى على خلقه حيث يفصل بينهم ويجزي المحسن

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ٦ / ٢٧١.

(٢) صحيح البخاري كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ - بَاب قَوْلِهِ تعالى (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً). حديث ٤٤٨٢ وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب يحشر الكافر على وجهه رقم ٥٤- (٢٨٠٦).

(٣) رواه الترمذي في السنن وقال هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ سنن الترمذي - كِتَاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَاب مِنْهُ حديث ٢٤٩٢.

بإحسانه والمسيء بإساءته، كما يوبِّخُ الكفار في هذا الموقف على تكذيبهم بنعم الله تعالى.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ ﴾: هذه جهنم التي كذَّبوا بها في الدنيا، وسخروا وتهكَّموا هذه جهنم التي حذَّر منها الأنبياءُ وأنذروا، ها هي اليوم شاخصةٌ بارزةٌ متوفِّزةٌ، ها هي حاضرةٌ باديةٌ تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وترهيباً.

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[الطور: ١٣-١٥].

وهاهم يطوفون بينها وبين الحميم المغليِّ فهم بين النارِ والحميم، كالمستغيث من الرمضاء بالنار، تارة يعذَّبون في الجحيم، وتارة يُسْقَوْنَ من الحميم، وهو شرابٌ حارٌّ كالنُّحَاس المذاب يقطعُ الأمعاءَ والأحشاءَ، ونظير هذا كقوله تعالى:﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[غافر: ٧١ - ٧٢].

يمشون بين النار والحميم فإذا أصابهم حرُّ النار طلبوا التبرد فلاح لهم الماء فاشتهوه، فأصابهم حرُّه فانصرفوا إلى النار دَوَالَيْك وهذا كقوله: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقال ذلك توبيخاً لهم وتقريعاً في الآخرة، أو هذا خطابٌ للثقلين في الدنيا تذكيرٌ بنعم الله تعالى التي يغفل عنها الغافلون ويجحدها الجاحدون ويعرض عنها المعرضون، ومن هذه النعم الجليلة الترهيب من النار ومن حرِّها ولهيبها، وتصريف الوعيد كما قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾[طه: ١١٣].

الهدايات المستنبطة

* في تذكير الناس بأهوال القيامة ومواقفها العظام نعمٌ جليلةٌ، حتى نحذرَ الآخرةَ ونتزودَ لها بالتُّقى والصلاح.

* عقاب المجرمين والتنكيل بهم من أعظم النعم؛ فبه شفاء صدور المؤمنين، وذهاب غيظ قلوبهم، فكم أفلت كثيرٌ من المجرمين من العقوبة العاجلة في الدنيا، وكم تنصَّلوا مما وُجِّه إليهم من تهم، أو عاجلهم الموتُ قبل القصاصِ منهم، أو لم تُهيأ محكمةٌ عادلةٌ، ولكن أنى لهم الخلاصُ من المحكمة الإلهية الفاصلة ؟

* الذنوب لها روائحُها التي تفوحُ كروائح الجيفِ، ولها أصباغُها السودُ على الوجوهِ كقطع الليل المظلم، ولها ثقلُها ووطأتُها على الظهورِ التي تنوءُ بحملها، ولها حرارتُها ولهيبُها على الأكبادِ اليابسةِ والنفوس الآيسة، فإذا رأتهم ملائكةُ العذاب سارعوا بالتنكيل بهم والانتقام منهم على جرائمهمُ النَّكراء، فتُرغمُ الأنوفُ وتُقْرَعُ النواصي، وتُحصدُ الأقدامُ كما تُحصدُ الزروعُ بالمناجِلِ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾.

* كمالُ قدرتِهِ تعالَى وعظيمُ سلطانِهِ وقوة جبروتِهِ بأعدائه الذين كذبوا به وكفروا بأنعمه تعالى.

المقطع السابع: نعيم المتقين

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ
إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ
خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ
خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾
[الرحمن: ٤٦ – ٧٨]

المناسبة

بعد الحديث عن مصير المجرمين المكذبين يأتي الحديث عن عاقبة المتقين، وتنتظم الجنةُ في سلك النعم الواردة في السورة لأنها هي النعمةُ الكبرى، والرحمةُ العظمى التي يمنُّ بها الرحمنُ على مَن يشاء مِن عباده.

بين المقطع ومحور السورة

نعيمُ الجنة من أجل النعم، فهو النعمةُ الخالدةُ المتجددةُ، وتشويقُ المتقين إليها نعمةٌ عظيمةٌ؛ لأنها تجددُ نشاطَهم، وتعليَ من همتهم، وتحفِّزهم على العمل الصالح، وبهذا تتجلى لنا الصلةُ بين آياتِ المقطعِ ومحورِ السورةِ.

التفسير الإجمالي

بعد بيان مصير المجرمين يأتي الحديثُ عن مصير المتقين، وما ادَّخره لهم الرحمن، ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾، وفي الصحيحين عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ).[(١)]

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ﴾: وهذه نعمةٌ من أجل النعم إنها نعمةٌ دائمةٌ في دار البقاء.

﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ ﴾: والأفنان: جمع فنٍّ أي صِنفٌ أو نوع أو فرع، فالنعيم فيها أصنافٌ وألوانٌ لا تخطرُ ببال، أي ذوات أنواع من الأشجار والثمار والأنهار، والقصور والدور والأثاثِ والمتاع، والثيابِ والمراكبِ، وألوانِ الأطعمةِ والأشربة، أو جمع فنن وهو ما دقَّ ولان من الأغصان، وإنما خصَّها بالذكر لأنها هي التي تورقُ وتزهرُ وتثمرُ. فمنها تمتدُّ الظلالُ، وتتفتَّحُ الأزهارُ وتتفتَّقُ الثمارُ، وكلُّ ذلك من النعمِ التي تستوجبُ الشكرَ، ولذا عقَّبها بقوله تعالى﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ ﴾

تلك العينان الجاريتان بما صفا وطاب ولذَّ: من ألوان النعيم، وأسباب الأنس، والبهجة وصُنُوفِ المَلَذَّاتِ، ونعمةُ الماء ولذةُ الشراب من أعظم النعم؛ لذا جاء التعقيب بقوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾

تنوعٌ في صنوفِ النعمِ، وهذا من لطائف الكرم وتمام المنن،﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ ﴾، مما يعلمون ومما لا يعلمون، من المعروف المألوف، ومن العجيب الطريف.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير بَاب: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ رقم (٧٩٥٤)، وصحيح مسلم كِتَاب الْإِيمَانِ - بَاب إِثْبَاتِ رُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رقم (١٨٠).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾تنويهٌ وتذكيرٌ بهذه النعم الجليلة.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ ﴾

والاتكاءُ يدلُّ على صفاء البال، فهم في راحةٍ ورفاهيةٍ، وأنس وبهجةٍ، ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ ﴾: والبطانة ما تحت الظهارة، والإستبرق من الديباج الصفيقُ، ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾: ثمرُها قريبٌ منالُه، ونظير هذا قوله تعالى ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾[الحاقة: ٢٢ – ٢٤]، وقوله جل وعلا ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾[الإنسان: ١٤].

﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ ﴾

﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾، عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ؛ فلا يرَيْنَ ولا يتطلّعن لغَيْرِهُم، قَصَرْنَ أبصارهنَّ وقلوبهنَّ وأسماعهنَّ على أزواجهنَّ، فلا يُرِدْنَ غيرَهم، وهذا من تمام الإنعام وكمالِ الإحسانِ أن يُرزق الرجلُ بالزوجةِ الحسناءِ التي تقرُّ بها عينه كما تقرُّ عينُها به، يحبُّها وتحبُّه.

﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾ في صفاء الياقوت وحُمرةُ وروعةُ وبياض المرجان، فهذا التشبيه البليغُ لوصف بياضهن المشرب بالحمرة مع صفاء البشرة ونعومتها ورقتها بالياقوت والمرجان.

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾ هل جزاء من أحسن في دنياه، إلا أن نحسن له في آخرته ؟ وهل جزاء من أحسنا له في دنياه بالهداية والتوفيق، إلا أن نحسن له في آخرته بالأجر والثواب ؟

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾

جنتان من ذهب وجنتان من فضة وفي هذا التنوعِ والتفننِ والتنقلِ بين المتع ما تبتهجُ به النفوسُ وتنشرح الصدور وتلذُّ العيون وتلهجُ الألسنةَ بالحمد والثناء على واهب النعم جلَّ

وعلا، فكيف يكذِّبُ أهلُ الضلالِ بهذه المسائل اليقينية ؟﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ ﴾ ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾ وصف الجنتين بخضرتها الشديدة وأشجارِهما الوريقةِ وظلالِها الوارفةِ، وهذا من طيب التربة وصفاء الهواء وعذوبة الماء ووفرته.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾ تذكيرٌ بالنعم وتأنيبٌ لمن يُصِرُّ على التكذيب بها مع جلائها وجلالها.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ ﴾: النَّضْخُ فَوَرانُ العينِ بالماء، وعَنْ أَنَس ﷺ فِي قَوْلِهِ: «عَيْنَان نَضَّاخَتَانِ»، قَالَ: بِالْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ، تَنضُخَانِ عَلَى دُورِ الْجَنَّةِ، كَمَا يَنْضَخُ الْمَطَرُ عَلَى دُورِ أَهْلِ الدُّنْيَا»[1].

﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ ﴾

في الجنتين من أطايب الفاكهة صنوفٌ وألوان، وخصَّ النخلَ والرُّمان لأنهما من أفضل الفواكه، وإنما ذكر النخيل ولم يقل الرطب أو التمر ليشير إلى جمال النخيلِ وشموخها وروعتها فهي زينةٌ فوق ما فيها من الأطايبِ والمنافعِ؛ ولذا تغنَّى بها الشعراءُ، من ذلك قولُ أحدِهِم:

قَـــد طـــابَ لي مَـقـيَـلي ... في سَـهـلِـكَ الجَـمـيـلِ
في ظِـــلِّـــكَ الـظَـلـيـلِ ... يـــا شَـجَـرَ الـنَّـخـيـلِ
يـــا جَـنَّـــةَ الـظِـلالِ ... يـــا مَـسـبَـحَ الجَـمـالِ
وَيـــا جَـنـى الـــدَوالي ... يـــا شَـجَـرَ الـنَّـخـيـلِ
قـــامَـتُـــكِ الهَـيـفـاءُ ... ثِـــمـارُكِ الحَـمـراءُ
وَالخَـيـرُ وَالـرَخـاءُ ... يـــا شَـجَـرَ الـنَّـخـيـلِ
قَـــد طـــابَ لي مَـقـامـي ... وَرَفـرَفَـت أَحـلامـي
في رُكـنِـكِ الحَـــرامِ ... يـــا شَـجَـرَ النَّخيـلِ[2]

(١) تفسير القرآن العظيم ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٨.

(٢) الأبيات للهمشري.



وقال آخر:

وَفِي الـرَّوْضِ آيَـاتٌ وللنيل رَوْعَـةٌ وَوَجْـهُ الضُّحَى يَفْتَرُّ وَالطِّيبُ فَاغِمُ

وَأَبْـدَعُ مَا فِيهَا النَّخِيـلُ مُقَلَّـداً قَلائِـدَ يَاقُـوتٍ لَهَا الْحُسْنُ نَاظِـمُ[(١)]

وعَن ابْنِ عَبَّاس ﷺ قَالَ: «نَخْلُ الْجَنَّةِ سَعَفُهَا كِسْوَةٌ لأَهْلِ الْجَنَّةِ، مِنْهَا مَقْطَعَاتُهُمْ، وَمِنْهَا حُلَلُهُمْ، وَكَرَبُهَا ذَهَبٌ أَحْمَرُ، وَجُذُوعُهَا زُمُرُّدٌ أَخْضَرُ، وَثَمَرُهَا أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَلْيَنُ مِنَ الزُّبْدِ، وَلَيْسَ لَهُ عُجْمٌ»[(٢)].

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾

أي: حورٌ خَيِّرات الأخلاق حِسانُ الوجوه، قد جمعن بين جمال الظاهر والباطن، قد بلغن الغاية في الحسن والجمال، وحميد الخصال، ونُبلِ الطباع.

والحوراء هي شديدة بياض الوجه وسائر البشرة مع سعة العينين في ملاحةٍ ودَعَجٍ، ومع هذا الحسن البديع فهن خفراتٌ، بناتُ الخدورِ، ربيبات القصور، ربَّاتُ الحجالِ، مقصوراتٌ في الخيامِ، ولا ينفي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنان، كما جرت العادة لبنات الملوك.

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾: لم يفتَضِضْهُنَّ، ولَمْ يَمْسَسْهُنَّ إنس قبلهم ولا جان فهن أبكارٌ، وللبكر حظوةٌ ومكانةٌ لدى الرجل، قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٧].

عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلاً، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمْ الْمُؤْمِنُونَ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ كَذَا آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ

---

(١) البيتان لخليل مطران.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٢٨، وقطع كرب النخل: أصول سعفها وهي الكرانيف.

وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ، عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ).[١]

وعن أَنَس بْن مَالِك ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال (لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ يَعْنِي سَوْطَهُ خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)[٢].

وعَن ابْنِ مَسْعُود ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ مُسْلِم خَيْرَةٌ، وَلِكُلِّ خَيْرَةٍ خَيْمَةٌ، وَلِكُلِّ خَيْمَةٍ أَرْبَعَةُ أَبْوَاب، يَدْخُلُ عَلَيْهَا كُلَّ يَوْم مِنَ اللهِ تُحْفَةٌ وَكَرَامَةٌ وَهَدِيَّةٌ، لَمْ تَكُنْ قبلَ ذَلِكَ لا مَرَاحَاتٌ، وَلا طَمَّاحَاتٌ، وَلا بَخِرَاتٌ، وَلا ذَفِرَاتٌ»[٣].

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

الاتكاء مظهرٌ من مظاهر النعيم والرفاهية، والرفرف هو السرير الذي يجلسُ عليه المؤمنُ ويبتهجُ بمناظر الجنة.

عن سعيد بن جُبير: أنه قال فِي هذه الآية ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾قال: رياض الجنة.[٤]

وقال القرطبي: « وقد قيل: إن الرفرف شيء إذا استوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمرجاح يمينا وشمالا ورفعا وخفضا يتلذذ به مع أنيسته».[٥]

---

(١) صحيح البخاري كِتَاب تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بَاب ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ حديث ٤٥٩٨، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في صفة خيام الجنة رقم ٢٨٣٨.

(٢) صحيح البخاري - كِتَاب الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ - بَاب الْحُورِ الْعِينِ وَصِفَتِهِنَّ يُحَارُ فِيهَا الطَّرْفُ شَدِيدَةُ سَوَادِ الْعَيْنِ شَدِيدَةُ بَيَاضِ الْعَيْنِ حديث ٢٦٤٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٠ / ٣٣٢٨.

(٤) جامع البيان للطبري ٢٣ / ٨٣

(٥) تفسير القرطبي ١٧ / ١٩١، و«اللباب في علوم الكتاب» لابن عادل ١٥ / ٦٧، وقريبٌ منه في زماننا=

والعبقري الحسان: البُسُط والنمارقُ والوسائد المنسوجةُ من الحرير بأبدع النقوش والألوان.

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

قولُه تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾: « تنزيهٌ وتقديسٌ له تعالَى، فيه تقريرٌ لما ذُكِرَ في السورةِ الكريمةِ من آلائه الفائضةِ على الأنام أي تعالَى اسُمه الجليلُ الذي من جُمْلتِه ما صُدِّرتْ به السورةُ من اسم الرحمن المنبىءِ عن إفاضتِه الآلاءَ المُفصَّلةَ وارتفعَ عمَّا لاَ يليقُ بشأنِه من الأمور التي منْ جُمْلتها جحودُ نعمائِه وتكذيبُها، وإذا كانَ حالُ اسمِه بملابسةِ دلالتِه عليهِ فما ظنُّك بذاتِه الأقدسِ الأعْلى، ﴿ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ وصفَ به الربُّ تكميلاً لما ذُكِرَ من التنزيهِ والتقريرِ. وقُرِىءَ ذُو الجلال على أنَّه نعتٌ للاسمِ». (١)

والجلال: العظمة، وهو جامع لصفات الكمال اللائقة به تعالى.

والإكرام: إسداء النعمة والخير، فهو إذن حقيق بالثناء والشكر.

الهدايات المستنبطة

* من نعم الله على عباده أن حدثهم عن نعيم الجنة ليزدادوا حرصا عليها، ويطيروا شوقاً إليها، حيث النعيم المقيم والعيش الكريم والتمتع بكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين دون منغِّص أو مكدِّر، ودون مَلَلَ أو سَأَمَ، ودون عجز أو ضعف أو حرمان.

ولله در ابن القيم حين قال:

فَـلِـلَّـهِ كَـمْ حـوريـةٍ إنْ تَبَسَّمَتْ أَضَـاءَ لها نـورٌ من الفَجْرِ أعظمُ
فيَا لـذَّةَ الأبـصـارِ إنْ هِـيَ أقْبلَتْ ويـا لـذةَ الأسـماعِ حـينَ تكلَّمُ

=المنطاد، الذي يطيرُ فوق المدن والقرى والصحاري والغابات والأنهار والبحيرات.

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود ٨ / ١٨٧.

ويا خَجْلَةَ الغُصْنِ الرطيبِ إذا انثنتْ ... ويـا خجلةَ الفجرينِ حين تَبَسَّمُ
فـإن كـنـتَ ذا قـلـبٍ عليلٍ بحُبها ... فلم يبقَ إلا وصلُها لك مَرْهَـمُ
تَـفَـكُّـهُ منها الـعـينُ عند اجتلائِهَا ... فـواكـهَ شتَّى طلعُها ليس يُعدمُ
عناقيدُ مِـن كَـرْمٍ وتـفـاحُ وَجْـنَـةٍ ... ورمَّـانُ أغصانٍ به القلبُ مُغرمُ
ولِـلْـوَرْدِ مـا قـد ألبستْهُ خـدودُهَـا ... وللخمرِ ما قد ضمَّهُ الرِّيقُ والفمُ
تَقَسَّمَ منها الحُـسـنُ في جمـعِ واحـدٍ ... فَـيَـا عَـجَـبـاً مِـنْ واحـدٍ يتقَسَّمُ
لهـا فـرقٌ شتَّى من الحـسـنِ أجمعتْ ... بـجُـمْـلَـتِـهَـا إنَّ الـسُّـلُـوَ محـرَّمُ
تُـذَكِّـرُ بـالـرحمـنِ مَـنْ هُـوَ ناظرٌ ... فينطِقُ بالتسبيحِ لا يَتَلَعْـثَمُ
إذا قابلتْ جيشَ الهـمـومِ بوجهِهَا ... تـولَّى عـلى أعـقـابِـهِ الجيشُ يُهْـزَمُ
وَلَّـمـا جَـرَى مـاءُ الشبابِ بغُصنِها ... تَـيَـقَّـنَ حـقـاً أَنَّـهُ ليس يَهْـرَمُ
فيا خاطِبَ الحسناءِ إنْ كنْتَ بَاغِياً ... فهذا زمـانُ المَـهـرِ فَـهْـوَ المُـقـدَّمُ

* وغضُّ الطرف مما يزيدُ المرأةَ حسنا وجمالا، ويزيد الناظر إليها وَلَعاً وافتتاناً، وقد مدحت المرأة بذلك كما قال كعب بن زهير ﷺ:

ومـا سعاد غـداةَ البين إذْ رحلُوا ... إلاّ أَغَـنُّ غَضِيضُ الطرف مكحول

أي: كظبي غضيض الطرف.

ووجه الشبه بالياقوت والمرجان في لون البياض مع حمرة الخدود كما يشبه الخد بالورد، ويجوز كونُ التشبيه بهما في الصفاء والبريق والرونق.

* من العجيبِ أن يغفل الإنسانُ عن الحور الحسان ويبدد مهورهنَّ بعرض الدنيا الزائل وقد قيل:

جُنِنَّا بَلَيْلَى وَهْـيَ جُـنَّـتْ بغيرِنَا وأُخْـرَى بِنَا مَجْنُـونَـةٌ لا نُرِيدُهَا

ذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة عن أحمد بن أبي الحواري قال: قال لي أبو سليمان الداراني: يا أحمد إني محدثك بحديث فلا تحدث به أحداً حتى أموت: نمت ذات ليلة عن وردي فإذا أنا بحوراء تنبهني وتقول: يا أبا سليمان تنام وأنا أربى لك في الخدور؟ قال: فوثبت فزعاً وقد عرقت استحياء من توبيخها إياي، وإن حلاوة منطقها لفي سمعي وقلبي [(١)].

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ١ / ٤٦٨.



سورة الواقعة

البعث والجزاء في سورة الواقعة

أولاً: بين يدي السورة:

أ. تسمية السورة:

سُمِّيت هذه السورة (الواقعة) لافتتاحها بقوله تعالى:﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾[الواقعة:١]، والواقعة تعني الحادثة العظيمة، وهي اسم من أسماء يوم القيامة، وسُمِّيت بذلك لتحقق وقوعها، وكثرة ما يقع فيها من الشدائد(١).

ب. فضائل السورة:

وردت أحاديث كثيرة في فضائل سورة الواقعة صحَّ منها حديثان:

الأول: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله قد شِبْتَ! فقال ﷺ: « شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، و﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [النبأ: ١]، و﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١]»(٢).

والثاني: عن جابر بن سمرة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلاة كنحوٍ من صلاتكم التي تصلون اليومَ، ولكنَّه كان يخفِّف، كانت صلاتُه أخف من صلاتكم، كان يقرأ في الفجر الواقعة، ونحوها من السور(٣).

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ٥٣٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٩٤.

(٢) المصنف، عبد الرزاق الصنعاني ٣/ ٣٦٨، سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ٩/ ١٣١، المستدرك، الحاكم النيسابوري ٢/ ٣٤٣، وقال: صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني ٢/ ٦٣٩.

(٣) المصنَّف، عبد الرزاق الصنعاني ٢/ ١١٥، المستدرك، الحاكم النيسابوري ١/ ٢٤٠.

ج. مكان نزول السورة:

سورة الواقعة مكيَّة، قال ابن عطية: « وهي مكيَّة بإجماع مَن يُعتَد بقوله من المفسرين وقيل: إنَّ فيها آياتٍ مدنية، أو ممَّا نزل في السفر، وهذا كله غير ثابت»(1).

وقال ابن عباس وقتادة: مكية إلا آية منها نزلت بالمدينة، وهي قوله تعالى:﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الواقعة: ٨٢](2).

وقال الكلبي: مكية إلا أربع آيات؛ منها اثنتان نزلتا في سفر النبي ﷺ إلى مكة، وهما:﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الواقعة: ٨١- ٨٢]، واثنتان نزلتا في سفره إلى المدينة، وهما: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[الواقعة: ٣٩- ٤٠](3).

د. عدد آيات السورة:

عدد آيات سورة الواقعة ست وتسعون آية في العد الكوفي، وتسع وتسعون آية في عدد الباقين، قال الداني: « واختلافها في أربع عشرة آية:

﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ [الواقعة:٨]، وكذا:﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ [الواقعة:٩]، لم يعدهما الكوفي، وعدهما الباقون.

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الواقعة:١٥]، لم يعدها البصري والشامي، وعدها الباقون.

﴿ وَأَبَارِيقَ ﴾ [الواقعة:١٨]، عدها المدني الأخير والمكي، ولم يعدها الباقون.

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الواقعة:٢٢]، عدها المدني الأول والكوفي، ولم يعدها الباقون.

﴿ وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ [الواقعة:٢٥]، لم يعدها المدني الأول والمكي، وعدها الباقون.

---

(1) المحرر الوجيز: ٥/ ٣٣٨.

(2) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٩٤، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٤٦.

(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٩٤.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة:٢٧]، لم يعدها المدني الأخير والكوفي، وعدها الباقون.

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الواقعة:٣٥]، لم يعدها البصري، وعدها الباقون.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ [الواقعة:٤١]، لم يعدها الكوفي، وعدها الباقون.

﴿ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الواقعة:٤٢]، لم يعدها المكي، وعدها الباقون.

﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ ﴾ [الواقعة:٤٧]، عدها المكي، ولم يعدها الباقون.

﴿ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴾ [الواقعة:٤٩]، لم يعدها المدني الأخير والشامي، وعدها الباقون.

﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ [الواقعة:٥٠]، عدها المدني الأخير والشامي، ولم يعدها الباقون.

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [الواقعة: ٨٩]، عدها الشامي، ولم يعدها الباقون»[1].

هـ. محور السورة:

سورة الواقعة كغيرها من السور المكية تعنى بغرس العقيدة، وإقامة الدلائل على توحيد الربوبية والألوهية، وتقرير **البعث والجزاء**، وهذا الأخير هو محورها الأبرز، ودليل ذلك:

١ - الموضوعات التي تناولتها السورة، وهي:

أولاً: التذكير بيوم القيامة وتحقيق وقوعه، وأصناف الناس في ذلك اليوم، ومآلاتهم.

ثانياً: دلائل الإيمان **بالبعث** والجزاء.

ثالثاً: تعظيم شأن القرآن الكريم وصدق ما أخبر به من أمر البعث والجزاء.

وكل موضوع مما تقدم له ارتباط بمحور السورة، وسنشير إلى ذلك عند استعراض المعنى الإجمالي لمقاطع السورة إن شاء الله تعالى.

---

(١) البيان في عد آي القرآن ٢٣٩.

٢ - تحديد بعض المفسرين المتقدمين والمتأخرين مقصود هذه السورة بتقرير البعث والجزاء.

فأما المتقدمون؛ فقال مسروق بن الأجدع: «مَن أراد أن يعلم نبأ الأولين، ونبأ الآخرين ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ الدنيا، ونبأ الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة»[(١)].

وأما المتأخرون فمنهم: البقاعي، وسيد قطب، والمراغي، وابن عاشور، وسعيد حوَّى، والصابوني[(٢)].

٣ - قوله ﷺ: «شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾، ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١﴾»[(٣)].

وسر الاقتران بين هذه السور هو اتحادهن في تقرير النشأة الآخرة؛ وسنكتفي هنا بعرض بعض الآيات من كل سورة للتدليل على ذلك:

فمن سورة هود قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾[هود: ٣- ٤].

ومن سورة الواقعة قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝٥﴾[الواقعة: ١ - ٥].

ومن سورة المرسلات قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣ وَمَآ

(١) فضائل القرآن، أبو عبيد ١٣٨.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٧/ ٤٠٤، في ظلال القرآن: ٦/ ٣٤٦١، تفسير المراغي: ٩/ ١٥٦، التحرير والتنوير: ٢٧/ ٣٠٨، الأساس في التفسير: ١٠/ ٥٦٨١، صفوة التفاسير: ٣/ ٣٠٤.

(٣) تقدم تخريجه.



أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ ﴾ [المرسلات: ٧ - ١٤].

ومن سورة النبأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾[النبأ: ١٧- ٢٠].

ومن سورة الشمس قوله تعالى:﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ ﴾[التكوير: ١- ٣].

فهذه الآيات شاهد صدق على قول الرسول ﷺ، وكلها تشترك في الحديث عن يوم البعث والجزاء، وما فيه من شدائد عظام، ولا ريب أنَّ كل شدة من تلك الشدائد تنذر بحلول الشيب، وتندِّد بالركون إلى الدنيا، وتحض على الاستعداد ليوم المعاد.

وانطلاقا ممَّا تقدم يمكننا تسمية عنوان محور هذه السورة: **«البعث والجزاء في سورة الواقعة»**.

و. المناسبات في السورة:

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

قال سيد قطب: « الواقعة اسم للسورة، وبيان لموضوعها معا، فالقضية الأولى التي تعالجها هذه السورة المكية هي قضية النشأة الآخرة، رداً على الشاكين فيها، المشركين بالله المكذبين بالقرآن، قال تعالى:﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[الواقعة: ٤٧- ٤٨]»[1].

كما أن الواقعة هي النفخة الآخرة للبعث، ووقوعها هو أول أحداث اليوم الآخر.

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٤٦١.

٢. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

يظهر التناسب بين فاتحة هذه السورة وخاتمتها من وجهين:

أولاً: افتتحت السورة بتقرير البعث، ثم أقامت الأدلة على إمكانه، وورد في آخرها تأكيد لما تقرر في فاتحتها، وبذلك انطبق آخرها على أولها تمام الانطباق.

وبيان ذلك أنَّه لَّما تمَّ ما أُريد من التذكير بأمر البعث، وبعد أن أقام القرآن الأدلة القطعية المشاهدة على إمكانه، وكان الكفار رغم ذلك يكذبون به، ويقولون:﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة: ٤٧] أكَّده في آخرها، فقال سائقا له مساق النتيجة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الواقعة:٩٥]، فكأنه من الظهور في حد لا يساويه فيه غيره، فهو حق اليقين، قال قتادة: إنّ الله تعالى ليس تاركاً أحداً من خلقه حتى يوقفه على اليقين من هذا القرآن؛ فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه(١).

ثانياً: افتتحت السورة بالحديث عن القيامة الكبرى، وانقسام الناس عند وقوعها إلى ثلاثة أصناف، قال تعالى:﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ «[الواقعة:٧ - ١٠]، واختتمت بذكر أحوالهم عند القيامة الصغرى، وقسمتهم إلى نفس الأصناف المذكورة في افتتاحيتها، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ ﴾[الواقعة:٨٨ - ٩٤].

٣. المناسبة بين افتتاحية سورة الواقعة وخاتمة سورة الرحمن:

تظهر العلاقة بين فاتحة سورة الواقعة وخاتمة سورة الرحمن من وجهين:

الأول: قسَّمت سورة الرحمن الناسَ إلى ثلاثة أصناف في اليوم الآخر، الصنف الأول:

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٨٢، ٣٨٣، نظم الدرر، البقاعي ٧/ ٤٣١ بتصرف.



المجرمون المكذبون بالبعث، ومصيرهم إلى جهنم، قال تعالى:﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرحمن:٤٣]، والثاني: السابقون وهم أهل التقوى، ولهم جنتان، قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦]، والثالث: أهل اليمين، ولهم جنتان أدنى من جنتيْ السابقين، قال تعالى:﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾[الرحمن:٦٢].

وبدئت سورة الواقعة بذكر تلك الأصناف الثلاثة المذكورة في سورة الرحمن، قال تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الواقعة:٧ - ١٠].

الثاني: في آخر سورة الرحمن إشارة إلى بعض صفات الله تعالى، قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾[الرحمن:٧٨]، وفي أول سورة الواقعة حديث عن القيامة، وما فيها من المثوبات والعقوبات، وكلاهما يدل على علو اسمه تعالى، وكمال قدرته[(١)].

٤. المناسبة بين مضمون سورتيْ الواقعة والرحمن:

بين مضمون هاتين السورتين تناسب بديع من وجوه، أهمها:

الأول: اشتراكهما في الحديث عن طورين مختلفين من أطوار خلق الإنسان، وعن النهايتين الصغرى (الموت)، والكبرى (القيامة).

قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾[الرحمن:١٤]، وقال: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾[الرحمن:٢٦-٢٧]، وقال: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾[الرحمن:٣٧].

وقال في سورة الواقعة: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[الواقعة: ٥٧ - ٥٩]، وقال: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[الواقعة: ٨٣، ٨٤]، وقال: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا

(١) التفسير الكبير، الفخر الرازي ١٥/ ١٢٠- ١٢٢.



﴿٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٤- ٥].

والثاني: اشتراكهما في وصف النار والجنة وأهلهما، ففي سورة الرحمن حديث عن أهل النار، وبيان لجزائهم حين كذبوا بيوم الدِّين، وأنَّ من ضمن عذابهم الحميم، قال تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الرحمن:٤٣-٤٤] وفي سورة الواقعة حديث عن أهل النار، وعن بعض ما هُيئ لهم؛ ومنه الحميم، وهو نفس ما ورد في سورة الرحمن، قال تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الواقعة:٤١-٤٢]، وقال: ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ ﴾[الواقعة:٩٣].

وفي سورة الرحمن أنَّ أهل الجنة نوعان، لكل منهما نوعان من الجنان؛ فهناك درجة عليا من العبادة والتقوى، استحق أهلها نوعين من الجنان، قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦]، وفيهما نعيم مقيم، قال تعالى:﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾[الرحمن: ٥٠ - ٥٨].

وهناك درجة دنيا من العبادة والتقوى استحق أهلها نوعين آخرين من الجنان، قال تعالى:﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾[الرحمن:٦٢]، وفيهما ألوان من النعيم، قال تعالى:﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾[الرحمن:٦٦ - ٧٦].

وفي سورة الواقعة حديث وافٍ عن أهل تلك الجنات، وهم السابقون وأهل اليمين وعن منازلهم، قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ

عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ
مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ
ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ
﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا
﴿٣٧﴾ ﴾ [الواقعة: ١٠ - ٣٧][1].

والثالث: اشتملت السورتان على تعديد نعم الله تعالى على خلقه؛ ففي سورة الرحمن ذكر لنعمة تعليم الإنسان القرآن الذي هو مدار السعادة في الدارين، وخلقه لإعمار الأرض وتعليمه البيان، وخلق الشمس والقمر، وبهما يحسب الأوقات، وخلق الميزان لإقامة العدل، وبسط الأرض للأنام، وتسخير ما فيها لمنفعتهم، وكررت السورة التنبيهات على آلائه تعالى إحدى وثلاثين مرة مطالبة بالشكر وعدم التكذيب:﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، وكل ذلك فيه إظهار لرحمته تعالى بخلقه، بدليل افتتاحها بقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾[الرحمن:١].

وفي سورة الواقعة ذكر لنعمة الخلق، والرزق؛ من مأكول ومشروب ونار كثيرة المنافع وأعقبت بالتنبيه على الشكر والتذكر، والجزاء بالخير لَمن شكر، وبالشر لَمن كذب وكفر، وفي ذلك إظهار لهيبته تعالى، بدليل افتتاحها بقوله:﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ ﴾[الواقعة:٣].

والرابع: « أن الله تعالى ذكر في سورة الرحمن انشقاق السماء عند قيام القيامة، وذكر في سورة الواقعة رجَّ الأرض، ولكن مع عكس الترتيب، فكأن موضوع السورتين واحد؛ فذكر في أول هذه ما في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول تلك، فافتتحت الرحمن بذكر القرآن، والشمس والقمر، والنبات، وخلق الإنسان والجان، ثم صفة يوم القيامة، ثم صفة النار، ثم صفة الجنة، وابتدئت الواقعة بذكر القيامة، وصفة الجنة والنار، وخلق الإنسان والنبات والماء

(١) تناسق الدرر، السيوطي ١٢٩، الأساس في التفسير، سعيد حوى ١٠/ ٥٦٧٧.



والنار، وذكرت النجوم، ولم تذكر في سورة الرحمن، كما لم تذكر في الواقعة الشمس والقمر، فكانت هذه كالمقابلة لتلك، وكالمتضمنة لرد العجز على الصدر»[1].

والخامس: أنَّ كلا السورتين قد ختم بتقديس الله تعالى وتنزيه اسمه، فهو سبحانه العظيم ذو الجلال والإكرام، قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨ ﴾ [الرحمن: ٧٨]، وقال: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٩٦ ﴾ [الواقعة: ٩٦].

ثانياً: المعنى الإجمالي لمقاطع السورة:

المقطع الأول

تحقيق القيامة

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١ لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ٤
وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ٥ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ٦ وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ ٧ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ
أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ
١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٤ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ
عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ
عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١ وَحُورٌ عِينٞ ٢٢ كَأَمۡثَٰلِ
ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ٢٣ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا
٢٦ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠
وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ٣٣ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ
إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٣٨ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ
ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ

(١) تناسق الدرر، السيوطي ١٢٩، التفسير المنير، وهبة الزحيلي ١٤/ ٢٣٧، ٢٣٨.

وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ
أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ
﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾
[الواقعة: ١ - ٥٦].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

مرَّ أن محور السورة هو تقرير البعث والجزاء، وهذا المقطع له علاقة وطيدة به؛ فقد افتتح بالتذكير بقيام الساعة، وهو أول إرهاصات البعث، ثم وصف المقطع ما يعرض للعالم الأرضي من أحداث، وانقسام الناس إلى ثلاثة أصناف؛ صنفان من أهل الجنة، وهم السابقون وأهل اليمين الذين صدقوا بالبعث فنالوا النعيم المقيم، وصنف من أهل النار، وهم الذين أشركوا بربهم وعبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وأنكروا البعث، وقد رد دعواهم في عدم البعث وأخبر أنه واقع حتماً.

ثانياً: التفسير الإجمالي للمقطع:

تدور أحداث هذا المقطع حول ثلاث قضايا:

الأولى: تقرير البعث والجزاء.

والثانية: انقسام الناس عند قيام الساعة إلى ثلاثة أصناف، وبيان مآل كل صنف.

والثالثة: تأكيد اجتماع الأولين والآخرين في ذلك اليوم.

* إذا وقعت القيامة ليس لوقعتها ارتداد ولا رجعة، ولا دافع يدفعها، قال تعالى: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ [الشورى:٤٧]، ولا يكون عند وقوعها نفس مكذبة، لأنها تؤمن حين ترى العذاب، قال تعالى:﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٠١].

* الواقعة تخفض المجرمين الذين كانوا في الدنيا مرفوعين، فتجعلهم في الجحيم، وترفع أهل الإيمان إلى أعلى عليين، وقد كانوا في الدنيا مغمورين، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾ [طه: ٧٤- ٧٥].

* وعندها تُزلزل الأرض زلزالاً، وتضطرب اضطراباً شديداً، قال تعالى:﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ ﴾[الزلزلة:١]، وقال:﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾[الحج: ١].

* وتُفَتَّت الجبال الشامخات فتّاً، فتصير كالهباء المنبث الذي ذرته الريح وفرقته، قال تعالى:﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾[المزمل: ١٤].

* وصرتم يوم القيامة أصنافاً ثلاثة:

* الأول: أهل اليمين الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم، وكانت أعمالهم:﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ ﴾[البلد: ١٣- ١٨].

* هل تدري أي شيء هم في حالهم وصفاتهم وسعادتهم ؟ ! إنهم في غاية السعادة، يؤخذ بأيمانهم إلى الجنة. فما أعلى شأنهم ! وما أحسن حالهم !.

* والثاني: أهل الشمال الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم، وهم الذين كفروا:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ ﴾[البلد: ١٩].

* أي شيء هم في حالهم ؟ إنهم في غاية من سوء الحال؛ يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار.. فما أسوأ حالهم !

* والثالث: السابقون المبادرون من كل أُمة إلى الإيمان والطاعة والخيرات والجهاد والتوبة.

* السابقون هم المقربون إلى جزيل ثواب الله وعظيم كرامته، لهم الدرجات العالية، يقربهم ربهم منه يوم القيامة، ويدخلهم جنة النعيم.

* وهم جماعة كثيرة، من الأمم السابقة من لدن آدم ﷺ إلى محمد ﷺ، وقليل من أمته ﷺ[1].

* إنهم في الجنة على أسرة منسوجة، مشبكة بالذهب والدر والياقوت والجواهر.

* جالسون على أسرتهم جلوس تمكن وطمأنينة وراحة، يقابل بعضهم بعضا، وينظر بعضهم إلى بعض، في صفاء سرائر، وحسن عشرة، قال تعالى:﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[الحجر: ٤٧]، وقال:﴿ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾[الصافات: ٤٣- ٤٤].

* ويدور حولهم غلمان في سن واحدة، لا يتغيرون ولا يموتون، هيأهم الله لخدمتهم، قال تعالى:﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ ﴾[الطور: ٢٤].

* يطوفون عليهم بأقداح مستديرة الأفواه لا عرى لها ولا خراطيم، وبآنية لها عرى وخراطيم، وكؤوس من خمر الجنة الجارية الينابيع والعيون، قال تعالى:﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ ﴿٤٥﴾ بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[الصافات: ٤٥- ٤٦].

* وحين يشربون خمر الجنة لا ينفد شرابهم، ولا يصيبهم صداع في رؤوسهم، ولا تذهب عقولهم بشربها[2]؛ فهي منزهة عن الآفات التي في خمر الدنيا، قال تعالى:﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ

---

(١) هذا هو اختيار الطبري وجمع من المفسرين. جامع البيان: ٢٢/ ٣٣٠. وقد رده ابن كثير؛ فقال: « وقد اختلفوا في المراد بقوله: ﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤]، فقيل المراد بالأولين: الأمم الماضية، وبالآخرين: هذه الأمة، وهو اختيار ابن جرير، واستأنس بقوله ﷺ: " نحن الآخرون الأولون يوم القيامة "[صحيح البخاري، الحديث رقم ٨٧٦] وهذا الذي اختاره ابن جرير هاهنا فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأنَّ هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثاني في هذا المقام هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ » أي من صدر هذه الأمة، ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ أي من هذه الأمة ". تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٠٥.

(٢) هذا المعنى على مجموع القراءتين في قوله: ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة:١٩]، فقد قرأ عاصم وحمزة=

مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الصافات: ٤٥ - ٤٧]، وقال:﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾[الطور: ٢٣].

* ويطوفون عليهم بفاكهة كثيرة غير مقطوعة ولا ممنوعة، فيختارون منها ما يشتهون.

* وبأنواع من لحوم الطير مما لذ وطاب، مما تشتهيه نفوسهم، قال تعالى: ﴿ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[الطور: ٢٢].

* ولهم في الجنة نساء شديدات سواد العيون وبياضها، واسعات الأعين في غاية الحسن والجمال[1]، كأنهن لؤلؤ في الصَّدَف، مصون عما يكدر صفاءه ونقاءه، مستور لم تمسه الأيدي أو تراه الأعين، قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾[الصافات: ٤٩].

* أعد الله لهم هذا النعيم ثواباً ومجازاة على ما قدموا في الدنيا من صالح القول والعمل.

* ولا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً، ولا باطلاً أو كذباً، ولا يلحقهم إثم ما يسمعون، قال تعالى:﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ ﴾[مريم: ٦٢].

* لا يسمعون إلا سلام الله تعالى عليهم، أو ملائكته، أو سلام بعضهم على بعض، قال تعالى:﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾[يس: ٥٨]، وقال:﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[الرعد: ٢٣- ٢٤]، وقال:﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾[إبراهيم: ٢٣].

* وأمَّا أصحاب اليمين، فما أدراك ما هم، وما حالهم، وكيف مآلهم ؟.

=والكسائي، بكسر الزاي: ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ ﴾، والمعنى: لا ينفد شرابهم كما ينفد شراب أهل الدنيا، وقرأ الباقون بفتح الزاي: " ولا ينزَفون "، والمعنى: لا تذهب عقولهم بشربها. حجة القراءات، ابن زنجلة ٦٩٤.

(١) هذا المعنى أفادته قراءة الرفع؛ وهي قراءة الجمهور، أما قراءة الجر: «وحورٍ عينٍ »، وهي قراءة حمزة والكسائي، فالتقدير: في جنات النعيم وفي حور عين. الكشف، مكي بن أبي طالب ٢/ ٣٠٤.

* هم في جنات فيها شجر النَّبق المورق الذي خُضد شوكه وقطع، وجعل مكانه الثمر الطيب.

* وفيها شجرة الطلح المتراكبة الثمر، الذي نُضد حمله من أسفله إلى أعلاه(١).

عن عتبة السلمي ﷺ قال: كنت جالسا مع رسول الله ﷺ فجاء أعرابي، فقال: يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجراً أكثر شوكا منها - يعني الطلح - فقال رسول الله ﷺ: " إن الله جعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود..."(٢).

* وفي ظل دائم لا يزول، قال تعالى:﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾[النساء:٥٧]، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام، اقرؤوا إن شئتم:﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ ﴾[الواقعة: ٣٠]"(٣).

* وفي ماء من أنهار الجنة يسكب لهم، قال تعالى:﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[محمد: ١٥].

* وفي فاكهة متنوعة كثيرة لا تنقطع في وقت من الأوقات، ولا تمتنع على مَن أردها في أي وقت، بل هي معدة لمَن أرادها، قال تعالى: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٣].

* ويجلسون على فرش مرفوعة على الأسرة(٤)، قال تعالى:﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾[الرحمن: ٥٤]، وعن النبي ﷺ في قوله: ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ﴾» [الواقعة: ٣٤]

(١) وقيل المراد بالطلح الموز. صحيح البخاري ٢/ ١١٢١. قال ابن عاشور: والامتنان به على هذا التفسير امتنان بثمره، لأنه ثمر طيب لذيذ، ولشجره لما فيه من حسن المنظر، ولم يكن شائعا في بلاد العرب لاحتياجه إلى كثرة الماء. التحرير والتنوير: ٢٧/ ٢٧٥.

(٢) المعجم الكبير، الطبراني ١٧/ ١٣٠، مجمع الزوائد، الهيثمي ١٠/ ٤١٤.

(٣) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٢٥٢)، سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ٩/ ١٢٨.

(٤) وقيل المعنى: ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهن وكمالهن. المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٤٤.

قال: « إن ارتفاعها لكما بين السماء والأرض»[١].

* ولهم في الجنة نساء من الحور ابتدأنا خلقهن ابتداء، وأبدعناهن إبداعا فريدا لم يسبق[٢].

* فصيرناهن عذارى، قال تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾[الرحمن: ٥٦]، وكلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا، قال ﷺ: «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عُدن أبكارا»[٣].

* وهنَّ متحببات إلى أزواجهنَّ، عواشق لهم، متساويات في السِّن والحسن، قال تعالى: ﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ ﴾[النبأ: ٣٣].

* أنشأناهنَّ وصيَّرناهن أبكارا لأصحاب اليمين في الجنة، الذين هم جماعات كثيرة من الأمم الماضية، وجماعات كثيرة من الأمم اللاحقة من أمَّة محمد ﷺ.

* وأمَّا أصحاب الشمال الأشقياء، فما أدراك ما هم، وما حالهم، وكيف مآلهم ؟.

* هم في النار في ريح حار، وماء شديد الحرارة؛ فالهواء الذي يستنشقونه سموم، والماء الذي يشربونه حميم:﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾[الرحمن: ٤٤].

---

(١) سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ٩/ ١٢٨.

(٢) وقيل المراد: نساء الدنيا، ينشئهن الله أبكارا عذارى أترابا، إذ كانت الواحدة منهن في الدنيا عجوزا رمصاء، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ ﴾ [الواقعة:٣٥]، قال: «إنَّ من المنشآت عجائز كنَّ في الدنيا عمْشاً رمْصاً». سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ٩/ ١٣٠، تفسير ابن أبي حاتم: ١٠/ ٣٣٣٢.

وعلاقة هذه الآية بسابقتها أنه لمَّا جرى ذكر الفرش يخطر بالبال مصاحبة الحور العين عليها، فيتشوف إلى وصفهن، فكانت جملة: ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ ﴾ بياناً؛ لأن الخاطر بمنزلة السؤال، فضمير المؤنث من: ﴿ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ عائد إلى غير مذكور في الكلام، ولكنه ملحوظ في الأفهام. التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٧٦. بتصرف.

(٣) المعجم الكبير، الطبراني ١٧/ ١٣٠.

* وفي ظل من دخان شديد السواد، يصيبهم من حره ما يغلي دماغهم، ليس بارداً يستروحون به من شدة الحر، وليس بحسن المنظر يسر به مَن يستفيء بظله، كما قال تعالى: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ ﴾[المرسلات: ٣٠- ٣١].

* استحقوا ذلك؛ لأنهم كانوا في الدنيا منعمين مقبلين على الشهوات والملذات، لا يأبهون بما جاءت به الرسل، وشغلهم الترف فأعرضوا عن الإيمان بالله ورسله(١).

* وكانوا في إصرار دائم على الذنوب العظيمة؛ من كفر بالله، وشرك، وأيمان يقسمونها كذبا على أن لا بعث ولا نشور.

* وكانوا يعتقدون استحالة أن يبعثوا بعد موتهم وصيرورتهم ترابا، قائلين: كيف نبعث إذا متنا وصرنا أجساداً بالية وعظاماً نخرة، بل كيف يبعث آباؤنا وأجدادنا الأولون ؟!

قال تعالى:﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾[الرعد: ٥].

* أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين سيُجمعون إلى ساحة القيامة في يوم معلوم الأجل لا يتقدم ولا يتأخر، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المرسلات: ٣٨].

* ثمَّ إنكم أيها الضالون عن الحق والهدى، المكذبون بالبعث:

* ستأكلون في الآخرة من أخبث الشجر؛ شجر الزقوم المر الكريه الطعم والمنظر، الذي ينبت في أصل الجحيم، فمالئون منه بطونكم لغلبة الجوع عليكم.

* ثمَّ تشربون فوقه الماء الحار الذي اشتد غليانه، قال تعالى:﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾[الدخان: ٤٣ - ٤٦].

---

(١) ينبغي أن يفهم أن المقصود بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٥] التوسع في الحرام وما لا يحل، أما التوسع في الحلال فجائز، ولا عقوبة عليه. تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٥٣.

* فشاربون شربا لا ينقطع كشرب الإبل العطاش التي لا تروى لداء يصيبها.
* هذا هو الرزق والنزل الذي هيئ لهم يوم الجزاء على أعمالهم، كالنُّزل الذي يعد للأضياف قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾[الكهف: ١٠٢].

ثالثاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* وقوع القيامة أمر لا ريب فيه، ولا يملك أحد رده أو دفعه.
* على المسلم أن يحذر أسباب الخفض في الآخرة، ويرغب في أسباب النجاة والرفع.
* الإيمان والتقوى يرفعان صاحبهما، والشرك والمعاصي يخفضان أهلهما.
* كون الناس عند قيام الساعة ثلاثة أصناف وهي: السابقون، وأهل اليمين، وأهل الشمال.
* السابقون إلى الإيمان، والطاعة، والجهاد، والتوبة... هم المقربون بين يدي الله تعالى.
* جنات السابقين المقربين خالية من الآفات والكدورات المنغصة لساكنيها.
* لأصحاب اليمين في الجنة نعيم لا ينقطع جزاء إيمانهم، وهم فيها جماعة عظيمة من الأمم السابقة واللاحقة.
* لأصحاب الشمال ألوان من العذاب في الآخرة؛ لأنهم كانوا في الدنيا في ترف أبعدهم عن الله تعالى، وكانوا يصرون على الكبائر، وكانوا ينكرون البعث.
* الجزاء من جنس العمل.
* في الآخرة تقام موازين الحق، ولا يرجح بأحد حسب ولا نسب، وإنَّما الإيمان والتقوى.

المقطع الثاني

دلائل البعث والجزاء

قال تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٥٧ - ٧٤].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

محور السورة هو البعث والجزاء - كما سبق - وهذا المقطع له تعلق كبير به؛ إذ يستعرض دلائل الإيمان بالبعث وفق منهج القرآن في عرض قضايا العقيدة، « فهو يتخذ مادته من البيئة المحيطة بالمخاطبين ومن مشاهداتهم اليومية، ثم يعرض آثار القدرة الإلهية المبدعة، ودلائل الإيمان بطريقة تحرك قلوب المشاهدين لينظروا في أصل خلقتهم، وفي زرعهم الذي تزاوله أيديهم، وفي الماء الذي يشربونه، وفي النار التي يوقدونها»(١).

وبهذه المشاهد البسيطة التي تدخل في تجارب الإنسان ينشئ القرآن عقيدة البعث؛ لأنه يخاطب كل إنسان في بيئته، فلا تملك نفسه حيال تلك المشاهدات إلا أن تنزه ربها، وتعترف بقدرته على البعث والجزاء.

ثانياً: المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لمّا ذكر تعالى في المقطع السابق أصناف الناس عند قيام الساعة، ومآل كل صنف، وذكر ما

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٤٦٦ بتصرف.



يلقاه السابقون وأصحاب الميمنة من نعيم مقيم، وما أعد لأصحاب المشأمة من سموم وحميم، وأن ذلك إنما نالهم لأنهم أشركوا بالله، وأنكروا بعثهم وآباءهم الأولين، وأمر الله رسوله ﷺ أن يخبرهم أنه تعالى باعث جميع الأولين والآخرين، أردف هنا بإبطال نفيهم البعث، بالاستدلال بالبراهين القاطعة على إمكانه[1].

ثالثاً: التفسير الإجمالي للمقطع:

تعرض آيات هذا المقطع شواهد الألوهية ودلائل القدرة الربانية على البعث في فقرتين:

الأولى: دليل الخلق، وتقرير النشأة الآخرة قياساً على النشأة الأولى.

والثانية: دليل العناية والإمداد بالرزق.

* نحن ابتدأنا خلقكم الأول بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا، فهلا تصدقون بالبعث الذي هو الخلق الثاني! إن مَن قدر على الإبداء قادر على الإعادة بطريق الأولى؛ لأنها أهون، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧].

* خبروني أيها المنكرون قدرة الله على إحيائكم عمَّا تصبونه من النطف في أرحام نسائكم.

* أأنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه وتصورونه وتجعلونه بشرا سويا أم نحن الخالقون؟

* نحن قسمْنا الموت بينكم أيها الناس، فعجَّلناه لبعض، وأخرناه عن بعض، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[الأنبياء: ١٠٤]، وما نحن بعاجزين على ما قدَّرنا من آجالكم، فلا يتقدم شيء أجلناه ولا يتأخر، قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾[فاطر: ١١].

* ونحن قادرون على أن نذهبكم ونبدل منكم أمثالكم بعد مهلككم، ونخلق مكانكم أشباهكم.

---

(١) تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي ٩/ ١٤٥.

* ولسنا بعاجزين أن نعيدكم يوم القيامة في خلقة من الصور والهيئات التي لا تعلمونها، ولا تصل إلى عقولكم.

* ولقد عرفتم أن الله أنشأكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا، فخلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة[١]، فهلا تتذكرون أنَّ الذي أنشأكم النشأة الأولى قادر على النشأة الآخرة، قال تعالى: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾[مريم:٦٧]، وقال:﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾[يس:٧٩]، وقال:﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾[القيامة: ٣٦ - ٤٠].

* أخبروني عن البذر الذي تلقونه في الأرض بعد تحريكها وتسويتها[٢].

* أأنتم تجعلونه زرعاً، ثم تنمونه وتنشئونه حتى يصير مدركاً صالحاً للأكل، أم نحن نُنبته في الأرض بقدرتنا، حتى نصيِّره زرعا ؟! قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾[الروم:٥٠].

* لو نشاء لأيبسناه وجعلناه هشيماً متكسراً، لا ينتفع به في طعام ولا غيره، فصرتم تعجبون

---

(١) وقيل المراد بالنشأة الأولى: خلق آدم من تراب. جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٤٧.

(٢) هذا هو الدليل الثاني، وهو دليل العناية والإمداد بالرزق، وقد احتوى على ثلاث حجج تتناسب جميعها في أن كلا منها مبدوء بقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم ﴾، كما تتناسب من حيث المضمون، فالحجة الأولى، وهي الإمداد بالمأكول مناسبة لدليل الخلق؛ وذلك أن الاستدلال بإنبات الزرع بعد الاستدلال بخلق النسل يعود إلى ما بينهما من التشابه البيِّن بين تحويل النطفة إلى جنين والحبة إلى نبات، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾ [نوح:١٧]، والحجة الثانية وهي الإمداد بالمشروب، مناسبة للحجة السابقة، وهي أن الحرث إنما ينبت زرعه وشجره بالماء، فانتقل من الاستدلال بتكوين النبات إلى الاستدلال بتكوين الماء الذي به حياة الزرع والشجر، والحجة الثالثة وهي النار، مناسبة للحجة السابقة، وذلك أن النار بها صلاح المطعوم. التحرير والتنوير، ابن عاشور٢٧/ ٢٨٨ وما بعدها.

من تحطيم زرعكم، وتتحسرون من سوء حاله ومما نزل به، نادمين على ما خسرتم في الإنفاق عليه، كما قال تعالى:﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾[الكهف: ٤٢].

* وتقولون: إنَّا لمحملون الغرم في إنفاقنا، وهالكون لهلاك أرزاقنا.

* أخبروني عن الماء الذي تشربونه عذباً فراتاً لتدفعوا عنكم العطش، وحياتكم متوقفة عليه.

* أأنتم أنزلتموه من السحاب، وجعلتموه عذبا صالحا للشرب، أم نحن المنزلون بقدرتنا دون غيرنا. فكيف لا تصدقون بالبعث ؟!

* لو نشاء لجعلناه شديد الملوحة، لا يصلح لشرب ولا زرع، فهلا تشكرون ربكم، حيث أنزل لكم ماء:﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾[النحل: ١٠- ١١].

كان ﷺ إذا شرب قال: « الحمد لله الذي جعله عذبا فراتا، ولم يجعله ملحا أجاجا»[(١)].

* أخبروني عن النار التي توقدونها من الشجر.

* أأنتم الذين خلقتم شجرها التي توقد منها[(٢)]، وأوجدتموها من العدم أم نحن المنشئون لها بقدرتنا ؟ قال تعالى:﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[يس: ٧٨ - ٨٠].

* نحن جعلنا هذه النار تذكرة لكم، إذا رأيتموها تذكرتم حرَّ نار الآخرة، فتخشون ربكم

(١) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٢٦٥)، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٤.
(٢) كان للعرب شجرتان يقدحون بهما النار هما المرخ والعَفَار؛ فكانوا يأخذون غصنا من المرخ ويحكونه بغصن من العفار، فتخرج من بينهما النار. أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٢٤٨.

وتخافون عقابه، وجعلناها بلغة للمسافرين النازلين بالخلاء من الأرض، يتبلّغون بها في سفرهم حتى يعودوا إلى ديارهم[1]، ولينتفع بها سائر الخلق، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنَّه قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم»[2].

* فنزِّه ربك العظيم الذي بقدرته خلق هذه الأشياء، وقل: سبحان مَن خلق هذه الأشياء بقدرته، وسخرها لنا بحكمته، سبحانه ما أعظم شأنه، وأكبر سلطانه.

رابعاً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الله تعالى قادر على بعث الخلق بعد موتهم، فكما قدر على البدء فإنه قادر على الإعادة من باب أولى.
* إذا كان الموت واقعا في زمن لا نعلمه، فينبغي أن لا يتكل الإنسان على طول المدة، أو يغفل عن إعداد العدة.
* الماء أصل الحياة، وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدَّر الله، ولولا أنَّ الله جعله عذبا فراتا لم يحصل الانتفاع به.
* على الناس أن يشكروا الله على نعمه التي لا تحصى ويتعظوا، فكما أنه تعالى يجعل الزرع حطاما إذا شاء، فكذلك يهلكهم إذا شاء فقدرته تعالى لا حدود لها.
* في نار الدنيا عبرة وعظة للمتقين.
* وجوب تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به.

---

(١) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٥/ ٢٥٢.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٣٢٦٥)، صحيح مسلم، الحديث رقم (٢٨٤٣).

المقطع الثالث

تعظيم القرآن الكريم وصدق ما أخبر به

قال تعالى:﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾
إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾
وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ
﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾
وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ
﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾
[الواقعة: ٧٥ - ٩٦].

أولاً: المناسبة بين هذا المقطع وبين محور السورة:

تقدم أن محور السورة هو تقرير البعث والجـزاء، وهذا المقطع له تعلق كبير به؛ وبيان ذلك أن الكفار لما أنكروا ما أخبرهم به القرآن من أمر البعث، وقالوا:﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[الواقعة: ٤٧]، فلما عدوه محالا، وكان إثباته من أهم ما جاء به القرآن، قامت الحجة على خطئهم، وتبين صدق ما أنبأهم به القرآن، فتهيأ المقام للتنويه بشأنه[1].

ثانياً: المناسبة بين هذا المقطع وبين المقطع السابق:

لهذا المقطع تعلق بسابقه من وجهين:

الأول: أن الله تعالى ذكر في المقطع السابق الأدلة والبراهين على الوحدانية والبعث والنشور، وهنا أعقب بذكر الأدلة على النبوة، ومصدر الرسالة، وصدق هذا القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ، وأنه ليس كما يزعم المشركون قول شاعر أو كاهن. بل هو قول رب العالمين، قال

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣٠٠، ٣٠١.

ابن عاشور: « الفاء في:﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ ﴾[الواقعة: ٧٥] لتفريع القسم على ما سبق من أدلة وقوع البعث؛ فإن قوله:﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] إخبار بيوم البعث، وإنذار لهم به، وهم قد أنكروه، ولأجل استحالته في نظرهم القاصر كذبوا القرآن، وكذبوا ما جاء به، ففرَّع على تحقيق وقوع البعث، والإنذار به تحقيق أن القرآن منزه عن النقائص، وأنه تنزيل من الله، وأن الذي جاء به مبلغ عن الله»[1].

والثاني: أن كلا المقطعين ختم بالأمر بتنزيه الله تعالى، قال تعالى فيهما: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[الواقعة: ٧٤، ٩٦].

ثالثاً: سبب نزول الآيات:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مُطر الناس على عهد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة وضعها الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، فنزلت هذه الآيات:﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ ﴾[الواقعة: ٧٥] حتى قوله: ﴿ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٢][2].

رابعاً: المعنى الإجمالي للمقطع:

يحتوي هذا المقطع على ثلاث قضايا:

الأولى: فيها إثبات النبوة وصدق القرآن وعلو شأنه.

والثانية: فيها توبيخ الضالين المكذبين على جحود النعمة، وجعل التكذيب موضع الشكر.

والثالثة: فيها بيان لمصائر الناس عند الاحتضار.

---

(١) المصدر السابق: ٢٧/ ٣٠١.

(٢) صحيح مسلم، الحديث رقم (٧٣)، سنن الترمذي، بشرح المباركفوري ٩/ ١٢٩، تفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٣٤، أسباب النزول، الواحدي ٣١٨، ٣١٩.

* فأقسم بمساقط النجوم وبروجها، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ ﴾[النجم: ١][١].

* وإنَّه لقسم عظيم لو عرفتم عِظم مواقع النجوم، وسعة هذا الكون، الدالة على عظيم قدرة الله، وفرط رحمته بكم[٢].

* إن هذا القرآن[٣] - الذي أنزل على محمد ﷺ، وأخبركم بأمر البعث - لكريم على الله، كرمه

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ ﴾، تكون "لا" زائدة مؤكدة في قول أكثر المفسرين، والمعنى: فأقسم بمواقع النجوم، كما في قوله: ﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الحديد:٢٩]، وقال الشاعر:

تذكرت ليلى فاعترتني صبابة وكاد نياط القلب لا يتقطع

أي: كاد يتقطع. وقيل: «لا» هي نفي، والمنفي محذوف، والمعنى: أي ليس الأمر كما زعمتم، إن القرآن سحر أو كهانة أو شعر أو أساطير الأولين، ثم استأنف فقال: فأقسم. البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢١٢، صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٣١٤.

وقيل المراد ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ أوقات نزول القرآن، فقد كان ينزل منجما على النبي ﷺ، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ ﴾ فعاد الضمير على ما يفهم من قوله: ﴿ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾، أي نجوم القرآن. تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٥٨، ٣٥٩، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢١٣.

(٢) قال سيد قطب: ولم يكن المخاطبون يوم ذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل، الذي يدركونه بعيونهم المجردة، ومن ثم قال لهم: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾ [الواقعة:٧٦]، فأما نحن اليوم فندرك من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به نصيبا أكبر بكثير مما كانوا يعلمون، وإن كنا نحن أيضا لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم، وهذا القليل الذي وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة، المحدودة المناظير، يقول لنا: إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدودا مجموعة واحدة وهي المجرة التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية تبلغ ألف مليون نجم. في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٧٠.

(٣) هذا هو جواب القسم: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ ﴾ [الواقعة:٧٧]، قال ابن القيم: " المناسبة بين ذكر القسم بمواقع النجوم وبين المقسم عليه، وهو القرآن: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي، فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية فجمع بين الهدايتين، والنجوم آياته المشهودة المعاينة، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في=

ورفع قدره على جميع الكتب، كريم لما فيه من دعوة إلى كريم الأخلاق ومعالي الأمور، كريم لما فيه من الهدى والبيان والخبر الصادق، والعلم والحكمة والخير النافع.

* وهو مصون عند الله، مستور محفوظ عن الباطل والتغيير والتبديل.

* ولا يمسه إلا المطهرون المنزهون عن دنس الأرجاس، وهم الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾[عبس: ١٣- ١٦].

ولا يمسه إلا مَن كان متوضئا طاهراً من الجنابة والحدث[(١)].

=مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول ". بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية، يسري السيد محمد ٤/ ٣٥٩.

(١) في معنى قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[الواقعة:٧٩] اختلاف بين المفسرين، فمنهم من قال: إن (لا) نافية، و(المطهرون): الملائكة، والتقدير: لا يقربه ولا يطلع عليه إلا المنزهون من الحظوظ النفسية، وهم الملائكة، وقيل: إنه خبر بمعنى النهي، والمعنى لا يمس القرآن إلا المطهرون من الأحداث، فيكون نفيا بمعنى النهي. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٢١.

وقد ورجح ابن القيم القول الأول وانتصر له، فقال: " اختلف المفسرون في هذا: فقيل هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [عبس:١٣- ١٦]، ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة:٧٩]، فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه، وهذا هو الصحيح في معنى الآية، ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر، والأول أرجح الوجوه؛ **أحدها**: أن الآية سيقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون، فيستحيل على أخابث خلق الله، وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [الشعراء:٢١٠ - ٢١٢]، **والوجه الثاني**: أن السورة مكية، والاعتناء في السور المكية، إنما هو بأصول الدين، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة، وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية، **والوجه الثالث**: أن القرآن لم يكن كله في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ، وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر ﷺ، **والوجه الرابع**: وهو قوله: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ والمكنون المستور لا تناله أيدي البشر، قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات:٤٩]. وهكذا قال=

كما جاء في كتاب رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم ﷺ: " وأن لا يمس القرآن إلا طاهر»(١).

* وهو منزل من عند الله رب العالمين، فهو كلامه، وليس بقول ساحر أو كاهن أو شاعر، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[الحاقة: ٤١ - ٤٣].

* أفأنتم شاكون في القرآن، وفيما أخبركم به من أمر البعث، تمالئون أهل الكفر، وتركنون إليهم كمن يدهن في الأمر، ويلين جانبه تهاونا به ؟ !

* وتجعلون شكر ما أنعم الله به عليكم من المطر(٢) أنكم تكذبون بنعمه وبالبعث، وبما دل

=السلف، **والوجه الخامس**: أنه قال: ﴿ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة:٧٩]، ولم يقل إلا المتطهرين، ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إلا المتطهرون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢]". بدائع التفسير: ٤/ ٣٦٣، ٣٦٤.

(١) فضائل القرآن، أبو عبيد ٢٤٤، المصنف، عبد الرزاق الصنعاني ١/ ٣٤١، المستدرك، الحاكم ١/ ٣٩٥، وصححه ووافقه الذهبي. إرواء الغليل، الألباني ١/ ١٥٨. قال محمد بن إسماعيل بن الأمير الصنعاني: «وكتاب عمرو بن حزم تلقاه الناس بالقبول؛ قال ابن عبد البر: إنه أشبه المتواتر لتلقي الناس له بالقبول، وقال يعقوب بن سفيان: لا أعلم كتابا أصح من هذا الكتاب، فإن أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين يرجعون إليه ويدعون رأيهم، وقال الحاكم: قد شهد عمر بن عبد العزيز وإمام عصره الزهري بالصحة لهذا الكتاب... ولكنه يبقى النظر في المراد من الطاهر؛ فإنه لفظ مشترك يطلق على الطاهر من الحدث الأكبر، والطاهر من الحدث الأصغر، ويطلق على المؤمن، وعلى مَن ليس على بدنه نجاسة، ولا بد لحمله على معين من قرينة، وأما قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾، فالأوضح أن الضمير للكتاب المكنون الذي سبق ذكره في صدر الآية، وأن ﴿ ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾هم الملائكة ". سبل السلام: ١/ ١١٠.

(٢) القول المشهور في معنى الرزق في قوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الواقعة:٨٢] هو المطر، والتكذيب هو قولهم: مطرنا بنوء كذا، وقد ثبت هذا المعنى بالحديث المذكور في سبب النزول، وقيل: إن معنى الرزق في الآية الهداية التي أعطاهم الله تعالى بالقرآن، والمعنى: وتجعلون شكر ما رزقكم الله من إنزال القرآن عليكم تكذيبكم به، فكأن الله تعالى لما أنزل القرآن، وبين لهم طريق الحق به فكذبوه وأنكروا، سمى ذلك البيان رزقاً، وجعل تكذيبهم كفراناً لهذا الرزق، وقيل: المعنى جعلوا حظهم من=

عليه القرآن، فتضعون التكذيب موضع الشكر.

* إن التكذيب هو رزقكم الذي تحصلون عليه في حياتكم وتدخرونه لآخرتكم ؟.

* فهلا إذا وصلت الروح وقت النزع الحلقوم، وأنتم حينئذ إلى جانب المحتضر، ترونه قد قارب فراق الحياة، وترون ما يكابده من سكرات الموت...

* ونحن بعلمنا وقدرتنا، وبملائكتنا أقرب إليه منكم، ولكن لا ترون، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[الأنعام: ٦١].

* فهلا تردونها إلى بدنها عمّا هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء إن كنتم صادقين في زعمكم ألا بعث، وأنكم غير مدينين.

* فأما إن كان المحتضر من السابقين إلى فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات، فله راحة[1]، وطمأنينة، ورزق واسع ونعيم في الجنة.

* وأما إن كان من أهل اليمين، فتبشره الملائكة قائلة: سلام لك من إخوانك أصحاب اليمين، قال تعالى:﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[فصلت: ٣٠][2].

= القرآن التكذيب. تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٦٠، ٣٦١.

(١) ورد في لفظ ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [الواقعة:٨٩] قراءتان، الأولى: «فَرَوح» بفتح الراء، وهي قراءة الجمهور، أي الراحة، والمعنى: هو في رَوح وراحة، والثانية: «فرُوح» بضم الراء، وهي قراءة يعقوب، ومعناها: أن روحه معها الريحان، وهو الطيب، وقيل: الرُّوح هو الرحمة. الكتاب الموضح، ابن أبي مريم ٣/ ١٢٣٤، النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٣٨٣.

(٢) والكاف في قوله: «لك» على هذا المعنى موجهة لغير معين، وقيل الخطاب للنبي ﷺ؛ لأنه يسر بما يناله أهل الإسلام من الكرامة عند الله، وقيل: الكلام على تقدير القول، أي يقال له: سلام لك، أي تقول له الملائكة، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد:٢٣، ٢٤]. التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٣١٨.

* وأما إن كان من المكذبين الضالين عن الهدى ودين الحق، وهم أصحاب الشمال، فله ضيافة من الماء الحار، ويصلى نار جهنم في الآخرة.
* إنَّ هذا الخبر وما جاء في هذه السورة من أمر البعث وغيره لهو محض اليقين، والحق الثابت الذي لاشك فيه، ولا محيد لأحد عنه.
* فنزِّه اللهَ عما لا يليق به لما علمت من آثار قدرته، واستبان لك الحق، وظهر لك اليقين(١).

خامساً: الهدايات المستنبطة من المقطع:

* لله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم إلا بربه عز وجل.
* القسم بمواقع النجوم تنبيه على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وسعة خلقه.
* القرآن الكريم كلام الله، وهو معجزة الرسول ﷺ الخالدة، وليس بشعر ولا بسحر....
* القرآن الكريم «لا يدرك معانيه أو يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي»(٢).
* القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين تنزلت به الملائكة الأطهار، ولم تتنزل به الشياطين، ولا ينبغي أن يمسه إلا طاهر. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن الآية:﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ ﴾[الواقعة: ٧٩] تدل على الحكم من باب الإشارة، فإذا كان الله تبارك وتعالى يخبر أن الصحف المطهرة في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فالصحف التي بأيدينا كذلك ينبغي ألا يمسها إلا طاهر»(٣).

---

(١) روي أنه لَمَّا نزل: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٩٦ ﴾ [الواقعة:٩٦]، قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، ولَمَّا نزل: ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ﴾ [الأعلى:١]، قال: «اجعلوها في سجودكم». سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث ١/ ٢٩٢.

(٢) بدائع الفوائد الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية، يسري السيد محمد ٤/ ٣٦٦.

(٣) مجموع الفتاوى:١/ ٥٦، بدائع الفوائد، يسري السيد محمد ٤/ ٣٦٥.

* القرآن الكريم محفوظ عن التغيير والتبديل والباطل؛ لأن الله تكفل بحفظه.
* القرآن الكريم أحكامه كلها عدل، وأخباره كلها صدق.
* حرمة المداهنة في دين الله بأن يتنازل العبد عن شيء من الدين ليحفظ شيئا من دنياه.
* الموت نهاية كل حي، والمؤمن الحق لا يغفل عن ذكره.
* الدنيا دار عمل وسعي والآخرة دار جزاء وحساب.
* عجز الناس جميعا أمام قدرة الله تعالى.
* الاشتغال بالثناء على الله وتسبيحه وتقديسه يوصل إلى درجات المقربين.


تفسير
مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

الفهرس



Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com


جامعة الشارقة
1997
UNIVERSITY OF SHARJAH


تفسير
مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies